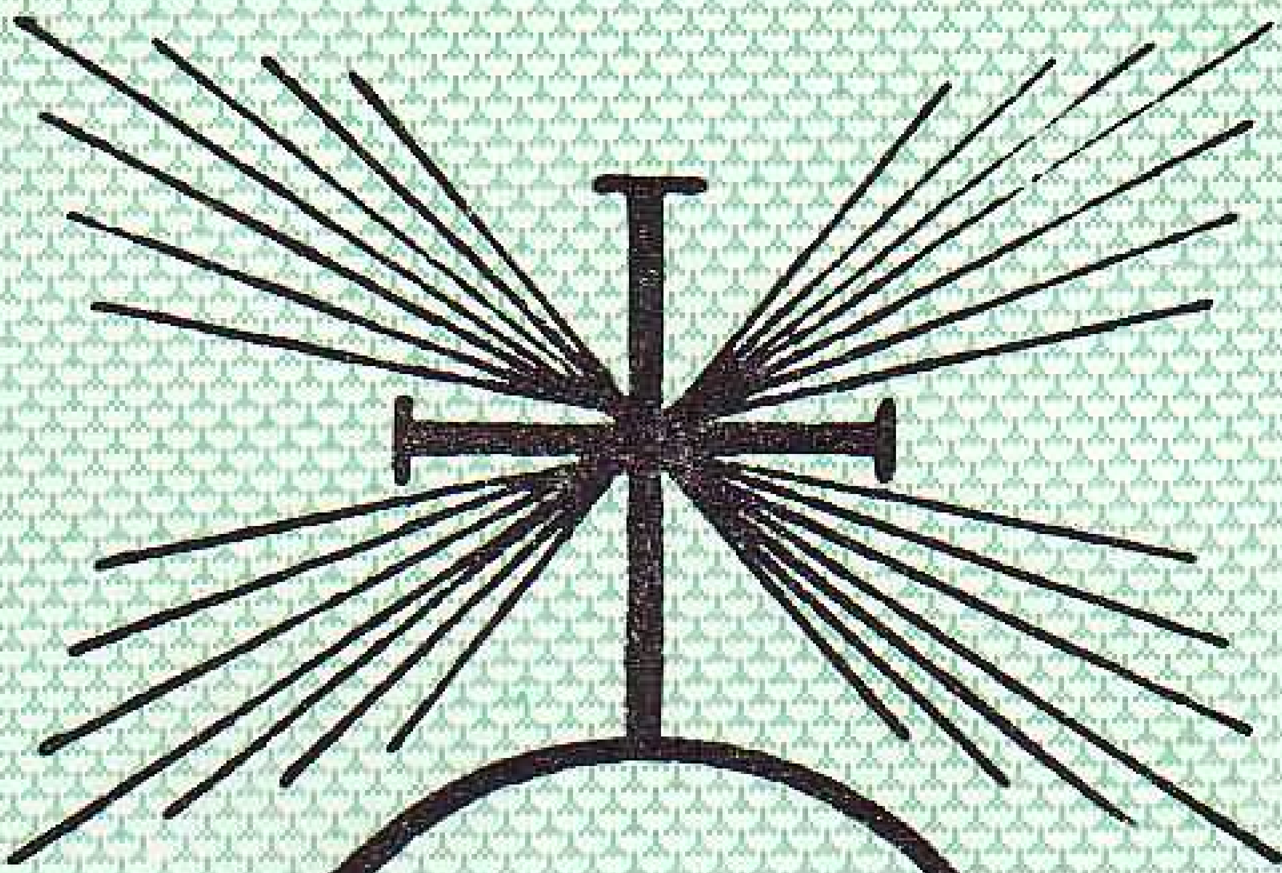


قصة الكنيسة القبطية

وهى تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية

التى أسسها

مارمرقس البشير

الكتاب الرابع

بقلم

ايريس حبيب المصرى

قصة الكنيسة القبطية

من سنة ١٥١٧ - ١٨٧٠م

الكتاب الرابع

١٩٩٢

ايريس حبيب المصري

الاهــداء

إلى أختي ثريا

ذات الأغوار الروحيـــة العميقة

حنينـــاً مني

إلى مناقشاتهـا ومداعباتهـا

وإلى عينيها اللتين كانتا تتطلعان دوماً إلى فوق



اختنا العزيزة الاستاذه ايريس حبيب المصرى

نعمة وبركة وسلام من الله لشخصك العزيز ولكل افراد الاسرة .

راجعت الجزء الأخير من كتابك القيم قصة الكنيسة القبطية وامتلأت سرورا للنهاية المبدعة التى ختمت بها كتابك بهذا الجزء النفيس ، وانى اعتقد انك قمت بدور خالد فى خدمة كنيستك المجيدة ، فكنت دون ان تدرى علامة بارزة على طريقها الإلهى الخالد وصوتا شجاعا امينا يربط اصوات الماضى بتطلعات المستقبل ، وهكذا كما كنت امينة فى تكريم عظماء كنيستك فسوف تكرم الكنيسة اسمك الى مدى الأجيال .

وتحية لك مع الدعاء من برية القديس انبا مقار

✝
القمص متى المسكين
٧٤/١٠/٢٠

الاعتراف بالفضل لذويه

من نعمة الله أنه قد هيأ لى الفرصة للسير بقصة الكنيسة القبطية إلى عهد الأنبا ديمتريوس الثانى البابا الأسكندرى الحادى عشر بعد المئة .

ومن نعمته أيضاً أنه أتاح لى الفرص للاطلاع الواسع . وكان بعض هذه الفرص يبدو كأنه صدفة إذ وجدت الكتاب أو المخطوط عن غير قصد . ولكن آباء الكنيسة التى تابعت قصتها قد أكدوا أنه ليست هناك صدفة للعاملين مع الله ، فما يبدو صدفة ليس سوى ترتيب خفى . فشكرى بلا انقطاع أرفعه إلى رب المجد .

ومع شكره تعالى على نعمته الجزيلة أشكره أيضاً على الخدمات التى شاء أن يقدمها لى العاملون الأوفياء . لهذا أقدم شكرى إلى جناب أبينا القمص متى المسكين لاستمراره على مراجعة مخطوطاتى وعلى توجيهاته البناءة فى كل مناسبة .

وأشكر جناب أبينا القمص بيشوى كامل لمداومته على تشجيعى وتوجيهى .

كذلك أشكر الدكتور وليم سليمان لتفضله بإعارتى العدد الوفير من كتبه الخاصة ولتوصيلى إلى الكتب النافعة فى المكتبات العامة .

كما أشكر الأستاذ كمال رزق أستاذ اللغة الألمانية لخدماته الكثيرة .

ومرة أخرى أنتهز الفرصة لأبعث بالشكر إلى روح أستاذى يسى عبد المسيح .

مع شكرى لأصحاب الفضل علىّ أكرر تشكراتى الوفيرة للآب السماوى .

ايريس حبيب المصرى

تمهيد

لم أكن أدرى يوم بدأت بكتابة « قصة » الكنيسة القبطية إلى أى مدى ستخلبنى بكل ما فيها من أعاجيب . والحق أننى كلما تماشيت مع هذه القصة وجدتنى أغوص فيها أكثر فأكثر مبتهجة بهذا الغوص . فلما وصلت إلى العصر التركى وجدتنى أردد تلقائياً وعن غير قصد ذلك البيت الشعرى المأثور :

وإنى لتعرونى لذكراك هزّةٌ   كما انتفض العصفور بلله القطر

ذلك لأن العصر التركى أصدق شاهد على سر الحيوية التى أودعها الله داخل كنيسته المصرية فمكنها من اجتياز ظلمته والوصول إلى فجر جـــديد . ومع ما احتوته العصور الأولى من أعلام ساطعين فالعصور الوسطى قد أعطتنا نماذج رائعة من الآباء الذين انعكس خلالهم نور الله .

ولقد آن الأوان لأن نستضىء نحن بهذا النور الإلهى المنعكس عنهم .



منحدر شاهق

أ ـ أنبا غبريال السابع

١ — ظلمة وإقفار
٢ — انتخاب البابا المرقصى
٣ — دوس من السماء
٤ — تعمير ديرى الصحراء الشرقية
٥ — حكم الجوارح
٦ — غرور الحياة
٧ — تصالح الأم وابنتها
٨ — الانتهـــازية
٩ — ظلـــم مـــرير
١٠ — عرفان الجميل

١ ـ شاهدت بابوية الأنبا يؤنس الثالث عشر نهاية دولة المماليك الشراكسة إذ قد انتصر عليهم السلطان التركى سليم الأول . ومع أنهم كانوا رجال حرب وصدام إلا أن تحاسدهم وخيانتهم لبعضهم البعض مكنت العثمانيين منهم . وحينما انتهى الحكم المملوكى وبدأ الحكم التركى تحولت مصر من إمبراطورية مترامية الأطراف إلى بلد محكوم تابع لغيره . ولئن كان الحكم التركى غشوماً باطشاً سياسياً فغشامته وبطشه فى الناحية الحضارية كان مضاعفاً . لأن السلطان سليم الأول لم يستقر فى القاهرة بل اكتفى بقضاء بضعة أيام فيها عاد بعدها إلى بلاده . وبذلك هبطت هذه العاصمة الكبرى وفقدت رونقها ومكانتها . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، لأن السلطان حين قرر العودة أمر بترحيل المهرة من الصناع والحرفيين والفنانين إلى تركيا لينتفع هو بمواهبهم ومهارتهم ! ويقدّر بعض المؤرخين أنه أخـــذ معه ألفاً من هؤلاء المنتخبين بينما يرتفع البعض الآخر بالعدد إلى ألف وسبعمائة ، بل وأكثر : «وتأهب السلطان سليم للرحيل فسير أمامه ... والكتّاب من القبط وهم المعلم بانوب كاتب الخزينة السلطانية والمعلم يوحنا الصغير والمعلم أبو المكارم وغيرهم ... وكبار التجار وأرباب الصنائع مثل المهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والمرخمين وصغار الفعلة . . . قال بعض كتّاب الاخبار كان عدد من خرج زهاء ألف وثمانمائة وقيل بل أكثر من ذلك جداً . فكانت

شدة عظيمة للغاية »[1]. ويؤيد ابن أياس هذه الحقيقة بقوله : « وفى بدء إقامة ابن عثمان فى القاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل وبطل فيها نحو خمسين صنعة وتعطلت منها أصحابها ولم يعمل بها فى أيامه بمصر » .

ومن المؤلم حقاً أن الجهل بهذه الوقائع دفع بالمصريين إلى الزعم بأن صناعهم وحرفييهم أعجز عن الاتقان الذى للصناع والحرفيين العثمانيين حتى أنهم يعبرون عن أعجابهم بالعمل الفنى بقولهم : « دى صنعة اسطنبولى » !

ومن أكبر الشخصيات التى أخذها السلطان سليم الأول المعلم بركات كبير كتبة ديوان الملك الأشرف ولقد استطاع هذا القبطى أن يصل إلى مكانة مرموقة لدى السلطان لأنه كان متضلعاً من العلوم الهندسية والفلكية والرياضية إلى جانب درايته بالشئون المالية . فلما رآه سليم الأول عند السلطان الأشرف أعجب بذكائه وبسعة مداركه ومعارفه وأمره بالذهاب معه إلى القسطنطينية . فاضطر إلى ترك بلاده الحبيبة واستصحب معه أسرته . وهناك فى « المهجر » الإضطرارى وكل إليه سليم الأول تنظيم الأعمال المالية فى ديوانه . فخدم تركيا بقية حياته[2].

وهكذا استهل الترك حكمهم بتجريد مصر من مهرة عمالها وبالتالى بتقبيل الصناعات والإنتاج الفنى . ومرة أخرى ليت الأمر وقف عند هذا الحد ! لأنهم بعد أن قتلوا الصناعة تحولوا إلى البطش بالفلاحين وأحراق زراعاتهم أو دوسها بحوافر خيولهم . فحيثما أتجهت أبصارنا فى هذه الفترة الحالكة من تاريخنا لا تلق

---

(١) الكافى فى تاريخ مصر الحديث والقديم لميخائيل شاروبيم ج ٢ ص ٣٢ ، « تاريخ الأمة المصرية » (بالفرنسية) ، الكتاب الخامس « مصر التركية » لهنرى ديهيرن ص ٩ ، المجمل فى التاريخ المصرى لبعض أعضاء هيئة التدريس بكلية آداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة) لنشره حسن ابراهيم حسن — الفصل « تاريخ مصر فى العهد العثمانى لحسن عثمان ص ٢٤٤ » .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ١٢ .

غير الدمار والبوار . فلقد أجمع المؤرخون من أجانب ومصريين على أن الحكم التركي لم يفقد مصر استقلالها فحسب بل استهدف سحق شخصيتها الخاصة فرسفت بلادنا الحبيبة مدى ثلاثة قرون فى قيود من الذل السياسي والإقفار العلمي الفنى والفقر المادى (١) .

ولئن كان خصوم مصر لها اللوم ، ولئن امتلأت نفوس أبناء مصر توجعاً بأزاء هذا اللوم وبأزاء ما يرونه اليوم من نقص واضطراب فليذكر هؤلاء وأولئك أن أثر القرون لا ينمحى فى أيام ، وأن الضرورة موضوعة على المصريين ليضاعفوا الجهد ويضاعفوا السعى كى ينجحوا فى محو هذا الأثر البغيض فى أقرب فرصة . . .

---

(١) يعلق الكاتب الانجليزى موريل بل على هذه الفترة فيقول :

" . . . by the Mosque of Al - moayyad is **Bab Zaweila the** Turkish Sultan Selim hanged Toumän Bay **last of his race,** assumed the title of Caliph, and secured **Egypt to the** hated rule **of the** Turk. Three hundred **years pass before** us, leaving no trace on the map before us **but the ever-standing** Pyramids . . . From the time when the Turk **assumed sway** in Egypt until the day he lost it , history and art alike cease . The truimph of the Turk is marked **by** ruin, and **by** the moral, political, and social degradation ".

وترجمته ما يلى : وعلى مقربة من جامع المؤيد يقوم باب زويلة الذى أمر السلطان سليم بشنق طومان باى آخر المماليك من فوقه ، واتخذ لقب « خليفة » وأدخل مصر تحت حكم الترك البغيض . فتمر ثلاثمائة سنة أمامنا دون أن تترك أثراً على الخريطة غير الأهرامات الخالدة . . . ومنذ اليوم الذى تسلم فيه الترك السيادة على مصر إلى اليوم الذى فقدها فيه انتهى الفن والتاريخ . ويتسم انتصار الترك بالخراب وبالانحطاط الأدبى والسياسى والاجتماعى ، عن كتاب « من فرعون إلى الفلاح » ص ٤٤ و ١٨٠ — راجع أيضاً تاريخ مصر الحديث لمحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٣٥ ، دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العهد المملوكى لفوزى جرجس ص ١٨ حيث يقول : « بدخول العثمانيين بدأت بلادنا تنحدر نحو عزلة عميقة عن النشاط والتطور العالمى . . وأول ضربة وجهها العثمانيون إلى مصر هى اختلاس خيرة الصناع والحرفيين المصريين وتصديرهم إلى القسطنطينية ليطوروا الصناعة هناك ويهدموها فى مصر » .

٢ - وفى بداية هذا العصر الحالك اختير الأنبا غبريال السابع سنة ١٥٢٦م [1] ليجلس على السدة المرقسية .

ولقد ولد هذا البابا فى قرية «أبو عايشة» بالقرب من الدير المحرق ، ودعاه والده باسم جده روفائيل . ولكنه عاش فى مصر لأن أباه جرجس ميخائيل كان راعى بيعة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر العتيقة . فلما بلغ روفائيل أشده اشتاقت نفسه إلى الحياة الرهبانية ، فأطاع هذا الشوق ووجد من أبيه التشجيع على تنفيذه فترك مصر وانضم إلى دير السيدة العذراء المعروف بالسريانى محتفظاً فى رهبنته باسمه العلمانى «روفائيل» . فلما نال كرامة البابوية المرقسية استبدل اسم الملاك مطيِّب القلوب باسم الملاك حامل البشارة .

٣ - وكان صاحب الحكم إذ ذاك السلطان سليمان الذى خلف أباه سليم الفاتح على العرش . وكان هذا السلطان شديد الايمان بالتنجيم ، وله منجم يهودى يستشيره فى كل أموره . فسأله عما يمكن أن يعمله لتوطيد دعائم ملكه . أجابه هذا اليهودى بأن النصارى فى مصر وفى غيرها من بلاد الشرق الأوسط يشكلون خطراً على مملكته لأنهم قد يثورون عليه إرتكاناً على ملك الروم الذى سيجد الفرصة مواتية لمحاربة الدولة العثمانية . فصدق السلطان هذه التكهنات لساعته وأراد أن يصدر الأمر بقتل النصارى فى مختلف هذه البلاد . ولكن الآب السماوى الساهر دوماً على أولاده أنطق الوزير بيروز باشا الذى قال للسلطان : «إن الملك من الله ولمن أراد الله أن يعطيه إياه . فإن فعلت هذا خربت مملكتك» . فأعادت هذه الكلمات الصواب إلى السلطان وأوقفته عن الايقاع بالقبط وباخوتهم من نصارى الشرق [2] .

---

(١) التقويم فى هذا الكتاب من قصة الكنيسة يتبع السنة الغربية كى لا يحدث تضارب بين الأحداث الكنسية والأحداث السياسية فى التاريخ المصرى العام .

(٢) كتاب تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابى ص ٦٠٥ .

ويبدو أن الله تعالى أراد أن يلقن السلطان سليمان درساً بالغاً إذ قد اندلعت الثورة فى مصر فعلا ولكن بزعامة أحمد باشا الوالى الذى عينه السلطان بنفسه! وكان هذا الوالى المتمرد عاتياً ظالماً لم يهمه استمالة الشعب ليؤازره ضد سلطانه بل استعان بالرشوة وبالسخرة وباستنفاد قوى الشعب ما أمكنه. فكانت النتيجة أن سقط بسرعة وبخائبة أيضاً [١].

٤ - على أن الانبا غبريال السابع سار على خطة أسلافه : خطة المحافظة على الايمان والسعى إلى المحافظة على المؤمنين. ومن أعماله الهادفة إعادة بناء ديرى الانبا بولا والانبا أنطونى اللذين كانا قد خربهما عربان الصعيد. ولما أتم بناءهما طلب إلى رهبان دير السيدة العذراء (السريان) الذين هم إخوته فى الرهبنة أن يعيدوا الحياة الرهبانية إليهما. فذهب البعض منهم إلى دير الانبا بولا والبعض إلى دير الانبا أنطونى، وحملوا معهم عدداً من الكتب المقدسة لتكون نواة لمكتبتى الديرين. ولا تزال كثير من أوانى البيعة المقدسة وآلات الديرين الخدمة اليومية تحمل اسم دير السريان.

ولقد ساء عدو الخير أن يعمر الديران وأن ترتفع الصلوات والتسابيح منها فاستثار عربان بنى عطية (قرب بنى سويف) الذين لم يفلحوا هذه المرة إلا فى تخريب دير الانبا بولا والقضاء على الرهبان الذين فيه. ولكن شاءت المراحم الإلهية أن تمنح الانبا غبريال نفسه نعمة ترميم بعض أجزائه [٢]. كذلك منحته أن يعمر دير الانبا أنطونى بالجميزة - وهو المعروف بدير الميمون [٣]. ومن

---

(١) « مصر والهلال الخصيب » بالانجليزية للكاتب الأمريكى هولت ص ٤٨ - ٥٠.

(٢) سلسلة تاريخ الباباوات حلقة ٤ لكامل صالح نخله ص ٧٠.

(٣) جزيرة الميمون تقع فى منطقة بنى سويف - والجميزة هى المكان الاول الذى قصد إليه أبو الرهبان.

الواضح أن الأنبا غبريال كان من البناة الكادحين إذ قد امتدت رغبته فى التعمير إلى الدير المحرق بجبل قسقام [1].

٥ - ولم يقف أذى الحكم التركى عند ترحيل الفنيين بل امتد إلى قتل تجارة مصر بتحويلها طيعاً إلى القسطنطينية ، ثم إلى ابتزاز أموال المصريين بلا هوادة . ذلك لأن الوالى الذى يعينه السلطان كان لا يأتى إلا لمدة سنة وأحياناً أقل من ذلك بكثير . فكان هدفه الأوحد ملء جيوبه . وكان السلطان نفسه يفرض مبلغاً معيناً مقابل الإبقاء على الوالى الموجود أو استبداله بغيره . وبالطبع كانت هذه المبالغ المالية كلها تقتطع من شعب مصر . ذلك لأن « العالم » فى نظر الترك كان ينقسم إلى حكام ورعايا - وهؤلاء الأخيرون مهمتهم توفير حاجات الفئة الأولى وفقاً للمشيئة الإلهية . وكانت النتيجة العملية لهذه النظرة الشرسة أن حلت القيم المالية فى كل مكان محل قيم الكفاءة القديمة فالباشا . « الصالح » هو الذى يسارع فى تقديم الكميات والمنقولات النوعية التى تتطلبها الخزانة الإمبراطورية . . . بل لقد أصبحت العادة الشائعة منح الترقيات بالحظوة والرشوة وأن يطبق المزاد حتى على الوظائف القضائية والدينية [2] .

ومع أن المماليك كانوا متعالين على الشعب المصرى إلا أنهم كانوا يجوبون البلاد ويحتكون بهذا الشعب المسكين . أما ولاة الترك فكانوا يقيمون فى القلعة لا يخرجون منها إطلاقاً ! ورغم إقامتهم فيها باستمرار كانوا عديمى الاهتمام بالمحافظة عليه ، فكانوا أشبه بالجوارح العابرة التى لا تطير فوق منطقة إلا لتنقض على ما فيها ثم ترحل [3].

(١) الأديرة المصرية العامرة لصموئيل تاوضروس السريانى ص ١٦٤ .

(٢) المجتمع الاسلامى والغرب ترجمه من الانجليزية أحمد عبد الرحيم مصطفى وراجعه أحمد عزت عبد الكريم ص ١٥ .

(٣) تاريخ الامة . . . الكتاب الخامس لهنرى ديهران . . . ص ٢٣ .

٦ - ولأن الوالى التركى ورجاله حددوا إقامة أنفسهم بأنفسهم فقد تركوا السلطة فى أيدى المماليك ومن يلوذ بهم . فظل التنظيم المالى كما كان قبل الفتح العثمانى ، كما ظل فى يدى أسرة معروفة هى أسرة بنى جيعان وكانت هذه الأسرة مسيحية أصلا إلا أن عميدها أبو البقاء أشهر إسلامه أيام السلطان قايتباى فاحتفظ بمركزه العالى وبما يستتبعه من جاه . وتوارث أبناؤه هذا المركز وهذا الجاه . وفاز أبو البقاء بثقة السلطان وسافر معه إلى سورية وإلى فلسطين . ثم سجل هذه الرحلة فى كتاب ما زال موجوداً بعنوان « القول المستظرف فى سفر مولانا الملك الأشرف » . ورغم هذه الحظوة فقد مات أبو البقاء مقتولا[1] .

٧ - ووسط هذا الضنك بدت مراحم الله : مراحمه التى تسطع دائما خلف الغيوم المكشيفة . فتجلت إذ ذاك فى عودة الصلة بين الكنيسة القبطية والبلاد الحبشية . لأن هذه الصلة كانت قد انقطعت بسبب تنابذ المماليك فيما بينهم واضطهادهم للقبط ، ثم غضبهم لأن أخبار هذا التنابذ وهذا الاضطهاد قد بلغت إلى مسامع امبراطور الحبشة . فدفعهم غضبهم إلى عدم السماح للأحباش بالدخول إلى مصر ، ثم بالتشديد على البابا المرقسى بعدم التعامل معهم إطلاقاً حتى حين يكونون فى حاجة علوية إلى مطران . فأدى هذا كله إلى رسامة مطران برتغالى كاثوليكى أطلق بابا رومية عليه لقب « بطريرك الاسكندرية » . على أن هذا التعدى الرومانى المزدوج انتهى حين اعتلى جلاوديوس عرش الحبشة . لأن هذا الملك أعلن المطران البرتغالى بأنه موقوف . فإن شاء أن يعيش فى البلاد الحبشية عليه أن يعتبر نفسه مجرد ضيف نزيل عليها . وبعد ذلك بعث الملك برسله إلى الأنبا غبريال السابع يرجو منه رسامة مطران لبلاده ومن نعمة الله أن هؤلاء

---

(١) عن مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ج ٢٠ (القاهرة سنة ١٩٢١) مترجم عن العربية بقلم مدام ديفونشاير .

الرسل استطاعوا أن يدخلوا مصر وأن يقابلوا البابا المرقسى ويبسطوا له طلبهم ، وبالطبع فرح خليفة مار مرقس بعودة أولاده إليه وسارع إلى اختيار راهب ممتاز رسمه باسم يوساب الثالث . وبعد الرسامة بأيام غادر المطران وطنه الأصلى ليذهب إلى وطنه الجديد ويرعى الشعب الذى شاء الله أن يأتمنه عليه . وقد سافر مع الوفد الذى كان قد جاء خصيصاً لطلبه . ولما وصل تلقاه الملك والشعب بكل ترحاب [١] .

٨ ـ ولم يعتبر بابا رومية بالفشل الذى أصابه فى الحبشة وزعم أنه قد يستطيع اقتناص الأم حيث فشل فى اقتناص بنتها . وقد شجعه ذلك ما يرسف القبط تحته من ظلم الولاة العثمانيين . فأرسل رسله إلى البابا غبريال السابع يقترحون الانضواء تحت رعايته . وقابلهم البابا المرقسى بهدوء ووقار ، وأعلمهم خلال هذا الهدوء وهذا الوقار أنه لا يحيد قيد شعرة عن العقيدة التى تسلمها عن أسلافه . ولما رأوه مصراً على التمسك بعقيدة الآباء رجوا منه أن يطلب إلى سيحد الأول ملك الحبشة عدم طرد الكاهنين الرومانيين اللذين تركهما المطران البرتغالى . فقبل رجاءهم وأرسل إلى أولاده الأحباش رسالة بهذا المعنى . وعندما سمح الملك للكاهنين بالبقاء فى بلاده .

وأخلد الكاهنان الكاثوليكيان إلى السكينة خلال حكم سيحد الأول . فلما خلفه أخوه مينا على العرش ساءه وجودهما . وعندها أخذ هذان الغريبان يستفزان كبار قادة الجيش على التمرد ضد الملك مينا ويزينان لهم التحالف مع المسلمين . فشعر بمؤامراتها وبدد مشورتها وأنزل بها العقاب . واستاء الحبر الرومانى لهذا الفشل فأستدعى الكاهنين واستبدل بهما رسلا جدداً . على أن هؤلاء الرسل ما لبثوا أن كتبوا له يقولون بأن الأحباش لن يرضوا عن عقيدتهم بديلا إلا بحد السيف .

---

(١) « سلسلة . . . » ص ٧٠ – ٧١ .

فاضطر بأزاء هذا التقرير أن يستدعيهم بدورهم آملا أن تواتيه فرصة أخرى (١).

ويعلق كاتبو قاموس السير المسيحية على هذا المسلك بقولهم أن البرتغاليين زعموا أن الإيمان الحقيقى يجب نشره بحد السيف - فأنتهى بهم الأمر أن فنى هذا الإيمان وناشروه بحد السيف (٢).

٩ - وحدث أن السلطان فرض ألفى دينار على غير المسلمين ، ووقع الجزء الأكبر من هذا المبلغ المفروض على عاتق القبط . فاضطر الأنبا غبريال إلى الهرب إلى دير القديس أنبا أنطونى تجنباً لما قد يصيبه من أذى وذل . لأن الترك لم تكن لديهم وسيلة غير الكرباج دون مراعاة لكرامة أى إنسان . وبينما كان فى الدير يضرع بحرارة ليتدارك الله شعبه طغى عليه الحزن والتوجع إلى حد أنه فارق هذه الحياة الدنيا وانتقل إلى بيعة الأبكار .

١٠ - وقد سجل الآباء الرهبان ذكراه اعترافاً بفضله فكتبوا على حائط الكنيسة تحت أيقونة الأنبا أنطونى والأنبا بولا ما يلى : « ولما كان بتاريخ يوم الثلاثاء المبارك تاسع عشرين بابه المبارك سنة ألف ومائتين وخمسة وثمانين للشهداء الأطهار رزقنا الرب ببركاتهم ، تنيح السيد الأب البطريرك العظيم فى البطاركة أنبا غبريال الخامس والتسعون فى عدد الآباء البطاركة فى كرسى مار مرقس . وكانت نياحته فى أحضان رهبان هذا الدير المقدس التحتانى على شاطىء البحر لقوة عزيمته الطاهرة . ونقل جسده الطاهر إلى مصر المحروسة فى ٢٥ هاتور سنة تاريخه أعلاه . وجزناه فى بيعة الشهيد العظيم مرقوريوس بمصر ، ودفن بها ، فى مقبرة جديدة

---

(١) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص ص ٦٠٧ - ٦٠٩ ، سلسلة ص ٧٢ .

(٢) فقد جاء فى قاموسهم ج ١ ص ٦٧٩ ما يلى :

" ... the lamentable belief took possession of the Portuguese that the true faith was to be propagated by the sword. Eventually that faith & its propagators perished by the sword".

تحت جسد مرقوريوس . وأما عدد الكهنة والأساقفة الذين حضروا تجنيزه ثانياً خمسة وثمانون كانوا . وأما الشعب فلا يحصى عددهم . وأقام هذا الأب المكرم على الكرسي المرقسي ثلاثة وأربعين سنة وكسر . ورعى شعب الله أحسن رعاية . وكان ذا إجتهاد بليغ في عمارة الديارة والكنائس وترميمها وبشددها . ومن جملتها هذا المجمع المقدس المعروف بدير العربة سكن أبينا العظيم أنطونيوس . فإنه هو الذي فتحه في أيامه . عمّره الله بالدوام . وجعل اليمن والكثرة فيمن يحويه من الرهبان بعد أن كان له مدة مستطيلة خراباً لم يقدر أحد على فتحه وعمارته غير هذا الأب . وضادده عدو الخير عدة مرار في خرابه، والرب سبحانه لم يتم أمر العدو في ذلك .

« وتنيح هذا الأب وهو عامر بالرهبان ، وكان في هذا الدير أكثر الأيام . الرب الإله سبحانه يعمر هذا الدير بطلباته إلى النفس الأخير ، وينيح نفسه في فردوس النعيم . ويرحم كاتبه بصلاته آمين . والشكر لله دائماً » .

كذلك سجل بجمع هذا الدير ذكرى الأنبا غبريال السابع في كتاب رقم ٣٩١ طقس المحفوظ بمكتبته وقد جاء في هذا الكتاب ما يلي : « ... وكان هذا الأب طويل القامة ومعتدل الخلقة وروح القدس حال عليه . وكان له إجتهاد بليغ في الصلاة والصوم والنسك الثقيل مع الإجتهاد البليغ البشر في عمارة الديورة وتشديدها أتم غاية . وكان له بهم فرحاً زايداً . وقاسى شدايد من قبلها وفرحاً عظيماً من أجل ثباتها . وفتح في زمانه دير القديس الطاهر العظيم أنبا أنطونيوس بالعربة وعمّره عمارة حسنة الروحانية والجسدانية . وكذلك دير القديس العظيم أنبا بولا فوقاً منه . وعمر دير القديس العظيم أنطونيوس المعروف بدير الجميزة سكن أنطونيوس أولا عمارة جديدة تعجز عنها طاقة البشر . . . ويرعانا الرب بطلباته ويخلصنا من خطايانا بصلاته ويفتح لنا أبواب رحمته . آمين » .

وهناك لمحة نعرف منها أن أحد الاساقفة المعاصرين للبابا غبريال السابع هو يونس أسقف طحا . ذلك أنه توجد بالمتحف البريطانى مخطوطة مجلدة تقع فى ٢٤٩ ورقة تجدد الكثير من ورقاتها ، وهى مكتوبة بخط منتظم كبير سميك ، وعناوينها وحروفها الكبيرة بالاحمر والاخضر والاصفر . وتتضمن قطمارس الآحاد من توت إلى أمشير . وعلى الورقة ٢٤٨ (وجه) حديث مستفيض بالخط الاول عن أن المخطوطة كتبت سنة ١٢٥٦ ش على نفقة الانبا يونس الطحاوى . أما على الورقة ٢٤٧ (ظهر) فقد قيل بأنها تجددت فى دير أبى مقار سنة ١٢٥٢ ش (وأغلب الظن أن التاريخ الاصح للتجديد هو سنة ١٢٥٢ ش) [١] .

وثمة مخطوطة أخرى تتضمن عدة أجزاء تتبيّن منها قيمتها وندرك مدى عناية القبط بتراثهم كلما وجدوا إلى التعبير عنه سبيلا . والمخطوطة مكتوبة بالاحمر والاسود ، ومجلّدة بالجلد الاحمر المزخرفة زخرفة محفورة . وقد نقلها ناسخ لانعرف اسمه بناء على طلب الراهب ميخائيل الذى وقفها على كنيسة مار مرقس بالاسكندرية . أما محتوياتها فهى :

١ ـ كتاب بعنوان « اعتراف الآباء معلمى الكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية وشرح اعتقاد كل واحد منهم فى الامانة المقدسة وما نطق به الروح القدس على ألسنتهم فى الثالوث المقدس وتجسد الكلمة أحد الاقانيم فى الاتحاد والرد على المخالفين » .

٢ ـ (أ) كتاب الجامع لساويرس بن المقفّع ، (ب) ـ مجموعة من النبوات يقال أنها لفلاسفة وثنيين عن الدين المسيحى مضافاً إليها شهادات الانبياء عن تجسد المسيح له المجد .

---

(١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطانى ص ٣٢٠ مخطوطة ٧٦٤ (عن النسخة المحفوظة بالمتحف المصرى ببرلين الغربية) .

٣ - جزء ليس له عنوان خاص يتضمن « الشهادات الشرعيـــة الواردة فى الكتب المقدسة والتأويلات الوضعية وينقسم إلى ستة أقسام (الموجود منها ثلاثة فقـــط) .

٤ - مقالة بعنوان : « جواب على الذين يقولون ان سيدنا يسوع المسيح فى زمان تدبيره بالجسد أكل وشرب وكل جميع ما للبشرية واخلا الخطية » [١] .

وإلى جانبها مخطوطة صحائفها مموهة بالذهب جاء فى أولها العبارة التالية : « الإنجيل الطاهر والمصباح الزاهر وسفينة النجاة للحواريين الاطهار » . وقد جاء فى آخرها أنها تمت بمدينة دمشق « فى رياسة المطران أنبا بطرس مطران الاقباط بالقدس وجميع الشام على يد الحقير جرجس القس أبى الفضل بن لطف الله غفر الله ذنوبه [٢] » . وهذه المخطوطة دليل على أن آباء الكنيسة القبطية كانوا حريصين على حفظ الإيمان فى كل بلد ائتمنهم الله على شعبه » .

---

(١) مخطوطة ١١١ – ١٩٦ لاهوت – محفوظة بمكتبة المتحف القبطى جاء فى آخرها تاريخ الانتهاء منها وهو ١ مسرى سنة ١٢٥٠ ش (٦ أغسطس سنة ١٥٣٤ م) .

(٢) مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة ص ٨٠

ب ـ الأنبا يؤنس الرابع عشر

١١ ـ كانت نياحة الانبا غبريال السابع أثناء الضائقة المسيطرة على البلاد نتيجة لتعسف الترك فى وسائلهم لابتزاز الاموال . مما جعل القبط إذ ذاك فى حالة من القلق النفسى الذى تضاعف بنياحة باباهم . فكان من الطبيعى أن تبق السدة المرقسية شاغرة سنتين ونصف . ثم استطاع الاساقفة والاراخنة أن يجمعوا شتات أفكارهم ليركزوها على وجوب التشاور معاً فى أمر انتخاب راعيهم الأعلى . ومن ثم تباحثوا وتفاوضوا . وأخـيراً أجمعوا على انتخاب الراهب يوحنا المنفلوطى العائش فى دير السيدة العذراء (البرموس) ببرية شيهيت . فذهب وفدهم إلى ذلك المكان المقدس واستصحبوه إلى مصر حيث رسمه مجمع الاساقفة باسم يؤنس الرابع عشر فأصبح البابا السادس والتسعين .

١٢ ـ وكان هذا البابا شيخاً صهرته الايام وعرف بالاختبار مدى عنايه الله. فكان يعبّر عن اختباره هذا كلما وقع على رسالة أو مرسوم صادر منه بأن يضيف إلى جانب إمضائه الجملة التالية « الهدى بالله الهادى » ، وتحتها « الخلاص للرب يا الله الخلاص » .

١٣ ـ وكالمعتاد فرض السلطان مراد جزية إضافية وألزم البابا الاسكندرى شخصيا بسدادها . فرأى الانبا يؤنس أن يضرب عصفورين بحجر واحد بأن قام برحلة راعوية . فتلاقى مع شعبه وقضى بينهم أياما ، وفى الوقت عينه عرّفهم بما

فرضه السلطان عليه . فسارع الكل إلى مساندة أبيهم الروحى الأعلى وقدموا له ما أمكنهم تقديمه . وبالتالى نجحوا فى حمايته من بطش السلطان .

وكانت هذه الزيارة مقدمة مبروكة إذ مهدت السبيل أمام الأنبا يؤنس الرابع عشر للالتجاء إلى أولاده فى الصعيد مرتين أخرتين . أما الزيارتان التاليتان فقد كان الدافع إليهما تجنب المضايقات المستمرة التى كان يمارسها الولاة الموفدون من السلطان . ومن بين هذه المضايقات التشدد فى أن يلبس القبط جميعــاً الملابس السوداء ، وحتى عمائمهم يجب أن تكون كلها من اللون الأسود

١٤ ـ ويبدو أن ظلم العثمانيين الذى أضَّر بالزراعة والتجارة قد أضعف جسوم الناس فلم تعد تقوى على مقاومة الأمراض . فنجد أنه حين تفشى الطاعون سنة ١٥٨٠ أهلك العدد الوفير من الشعب المصرى . فكانت النتيجة الحتمية لهذا الموت الجماهيرى إرتفاع أسعار الحاجيات لأن الأيدى المنتجة نقصت نقصاً كبيراً مما أدى إلى حصاد شحيح [1] .

١٥ ـ ولم يكن الضغط التركى والوباء والغلاء بالنير الوحيد الضاغط على أعناق القبط إذ أثقل الكاثوليك بدورهم هؤلاء المتعبين . فقد لاحظ الحبر الرومانى أن الترك يميزون الروم على القبط فيستخدمونهم ويتعاملون معهم بدلا من أولاد مصر الاصليين . فزعم أنه يستطيع الصيد فى الماء العكر وأرسل بعضاً من الرهبان اليسوعيين ليتقابلوا مع البابا الاسكندرى ويعملوا على اقناعه بالانضواء تحت رياسة الكرسى الرومانى . فلما مثلوا فعلا بين يدى الانبا يؤنس أفهموه بأنهم لن يتعرضوا لعقيدته ولن يطالبوه هو أن يحيد عما تسلمه من الآباء السالفين . فقرر أن يعقد مجمعاً لعرض الأمر عليه . وانعقد المجمع فى فبراير سنة ١٥٨٢ فى مدينة

---

(١) الشهابى (شرحه) ص ٦١٧ .

منف . وبالطبع أدت المناقشات المجمعية إلى وجود فريقين : فريق استهوته الوعود الخلابة فرأى أنه لا مانع من الانضمام إلى الكرسى الرومانى ، وفريق عارضه أشد المعارضة معلناً أن الأفضل هو أن يحتفظوا باستقلالهم ويحصروا ولاءهم داخل حدود مصر مهما بلغ بهم الاضطهاد اقتداء بأجدادهم من أن يسلموا قيادهم لرياسة أجنبية مذهباً ووطناً . ومع أن الأنبا يؤنس الرابع عشر كان أميل إلى الفريق الأول إلا أنه لم يبت فى الأمر بشكل حاسم احتراماً لرأى الأغلبية .

١٦ - ثم انفض المجمع وتفرق أعضاؤه لأن الوالى التركى أخذ يتشدد فى معاملة البابا المرقسى مما اضطره إلى السفر إلى الاسكندرية وخلال غيابه انشغل مندوبو رومية فى اعداد المعاهدة التى كانوا يضمرون ابرامها . ثم ظن الأنبا يؤنس أن فى مقدروه أن يعود إلى القاهرة ولكنه أحس بالمرض يدب إلى جسمه ورغم المرض رأى من الأوفق أن يعود حتى لا يمطّل المندوبين الرومانيين عن الرجوع إلى بلادهم . فركب مركبا فى النيل قاصداً العودة . إلا أنه بدلا من الوصول إلى القاهرة وصل إلى أورشليم السمائية . وأشاع المندوبون الكاثوليك يومذاك بأن المعارضين قد دسّوا له السم خوفاً من أن يوقع على المعاهدة معهم . أما مبعوثو الحبر الرومانى فقد ارتاب الوالى فى أمرهم فقبض عليهم بوصفهم جواسيس واتهمهم بأنهم يثيرون الفتنة بين رعاياه . ولكنه أفرج عنهم بعد أيام نظير فدية قدرها خمسة آلاف قطعة من الذهب فعادوا لساعتهم إلى بلادهم (١) .

ومن الشهادات التى توضح ما بذله الكاثوليك من جهد وما لقوه من رفض خطاب أرسله سيريل لوكار (٢) إلى سفيرهم فى لاهاى رداً على خطاب ذلك السفير

---

(١) جورج مقار (كاثوليكى) « تاريخ كنيسة الاسكندرية » (بالفرنسية) ص ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، سلسلة .. الحلقة الرابعة ص ٧٧ ـ ٨٠ .

(٢) البطريرك الكاثوليكى (الخلقيدونى) للاسكندرية سنة ١٥٩٤ ـ سنة ١٦١٣م) .

يحدثه فيه عن « الهرطقة فى الشرق » . وقد جاء فى ذلك الخطاب ما ترجمته :

« ... لقد بذل البابا كليمنت الثامن الشىء الكثير كما احتمل الشىء الكثير ليصل إلى اتفاق معهم . وستضحك يا سيدى لو أنك عرفت الدهاء الذى استعمله القبط فى هذا الشأن وإلى أى مدى انطلى على البابا ، مع أن بارونيوس المؤرخ الجديد ، قبل أن يتعرّف على واقعية الأمور ، وربما تزلفاً منه لكليمنت تبعاً للعادة المتبعة فى بلاط روما ، كان متعجلا فى أن يمنحه الفخر فى كونه حقق تحويل القبط إلى كنيسة روما ، فاختار أن يقدم تقريراً عن هذا التوفيق فى سجلاته ، وقد ثبت بعد ذلك بقليل أن كل ما قاله باطلٌ تماماً (١) .

أما الانبا يؤنس الرابع عشر فبعد الصلاة الجنائزية حملوا جسده إلى برما (قرب طنطا) حيث دفنوه فى كنيستها . وبعد فترة نقلوه إلى برية شيهيت .

١٧ - ومع كل هذه المحن فقد تبقى لنا من هذه الفترة مخطوطة تتألف من جزئين ، كتبت عناوينها بالمداد الأحمر والاسود ، وهى مكتوبة باللغتين القبطية والعربية ، وبعض نصوصها العربية مشكلة . وقد كتبها فضل الله ابن تادرس طوعاً لرجاء الارخن الشماس الاسعد ابراهيم ناظر كنيسة السيدة العذراء بحارة

---

(١) قاموس السير المسيحية ج ١ ص ٦٧٩ حيث قيل :

"Pope Clement VIII of Rome both did and bore many things to come to an arrangment with them; and you would laugh sir, if you knew what arts the Copts used in the business, and how much the Pope was imposed upon; although Baronius the new historian, before he became acquainted with the real state of things, and perhaps with a view to father Clement, after the fashion of the court of Rome, was in a hurry to give the credit of having accomplished by his newly-acquired industry the conversion of the Copts to the church of Rome, and chose to give an account of it in his annals, which proved, not long after, to be entirely false ,,, " .

زويلة ، والجزء الأول يتضمن شعائر تقديس الماء الخاصة بعيد الغطاس المجيد ، يتبعها ما تجب قراءته على اللقان يوم الخميس الكبير . أما الجزء الثانى فيشتمل على « قانون وضعه أبونا الأسقف أنبا بطرس أسقف مدينة البهنسى يقرأ على القصرية فى الخامس من أبيب - عيد آبائنا الرسل بطرس وبولس (١) » .

١٨ - ولم تقف أوجاع القبط عند هذا الحد بل تضاعفت أضعافاً . ذلك أن النوبيين كان عليهم أن يدفعوا الجزية لحاكم مصر . وكثيراً ما كانوا يتغافلون عن دفعها . وكثيراً ما كانوا يحاربون المصريين فى المنطقة المتاخمة لبلدهم فإذا ما انتصروا إستمروا فى زحفهم شمالا . ولكنهم كانوا يرتضون دائماً - فى نهاية الأمر - بالتفاوض ويعودون إلى بلادهم حتى حين ينتصرون . على أن العثمانيين تعسفوا فى حكمهم أكثر من غيرهم وضيقوا الخناق على النوبيين إلى حد أن الحكومة النوبية أصبحت فى أيدى المسلمين بعد أن كانت منذ نهاية الوثنية فى أيدى المسيحيين . فقد سطا أوزدمير الوالى الشركسى لليمن على النوبة واستولى على منطقة ابريم التى كانت بمثابة الحصن الواقى للنوبة الجنوبية . وحين سيطر على المنطقة أقام فيها حاميات من الجنود الشركسية فى أسوان وابريم وصاى (٢) . وباستقرار الحكام الموفدين من قبل الأتراك فى النوبة أصبح التعذيب والارهاب وابتزاز الأموال وسائلهم المعتادة . ونتج عن هذه الخطة المشؤم أن المسيحيين من النوبيين اتخذوا طرقاً ثلاثة (كل حسب تقديره) : الاستشهاد ، الهجرة ، التحول إلى الاسلام . وبذلك زالت المسيحية من النوبة تماماً (٣) .

---

(١) مخطوطة ١٦٣ (رقم ١١٥٤) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى بمصر عتيقة .

(٢) « مصر والهلال الخصيب » (بالانجليزية) لهولت ص ٥٤ .

(٣) يقول بروفسور بلوملى المستشرق والأستاذ بجامعة كامبردج بأن تاريخ النوبة لابد أن تعاد كتابته بعد دراسة المخطوطات التى عثر عليها صدفة خلال الجهود التى كانت مبذولة لانقاذ أبو سمبل وغيره من المعابد الفرعونية فى النوبة .

١٩ - ولم يقتصر الاستشهاد آنذاك على النوبيين . ومع أن سجلاتنا ضئيلة فإن فيها اشارات أشبه بالكوى الضيقة التى تسمح لخيط من النور أن يمر . ومن هذه الخيوط الضوئية حادثة استشهاد يوحنا القليوبى الراهب بدير الانبا بيشوى. فقد حدث أن اقتنصه أحد الحكام خارج الدير ولم يكتف بمنعه من العودة إلى البرية المقدسة بل أراد اقحامه على انكار المسيح له المجد . ورفض الراهب رفضاً باتاً أن يجحد سيده . فصدر الحكم عليه بغرس السكاكين الحادة فى يديه وايقاد مشاعل على كتفيه ووضعه على جمل يطوف به شوارع المدينة تحيط به الغوغاء الصاخبة . فتحمل هذا كله فى صمت تام . ويبدو أن هدوءه زاد الحاكم غضباً فأصدر أمره بربط يوحنا على عود من الخشب. وخلال ضربه وتعذيبه استودع روحه بين يدى الآب السماوى ونال منه الإكليل المعد للذين يصبرون إلى المنتهى. وكان استشهاد الراهب القديس يوحنا القليوبى يوم الأحد المبارك الموافق ٣٠ هاتور سنة ١٢٩٨ ش (١٥٨٢/١٢/٦) . وفى اليوم التالى أنزلوا جثمانه الطاهر عن الخشبة وسلموه للقبط الذين مضوا به إلى كنيسة القديسة الشهيدة بربارة بمصر القديمة حيث أقاموا عليه الصلوات الكنسية ورفعوا الأسرار المقدسة ثم دفنوه بتلك البيعة المقدسة مثوى الشهداء [١].

٢٠ - ومن مخلفات هذا العصر ميمر كتبه « أحد الآباء [٢] » فى مديح رئيس جند السمائيين الملاك ميخائيل . وفى المقدمة التى تلى العنوان مباشرة وردت هذه الكلمات : ان هناك كنيسة كرست فى أعلى جبل النقلون ، وأن الهيكل بدير الخدق

---

(١) أورد هذه السيرة كامل صالح نخله فى كتابه سلسلة تاريخ بطاركة الأسكندرية ـ الحلقة الرابعة ـ ص ٨١ نقلا عن كتاب تاريخ الميرون رقم ١٠٦ طقس تأليف الأنبا أثناسيوس أسقف قوص . وهذا الكتاب محفوظ بمكتبة الدار البابوية بالقاهرة.

(٢) هذا الأب هو أيضاً ضمن الجنود المجهولين .

قد كرسه البابا يوحنا الاسكندرى (١) كما كرس كنيسة الملاك غبريال فى بلدة ، دانا ،.

والميمر يوضح التكريم الواجب نحو رئيسى الملائكة ميخائيل وغبريال ، والتكريم الخاص الواجب من المؤمنين نحو السيدة العذراء . وقد وُضع هذا الميمر فى كنيسة الخندق الملاصقة لكنيسة الملاك ميخائيل لكى يُقرأ يوم ٢٦ بؤونة (٢) .

والكتاب المتضمن لهذا الميمر يشتمل على ميمر ثان وضعه أرشلاوس أسقف ، ايرا ، (٣) فى مديح رئيس الملائكة غبريال يوم تذكاره – وهو ٢٢ كيهك .



---

(١) لا نعرف على وجه التحديد من هو هذا البابا لأن الذين يحملون اسم « يؤنس » فى هذه الفترة أكثر من واحد والمخطوطة لا تحمل تاريخاً . ولكن الباحثين يرجعون أنها كتبت ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

(٢) المخطوطة ٦٦ – ٤٨ أدب – محفوظة بمكتبة المتحف القبطي بمصر العتيقة .

(٣) لا يعرف بالضبط مكان هذه الأسقفية .

ح ـ الأنبا غبريال الثامن

٢١ – ضغوط محيقة
٢٢ – فتك مضاعف
٢٣ – الخيط الذهبي
٢٤ – معاودة المناورات الرومانية
٢٥ – تيقظ الراعي
٢٦ – نياحته في رحاب الدير

٢١ ـ لم تكن النفوس مستقرة من جراء كل الضغوط المحيقة بها فلا غرابة إذن في أن السدة المرقسية ظلت شاغرة ما يزيد على تسعة أشهر. ثم رأى الأساقفة أن يتداركوا الأمر فأرسلوا يدعون الأراخنة للتشاور معهم. ومن نعمة الله أن اتفقت كلمتهم فأجمعوا على انتخاب شنوده الراهب بدير الأنبا بيشوى. ولفرحتهم بهذا الانسجام الإجماعي حملوا مختارهم إلى كنيسة القديس مرقوريوس (أبي السيفين) بمصر العتيقة فوراً حيث أقيمت المراسيم التي ترفع الراهب البسيط إلى كرامة البابوية وتنظمه ضمن خلفاء مار مرقس الرسول. وقد أطلقوا عليه اسم غبريال الثامن إذ قد تمت الرسامة في يوم الاحتفال بعيد الملاك المبشر غبريال، ورأس الصلوات الأنبا زخارياس أسقف القدس.

وقد أقام الأنبا غبريال الثامن في كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة التي كانت المقر البابوي آنذاك.

٢٢ ـ وحدثت اضطرابات ومشاغبات عديدة في عهد هذا البابا المرقسي نتيجة لإشتباكات الجند مع الشعب. ذلك أن الضرائب لم يكن لها نظام معين ولا مقدار معين بل كانت موكولة إلى الوالي والمماليك: فالوالي يفرضها كيفما شاء وأينما شاء، والمماليك بدورهم يضيفون عليها مايرونه من زيادة لمصلحتهم، والملتزمة الذين كانو معينين لجمع هذه الضرائب كانوا يستولون عليها بعنف بعد أن يضيفوا عليها ما يسد رغباتهم الخاصة. فسرى الظلم وقتذاك سريان السموم

الفتاكة : ولم يفتك بالناس وبقوام الإنتاجية فقط بل تعدّاهم إلى العتلك بالتداولات التجارية والمحاصيل الزراعية . ومرة أخرى أدّى القحط إلى تفشى الطاعون الذى حصد الناس حصداً . وتضاعف الخطب بحدوث زلزال عنيف أسقط عدداً من المنازل والمنارات ، بل وتفلّق من شدته جبل المقطم إلى ثلاث فلق قرب اطفيح ، وتفجر الماء من هذا التفلق [1]

ويبدو أن هذا القلق النفسى الذى تسرّب إلى الناس قد أدّى بهم إلى اعتياد التدخين الذى ظهر لأول مرة فى مصر فى هذه الفترة من التاريخ لأن المصريين لم يكونوا يعرفون ما هو التدخين قبل ذلك [2].

٢٣ - وعلى الرغم من تلبّد الغيوم فقد كان هناك من القبط من استهوتهم المثل العليا فجاهدوا لحفظ الإيمان ، بل ولتوصيله للأجيال المقبلة . ومن الأمثلة على هذا الجهاد مخطوطة لا تحمل تاريخاً يرجّح الباحثون أنها ترجع إلى هذه الحقبة . وكاتب هذه المخطوطة أسمه جرجس بن يوسف المنصورى شماس دار الأحباش . وقد كتب العنوان والتنقيط بالأحمر . وقد جاء على ورقة ٣٥ (ظهر) ما يلى : « تمت فى ٣ برمهات (أغفل ذكر السنة) الذى هو عيد تذكار استشهاد الشهيد المظيم القمص أبو حديد وقد نال إكليل الشهادة فى سنة (يليها سطر على بياض) للهجرة [3]

٢٤ - ووسط كل هذه الضيقات عاود بابا رومية مناورته لعله يظفر حيث

---

(١) تاريخ مصر من الفتح العثمانى الى قبيل الوقت الحاضر لعمر الاسكندرى وسليم حسن ص ٧٧

(٢) الشبابى (شرحه) ص ٦٢٢ .

(٣) مخطوطة ٣٨ (٢٧٠ تاريخ) محفوظة بمكتبة المتحف القبطي وهذا أيضاً شهيد لا نعرف غير اسمه

فشل غيره فأرسل إلى البابا الاسكندرى رسله موصياً إياهم بأن يتفاهموا بالتساهل والتودد وعلى الرغم من كلماتهم المعسولة فقد بدت الحقيقة سافرة : وهى أن الحبر الرومانى هو السيد الأعلى، وليس على المسيحيين فى مختلف الأقطار إلا أن يقدموا له فروض الولاء . فامتلأت نفوس القبط - وعلى رأسهم باباهم - حماسة على الوديعة التى تسلموها من أجدادهم وعلى استقلال كنيستهم وكرامتهم، وعلى أحاسيسهم الوطنية . ومع أن مبعوثى رومية استمروا فى مفاوضاتهم أياماً عديدة إلا أن كل هذه المفاوضات انتهت بالفشل كما انتهت سابقاتها [١]،

ولكن المطامع الرومانية لم تنثن لهذا الفشل فتركت الأم لتجرى وراء إبنتها. فقد غادر المبعوثون الكاثوليك مصر ليذهب زميل لهم إلى الحبشة - هو الراهب اليسوعى بدروبايز . وكان ذلك فى أيام العاهل الحبشى يعقوب ملاك سجد الثانى وأسقفية الانبا خريستودولو الذى تولى مطرانية الحبشة سنه ١٥٩٠ .

على أن الأحباش ما كادوا يخبرون بدروبايز فى مصوّع حتى سجنوه . ولكنهم لم يلبثوا أن أطلقوا سراحه ثم سمحوا له بالاقامة فى مدينة فريمونا . وحين وجد نفسه طليقاً ركز جهوده على تعلّم لغة البلاد إلى أن أتقنها . وحالما نجح فى هذا بدأ عمله الذى جاء من أجله .

٢٥ - ووصلت أنباء نشاطه إلى الانبا غبريال فبعث برسالة أبوية إلى الملك وإلى اكليروس الحبشة وشعبها يحذّرهم جميعاً من الانحراف عن العقيدة الأرثوذكسية التى دفع الشهداء دماءهم ثمناً لها، وحافظ الآباء عليها فى إصرار رغم كل اضطهاد . ولقد أطاع الاكليروس والشعب توصيات باباهم . ولكن الملك زا دنجل عسفاف الذى كان قد استهواه بدروبايز اليسوعى رفض نصح

---

(١) تاريخ الامة القبطية ليعقوب نخله روفيله ص ٢٥٠ .

البابا المرقسى . وبالطبع وجد من ينحاز إليه من أمرائه ورجال حكومته . وقد رأى الأنبا خريستودولو بأزاء هذا الرفض أن يسعى إلى إقناع الملك بطاعة الآب الروحى الأعلى فلم يفلح.فهدده بالحرم إن هو أمعن فى مسايرة الراهب الرومانى . ولكن الملك ظل صامّاً أذنيه . فلما فشلت كل المحاولات فى إرجاع الملك إلى صوابه أعلن المطران القبطى حرمه . وما أن سمع الشعب بهذا الحرم حتى شقّ عصا الطاعة على ملكه وقام يحاربه وانتصر عليه وقتله فى المعركة (١) . وهكذا أدّى التدخل الرومانى إلى إصدار الحرم على بعض أبناء الكنيسة وإلى التمرّد الشعبى وإلى الفتنة الأهلية .

٢٦ - ثم أراد البابا المرقسى أن يستروح عبير الآباء ليجد فيه تقوية لروحه وبالتالى تقوية ، لشعبه . فذهب إلى وادى النطرون ليقضى بعض الايام بين رهبانه ، وبخاصة لأنه كان قد قضى سنى رهبنته بتلك البقعة المقدسة . على أنه ما كاد يصل إلى دير السيدة العذراء (السريان) حتى طارت روحه إلى العالم العلوى تاركة وراءها مظالم هذا العالم ومآسيه . فأقيمت عليه مراسيم الصلوات الجنائزية هناك ، ودفن بالاكرام اللائق فى بيعة ذلك الدير المقدس (٢) .

* * *

ومرة أخرى نجد خطاباً من سيريل لوكار إلى رئيس أساقفة سيالانرو يشير فيه إلى البعثة القبطية المزعومة إلى كليمنت الثامن فيصفها بأنها « نصب » و « حيلة » و « مهزلة » . وفى خطاب ثالث إلى السيد دى ويلهلم يتحدث عن

(١) يعقوب نخله روفيله : ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٢) سلسلة . . . الحلقة الرابعة ص ٨٦.

المصائب التى يبدوا أنها أصابت القبط على أثر نيـــاحة باباهم فيقول فى قسوة : « هؤلاء المساكين التعساء يسيرون من سىء إلى أسوأ ، ولا يمكن أن نتوقع فى النهاية غير خرابهم التام لأنهم لا يرضون بأن يضعوا أنفسهم تحت حكومتنا ، الامر الذى حاول سلفائى على مدى سنين طويلة أن يبلغوه فكانت جهودهم فشلا وعبثاً مما جعلنى أن أصمم على عدم السير فيه »[1].

(١) قاموس السير المسيحية ج ١ ص ٦٧٩ حيث جاء :

"In another letter, addressed to the Archbishop of Spalatro, he alludes again to the so-called Coptic embassy to Clement VIII, and calls it "an imposture", "a trick", "a farce". and in a third letter to a M. de Wilhelm, when speaking of the troubles which had apparently lately come upon the Copts through the death of their patriarch, he has the heartlessness to write : "... These poor wretches go on from bad to worse, and one can expect no other end but their total ruin, because they will not place themselves under our government; which as my predecessors tried for many years with loss and in vain, I have determined not to undertake".

د - الأنبا مرقس الخامس

٢٧ - الاجماع على انتخاب مرقس المكارى ٢٩ - انحراف مزعج
٢٨ - الدائب على تفقد الشعب ٣٠ - تربص الصقر
٣١ - الصمود فى جبهتين ثم الراحة الكبرى

٢٧ - وظل الكرسى المرقسى شاغراً فترة من الزمن (١). إذ كيف يستطيع الأساقفة والأراخنة أن يجتمعوا ويتشاوروا وسط الفتن والقلاقل ؟ إلا أن العناية الإلهية دائمة الفعالية حركت المسئولين إلى وجوب العمل « بالضرورة الموضوعة عليهم » . وبهذه الدفعة الإلهيـــة اجتمعوا وتشاوروا فيمن يريدون انتخابه للرياسة العليا .

وكان فى بلدة البياضية رجل يعمل قياساً فى أعمال المساحة . وبعد أن اشتغل بهذه المهنة عدة سنوات اشتاقت نفسه إلى الحياة الرهبانية . فترك وظيفته وأهله وانضم إلى رهبان دير الأنبا مكارى أبى برية شيهيت واتخذ اسم الكاروز الحبيب « مرقس » . وقد اشتهر بين إخوته بالصبر والورع وحب الخير والدأب على الخدمة . فلما اجتمع الأساقفة والأراخنة للتشاور معاً اتفقوا برأي واحد على مرقس المكارى ، وبتدارسهم مزاياه أجمعوا على أنه الرجل الذى يبتغونه . فذهبوا لفورهم إلى الدير واقتادوه إلى القاهرة . وتمت مراسيم رسامته فى يوم الأحد الموافق ٢٦ بؤونه سنة ١٢٢٧ ش فى كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس

(١) جاء فى بعض الكتب أنها لمدة شهور فقط بينما ذكر البعض الآخر أنها امتدت إلى عدة سنوات ، ولو رجعنا إلى سجل الباباوات كما أورده مرقس سميكة فى «دليل المتحف القبطى» (وهو الذى نتبعه) ج ٢ ص ١٦٨ لوجدنا أن الانبا غبريال الثامن تنيح سنة ١٠٩٤ ، وأن الانبا مرقس الخامس نال الكرامة البابوية سنة ١٠٢ ١ - أى أن الفترة ما بين نياحة الواحد ورسامة الآخر بلغت ثمانى سنوات .

(أبي السيفين) . ورأس الصلوات الاحتفالية أنبا خريستودولو النقادى محتفظاً له باسمه الكريم فأصبح الأنبا مرقس الخامس البابا الاسكندرى الثامن والتسعين.

٢٨ - ولقد اشتهر هذا البابا بسعة العلم والتضلع فى الشرائع . وداب على تفقد شعبه فطاف بينهم من الدلتا إلى الصعيد ليقوى عزائمهم ويثبت ايمانهم . بل لقد امتد اهتمامه بأبنائه إلى السفر للقدس لزيارة شعبه هناك . فتبرك بالمزارات المقدسة ، وعاين أملاك البابوية ، ثم عين القمص يعقوب رئيساً لكنيسة القيامة وأهاب بالشعب أن يتعاون معه فى صيانة الممتلكات والحرص عليها بكل دقة .

٢٩ - وكأن متاعب تلك الفترة لم تكن كافية إذ قد زاد بعض أولاد الأنبا مرقس الخامس فى وجعه . ذلك أن قبط الدلتا زعموا أنه فى الإمكان أن يتزوج المسيحى بأكثر من امرأة . فوبخهم وأفهمهم ان من يتزوج بأكثر من إمرأة يتعدى الشريعة المسيحية . فغضبوا لتوبيخه إيام وتمادوا فى غيهم بأن طلبوا إلى الوالى ان يسجنه . فلبى طلبهم وأمر بحبسه فى برج الاسكندرية . والموجع أن مطران دمياط انحاز لهؤلاء الخاطئين المتمردين زعماً منه أنه بهذا الانحياز يحل محل البابا المرقسى ا وعلى أثر ذلك قام أراخنة القاهرة بواجب البنوة المكرمة للأبوة فبذلوا كل جهودهم فى سبيل الافراج عن باباهم . ومن نعمة الله أن نجحت مساعيهم . فخرج الأنبا مرقس مرفوع الرأس ، وجمع مجمعه وتناقشوا معاً فى الزواج المسيحى وهل هو بين رجل واحد وامرأة واحدة أم يحتمل تعدد الزوجات . وانتهوا إلى أن السيد المسيح له المجد علم المؤمنين بأن الزوجية سر مقدس وأنها واحدة لكل من الطرفين . ثم أصدروا بعد ذلك الحكم بحرم المطران الذى نسى كرامة الاسقفية وجرى مع من زاغوا .

ومن الواضح أن الله تعالى أنزل بالقبط الخاطئين العقاب على هذا الانحراف

رغم عودة البابا إلى كرسيه : فقد ضيّق الولاة عليهم ثم أمروا بإبعادهم عن بلادهم ، وبعد ذلك صادروا أموالهم وبددوا أرزاقهم [١] .

على أن التصالح كان قاصراً على المحيط الكنسى وحده لأن الشعب المصرى إذ ذاك انتفض انتفاضة صريحة ضد التعسف التركى فقامت ثورة بدأت فى طنطا وامتدت نحو القاهرة . ولكن جنود الوالى استطاعوا أن يخمدوها بقسوة فى الحاسكة [٢] .

٣٠ - أما الحبشة فقد ظل السلام مستتباً فيها إلى سنة ١٦٠٧ حين آل العرش إلى سوسينيوس . ومرت شهور بعد ذلك استمر فيها السلام ناشراً ألويته . على أن بدرو بايز اليسوعى الذى ظل فى الحبشة استمر يرقب أمورها بعينى الصقر منتظراً فرصة مواتية . ثم أخذ يعمل على استمالة قلب الملك حتى فاز به إلى حد جعله يعلن انضمامه إلى الكنيسة الكاثوليكية . وسكت الشعب فى بادىء الأمر وَهماً منه أن هذه نزوة ملكية عابرة وارتكاناً إلى أن التجارب الماضية قد عصمت الملك . على أنهم لم يلبثوا أن فوجئوا بأن الموضوع خطير لأن الملك أعلن انضمامه إلى كنيسة رومية . وزاد على ذلك بأن رحب بمنديز البطريرك الموفد له منها . فأخذ منديز يعامل الأحباش المحافظين على أنهم وثنيون بأن أغلق كنائسهم . أما من قبلوا الانضواء تحت رعايته فقد حتم عليهم إعادة معموديتهم ، كما حتم إعادة رسامة الكهنة منهم وإعادة تكريس الكنائس التى استولى عليها . فلم يؤد هذا كله إلا إلى قيام ثورة عارمة . وساند المطران القبطى الشعب فى ثورته معلناً الحرم على كل من يخرج على العقيدة الأرثوذكسية . وعندما قامت حرب أهلية

---

(١) الكافى ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) مصر والهلال الخصيب ص ٧٥ .

مرة أخرى استمرت ست سنوات راح ضحيتها العـــدد العديد من الشعب . فتكررت المأساة : مأساة الحرب بين الإخوة التى أشعلتها المطامع الرومانية [١] .

٣١ - وبالطبع دعم البابا المرقسى أبناءه المتمسكين بعقيدتهم فازدادوا ثباتاً . فكان صمود الثابتين على أرثوذكسيتهم فى تلك الفترة صموداً على جبهتين : الجبهة الاولى فى مصر فى وجه البطش التركى ، والجبهـــة الثانية فى الحبشة فى مواجهة المناورات الكاثوليكية . وفى تلك الفترة بالذات تم النصـــر لابناء الكنيسة القبطية على الجبهتين .

وبعد أن نجح الانبا مرقس الخامس فى قيادة دفة الكنيسة بحكمة مدى إحدى عشرة سنة انتقل إلى بيعة الابكار . وبعد الصلاة عليه فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة - مقر رياسته - نقلوا جثمانه الطاهر إلى دير الانبا مكارى الكبير ببرية شيهيت [٢] .



(١) يعقوب نخله روفيله ص ٢٥١ - ٢٥٢ قاموس السير المسيحية ج ١ ص ٦٨٠ .
(٢) سلسلة . . . ص ٩٢ .

هـ - الأنبا يؤنس الخامس عشر

٣٢ - وفاق روحى
٣٣ - عطف ونزاهة
٣٤ - استبداد تصاعدى
٣٥ - فى الحبشة وفى القدس
٣٦ - رحلتان راعويتان
٣٧ - خطية مزدوجة

٣٨ - مجهودات ضاعت واخرى باقية

٣٢ - وكان يعيش فى ملوى إذ ذاك رجل اسمه يؤنس عفيفاً عالماً بالكتب الروحية، لم يلبث أن ترك بلدته واتجه نحو دير الأنبا أنطونى العظيم حيث ترهبن. وقد عاش عيشة نموذجية إذ عرف فيه إخوته نقاوة القلب والمحبة الملتهبة الكنيسة والتقوى والورع. وانتشر عبير فضائله فى ربوع مصر. فلا عجب أن اتجهت إليه الأنظار يوم أن شغرت السدة المرقسية، ولكن العجب فى سرعة تنفيذ الرسامة فصلته الأساقفة زمام الكنيسة بعد سبعة أيام فقط من نياحة سلفه إذ قد تمت شعائر رسامته يوم الأحد الموافق ١٥ /٩/ ١٦٢١ م باسمه الرهبانى فأصبح بذلك الأنبا يؤنس الخامس عشر البابا الاسكندرى التاسع والتسعين.

٣٣ - ولقد تميّز هذا الأب بعطفه الشديد على الكهنة، وبنزاهته التامة. فلم يكن يحابى انساناً مهما علت منزلته ولم يكن يظلم انساناً مهما بلغت ضعته. وهذا الانصاف الدقيق جعل شعبه يطلق عليه لقب «القاضى العادل».

٣٤ - ومع أن التنظيم المـــدنى الذى كان موضوعاً للعمل به فى مصر كان متدرجاً ليضمن تدرجه استقرار الامور إلا أن طريقة تنفيذه أضاعت قيمته تماماً. لأن كل طبقة من المسئولين كانت بمثابة الجاسوس على الطبقة التى تليها تترّبص بها وتنقضّ عليها فى كل مناسبة. فالصناجق - أو حكام الاقليم - كان عليهم الاشراف على الرى والزراعة وإقامة الجسور الضرورية، كما كان عليهم

حماية الفلاحين من عبث العربان . وكان جميعهم من المماليك الذين لايدركون معنى المسئولية ولا يهمهم غير ابتزاز الأموال التى يجمعونها ليستمتعوا بها فى القاهرة تاركين الامور لنوابهم - الكشاف . وكان المهم الاكبر للكاشف الاشراف على جمع الأموال الأميرية ومراقبة جامعيها . وجمع هذه الأموال كان من الواجبات الموضوعة على القبط . وليس من شك فى أن الذى وكل إليهم هذا الواجب كان على جانب كبير من الدهاء لأن جامع المال مكروه حتى إن كان سهل المعاملة . ولكن كيف يتأتى له أن يتساهل والكرباج مسلط فوق ظهره ؟ ثم كيف يستطيع الكاشف المشرف عليـــه أن يتسامح معه وهو بدوره تحت ضغط الصنجق (المملوك) ؟ فكان الحكم إرهابيا لم يكن ممكنا لاحد أن يفك حلقاته المفرغة غير المماليك بأزاء الوالى - الباشا - الموفد من سلطان تركيا . لانهم كثيراً ما كانوا يتكتلون ضده ، بل كثيراً ما تسببوا فى عودته إلى بلاده .

ولم تكن الأموال المفروضة على أصحاب الوظائف وعلى المزارعين بالضريبة الوحيدة التى كان يجب على الاقباط أداءها ، بل كان عليهم دفع الجزية أيضاً (أى ضريبة المغلوب للغالب) . وأحيانا كانت تضاف إليها ضريبة خاصـــة تعرف « بالحوالى » - وهى ضريبة على الفرد [١] .

ومما زاد الطين بلة أن السنوات الأولى من القرن السابع عشر فاضت بالتمرد على الباشوات واحداً بعد الآخر بل لقد تحالف جند الباشا مع المماليك سنة ١٦٠٨ على العصيان لعدم موافقتهم على فرض ضرائب تعسفية . إلا أن الوالى (الباشا) تمكن من ردع العصاة يومذاك [٢] .

---

(١) الجمل ... تاريخ مصر فى العهد العثمانى لحسن عثمان ص ٢٠٤ .

(٢) الشهابى ص ٦٢٥ .

وخلال كل هذه الاضطرابات ذاق القبط ظلما مضاعفاً : فكثيراً ما كانوا يلزمونهم بالسير على الشمال ليتركوا اليمين لغيرهم ، وكثيراً ما كانوا يمنعونهم من ركوب الخيل . وما هو أمرّ من هذا كله : كثيراً ما كانوا يمنعونهم من إقامة شعائرهم الدينية . والتضييق بكل أنواعه فى العصر التركى كان لهدف واحد هو جمع المال . فاذا ما استطاع القبط ـ أفراداً أو جماعات ـ أن يرضوا جشع الولاة بما يقدمونه من مال انفرجت الضيقة إلى حين [١].

٣٥ ـ وخلال هذه الفترة استمر الشعب الحبشى يعانى الأمرّين نتيجة لاستمرار نشاط الرهبان اليسوعيين الذين أعمتهم رغبتهم فى السيطرة عن وجوب احترام كنيسة وطنية قديمة بناها القبط والأحباش معاً بدمائهم وجهودهم وحبهم .

ومما يجدر ذكره أن القدس كانت آنذاك تابعة لمصر الذى كان لواليها السلطة المباشرة على المدينة المقدسة [٢] .

٣٦ ـ وبما أن قلب الأنبا يؤنس الخامس عشر كان ملتهباً بحب الكنيسة فقد فاض بحب أولاد الكنيسة وبدافع هذه المحبة الفياضة ، وعلى الرغم من الفتن والقلاقل ، استطاع أن يقوم برحلتين راعويتين خلال بابويته التى قاربت العشر سنوات .

٣٧ ـ وبعد أن أتمّ رحلته الثانية ، وكان فى طريق العودة رأى أن يبيت ليلة فى أبنوب فى بيت رجل اسمه ابن حويدة . وكان هذا الرجل من أثرياء القبط فى تلك المنطقة ، ممن زاغوا عن الحق إذ كان يمارس التسرى . فقصد البابا إلى بيته لينصحه ويردعه .

---

(١) موجز تاريخ البطاركة ليعقوب جرجس وباشراف زاهر رياض ج ٢ ص ٧١ .
(٢) القدس عبر التاريخ لميخائيل مكسى ص ٦٩ .

وصحا الأنبا يؤانس من نومه فى منتصف تلك الليلة لما أحس به من وجع شديد فى بطنه . فطلب مركباً عند مطلع الصبح ركبها قاصـــداً السفر إلى مصر العتيقة فوراً . ولـكن الوجع اشتد عليه فى الطريق إلى حد أنه قضى عليه . فذهب به رجاله إلى البياضية حيث صلوا عليه ودفنوه فى دير القديس أنبا بيشاى . ويرى المؤرخون أن ابن حو ىدة أضاف إلى خطيته جريمة القتل إذ دس السم لبـابـاه فى شرابه . فبدلا من أن يتوب عن الخطية التى وبخـّه عليها باباه ، أو حتى بدلا من التزام الصمت بأزاء وقار المونِّخ ، اندفع بغريزته الشهوانية إلى قتـــل خليفة مار مرقس . وبهذه الجريمة الشنعاء أفقد القبط أبا رحيماً عادلا محباً [١] . وكانت مدة رياسته تسع سنوات وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوما .

٣٨ — وأحد المعاصرين لهذا البابا الساهر الذى راح شهيد واجبه ، هو الأنبا بطرس مطران البهنسة . ومن مآثره على شعب الـكنيسة عبر الأجيـال اهتمامه بتدوين القراءات الواجب تلاوتها كل يوم تبعاً للتذكار الذى تحتفى به الـكنيسة يومذاك . والطريف أنه كتب هذه القراءات فى قالب شعرى . ولـكن مما يؤسف له أنها ضاعت .

غير أن هناك مخطوطة باقية ترجع إلى هذه الفترة ، وهى ذات طابع خاص وتتضمن مختلف الأجزاء وجزؤها الخامس رسالة للأنبا مكارى الـكبير أبى برية شيهيت جاء فيها : « رسالة من الأب المـكرم أنبـا مقار (الذى) سمعها من ملاك الرب الموكل بالنفس وهو يوبخّـها ويبكتـّها على فعل الخطايا . يا أحبـــاء المؤمنين بالله السلام . السلام لـكم . ومع كلام ملاك الرب للنفس الانسان الموكل بهـا لترتدع عن أفعالها الذميمة » .

---

(١) « تاريخ الـكنيسة لأسقف فوه » ص ١٨٦ .

وناسخ المخطوطة هو أيضاً رسّام للصور المقدسة واسمه أورياك ، وهو شماس وابن القس أبو المنا . وفى الورقة ١٤٧ (ظهـــر) ملحوظة تفيد أن المخطوطة وقفه على كنيسة السيدة العذراء المعروفة بالدمشرية . وكاتب الملحوظة هو الايغومانس غبريال كاهن تلك الكنيسة الذى وضع عليها تاريخها وهو سنة ١٤٣٧ ش [١] .

القس يوسف الزبر البرماوى : كان خادماً لكنيسة مار جرجس ببرما ، ويؤخذ من كتاباته أنه عاصر الباباوين : الأنبا يؤنس الخامس عشر وخليفته المباشر الأنبا متاوس الثالث . والشىء الوحيد الذى نعرفه عنه إلى جانب كهنوته هو أنه كان كاتباً للأمير غيطاس . وقد أخبرنا أنه وضع بعض كتاباته فى بيته الخاص وبعضها فى دار الأمير الذى كان حين يراه يكتب يدعه فى خلوة ولا يمنعه منه . ومن الكتب المتبقية عنه مخطوطة محفوظة بالمتحف القبطى رقم ٣٦٢ مكتوبة بالقبطية والعربية والتركية . وهذه المخطوطة - مع كونها أبصالية - تتضمن صلوات البصخة أيضاً . ويذكر كاتبها أنه وضع هذه الصلوات تبعاً للترتيب الذى أتبعه أنبا غبريال بن تريك البابا الاسكندرى السبعون . وثمة مخطوطة أخرى محفوظة بالكنيسة فى برما تشتمل على عدة أبصاليات باللغتين القبطية والعربية منها : أبصالية للشهيد العظيم مار جرجس مرتبة على الحروف الأبجدية القبطية توضح لنا إلى أى مدى كان القس يوسف يجيد لغته القومية ، أبصالية توسلية للعزة الإلهية . وقد وضع لها مقدمة فيها شىء من الفكاهة ترغيباً للقارىء فى مطالعتها . فقد قال . « أبصالية أدام ليس لها طالب وليس لها راغب . رتبتها من شقاوتى بخصوص كتابتى . . . وما الجانى إلى هذا إلا كثرة فشارى وخفة

---

(١) مخطوطة ٤٦ (٣٠ أدب) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .

عيارى وعدم اعتبارى . فأرجو يا قارى تطلب من الله محو أوزارى » وله أيضاً كتاب خاص بالقانات ضمَّنه مديحاً لقديسى برية شيهيت يترنم به زوّار هذه البرية عند ذهابهم إليها . وهذه المديحة تبيِّن لنا فصاحة القس يوسف وتفوّقه فى اللغـــة العربية .

وللآن لانعرف إن كان عمله عند الأمير عن اختيار أو اضطرار . ولـكننا نعرف أن الظاهر بيبرس أخلى طرف ابن كبر عند رسامته كاهنـاً على كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) . ولـكن قد يرفض غيره التخلى عن كاتبه حتى إذا أصبح كاهناً . على أية حال ليس لدينا إجابة قاطعة فى هذا الموضوع [١] .



(١) من مقال للقمص أرمانيوس حبشى شتا البرماوى نشره بمجلة المحبة ـ العدد الرابع من السنة الخـامسة ـ أبريل سنة ١٩٣٩ ص ٢٩٨ ـ ٣٠٢ بعنوان « القس يوسف الزبر البرماوى » .

الشعاب المتعرجة

١ـ أنبا متاوس الثالث

٣٩ ـ ووسط القلق والفوضى ، وأمام المباغتة المريرة التى هزّت الشعب من تردّى أحد أبنائه فى هوة الخطية السحيقة ، أدرك الجميع بأن الضرورة الموضوعة عليهم هى أن يسارعوا إلى انتخاب الراعى الأعلى الذى يمكن للناس أن يفزعوا إليه فى شدتهم فدفعهم هذا الادراك الصحيح لمسئوليتهم إلى الإجتماع والتشاور: فدعا الأساقفة الأراخنة وتبادلوا وإيام الرأى فيمن يختارونه. وفيما هم يتشاورون أرشدهم الروح القدس إلى راهب اسمه تادرس فى دير الأنبا مكارى الكبير . وبالبحث تبيّن لهم أن هذا الراهب ولد فى طوخ النصارى بالمنوفية من أبوين تقيين اشتهرا بخوف الله وبالصلاح ، سهرا على تربيته فأنشآه على التعلّق بعلوم الكنيسة وألحقاه بكتّاب البلدة (٢).

ولما بلغ سن الشباب تاقت نفسه إلى حياة الخلوة والتأمل فى الإلهيات . وكلما ازداد تفكيراً فى الموضوع ازدادت نفسه شوقاً إليه . فلما طغى عليه هذا الشوق ترك أهله وبلدته واتجه نحو برية شيهيت قاصداً إلى دير الأنبا مكارى الكبير .

(١) تعبير من تعبيرات القداس الإلهى .

(٢) الكتاب اسم المدرسة التى كانت ـ خلال العصور الوسطى ـ ملحقة بالكنيسة أو بالجامع ـ وكانت هذه المدارس هى الشائعة فى بلادنا حتى أواخر القرن التاسع عشر .

واتخذ من حياة هذا القديس العظيم نجمه الهادى الذى سار على ضوئه . فدرب نفسه على التواضع وعلى خدمة الآخرين فى وداعة ومحبة . ووجد فيه الرهبان أخاً محباً عطوفاً عثلاً صلاحاً وملتهباً غيرة فانتخبوه ليكون رئيساً عليهم ، ورجوا من البابا رسامته قساً فقمصاً . فزاده الكهنوت محبة وتفانياً . فلما استعرض الأساقفة والأراخنة سيرة هذا الراهب القمص أجمعوا على انتخابه . فتمت رسامته يوم الأحد ٨ سبتمبر سنة ١٦٣١ باسم متاوس الثالث . وبذلك أصبح المئة فى سلسلة الباباوات المرقسيين .

٤٠ - وكانت الفترة الأولى لبابويته فترة من تلك الفترات العابرة الممتلئة سلاماً . فنعم الشعب بالصلاة ونعم البابا بتفقده شعبه ورعايته .

على أن السلام لم يلبث أن تبخر . ذلك أن نفراً من أخوان السوء قابلوا الوالى - خليل باشا - وأوغروا صدره ضد الأنبا متاوس بأن أفهموه أن من يقام بطريركاً عليه أن يدفع رسماً معيناً للوالى وبالطبع أخذوا على عاتقهم المبالغة فى مقدار هذا الرسم فزعم خليل باشا أن البابا المرقسى تجاهله شخصياً وتجاهل دفع المبلغ المفروض وأرسل يستدعى رجل الله .

وسمع بعض الأراخنة بهذه المؤامرة المدبرة ضد أبيهم الروحى فسارعوا إلى القلعة وطلبوا الاذن فى مقابلة الوالى فأذن لهم بالدخول . وتحدث إليهم من غير أن يطلب منهم استحضار الانبا متاوس - لأن بركته ومحبته الفائضة بالتواضع جعلت الله تعالى يسدل على ذاكرة الوالى ستاراً من النسيان فاكتفى بالتحدث مع الأراخنة . وبعد أخذ وردّ فرض عليهم غرامة مقدارها أربعة آلاف قرش وصرفهم مشدداً عليهم باحضار المبلغ المطلوب على الفور . وامتلأ الاراخنة غماً . ومن مراحم القدير على شعبه آنذاك أنه حنن قلب رجل يهودى

فأقرضهم المبلغ لساعته على أن يسددوه له فى أقرب فرصة [1]. فشكره الأراخنة وقدموا السبح لله المتحنن الملين القلوب. وصعدوا لساعتهم إلى القلعة وقدموا لخليل باشا المال الذى طلبه.

٤١ - وبما أن الأنبا متاوس الثالث كان ناسكاً زاهداً فإنه لم يكن يملك من المبلغ المفروض درهماً واحداً. فرأى أن يستعين بأولاده. وعلى ذلك ركب مركباً سارت به فى النيل جنوباً. فكانت زيارة بابوية مبروكة للصعيد التى فيها الأب الروحى الأعلى بأولاده وامتلأت القلوب فرحاً بهذا اللقاء وقدم كل واحد ما فى إمكانه مساعدة منه للأنبا متاوس الذى رجع إلى القاهرة ممتلئاً غبطة بإزاء تلبية أولاده لندائه.

٤٢ - وخلال هذا الانسجام الروحى وجد الموهوبون فرصة للتعبير عن مواهبهم. ومن مخلفات هذه الفترة كتاب مخطوط يتضمن صلوات البسخة المقدسة - قبطى وعربى - زينت صفحاته بالنقوش الدقيقة الملونة بشتى الألوان والمموهة بالذهب. أما الهوامش فحلاة بأشكال من الطيور والحيوانات الملونة أيضاً. وقد جاء فى آخر هذا المخطوط لمحـــة عن تاريخ الميرون وردت فى آخرها هذه الكلمات. « ان البطريرك مرقس الواحد بعد المئة وجد فى سنة ١٣٧٠ للشهداء خمسة أوعية زجاج مملوءة من الميرون بحاصل الكنيسة بعد أن كانت متروكة من زمن بعيد ونقلت على يد البطريرك أنبا متى الثانى بعد المئة إلى الكنيسة (بحارة زويلة) ووضعوها بالحائط الشرقى [2] ».

ومما يلفت النظر أن الشعب حين استمتع بالراحة عبر عن فرحته بهذا الهدوء

---

(١) يبدو لنا هذا المبلغ ضئيلا ولكن لا بد أنه كان باهظاً يوم ذاك وإلا لما امتلأوا غماً ولما احتاجوا إلى أن يقرضهم اليهودى المال المطلوب.

(٢) مخطوطة رقم ٤٠٨ محفوظة بالمتحف القبطى بالخزانة رقم ٣٠.

فقال لنا أحد المؤرخين أن مصر زينت خمسة أيام للرخاء وحسن فيضان النيل مما أدى إلى رخص الأسعار [١]. لحق عليها المثل الشائع : «الكعكة فى يد اليتيم عجبة» !

٤٣ - على أنه من الواضح أن أيام الهدوء كانت عابرة إذ لم تلبث أن انتهت، وجاءت فى أعقابها أيام من الشح والقحط . ولم يكن فيضان النيل ناقصاً لحسب بل هبطت مياهه فجأة أيضاً [٢] ! ومن المؤلم أن هـذا الهبوط فى منسوب النيل استمر سنتين فارتفعت أسعار الحاجيات ارتفاعاً باهظاً ، وعم الجوع بشكل مزعج فقضى على المئات من الناس .

وكأن هذه البلايا لم تكن كافية بل زاد عليها أن الوالى قصد إلى المحلة الكبرى فوجد بها كنيسة عظمى من أفخم العمارات القديمة ، كما وجد بها عدداً من الكهنة يؤدون فيها الشعائر كل بدوره . فاستعظمها على القبط وأمر بهدمها . ثم زعم أنه يستطيع أن يكفر عن جرمه هذا ببناء مدرسة مكان الكنيسة التى هدمها [٣] .

على أن التناغم الذى وضعه الله لحياة المصرية هو تناوب الفيضان والهبوط فعاد النيل إلى وفائه بعد السنتين المريرتين وروى بفيضه الأرض العطشى ، فأعطت محاصيلها بوفرة ، وأعادت الطمأنينة إلى القلوب .

٤٤ - ثم حدث حادث غاية فى الغرابة يتلخص فى أن السلطان العثمانى أرسل إلى واليه فى مصر (واسمه أحمد باشا الكورجى) اثنى عشر ألف قنطار من النحاس ليسكها نقوداً ويدفع له مقابلها ثلاثمائة ألف محبوب [٤]. فأذعن الوالى للأمر وأعد المعامل والعمال وبدأ يعطيهم النحاس شيئاً فشيئاً . ولكن العمل كان مرهقاً إلى حد أن عدداً وفيراً من العمال مات من الاعياء . وحار الوالى فى أمره . فجمع

---

(١) الشابى ص ٢١٨ . (٢) التوفيقات الإلهامية ص ٥٢٠ .

(٣) الكامل ج ٣ ص ٦٠ . (٤) كان المحبوب إذ ذاك بمثابة الجنيه الآن .

فى القلعة ذوى الشورى من الأمراء والقضاة . وعرض عليهم الموضوع . وأشار عليه أحد القضاة بأن يجبر المصريين على شراء النحاس بواقع ثمانين قرشاً للقنطار وأقره الباقون على رأيه . وعندها أنزل الوالى رجاله بالنحاس يفرضون شراءه على الجميع : أغنياء وفقراء . فأدى هذا إلى ضرر بالغ إذ قد اضطر الكثيرون إلى دفع أرزاقهم . وتضاعفت المأساة بارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً . ولكن ما قيمة الشعب وآلامه فى نظر من يستهدف ملء جيوبه ! إلا أن العجب العجاب هو أن السلطان حين علم بما حدث غضب على واليه غضبة جامحة فأقاله من ولايته ! ولما مثل بين يديه قال له فى حدة ، لقد أرسلت النحاس إليك لتسكه عملة يتعامل بها الناس ـ فما الذى دهاك حتى ألقيت به عليهم فظلمتهم ؟ ، وبعد هذا التعنيف أمر بضرب عنقه [1] !

٤٥ ـ وحدث أن تولى عرش الحبشة الملك فاسيلاوس سنة ١٦٣٢ . وتلفت حوله فوجد أن الرهبان الكاثوليك مازالوا على خطتهم من خطف أولاد الكنيسة الأرثوذكسية . وامتلأت نفسه غضباً على هؤلاء المارقين ، فأخذ يطاردهم . وأمر بمنع أى أجنبى من دخول بلاده ما عدا الراغبين فى التجارة وكسب الرزق . وبهذا الحزم أعاد الملك فاسيلاوس الأمن والوحدة بين صفوف شعبه وانتظمت الصلة القديمة بين الكنيسة الحبشية وأمها الكنيسة القبطية .

وما أن استقرت الأمور حتى بادر الملك بإرسال خطاب إلى البابا الاسكندرى يبلغه فيه بأنه قد نقى بلاده من دسائس الكاثوليك ويرجو منه رسامة مطران قبطى لهم . ولبى البابا متاوس هذا الرجاء فرسم مطراناً باسم مرقس وأرسله إليهم . على أن المطران واجه متاعب شديدة فى تلك البلاد رغم ما قام به الملك من جهد فى سبيل التناسق الروحى .

---

(١) التوفيقات الإلهامية ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣ .

ثم نجح الملك فاسيلاوس فى وضع حد لهذا التلاعب الرومانى بأن وقع على معاهدة مع سلطان تركيا مؤداها أن يمنع الباب العالى مرور أى مبشر داخل سلطنته . وقد جاء فى تعليق لودولف [١] على خـــلاص الاثيوبيين من عبث الجزويت : « قوله لقد نجت خراف أثيوبيا من أولاد آوى الغربيين بقوة عقيدة الرسولين القديس مرقس والقديس كيرلس عامودى كنيسة الاسكندرية . رنموا . هللوا . وافرحوا يا خراف أثيوبيا » . وتاريخ الكنيسة الحبشية من ذلك اليوم هو تاريخ كنيسة صممت من جميع الوجوه أن تقاوم المبشـــرين الاجانب [٢] .

٤٦ ـ وترامت أنباء الاضطراب والشغب الطاغية على الحبشة إلى المصريين فذكرتهم ببطش الرومان كما ذكرتهم باستبداد الصليبيين . والعجب فى الأمر أن القبط رغم هذه الذكريات الموجعة لم يأنفوا من اقامة بعض الرهبان الكاثوليك فى مصر وهذه السماحة المصرية وإن تكن فضيلة مسيحية إلا أنها كانت فى غير محلها ـ فوداعة الحمام يجب أن تقترن بحكمة الحيات ـ لأن هذه السماحة بعينها هى التى أطمعت الكاثوليك وغيرهم من بعدهم فى أبناء كنيستنا العريقة

---

(١) مستشرق ألمانى عاش فى القرن السابع عشر ـ وهو أول أوربى كتب تاريخ أثيوبيا . وقد استرشد فى كتابته بالأنبا جريجورى مطران حبشى عالم .

(٢) قاموس السير المسيحية ج ١ ص ٦٨ حيث جاء :

Ethiopia celebrated the expulsion of the Jesuits by an epigram given by J. Ludolph : "The sheep of Ethiopia have been deliverd from the hyenas of the West by the doctrine of the Apostles St. Mark and St. Cyril, the pillars of the Alexandrian Church. Sing, rejoice, and be glad, ye sheep of Ethiopia". The history of the Church of Abyssinia is, from that day, the history of a Church which has, to all intents and purposes, resisted foreign missions . . . a treaty was made between the emperor and the Turks which prevented the missionaries passing into the country .

٤٧ - ثم رأى الأنبا متاوس أن يقوم بتفقّد أبنائه فى الوجه البحرى وبدأ رحلته بدءاً به إلى طنطا ومنها إلى برما[1]. ثم قصد إلى طوخ مسقط رأسه. وحين سمع الأهالى باقتراب باباهم خرجوا جميعاً لإستقباله فرحين مستبشرين، وألّفوا له موكباً سار أمامه وخلفه: البعض يحملون الشموع الموقــدة والبعض الآخر المجامر الملأى بالبخور، بينما حمل الكهنة صلبانهم. وسار الكل وهم يترنمون بالصلوات والتسابيح الروحية. وما أن وصلوا المدينة حتى ذهبوا إلى الكنيسة رأساً. وقد رجا شعب طوخ من باباه أن يبقى فى وسطهم. فأقام بينهم سنة كاملة يعلمهم ويوجههم التوجيهات الروحية البناءة.

٤٨ - وحدث أن كان سبت لعيازر - ذلك السبت الذى عرف فيه الناس سلطان فاديهم على الموت إذ قد دعا حبيبه من القبر وأعاده إلى أختيه. فأقام الأنبا متاوس الصلوات. وبعد أن سعد الناس بالصلاة معه وبتناول الأسرار المقدسة من يده، جلس عند باب الكنيسة يستقبل زائريه وطالبى تعاليمه الروحية. ثم حانت منه التفاتة إلى ركن من أركان الكنيسة فوجد به بعض النسوة جالسات فى خشوع ووقار. فسأل كهنته: «ما الحافز لهاته النسوة على البقاء داخل الكنيسة حتى الآن؟» أجابوه: «لقد تناولن من الأسرار المقدسة وهن لذلك يرغبن فى البقاء داخل بيت الله صوناً لكرامة الأسرار». فتنهد بالروح وقال: «حقاً إن النسوة يسعين لأن يسبقننا إلى الفردوس».

وما كاد يتفوه بهذه الكلمات حتى جاء أحد الشمامسة يقول: «يا أبى[2] البطريرك

(١) ما زال هناك مخطوط يتضمن سيرة الشهيد العظيم مار جرجس والآيات والعجائب التى جرت بواسطته وبناء أول كنيسة على اسمه بمصر فى نواحى برما وتكريس هذه البيعة فى ٣ بؤونه (دون ذكر السنة) - مخطوطة ٤٩٦ رقم ٧٦٧ محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة.

(٢) هذا النداء «يا أبى» يبين لنا أن القبط لم ينادوا على رؤساء رعاتهم إلا بلقب «الأبوة» فهو الدليل على الصلة الوثيقة الدالة على المحبة بينهم وبين باباواتهم. أما «سيدنا» فتعبير دخيل لا نجده إلا فى عصرنا الحاضر.

ـ لقد اتفق جماعة منا على الذهاب لزيارة الاماكن المقدسة فى السنة القادمة بإذن الله ، ونحن نرغب فى أن تكون ضيفنا فى هذه الرحلة المباركة » . فأجابه البابا بصوت يسمعه كل من حوله : « ها هنا يكون قبرى ـ فى هذه البيعة المقدسة . ولن أبرح هذا المكان لغيره » . ثم قام ليستريح قليلا كعادته . وصرف الناس بالبركة .

٤٩ ـ ومن الطبيعى أن المحيطين به تركوه حين دخل غرفته الخاصة . وبعد قليل دخل عليه تلميذه ليرى إن كان قد نام أم مازال مستيقظاً ، فوجد انه قد نام نومته الأخيرة . وجده راقداً على سريره ووجهه نحو الشرق ويداه على صدره على مثال الصليب . فخرج لساعته وأخبر الكهنة . فدخلوا ليتحققوا الأمر ووجدوا أنه فعلا قد تنيح بسلام . وكان وجهه يسطع لامعاً كالشمس [1] . فحملوه إلى البيعة وصلوا عليه ودفنوه بها ـ وهى على اسم الشهيد العظيم مار جرجس .

وقد تنيح البابا متاوس فى شيخوخة صالحة بعد أن قضى حياة مليئة بالبر فى عشرة وثيقة مع الله [2] .



(١) هذه ظاهرة اختبرها كل من تأمل أحد أحبائه الملتصقين بالله نائماً نومته الأخيرة .
(٢) كتاب رقم ٤٧ تاريخ بالمكتبة البابوية بالقاهرة ص ٣ .

ب ـ الأنبا مرقس السادس

٥٠ ـ من الأمور مايستوجب التريث ومحاولة استشفاف النتائج المترتبة عليها. واهم أمر من هذه الأمور انتخاب البابا المرقسى لأن عليه ستقع أعباء جسام، وعليه يتوقف إلى حد كبير استقرار الشعب القبطى. فهو الراعى الأول الذى بحكمته يملأ القلوب إيماناً وطمأنينة، وهو الذى بسوء تصرفه يملأ النفوس شعوراً بالخيبة. والانتخاب هو القاعدة المتمشية مع أحكام الله. لأنه تعالى قد منح الانسان عقلا يفكر وقلباً يشعر وروحاً تتـــأمل فى بدائعه. ثم ترك الحرية للانسان فى استعمال هذه القوى. ومعنى هذا أنه وضع أمام الانسان الحق فى أن يختار طريق الخير أو طريق الشر. والانتخاب ممـــارسة فعليـة لهذه المنحة الإلهية. ولو أن المسئولين فى الكنيسة فى فترة الانتخاب خلوا لى عقولهم وقلوبهم وأرواحهم واستلهموا الروح القدس قبل التشاور وبعده وخلال البحث عن الراهب الصالح، لكان تاريخ كنيستنا كله طريقاً صاعداً ممتداً من قمة إلى قمة. ولـكن من المؤلم أن الانفعالات الساخنة والأغراض الشخصية تطغى أحيـاناً على هذه القوى الواعية فتفقدها وعيها، وأحياناً تلعب السذاجة وتصديق الآخرين بلا تمحيص دورها. وفى الحالتين تكون النتيجة موجعة للكنيسة كلها، ولو أن الوجع الناتج عن الحالة الأولى هو ثمرة النزعات الخاطئة فى حين أنه ناجم عن نزعات طيبة فى الحالة الثانية.

والمسئولون فى الكنيسة ليسوا الناخبين وحدهم بل ان الموضوع يمتد ليشمل المرشحين فيتناسى البعض منهم فضائل الايثار والتواضع ووجوب تقدمة الآخرين تبعاً لوصية رب المجد إذ يخلبهم بريق الكرامة الملازمة للكرسى المرقسى . على أنه من مراحم الله أن مثل هذه النزوات الانتخابية كانت أقل عدداً من الانتخابات التى تمت فى تعقـّل واتزان .

٥١ – ولقد كان الانتخاب الذى جرى بعد نياحة الأنبا متاوس الثالث نتيجة لتصديق ساذج . فقد سمع بعض الأساقفة والأراخنة أن هناك راهباً بهجورى المولد أنطونى الدير اسمه مرقس قضى سنى رهبنته فى الدرس والمطالعة حتى تمكن من العلوم الدينية والتاريخ الكنسى . وكان بين أراخنة الشعب آنذاك رجل اسمه بشارة ذا كلمة مسموعة لدى الجميع فتلاقى مع زملائه الأراخنة وتشاوروا معاً ورأوا أن يختاروا مرقس البهجورى فذهبوا إلى دير العظيم أنبا أنطونى وأحضروه إلى القاهرة . ولما وصلوا وافقهم الأساقفة مباشرة على اختيارهم . وأقاموا صلوات الرسامة فى أيام الخمسين المباركة وبعد انقضاء تسعة عشر يوما فقط على نياحة البابا الراحل (١) . وقد رأس الاحتفال بالرسامة أنبا خريستودولو

---

(١) هنا أيضاً نجد فجوة فى التواريخ . فبعض المؤرخين يقولون بأن الأنبا متاوس الثالث قضى أربع عشرة سنة وستة شهور وثلاثة وعشرين يوماً فى رياسته . بينما يرى الآخرون أن المدة كانت عشر سنين فقط . ولكن حتى لو فرضنا أن مدة رياسته كانت خمس عشر سنة تكون رسامة الأنبا مرقس السادس قد تمت سنة ١٦٣٨ م ش . ولكن جدال البطاركة الوارد فى دليل المتحف القبطى يسجل رسامته سنة ١٦٤٢ . فكيف تكون رسامته قد تمت بعد نياحة سلفه بتسع عشرة يوما وأمامنا أربع سنوات ما بين نياحة الواحد ورسامة الآخر ؟ هذا إذا تغاضينا عما يقرب من السنوات الست الواردة فى بعض الكتب والمنسية فى البعض الآخر على أن المهم بالنسبة لتاريخ كنيستنا هو أن الباباوات تعاقبوا واحداً بعد الآخر حتى يومنا هذا سواءاً أجاءت رسامة الواحد منهم بعد نياحة سلفه مباشرة أو بعدها بفترة طالت أو قصرت .

أسقف بيت المقدس(١) باسمه الرهبانى «مرقس» - فأصبح البابا الواحد بعد المئة .

٥٢ - ومن الغرابة بمكان أن قامت خصومة عنيفة بين الانبا مرقس السادس وبين المعلم بشارة فى مستهل بابويته . ومع أن هذا المعلم هو الذى رأس وفد الاراخنة الذين تكبدوا مشقة السفر إلى برية الانبا أنطونى وقت الرغبة فى انتخاب مرقس الانطونى - بل أنه هو الذى دعا إلى انتخابه قبل ذلك وتتج عن هذه الخصومة مقاطعة كل منهما للآخر ! على أنه من نعمة الله أن أدرك الإثنان وجوب التصالح فتفاهما ونسيا خصومتهما وعادت المودة تربطهما .

٥٣ - كذلك حدث فى السنة الأولى لبابوية الانبا مرقس السادس أن نزل سيل جارف على مكة هدم جدران الكعبة . ولما كان عمال مصر لهم الشهرة الواسعة فى الشرق كله فقد ذهبوا لترميم الكعبة بجهدهم وعرقهم . ويقول المؤرخون ان مصـــر لم ترسل عمالها فقط بل أنفقت مالها أيضاً فى سبيل هذا الترميم . فدفعت ما يساوى اليوم ستة عشر ألفاً من الجنيهات (٢) . وهذه ظاهرة أخرى جديرة بأن نقف عندها لنتأملها قليلا . فمصر فى ذلك العهد كانت فقيرة يعيش فلاحوها على الكفاف رغم كدحهم النهار كله ، ولا يستطيعون حتى التعبير عن آلامهم إذ لم يكن من ينصت إليهم ولا من يهمه انصافهم . وكان عمالها يتقاضون الأجور الهزيلة التى بالكاد تسد حاجياتهم ورغم هذا كله فقد انصرف من مال هؤلاء الكادحين العائشين فى شظف وضنك ستة عشر ألفاً من الجنيهات ! ومثل هذا العمل يستثير النقد الساخر اللاذع من البعض الذين يرون فيه اهدار حق شعب مستكين ، بينما هو يستثير الاعجاب من البعض الآخر لانهم يرون فيه صورة رائعة من النزعة إلى الروحيات ومن التضحية والايثار .

---

(١) كتاب البشائر الأربعة المحفوظ بمكتبة كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة رقم ٢ فنية ٣٤ عمومية لاهوت . (٢) الشباك ص ٧١٧ .

٥٤ ـ ولم يكد الأنبا مرقس يشعر بالراحة لتصالحه مع المعلم بشارة حتى تمرد عليه بعض الرهبان بزعامة راهب اسمه « قدسى » [١]. فقد أصدر البابا أوامره الرهبان بوجوب إقامتهم فى أديرتهم وعدم خروجهم منها اطلاقاً إلا للضرورة القصوى . ومثل هذا الأمر يتفق مع القواعد الرهبانية والقوانين الكنسية . ولكن هؤلاء الرهبان الذين تمردوا على باباهم اندفعوا وراء رغبتهم فى الخروج متناسين تلك القواعد . ولم يكتفوا بالعصيان بل ذهبوا إلى الوالى وادعوا أمامه بأن البابا يضربهم ضرباً مبرحاً إلى حد أن البعض منهم يموت من جرائه ! وطبعاً وجد الوالى الفرصة مواتية لأن يزج بالبابا فى السجن . على أن الآب السماوى تدارك كنيسته فأيقظ ضمير الراهب قدسى ودفعه إلى أن يذهب إلى الوالى ويقر أمامه بأن التهم التى وجهها هو وأعوانه إلى البابا المرقسى لا أساس لها من الصحة لذلك يرجو الافراج عنه . ولقد قبل الوالى أن يفرج عن البابا المظلوم ولكنه فرض مقابل ذلك مبالغ ضخمة غرامة على أكابر القبط [٢].

٥٥ ـ وكان من المنتظر من الأنبا مرقس الذى عرف معنى الظلم أن يعمل فى نزاهة وانصاف فيجنب أولاده الشعور بمرارة التحيزات الظالمة . ولكنه سلك مسلكاً مضاداً وكأنما استثار فيه الظلم قوى الشر الكامنة فى أعماق النفس . فقد قصد إلى الصعيد بعد خروجه من السجن مباشرة وقضى أربع سنوات متنقلا فى ربوعه . ولو أن تنقله كان افتقاداً ورعاية لكان سبباً فى الفرح والطمأنينة . ولكنه إنما تنقل ليفرض على كل من ينزل عليهم مبالغ من المال يحتم عليهم دفعها . وكان فى تشدده معهم لا يتورع عن تعنيفهم بكلام غير لائق وبخاصة لخروجه من فم

(١) لم يذكر المؤرخون الدير الذى كان يعيش فيه هذا الراهب . ومما تجب ملاحظته أن اسم « قدسى » ليس من الأسماء الشائعة الاستعمال لدى القبط ـ راجع أيضاً ما جاء عنه فى كتاب « الأديرة المصرية العامرة » لصموئيل تاوضروس السريانى ص ٨٩ .

(٢) سلسلة . . . ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

الراعى الأول الذى يحمل للشعب صورة المسيح . فضج الجميع منه : أساقفة وكهنة وشعباً . ورغم ما رآه وأحس به من تضجر عام فقد أمعن فى تعسفه وفى اصراره على أخذ المال الذى يريده .

٥٦ - وإلى جانب هذا الضنك الذى ملأ قلوب القبط من بابام فقد صدرت الأوامر المشددة من الوالى بأنه ممنوع على أى قبطى أن يركب الخيل ، ولا حق لأى منهم أن يلبس طاقية حمراء ولا مراكيب حمراء ، ولا أحزمة حمراء ، بل تكون هذه كلها زرقاء اللون . ثم أمعن الوالى فى التثقيل على القبط بابطاله حقوق الوراثة واقامته نفسه وريثاً لمن يموت فيستولى بذلك على أموال اليتامى والأرامل والثكالى . ولكى يتسنى له أن يستولى على أكبر مقدار من الارث كان يقتل رجلا أو اثنين يومياً حتى لقد قيل بأن عدد ضحاياه بلغ ألفاً ومائتى رجل [1] !

٥٧ - وبعد انقضاء السنوات الاربع عاد الانبا مرقس السادس من الصعيد دون أن يحاول اصلاح الجفوة التى أحدثها تصرفه بينه وبين أولاده . ولكنه حين علم أن المعلم بشارة انضم إلى المتضجرين سعى إلى مصالحته شخصياً .

ومع أنه كان قد جمع أموالا طائلة من أهل الصعيد إلا أنه لم ينفع بها شعبه إلا بمقدار هزيل للغاية . فقد اكتفى ببناء قاعة للصلاة والاجتماعات فوق بيعة السيدة العذراء بحارة زويلة . وقد طلب الارمن الارثوذكس من الانبا مرقس أن يسمح لهم بتكريسها وإقامة الشعائر الروحية فيها ريثما ينتهون من بناء بيعتهم فى شارع بين السورين . فأذن لهم بذلك [2] . وهذه القاعة لا تزال موجودة للآن تستعملها الراهبات المقيمات بالدير الملحق بتلك الكنيسة .

---

(١) الشابى ص ٧٢٣ .

(٢) كتاب البسخة ٣١٢ طقس المحفوظ بالمتحف القبطى .

٥٨ - وقد عثر هـــذا البابا على خمس أوانى من الزجاج ملأى بالميرون فى اندور العلوى من بيعة السيدة العذراء بحارة زويلة ، كما عثر على زقين يحتويان الميرون أيضاً . فرفع الاوانى كلها من مكانها ووضعها على رف واقع فوق مدفن الأنبا يؤلس الثالث عشر فى البيعة المذكورة [1] .

٥٩ - ولقد تنيح الأنبا مرقس فى يوم الجمعة العظيمة من سنة ١٦٥٢ واحتفل الأساقفة بالصلاة عليه فى كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر العتيقة حيث دفنوه إلى جانب بعض من أسلافه فى المقبرة الخاصة بهم [2] .

٦٠ - ومن كبار الأراخنة فى هذا العصر يوسف أبو دقن المنوفى ، وضع كتاباً بعنوان « التاريخ الحقيقى للقبط وليبيا والنوبة والحبشة » ✿ . ضمنه تفصيلات عن حالة القبط الإجتماعية والروحية ، وقـــدّم دفاعاً منطقياً عن عقيدتهم الارثوذكسية . ثم قارن بعد ذلك بينهم وبين غيرهم من المسيحيين فى مصر . ومع أنه أورد هذه المقارنة إلا أنه وضعها فى أسلوب من الأدب واللياقة .

وليس بعجيب أن كتابه هذا موجود الآن بمكتبة جامعة أوكسفورد بانجلترا شأنه فى ذلك شأن العديد من كتبنا الموجودة فى مختلف مكتبات العالم ، تشهد بأسلوبها وترتيبها لدقة مؤلفيها وشدة حرصهم على العقيدة وعنايتهم بتوصيلها إلى شعبهم . وما كان ليخطر على بالهم أنها ستكون رسالة إلى شعوب بعيدة - ولكن هكذا سمح الآب السماوى . ولقد طبع وترجم كتاب أبو دقن إلى اللاتينية سنة ١٦٧٥ ، وإلى الانجليزية سنة ١٦٩٣ ، ثم طبـــع فى هولاندة سنة ١٧٤٠ مع تعليقات للمستشرق جان نيكول.

(١) جاء الحديث عن هذه الأوانى فى سيرة الأنبا متاوس الثالث .

(٢) سلسلة . . . ص ١٠٠ .

✿ The true history of the Jacobites of Cophtes of Algypt, Lypia, Nubia & c.

ومما أورده أبو دقن فى كتابه أن القبط الذين كانوا فى خدمة الدولة استمتعوا بالأمان على أنفسهم وعلى أولادهم وأموالهم ، وكان الامراء يعاملونهم بكل تسامح. أما الرهبان الاقباط فأكثر نسكا وتقشفاً من الرهبان الاوربيين وأدق ممارسة للتعليم والشعائر الروحية . وهذا هو الحال بالنسبة للراهبات أيضاً،فهن متفانيات فى العبادة ، ولهن عدد من الأديرة فى مختلف المدن على مقربة من الكنائس .

كذلك تكلم عن الوسائل الشائعة فى إدارة شئون الكنيسة ، والنظام الذى تقوم عليه شعائرها ، ثم الممارسات الخاصة بالزواج وغيره من الأمور الشخصية. ومختصر دقيق لطقس رفع البخور وتقديم الحمل والقداس .

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مهارة القبط فى صياغة المجوهرات وفى مختلف الصناعات من الحدادة والنجارة والحياطة وعمل الأحذية ، ومن الحفر على الخشب والحديد والجلد ، إلى جانب حذقهم الهندسة المعمارية والفلك والحساب . وكانوا يهتمون الاهتمام كله بتعليم أولادهم فى مدارسهم الخاصة الملحقة بالكنائس حيث كان الاولاد يتعلمون القراءة والكتابة والحساب والجغرافيا واللغتين القبطية والعربية والعلوم الدينية . ومما يشهد لابو دقن بنزاهته فى تسجيل وقائع الحياة فى أيامه أنه قال بأن تعليم أولاد الاقباط كان سطحياً إذا قيس بتعليم أولاد الأوربيين .

وقد ذكر أبو دقن أيضاً أن القبط كانوا يميلون إلى زيارة الأراضى المقدسة للتبرك بها رغم ما كان يلازم السفر من مشقات ومخاطر وكان على كل فرد يرغب فى هذه الزيارة أن يدفع ضريبتين : الاولى وقدرها ثمانية ريالات يدفعها عندما ينوى السفر، والثانية وقدرها أربعة ريالات يدفعها عند دخوله المدينة المقدسة [1]

---

(١) منشى القمص . . . ص ٦١٩ ــ ٦٢٠ .

وكان على باب القيامة محصلون لاخذ الضريبة من المقدسين ـ وتسمى الخفر ـ يأخذ الشخص مقابلها تذكرة مختومة كإيصال يقدمها عند دخوله إلى كنيسة القيامة . وكان جباة هذه الضريبة حريصين إلى حد أنهم كانو يدخلون الناس من باب لا يتسع إلا للدخول واحداً فواحد (١) .

ومما يؤسف له أن هذا الكتاب الذى وجد من يترجمه إلى كل من اللاتينية والانجليزية ، ومن ينشره فى هولانده ، لم يجد من يبحث عنه ويعمل على نشره فى بلاده وبين مواطنيه ! حقاً أنه « ليس لنبي كرامة فى وطنه ! (٢) » .

٦١ ـ وكان هناك قبطى آخر من عاصر أبو دقن اسمه المعلم عوض القبطى يعمل كاتباً فى ديوان الوالى . وكان مشهوراً بين الجميع بلقب خاص هو « نصرانى السنجق » . وقد مات هذا الكاتب مسموماً (٣) لان التعصب التركى الاعمى جعلهم يزعمون أن اضطهاد القبط يؤهلهم للجنة (٤) .

٦٢ ـ على أن الخيط الذهبى المنبىء بوجود الشمس خلف السحب القاتمة لم ينقطع أبداً . فنجد ومضة خاطفة نلمح خلالها أن من كانوا مكرسين جهودهم لمجد الله حتى وسط هذه الحلكة المدلهمة . فنى الخزانة حرف A : ١٦٦٥ كتاب الاربعة أناجيل باللغة العربية وبه صحائف محلاة بنقوش بماء الذهب وبألوان مختلفـــة (٥) .

---

(١) ديمترى رزق : قصة الأقباط فى القدس ص ٤١ .

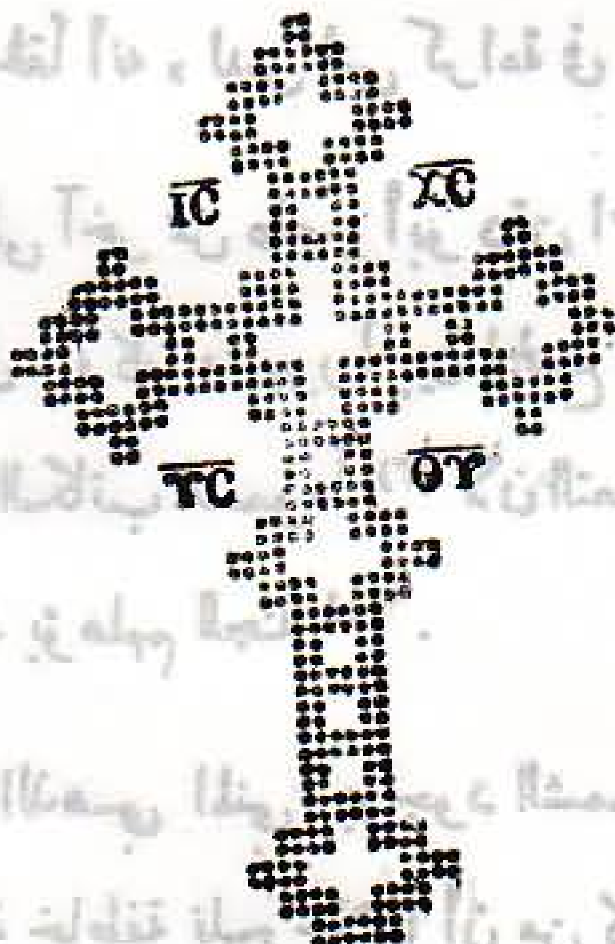
(٢) يعقوب نخلة روفيلة ص ٢٥٤ ، دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس جـ ١ ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٣) سلسلة . . . ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٤) موجز تاريخ بطاركة الاسكندرية ليعقوب جرجس وأشراف زاهر رياض جـ ٢ ص ٦٧ .

(٥) مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة ص ٧٩ ـ ٨٠ .

كذلك توجد مخطوطة أخرى تتضمن الصلوات السبع فى نهر بن : قبطى وعربى فى جزئها الأول . أما جزؤها الثانى فيتضمن صلوات البسخه المقدسة . ومن نعمة الله أن ناسخها هذه المرة قد ترك لنا اسمه وهو القمص يوسف بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة [1] .



(١) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى ١٥٠ - ٤٠٨ طقس - وتاريخها ١٩ هاتور سنة ١٣٤١ ش (٢٥ / ١١ / ١٦٢٤) .

ح ـ الأنبا متاوس الرابع

٦٣ ـ يتميز النصف الثانى من القرن السابع عشر باستعادة المماليك لنفوذهم إذ قد نجحوا فى أن يجعلوا الوالى ـ عميل السلطان التركى ـ تحت رحمتهم . لأنه رغم كونه مندوب الباب العالى [1] إلا أنهم كانوا حكام الأقاليم ، ومقابل كونه « الباشا » كانوا هم « البكوات » . وقد أدى استردادهم السلطة وتلاعبهم بالحاكم العام إلى إضعاف الخزانة وإلى ازدياد التدهور الزراعى والتجارى والصناعى [2] . فاتسمت الحياة العامة بعدم الاستقرار . فلا عجب إذن أن القبط لم يبادروا إلى الاجتماع والتشاور . ومما ضاعف فى تراخيهم أن الخيبة التى كانت قد ملأت نفوسهم من مسلك البابا الراحل كانت لا تزال مسيطرة عليهم .

على أن الله فى شامل رحمته قد منح الانسان القوة على الإفاقة من كل الصدمات وبالتالى على مواجهة ما فى حياته من مسئوليات رغم كل ضيق وكل حزن . وهذا ما حدث الأساقفة فى تلك الفترة إذ أنهم انتبهوا إلى وجوب المبادرة إلى انتخاب الراعى الاول بعد أن كانوا قد جاروا الشعب فى تراخيه . وحين تنبهوا تبادلوا الرأى مع الأراخنة إلى أن أقنعوهم بضرورة البحث فى اتزان والضراعة فى حرارة

(١) تعبير للكناية به عن سلطان تركيا .

(٢) «العالم الأسلامى» (بالانجليزية) ج ٣ آخر امبراطورية أسلامية عظيمة لكيسلينج وباجلى وباربور وترمينجهم ، وبرون وسبيور وهارتل ص ٥٧ .

كى يرشدهم الآب السماوى إلى الراهب الجديد بهذه الرياسة الروحية السامية . وهكذا بدأ الأراخنة بدفعة من أساقفتهم يبحثون عن الراهب الذى يتوسمون فيه الرعاية الرشيدة . وعلى الرغم من أنهم كانوا يبتغون تعويض الوقت إلا أنهم انقسموا فريقين : فريق ناصر القمص جرجس رئيس دير السيدة العذراء (البرموس) ، وفريق ناصر أحد رهبان هذا الدير عينه وهو القمص يوحنا . ومرة أخرى تجلت مراحم الرب الحنون لأن الفريقين لم يلبثوا أن تفاهموا واتفقت كلمتهم على انتخاب القمص جرجس . ففرحوا بهذا الاتفاق .

٦٤ - ولد هذا الراهب من أبوين تقيين يعملان بمقتضى تعاليم الرب فيكثران من الصدقات ومن المساهمة فى الكنائس وأعمالها . وكانا من أغنياء مير الداخلة ضمن كرسى قسقام - منطقة الدير المحرق .

وكان جرجس واحداً من ثلاثة أخوة ذكور . إلا أن أخويه انصرفا إلى الاشتغال بالزراعة ورعاية المواشى . أما هو فقد توسم فيه والداه الذكاء والرغبة فى تحصيل العلم فأرسلاه إلى كتّاب بلدتهم . فتعلم القراءة والكتابة والحساب - والأهم أنه تعلم الألحان الكنسية وتدرب على قراءة الكتاب المقدس وغيره من كتب البيعة . وقد وهبه الله بصيرة نافذة فكان يفسر آيات الكتاب المقدس والطقوس لكل من يسأله عنها .

٦٥ - فلما بلغ أشدّه أخذ يفكر فى هذا العالم وأباطيله وسرعة زواله ، وبالتالى أخذ يفكر فى أن لنا وطناً سماوياً باقياً . فقال لنفسه : « لماذا لا أعيش منذ الآن فى ذلك الوطن السماوى » ؟ وحين وصل به التفكير إلى هذا الحد قام لفوره وقصد إلى برية شيهيت حيث ترهبن بدير البرموس . وعاش فى ذلك الدير ست سنوات وهو يجاهد ويسعى إلى استكمال نفسه وتهذيبها . وامتلأت نفسه فرحاً وسكينة .

وبعد هذه السنوات الست رأى والديه فى حلم ووجد الحزن مرتسما على وجهيهما بسببه لأنهما لم يكونا يعلمان بترهبه . وانزعجت نفسه لهذا الحلم فاستشار كبار الآباء فى الموضوع . وأشاروا عليــــه بوجوب الذهاب إلى والديه لتطمينهما لأن الله أوصى بإكرامهما .

فغادر جرجس الدير وذهب إلى بلدته وإلى بيت أبيه . فتهلل الجميع لرؤيته . ثم حاول أبوه أن يثنيه عن الرهبنة باقتراحه الزواج . فلما رأى جرجس ألحاح أبيه هرب من مير وعاد مسرعاً إلى الدير دون أن يخبر أحداً . ولما اختفى هذه المرة أدرك أبواه وبقية أهله أنه إنما عاد إلى الدير ، فرضوا بذلك . أما الرهبان فحين رأوه تهللوا لعودته .

وعاود جرجس جهادة الروحى . فعاش بمحبة وإخلاص لكل أخــــوته . ودرب نفسه على خدمتهم روحياً وجسدياً ، وعلى قضاء كل احتياجاتهم فبادلوه محبة بمحبة وانتخبوه ليكون رئيساً عليهم وقساً (١) لهم . فازداد سهراً وتقشفاً وسعياً نحو الكمال ، وضاعف عنايته بأخوته .

٦٦ - وحين اتجهت إليه الأنظـار للرعاية العليا كان مقيماً فى طوخ النصارى ليشرف بنفسه على عـزبة الدير لتموين ساكنيه . فذهب إليه مندوبو الأساقفة والأراخنـة وكاشفوه برغبتهم . ولكنه شكرهم معلناً لهم رفضه معتـذراً بسمو هذه الكرامة . فوجهوا أنظارهم صوب القمص يوحنا الذى كان مع رئيسه إذ ذاك ، وكان هو أيضاً مشهوداً له بالسعى المتواصل نحو الكمال . على أنهم اختلفوا فيما بينهم فتركوا طوخ النصارى وعادوا إلى القاهرة .

---

(١) تاريخ البطاركة للقمص منسى يوحنا جـ ٢ ص ٥٠١ - ٥٠٢ .

وفى القاهرة أخذوا يستعيدون معاً كل ما جرى بينهم وبين كل من الراهبين الذين قابلاهم . وعندها استقر الاجماع على أن جرجس هو الرجل الذى يصلح لهم . فأوفدوا مندوبين عنهم من كبار الكهنة وأعيـــان الشعب يصحبهم بعض الجنود . ولما وصل هؤلاء المندوبون إلى عزبة الدير وجدوا أن جرجس ما زال بها فألقى الجند القبض عليه لأنه أصرَّ على الرفض ، واستصحبوه معهم عنوة واقتداراً كما اقتادوا القمص يوحنـا أيضاً . ولمـا وصلوا إلى القاهرة أودعوا الراهبين بيت الوالى حيث ظلا شبه سجينين ثلاثة شهور ! وكان الجند يحرسون الجناح الذى يقيمان فيه . وفى ليلة من الليالى شاهد الجند الذين عليهم نوبة الحراسة كأن قنديلا مضيئاً يسطع فوق رأس القمص جرجس . فدهشوا لهذه الظاهرة . وفى الصباح أخبروا الجميع بما شاهدوه . وعندها استقر الرأى نهائيـاً على أنه هو المختـــار من الله . فاخـذوه من بيت الوالى وذهبوا به إلى كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى السيفين) حيث أقيمت عليه صلوات الرسامة فى يوم الأحد ٣ هاتور سنة ١٢٧٦ ش باسم متاوس الرابع أو متاوس الميرى . فأصبح البابا الاسكندرى الثانى بعد المئة وكان يوم رسامته يوماً له رنة الفرح فى كل البلاد المصرية . فقد تهلل القبط لأنهم وجدوا أخيراً الأب الذى يسهر عليهم ، وفرح مواطنوهم معهم (١) .

٦٧ - وكان المقر البابوى لايزال فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة فأقام فيها الأنبا متاوس . وحالما تسلم مقاليد الكنيسة اخذ ينظر فى الاحكام الشرعية وأثرها فى أمور الكنيسة، كما أخذ يسوس الشعب ويدبر أحواله فى تؤدة واتزان ومن مراحم القدير أن السلام كان سائداً وقتذاك

وقد ظل البابا متاوس على تواضعه الجم فلم يقبل أبداً أن يجلس على الكرسى

(١) سلسلة . . . الحلقة الرابعة لكامل صالح نخله ص ١٠٦ — ١٠٧ .

البابوى فى الكنيسة بل كان يكتفى بالوقوف جانبه . كذلك دأب على افتقاد اليتامى والأرامل ، وعلى زيارة المرضى والمسجونين ، وعلى العنـــاية بالرهبان والمنقطعين . فوجد الجميع فيه أباً عطوفاً مدركا لمسئولياته .

٦٨ ـ ومع أن السلام ظل مستتباً إلا أن حريقاً هائلا شبَّ فى جهة باب زويلة واستمر أياماً متتالية . فتسبب فى قتل المئات من الناس وتخريب عدد كبير من العمارات [١].

ولم يكد الناس يفلحون فى اخماد النار واستخلاص بعض الأشخاص والمتاع من لهيبها حتى انتشر وباء مفزع وصفوه بأنه « الحـــريق » لكثرة ما أهلك من النـــاس .

٦٩ ـ وقد رأى الانبا متاوس الرابع أن ينقل المقر البابوى إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة الروم وانتقل إليها بالفعل . فيكون عدد الباباوات الذين أقاموا فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة إثنا عشر بطريركا : ابتداءاً من الانبا يؤنس الثامن البابا الاسكندرى التسعين إلى الأنبا مرقس السادس البابا الاسكندرى الواحد بعد المئة .

٧٠ ـ وأعقب الحريق والوباء اضطهاد مضاعف . لأن الترك بدأوا يعاملون القبط تبعاً لأهوائهم ونزواتهم الطارئة ، فكانوا يغلقون الكنائس ويمنعون الصلاة فيها ، ثم يغلقون أبواب المنازل الخاصة . فإن أراد قبطى الخروج من بيته فرض عليه الجند المحيطون به مبلغاً من المال ليأذنوا له فى الخروج !

ثم حدث أن ذبح الجنود الترك امرأة خليعة فى المدينة وألقوا بجثتها بعيداً عن

---

(١) التوفيقات الإلهامية ص ٥٤١ .

بركة الأزبكية . ورأى كبير حفظة الأمن الفرصة مواتية فأمر باغلاق جميع بيوت القبط المتاخمة للمنطقة . وفرض غرامة ثقيلة عليهم إن هم شاءوا أن يحصلوا منه على الاذن بفتح أبوابهم والخروج من بيوتهم . فلما سألوا عن السبب فى هذه الغرامة أجابهم بأنها ثمن للدم المهدور !

٧١ - كذلك كان القبط كلهم حتى سنة ١٦٦٤ م يدفعون ضريبة موحّدة ، ولم يكونوا مضطرين إلى أن يدفعوها لخزينة الوالى : فكان البعض منهم يدفعها للمساجد ، والبعض يدفعها للشيخ البكرى (لكونه سليل أبو بكر الصديق) . بينما يدفعها فريق ثالث لبعض العظماء الذين كان يطلق عليهم لقب « السادات » . والضريبة المدفوعة لمختلف الجهات كان اسمها « الالتزام الشرعى » فى حين أن تلك التى يدفعونها لخزينة السلطان كانت تعرف باسم « التزام السلطان الاعظم » . وكان النوع الأول ضئيل القيمة فى حين أن الثانى كان ثقيلا . كذلك كانت الكفور والضيع المختلفة تشترك فى دفع الضريبة لذلك كانت مختلفة القيمة تبعاً لنسبة القبط العائشين فيها وكان الملتزم يحدد مقدارها فكان فى العادة يطالب الفقراء بأقل عما يطالب به الأغنياء . فكانت ضريبة فيها شىء من العدالة .

أما فى سنة ١٦٦٤ فقد قرر الوالى توحيد الضريبتين وجعلهما واحدة باسم السلطان محتمًا على الفقراء أن يدفعوا ما يدفعه الأغنياء . فيأخذ هو كل المبالغ ويسدد منها ما يخص المساجد والسادات ويودع الباقى فى خزينة السلطان ليتصرف هو فيه قبل إرساله إلى ولتيه . وهذه الخطة وضعت فقراء القبط فى موقف شديد البؤس والضنك - فكانوا كثيراً ما يضطرون إلى الهرب والاعتصام بالجبال وقت حضور الملتزمة لأن الذى لايستطيع الدفع لا يجد غير الكرباج[1] غير أنه رغم

---

(١) سلسلة . . . ص ١٢١ - ١٢٢ ، الكافى . . . ج ٣ ص ٩٤ .

هذا كله لايذكر لنا المؤرخون أن الارتداد فى هذه الفترة كثر على عكس ما حدث فى بعض الفترات المملوكية ، ويبدو من هذا الواقع العجيب أن الاغراءات أقوى عملا من الضيقات . فحيثما كان سلاطين المماليك يعرضون الجاه والمال والحظوة كان عدد الذين جحدوا إيمانهم كثيراً . أما الاضطهادات فرغم قسوتها لم تفعل إلا فعلا ضئيلا بالقياس إلى ضراوتها وبالقياس إلى العـــدد الذين هزّتهم الرتب العاليـة .

٧٢ - على أن وداعة الأنبا متاوس وحنانه حفظا ميزان الأمور وكان لهما أثر بعيد فى النفوس وبدأ هذا الأثر فى مناسبات عدة : منها أن أحد القبط رغبة منه فى التزلّف للوالى ذهب إلى بيت الجوالى ووضع على إخوته المسيحيين مبلغاً ثقيلا بالاضافة إلى الضريبة المفروضة عليهم . وفى ضيقتهم رفعوا شكواهم إلى باباهم . فأرسل فى طلبه وعاتبه ثم نهاه عن الشر الذى يعمله . فلم يفد العتاب ولا النهى . وعندها أصدر عليه الحرم ، وبدا أثر هذا الحرم البابوى إذ لم تمض غير مـــدة قصيرة حتى مات هذا الرجل شر ميتة [١] .

كذلك حدث أن ذهبت امرأة إلى الأنبا متاوس تشكو إليه من أن زوجها هجرها واتخذ لنفسه زوجة أخرى . فاستحضر البابا الاسكندرى الرجل وزوجته الثانية وأفهمهما بأن زواجهما باطل لأن المسيحية لا تسمح بالطلاق ولا بالزواج الثانى المترتب على هذا الطلاق إلا لسبب واحد هو الزنا . فكيف تجرأ الزوج على أن يسلك هذا المسلك الخاطىء ؟ وبعد هذا التوضيح أمر البابا بالفصل بين الرجل وبين زوجته الثانية فقالت المرأة : « كيف يمكن هذا وأنا حامل منه ؟ » أجاب البابا فى هدوء وحزم : « إن السيد المسيح هو الذى يفصل بين الحق والباطل » .

(١) سلسلة .. ص ١٣٠ .

وتركهما يخرجان من عنده من غير أن يتفوّه بكلمة أخرى وفيما هما خارجان فوجئت المرأة بسقوط الجنين من بطنها . فأدرك الاثنان قوة الصلة التى تربط الأنبا متاوس بالله لأنه تكلم « كمن له سلطان » ، كما أدركا أيضا مدى الشر الذى اقترفاه وانفصلا عن بعضهما وعاد الرجل إلى زوجته الأصيلة . وأحس الشعب بالأحاسيس عينها التى كانت تسيطر على الناس أيام أن كان الرسل يعملون بقوه فاديهم : أى أنهم امتلأوا خوفا ومجدوا الله [1] .

٧٣ - وذات مرة سطت الحماقة على بعض الغوغاء فاستثارت فيهم الرغبة فى هدم كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى السيفين) ، ولكى يضفوا على رغبتهم قوة القانون ذهبوا إلى الديوان وجعلوا الوالى يعيّن لهم أغا ليشرف على عملهم الآثم . وبلغ الأنبا متاوس أخبار هذا التآمر فامتلأ قلبه حزناً وقضى ليلته ساهراً ضارعاً فى حرارة مستعطفاً الآب السماوى ليتدارك شعبه ويحفظ له هذه الكنيسة الفخمة من الخراب . وقد اقترنت ضراعته باستشفاعه بالشهيد القديس صاحب الكنيسة.وكان الراغبون فى هدمها قد نجحوا فى استصحاب الأغا وبعض الجنود وذهبوا جميعاً إلى الكنيسة . ولما وصلوها كان المساء قد أمسى . فرأوا أن يبيتوا إلى جوارها ليبدأوا عملهم فى الصباح الباكر . وبينما هم نائمون سقط عليهم حائط المنزل المجاور فقتلتهم كلهم . فلما أصبح الصباح ورأى الناس ماجرى امتلأت قلوبهم رهبة ولم يجسر أحد أن يتعرض للكنيسة . أما البابا المرقسى فقد رفع صلاة الشكر لله الذى بدد مشورة الحق كما بدد قديماً مشورة أخيتوفل [2] .

ولم يقف جهاد البابا عند اعلانه المبادىء المسيحية صراحة ولا عند ردعه الخطاة بل أنه قد شاء أن يدعم العقيدة الأرثوذكسية فى القلوب فكتب رسالة

(١) شرحه ص ١٣٠ — ١٣١ ، أعمال ١٩ : ١٧ .

(٢) ٢ صموئيل ١٥ : ٣١ — ٣٤ ، سلسلة ... ص ١٣١ .

عن حقيقة الوجود الإلهى فى سر الافخارستيا . وقد صاغ رسالته هذه فى تعبيرات شرقية صافية توضح الايمان تبعاً لتعاليم الارثوذكسى بحيث سيج حولها سياجاً يحفظها من التفسيرات الكاثوليكية من جهة ومن الكالفينية [١] من الجهة الاخرى [٢] .

٧٤ - وبعد انقضاء أربع عشرة سنة وثمانى أشهر على بابوية الأنبا متاوس الرابع تاجر خلالها بالوزنات التى تسلمها من ربه مضى إلى مقبرة البابوات بكنيسة أبى السيفين وصلى ثم قال بصوت مسموع : «انفتحى واقبلينى لاسكن مع أخوتى» . وبعد أيام مرض وعلم بالروح أنه مرض الموت . فأرسل فى طلب رئيسة دير الراهبات بحارة الروم وسلمها كل ما عنده وقال لها : «احتفظى بهذه الأمانة بكل حرص ، وسلميها لمن يأتى بعدى لأنها وقف على الكنيسة » . ثم بعث بعد ذلك بخطاباته إلى الأساقفة يوصيهم برعية المسيح له المجد . وبعد هذه التوصيات انتقل بسلام إلى العالم العلوى . وكانت نياحته فى قلاية ملاصقة لكنيسة الشهيد العظيم أبى السيفين . وتجمع الاساقفة والكهنة والشعب للصلاة عليه . ولكن الوالى لم يأذن لهم بدفنه إلا بعد أن أخذ منهم أموالا طائلة .

وقد حزن عليه الشعب حزناً عميقاً لأنه كان أباً عطوفاً رحيماً . ودفنوه فى المغارة المخصصة للباباوات تحت هيكل كنيسة أبى السيفين [٣] .

٧٥ - وفى تلك الفترة زار مصر راهب دومينيكانى اسمه فانسلب . وعند عودته كتب كتاباً بعنوان « تاريخ الكنيسة القبطية » . وكتابه شهادة رائعة للقبط ، لذلك وجب اقتباس بعض ما جاء فيه لنرى منه شهادة « الذين هم من

(١) هو زميل للوثر تار معه على الكنيسة الكاثوليكية وألف فرعاً من الفروع البروتستانتية . (٢) قاموس السير المسيحية ج ١ ص ٦٨٠ .

(٣) سلسلة . . ص ١٣٢ ، مخطوطة طقس ٢٨٩ ، وطقس ٣٤٣ ورقة ١٦٠ (وجه) بمكتبة دير الأنبا أنطونى .

خارج، عن جدودنا الذين عاشوا فى فترة من أحلك فترات تاريخ مصر العام[1].
وفى رؤيتنا لتصويره يجدر بنا التمعن ـ فلا نكتفى بقراءة عابرة ولا حتى بالاعتزاز بقوميتنا بل يليق بنا أن نحمل من مطالعتنا حافزاً يدفعنا إلى الامام، ونقطة استناد تساعدنا على انطلاقة حماسية نحو ذلك الكمال الذى وضعه أمامنا سيدنا له المجد .

قال الأب فانسلب : « ان البطريرك القبطى له الرياسة أيضاً على أثيوبيا والنوبة والمدن الخمس وقبرص كذلك لان القديس مرقس قد بشر تلك الجزيرة ... والقبط يوقرون الاماكن المقدسة أشد التوقير . . . وهم يرون أنه من الضرورى أن تكون الكنيسة مزدانة بمختلف وسائل الجمال ، ويوقدون الشموع والثريات أثناء الشعائر الدينية لان الكنيسة رمز للسماء والنور الموقد بها رمز إلى النجوم ... وإن سئلوا لماذا لا يستعملون غير زيت الزيتون فى الكنيسة أجابوا أن ذلك يرجع إلى أن هذه الشجرة هى الوحيدة التى نجت من غضب الله أثناء الطوفان ، وهذه النجاة تتضمن سراً عظيماً ... كذلك يعتقدون بأنه يجب وضع الايقونات فى الكنيسة لان مثل هذه العادة قد تسلموها من المسيحيين الاول . وهم يحتفظون بها فى كنائسهم أمام أعين المؤمنين لكى يستثيروا تعبدهم ويهيئوا لهم الفرص ليتذكروا بأكثر جلاء الأشخاص المقدسين الذين تمثلهم تلك الصور . وثمة صورة هى صورة السيدة العذراء تحمل طفلها الحبيب بين ذراعيها رسمها القديس لوقا بناء على طلبها شخصياً . وهذه الايقونات التى عندهم قد وجدت فيها كلها صفة ممدوحة للغاية هى الوداعة والاحتشام فهم يصورون السيدة العذراء على رأسها طرحة وعباءة تغطيها كلها بحيث لا يتعرى جزء من جسمها ولا من صدرها، ويصورون ابنها على نفس النمط . . . وهذا درس لنا معشر المبشرين يجب أن

(١) سلسلة ... ص ١٢٥ ـ ١٣٠ .

تعمل به ولا تعرض صوراً للسيدة العذراء يبدو فيها صـــدرها مكشوفاً وهى ممسكة بابنها العارى تماماً ، لأن مثل هذا التصوير يعثر المؤمنين والترك أيضاً الذين كثيراً ما يدخلون كنائسنا ويسخرون من ديننا . والقبط لا يضعون أية صورة فى الكنيسة قبل تكريسها بالميرون وإقامة صلوات خاصة بذلك ... وإليكم الأسرار التى يعتقدون أن المبخرة تتضمنها : ان السلاسل الثلاث التى تتدلى منها والمصنوعة من ذات المعدن ترمز إلى أن الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد ، وغطاء المبخرة رمز لقبة السماء ، وطرفه المثنى إلى أسفل يرمز إلى نزول ابن الله فى سر التجسد ، واستدارة المبخرة تشير إلى الحشا البتولى الطاهر ، والفحم صورة للجسد الانسانى الذى اتخذه ابن الله من السيدة العذراء ، فى حين أن النار الملتهبة فى الفحم رمز إلى اتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية فى الكلمة المتجسد ... وهم لا يركعون بعد التناول ولا يقومون بأية انحناءة فى ذلك اليوم لأن الركوع والانحناء علامات الحقارة ، والتناول الذى هو شخص ذاك الذى انتصر على الشيطان وجهنم بسبب البهجة للنفس التى تناولت من الأسرار المقدســـة ، فهم يعتبرون أنه غير لائق بالنفس فى ذلك اليوم أن تؤدى أى عمل يدل على الحزن أو على الحقارة ....

وبعد الحديث عن معتقـــدات القبط وصف بعض الأشخاص الذين رآهم والأماكن التى زارها . فقال عن أنبا ميخائيل أسقف الفيوم أنه رجل شريف مشهور بالعلم والتقوى وعلى جانب كبير من التواضع إذ قد ارتضى أن يقف معه فى بيته عدة أيام أوضح له خلالها معتقدات الكنيسة القبطية وطقوسها ...

ثم زار فانسلب مدينة سنورس . وبعد أن استراح فى بيت العمدة واستمتع بضيافته ، زار الكنيسة المكرسة على اسم الملاك ميخائيل . ومع أن الفقر بدا عليها إلا أنه لاحظ فى ركن منها قطعة من الحجر مربعة الشكل محفور عليها ثلاث أيقونات صغيرة : الأولى لرئيس جند السمائيين ميخائيل ، والوسطى للسيدة العذراء

حاملة ابنها على ذراعها ، والثالثة لرئيس الملائكة روفائيل .وقد حفر اسم صاحب الصورة : كل تحت صورته .

ثم انتقل فانسلب بعد ذلك إلى منطقة تبعد مسيرة ساعتين عن الفيوم لزيارة دير باسم « دير الخشّاب ». وكان مذاك خرباً لم يبق منه غير كنيسته المكرسّة باسم رئيس الملائكة غبريال . وهى كنيسة غاية فى الابداع منقوشة كلها بصور تاريخية من الكتاب المقدس أو القديسين ويرتفع سقف صحن الكنيسة على أعمدة مبنية من الحجاره . وتحت هذه الكنيسة كنيسة أخرى لم تعد تستعمل للصلاة . وقصة هذه الكنيسة على جانب من الطرافة: فقد بناها شخص اسمه أور ابن أبرسيت الساحر المعروف ، وأم أور هى بنت ملك المشرق . ثم ترك أور السحر الذى تلقنّه عن أبيه وآمن بالمسيح له المجد ، وسار فى طريق الصلاح والتقشف إلى حد أنه أصبح أسقف الفيوم . ولأنه وصل إلى درجة سامية من الروحانية والتقوى بنى الكنيسة التى وضعت أساسها وأساس مذبحها السيدة العذراء بنفسها ، والتى خطط رئيس الملائكة ميخائيل خورسها وباقى أجزائها .

وعلى مقربة من هذه الكنيسة ـ وفى جهتها القبلية ـ خرائب قرية قديمة كانت متصلة بها قيل لفانسلب أن سكانها كانوا من عشيرة يعقوب أبى الآباء ، وهى لذلك معروفة باسم « مصلاة يعقوب » . وفى الجبل الواقع خلف هذه القرية مغاور عديدة كان يسكنها المتوحدون . . .

وتحدث فانسلب بعد ذلك عن دير الست دميانه الذى زاره فى أسبوع تذكارها (١٢ ـ ٢٠ مايو) فقال : « أن كنيسة الست دميانة شهيرة ، وقد أقيمت فى سهل منبسط متسع خصب ... ويحوى بناء هذه الكنيسة على خمس وعشرين قبة تجعل منظرها من بعيد جميلا جداً على الرغم من عدم انتظام وضعها واختلاف

أحجامها . والكنيسة من داخل ليست تامة البناء وليس بها غير هيكل واحد مبيض بالجير وهو الذى يتم فيه الظهور « الطيفىّ »... والهدف من بناء القباب هو تزين المبانى من الخارج واضاءة الكنيسة من الداخل ، لأن فى كل قبة كوّة أو كوّتين يتسرب منها النور . ويعتقد المصريون - قبطا ومسلمين - أن القديسة دميانه تظهر فى قبة كنيستها مدة أيام العيد الثلاثة ... »[1].

هذه مقتطفات عابرة لكتاب فانسلب يقدم لنا تقييما مشرفاً للقبط فى الفترة التى زار فيها بلادنا الحبيبة .

٧٦ - ومن الحوادث العجيبة التى جرت فى أيام البابا متاوس الرابع المعجزة التى حدثت بخصوص أيقونة لرئيس الملائكة ميخائيل . وتتلخص فى أن القبط يحتفظون بأيقونة لهذا الملاك الجليل فى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية . ويقول التقليد أن هذه الأيقونة من رسم القديس لوقا البشير . وقد حدث أن تمكن البندقيوّن من سرقة هذه الأيقونة وحاولوا الابحـــار إلى مدينتهم . ولكن كانت تقوم فى سبيلهم العراقيل كلما حاولوا الابحار . فتيقنوا من أن سبب التعطيل ليس سوى هذه الأيقونة المسروقة وبالتـــالى رأوا وجوب إعادتها إلى مكانها فى كنيسة مار مرقس .

وانتشر خبر هذه المعجزة ، وسمعه عربان المنطقة المتاخمة للاسكندرية . فزعموا أنهم يستطيعون الظفر بهذه الأيقونة وبيعها للفرنجة . فذهب نفرٌ منهم

(١) عن كتاب فانسلب من النسخة المحفوظة فى مكتبة نيويورك العامة فى القسم الخاص بالدراسات الشرقية . ويقول الكاتب الفرنسى ديهرين فى كتابه «مصر التركية» على ص ١٩٧ بأن فانسلب تمكن من الحصول على ما يقدر بثلاثمائة مخطوطة حملها معه عند عودته إلى بلاده . والاشارة إلى ظهور الست دميانة تبين أن فانسلب رغم كونه راهب ينتمى إلى الكنيسة الكاثوليكية التى تؤمن بظهور القديسين فى مختلف المناسبات - رغم هذا فهو يصف الظهور بكلمة « يعتقد المصريون » كأنه يتشكك فى مثل هذا الظهور !

ذات ليلة وكسروا باب الكنيسة ، ودخلوها ، وانتزعوا الأيقونة من مكانها، وهمّوا بالخروج . وإذ بهم لا يستطيعون حراكا . فامتلأت نفوسهم رهبة وأعادوا الأيقونة إلى مكانها وخرجوا مسرعين. وقد رأى فانسلب هذه الأيقونة وتحدث عنها بإعجاب إلا أن المؤرخ كامل صالح نخله حين قصد إلى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية لرؤيتها سنة ١٩٤٤ لم يجدها وقيل له بأن هناك أيقونة أثرية للملاك ميخائيل فى كنيسة مار مرقس برشيد . فلما ذهب إلى الكنيسة المشار إليها وجد بالهيكل القبلى تجويفاً يتضمن أيقونة أثرية عجيبة لرئيس جند السمائيين تصوّر النصف الأعلى من جسمه فقط . وهى مثبتة داخل التجويف بطريقة تحول دون سرقتها .

وقد يسأل معترض: وما صلة كنيسة رشيد بكنيسة الاسكندرية ؟ وما الداعى إلى الزعم بأن أيقونة رئيس الملائكة ميخائيل المثبتة فى تجويف بهيكل الكنيسة المرقسية برشيد هى بعينها التى كانت فى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية ؟ والاجابة متيسرة وهى أنه حين دخل نابليون بونابرت الاسكندرية هدم كنيسة مار مرقس ومنارتيها الحصينتين خشية أن يعتصم فيهما الانجليز وهم يطاردونه . ورأى الكهنة الاسراع إلى انقاذ ما يمكن إنقاذه فحملوا الأيقونات والأوانى والكتب والستائر إلى كنيسة مار مرقس برشيد - وبخاصة لأن القبط السكندريين تركوا مدينتهم وذهبوا هم أيضاً إلى رشيد ريثما تستقر الأمور .

ومع أن الأنبا كيرلس الخامس (البابا الاسكندرى الـ ١١٢) قد أعاد الكتب والأوانى إلى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية إلا أنه ترك أيقونة رئيس جند السمائيين ميخائيل فى مكانها حرصاً منه عليها [١].

حقاً ما أعجب تاريخ كنيستنا القبطية وما أكثر ما صنع الله من عجائب خلالها!

(١) سلسلة ... ص ١٢٢ - ١٢٤ .

« يتجدد مثل النسر شبابك »(١)

٧٧ — الاجماع على الراهب القس ابراهيم
٧٨ — الانزواء فى الدير بهدوء
٧٩ — الرسامة البابوية
٨٠ — زيارة راعوية
٨١ — القحط والجوع
٨٢ — عودة الكاثوليك إلى التلاعب
٨٣ — موجة من الشر
٨٤ — زيارة دير الأنبا أنطونى
٨٥ — العمل البنائى
٨٦ — تزلف رومانى
٨٧ — محاولة من ملك فرنسا
٨٨ — توجيه السهام للحبشة
٨٩ — ولبيت المقدس
٩٠ — وباء مزعج
٩١ — صلوات مثمرة
٩٢ — غرامة ثقيلة
٩٣ — استرواح عبير القديسين
٩٤ — تعمير دير أنبا بولا
٩٥ — تقديس الميرون
٩٦ — ظاهرة تملأ القلوب ذعراً
٩٧ — معارك دامية
٩٨ — المواهب الإلهية للبابا
٩٩ — تأمين « الدرب السلطانى »
١٠٠ — زيارة الأراضى المقدسة
١٠١ — حمل الذخيرة المقدسة للمرضى
١٠٢ — أراخنة ممتازون
١٠٣ — أسقفان متيقظان
١٠٤ — مجهودات لها قيمتها
١٠٥ — وباء فتاك
١٠٦ — جهود ناسخ
١٠٧ — «قوتى فى الضعف تكمل» (٢)

٧٧ - كانت النفوس هادئة مطمئنة رغم ما ملأها من حزن لأن البابا الراحل كان أباً عطوفاً حقاً. وهذا الهدوء النفسى جعلهم يجتمعون ويتشاورون من غير إبطاء. ودفعهم تشاورهم إلى ايفاد جماعة منهم إلى دير كوكب البرية الأنبا أنطونى العظيم. ولما وصل هذا الوفد والتقى بالشيوخ من الآباء وأطلعهم على السبب لهذه الزيارة شهد هؤلاء الشيوخ للراهب القس ابراهيم. ففرح الجميع بما سمعوه عنه واستصحبوه معهم إلى القاهرة.

٧٨ - ولقد كان هذا الراهب من أهالى طوخ النصارى واسمه ابراهيم، وكان

(١) مز ١٠٣ : ٥ - هكذا تغنى المرتل فى المزمور المئة والثالث، وهكذا حقق الله هذه الأنشودة لكنيسته القبطية فى البابا الاسكندرى المئة والثالث.

(٢) ٢ كورنثوس ١٢ : ٩.

أبواه بارين يعيشان فى خوف الله ومحبته ، فربياه التربية المسيحية التى يؤمنان بأنها الطريق الموصل إلى الحياة الكاملة . فلما بلغ أشدّه اشتغل صرافاً . وبعد سنين أخذ يناقش نفسه عن هذه المهنة التى يشتغل بها . فرأى أن التعامل بالمال لا يتفق تماماً وسعيه نحو الكمال المسيحى . فقد يظلم غيره عمداً أو سهواً ، أو قد يضطره رئيسه إلى التضييق على الناس وهو يعرف فقرهم . فإن هو استمر فى هذه المهنة فسيقع حتماً فى خطايا كثيرة ولو على الرغم منه . وفى نقاشه مع نفسه بهذا المنطق استقر رأيه على أن خير طريق ينتهجه هو أن يترك هذه الوظيفة ويوزع كل ما لديه ويذهب إلى الدير ، وبخاصة لأن أبويه كانا قد انتقل إلى الفردوس فلن يكون هناك من يعترض طريقه .

وما أن سيطرت عليه هذه الأفكار حتى نفذها لساعته . فقاده الروح القدس إلى الذهاب إلى دير القديس أنطونى أبى الرهبان . وهناك قضى أيامه فى دراسة الكتب الكنسية وفى ممارسة الفضائل المسيحية ، كما عاش فى زهد تام وفى محبة أخوته . فلما رآه الآباء متحلياً بكل هذه الصفات بادلوه محبة بمحبة ورجوا من الأنبا متاوس الرابع أن يرسمه قساً عليهم . وقد تمت رسامته فعـلا فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ، واحتفظ فى رهبنته وكهنوته باسمه الأول «ابراهيم» . فازداد نسكاً وإتضاعاً وتعبداً مما جعل صيته يشيع خارج أسوار الدير الكبير . فلما انتقل الأنبا متاوس إلى الأخدار السمائية ذهب وفد الأساقفة والأراخنة إلى دير الأنبا أنطونى كما ذكرنا واستصحبوه إلى القاهرة وقدموه إلى المجمع المقدس الذى بارك الاختيار [1] .

---

(١) يذكر المؤرخ كامل صالح نخلة بأنه حين اقترح شيوخ الآباء القس ابراهيم رأى الوفد الشعبى أن يختار معه بعضاً من إخوته الرهبان . ثم قرروا وهم فى الدير إقامة ثلاثة قداسات متتالية يمارسون بعدها القرعة الهيكلية استرشاداً بروح الله . وفعلا صلوا قداسات ثلاثة وفى كل مرة كان اسم «القس ابراهيم» هو الذى تحمله الورقة المسحوبة من بين الأسماء الموضوعة =

٧٩ - ولقد تمت رسامته فى ٩ برمهات سنة ١٣٩٢ ش باسم يؤنس السادس عشر - وامتلأت القلوب فرحاً واستبشاراً برسامته [1].

٨٠ - وبعد الرسامة أقام البابا يؤنس شعائر القداس الإلهى فى كنائس القاهرة تبعاً لما قضى به التقليد . ثم رأى أن يتفقد شعبه ويعرفه ويعرف أحواله مباشرة إن هو شاء التوفيق فى توجيهه وحسن قيادته . فبدأ برحلته فى الصعيد ووصل لغاية أسنا حيث تبرك بزيارة المكان المحفوظ به أجساد الصديقين هناك . فكانت زيارة كلها بركة تعرف فيها الشعب براعيه الأول ووقف هذا الراعى على حالة شعبه وحاجياته . وبعد أن منحهم البركات الرسولية تركهم وقد ازدادت نفوسهم إيماناً وطمأنينة . ثم عاد إلى القاهرة حيث قضى بضعة أيام رأى بعدها أن يستكمل زيارته الراعوية . فأخذ يتنقل فى مختلف أقاليم الدلتا إلى أن وصل للاسكندرية . ففرح بزيارة المدينة التى كانت أول مكان هبط فيه مرقس الرسول فتلقت عنه بشرى الخلاص - ثم صارت موضع استشهاده ومثوى رفاته، وما أن وصل البابا إلى الاسكندرية حتى قصد لفوره إلى الكنيسة المرقسية حيث أقام الصلوات ونال بركة الكاروز العظيم . وتجمع الشعب كله فى الكنيسة متهللا به . وبعد الصلاة زود الشعب بنصائحه ومنحه البركة الرسولية ثم قفل راجعاً إلى القاهرة .

ثم أخذ نفوذ المماليك يتزايد وسطوتهم تمتد إلى أن أصبحوا هم الحكام

= على المذبح . فلما وجدوا أن اسمه هو الذى برز بعد كل من الثلاثة قداسات تيقنوا أنه هو المختار من الله . أما الراهب شنودة الصوامعى البراموسى فلم يذكر فى النسخة التى خطها بيده نقلا عن النسخة المحفوظة بديره أنه قد أجريت هذه القرعة ، بل قال أن الوفد الذى وصل إلى الدير قبل تزكية الآباء من غير تردد ومن غير الالتفات إلى أى راهب آخر . أنظر سلسلة تاريخ البطاركة (الحلقة الرابعة) لكامل صالح نخله ص ١٣٤ ، تاريخ البطاركة المخطوط للقمص شنودة البرموسى ج ٢ ص ٢٠٥ .

(١) سنكسار دير القديس أنطونى رقم ٣٤٣ طقس ، التوفيقات الإلهامية ص ٤٤٥ .

الحقيقيين للبلاد ، لجعلوا من الوالى الموفد من الباب العالى ألعوبة أشبه بالدمية المتحركة يوجهونها كيف شاءوا . على أنهم حافظوا على استتباب الأمن فظل المجتمع هادئاً يعمل كل فرد فى مهنته أو زراعته .

٨١ - ومن المؤلم أنه وسط هذا الاستقرار الاجتماعى جاء فيضان النيل ناقصاً للغاية (سنة ١٦٨٦ م) . والنتيجة الحتمية لهذا النقص هى القحط والجوع وبالتالى إنتشار الوباء فعمّ الضيق وتضاءل عدد السكان [١] .

٨٢ - وبما أن الميزان الاجتماعى والنفسانى قد أختل فقد وجـــد الغربيون الفرصة سانحة للتدخل فى الأراضى المقدسة . فحاولوا التآمر ضد الأرثوذكس بالسعى لدى الباب العالى كى يحصلوا على امتيازات تعطيهم الحق فى السيطرة على بعض المقدسات ، وكرروا مساعيهم ومؤامراتهم عـــدة مرات . ولكن شيخ الاسلام فى فلسطين أصدر فتوى قال فيها . « انه ليس حقاً مشروعاً ولا من مبادىء السلاطين الشريفة أن تداس فرامانات السلاطين العظام فتعطى مزارات الأرثوذكسيين للغربيين ... » [٢] .

٨٣ - ومما زاد الطين بلة أن طغت على الوالى موجة من الشر فأصدر أوامره بأن يعلق كل قبطى جلجلين فى رقبتـه عند دخوله إلى الحمام وأن يلبس عمـامة سوداء ، وأن لا يرتدى الملابس المصنوعة من الجوخ أو الصوف . أما المرأة القبطية فإن شاءت الخروج فليس مسموحاً لها بأن تأتزر بمئزرة بيضاء بل تستعمل المآزر السوداء فقط .

واستمر الضيق الاجتماعى والقحط الزراعى سنتين . فأبدى الأنبـا يؤنس

---

(١) مصر والهلال الخصيب لهوات ص ٨٨ .

(٢) « القدس عبر التاريخ » لميخائيل مكسى ص ٧٤ نقلا عمـا أورده عارف باشا فى كتابه « تاريخ القدس » .

السادس عشر عطفه على الفقراء والمعوزين بالتنقل بينهم لمواساتهم ومعاونتهم . وفى الوقت عينه ناشد الأغنياء أن يساهموا معه فى مساندة اخواتهم الاقل حظاً منهم فسارعوا إلى تلبية ندائه ، أو على حد تعبير أحد الآباء « . . . كان المعلمون الأراخنة بمصر يتغايرون فى الصالحات وفى أعمال الرحمة » [١] ولما كانت المحنة الفرصة التى ينتهزها الكاثوليك فقد بنى الفرنسكان آنذاك ديراً باسم القديسة كاترين فى الاسكندرية [٢] .

٨٤ ـ فلما انتهى الضيق وحل الفرج رأى الأنبا يونس أن يزور اخوته الذين عاش معهم أيام رهبنته فى دير الانبا أنطونى . فقصد إلى الدير قبل عيد الميلاد بأسبوع وعاش الكل فى انسجام روحى بديع إلى ما بعد عيد الغطاس بخمسة أيام .

٨٥ ـ وحين عاد البابا المرقسى وصحبه إلى القاهرة بدأ عمله البنائى . فقد وجد أن البيت الملاصق لكنيسة السيدة العذراء بحارة الروم لا يتسع لأن يكون داراً بابوية وبخاصة لأن الكاهن وعائلته يقيمون به . ولم يكن للأنبا متاوس الميرى (سلفه المباشر) فسحة من الوقت لأن يوسعه أو يبنى غيره إلى جواره . فرأى أن يقوم هو بهذا العمل الضرورى . فبنى « القلاية » [٣] البابوية وأوقف عليه المرتبات والأوقاف للصرف منها على ما يحتاجه المقيمون فيها وعلى المصرفات اليومية [٤] . وكان عليه أن يدفع مقابل ذلك مبلغاً من الضرائب لبيت المال سنويا

(١) البرموسى ج ٢ ص ٥٠٤ .

(٢) جرجس سلامة « تاريخ التعليم الاجنبى فى مصر » ص ٢٢ .

(٣) هذا هو التعبير فى كل المخطوطات القديمة عن الدار البابوية إذ ظل البابوات على تواضعهم الرهبانى ولم يبنوا بيوتا ضخمة فخمة ، بل كانت بسيطة وإن كانت فسيحة لتتسع لضيوفهم أو لمن يأتون اليهم من الاساقفة والرهبان المبيت عندهم .

(٤) سنكسار دير الانبا أنطونى رقم ٣٤٣ طقس .

ثم حدث سنة ١٤٠٥ ش (سنة ١٦٨٩ م) أن أراد الشماس المبارك المعلم لطف الله أبو يوسف الذهاب إلى الآستانة [١] مع استاذه الملحق بخدمته . وقبيل سفره أعطاه الأنبا يؤنس وبعض الاراخنة عـــدداً من التحف القيمة والهدايا الثمينة ليقدمها إلى سلطـان تركيا ويرجو منه رفع بيت المال عن كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم وملحقـاتها . فحمل المعلم لطف الله الهدايا ، وقدمها إلى السلطـان ، ونجح فى أن ينال منه الاعفاء المطلوب [٢] .

٨٦ - وحدث سنة ١٦٩٤ م أن تم طبع الترجمة العربية المتضمنة لما جرى فى مجمع خلقيدون المشئوم. وقد ترجمها الراهب الفرنسيسكانى فرانسوا ماريا دى سالم الذى كان الحبر الرومانى قد عينه رئيساً للارسالية الفرنسيسكانية بالصعيد . وقد رأى هذا الحبر أن يقدم لهذا الـكتـاب بإهداء إلى الأنبا يؤنس السادس عشر ذكر فيه أن هذا البابا الاسكندرى هو خليفة مار مرقس الرسولى [٣] . وبما أن هذا الـكتاب حمل إهداءً للخليفة المرقسى فقد قدموا له نسخة هدية ، مستهدفين من هذا الإهداء وتلك التقدمة التوصل إلى جعـل البابا الاسكندرى يعلن ولاءه لبابا رومية . لأنه - فى تلك السنة عينها - لم يكتف الحبر الرومانى بإقامة ارسالية فرنسيسكانية فى الصعيـد ، بل أمر بتـأسيس الارسالية اليسوعية فى مصـــر . والارساليتان لم يكن لهما من هدف فى بلادنا غير التدخـل فى شئون الـكنيسة

---

(١) هى القسطنطينية قديماً ، والاستاذ كناية عن الامير المملوكى الذى كان يخدمه .

(٢) كتاب رقم ١٢٨ طقس . المحفوظ بمكتبة المتحف القبطى .

(٣) أنظر الفصل الأول من الـكتاب الثانى من « قصة الـكنيسة القبطيـة » جزء ب الخاص بمجمع خلقيدون . والواقع أن هذا الـكتاب المطبوع فى روميـة والذى هو ترجمـة للنصوص اللاتينية المحفوظة بمكتبة الفاتيكان هو شهادة بديعة لارثوذكسية الـكنيسـة القبطية وآبائها . ويؤسفنى أن أقول أنه لو كان الوعى الـكنسى فينا مشحوذاً لـكنا طبعناه بحذافيره فى بلادنا ، ولـكننا أهدنا طبعه كلما نفذ لأن المثل يقول « والفضل ما شهدت به الاعداء » - وكتاب مجمع خلقيدون شهادة صريحة بفضل الـكنيسـة القبطية .

القبطية وخطف من يستطيعون خطفه من أبنائها وبناتها ! ومما يجب ذكره بالاعتزاز أن قبط القرن السابع عشر لم ينخدعوا ، وظلوا على ولائهم لكنيسة الشهداء أجدادهم . وهذا ما قرره قنصل فرنسا ـ مسيو ماييه ـ سنة ١٦٩٦ م إذ كتب يقول : « إن عدد المؤمنين ، ضئيلا لا يتعدى أولئك المولودين من والدين كاثوليك أو أولئك الذين تغذوا منذ نعومة أظفارهم بالتعاليم الكاثوليكية . .. وثمار الجهود المبذولة بسخاء وعن سعة من المبشرين الفرنسيسكان واليسوعيين تنتهي إلى العمل على الاحتفاظ ببضعة الكاثوليك القدامى من العدوى الخطيرة للنماذج العامة . . . . »[1] .

٨٧ ـ ثم سعت السياسة بدورها إلى تدعيم هذا التدخل فى أمور الكنيسة القبطية وذلك بأن أرسل الملك لويس الرابع عشر عن طريق قنصله فى مصر يعرض استعداده لتعليم ثلاثة من أبناء القبط على حسابه الخاص فى باريس ،

---

(١) كتاب تاريخ كنيسة الاسكندرية لجورج مقار (بالفرنسية) ص ٢٣٦ ـ ولا بد من القول بأن الاقباط فى القرن السابع عشر كانوا أكثر وعياً بتراثهم وأشد تمسكاً بعقيدتهم من سلالتهم فى القرن التاسع عشر ! فقد صمدوا فى وجه الاغراءات رغم الضيقات والاضطهادات التى كانت تنصب عليهم باستمرار . بل لقد بلغ بهم الوعى إلى الاستيلاء على الكنيسة التى أنشأها الفرنسيسكان بمصر العتيقة سنة ١٦٩٨ م وطردهم منها . ومما تجب الاشارة إليه أن هؤلاء الاجانب رفعوا شكواهم إلى الوالى الذى أقر البابا الاسكندرى على تصرفه وأعلن أنه هو وحده صاحب الحق فى الانفراد بشئون كنيسته . راجع تاريخ الامة القبطية ـ الحلقة الثانية ـ لكامل صالح نخله وفريد كامل ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ، « مقدمة لتاريخ التعليم فى مصر الحديثة (بالانجليزية) لهيوارت دون ص ٨٨ . وهذا ما قاله القنصل الفرنسى :

"Le nombre des fidèles se reduit à un petit nombre de Catholiques, nés des parents Catholiques, ou qui avaient été nourris dès leur enfance dans les sentiments de l' Eglise R maine . . . Le fruit de tant des peines (prodiguées par les missionnaires franciscains et Jesuites) se reduit ordinairement à preserver quelques anciens Catholiques de le dangereuse contagion de l'exemple général ".

ولكن عرضه هذا لم يلق غير الرفض الإجماعى [١] . وهنـا أيضا نسمع بعض الساخرين يهزأون بالقبط لرفضهم هذه الفرصة « الذهبية » ـ يهزأون بقولهم إن الجهلة لايرغبون فى العلم ، فهم رفضوا لأنهم يحبون الجهل الذى هم فيه ! أما المتمعنون فى هذا الرفض ـ وبخاصة المطلعين على تاريخ الكنيسة القبطية ـ فيعرفون تمام المعرفة أن العلم كان دائماً هدفاً أسمى فى نظر آباء هذه الكنيسة العريقة يشجعونه بكل طاقاتهم . فرفض القبط لعرض الملك الفرنسى هو نفس الرد الذى قاله رب المجد للشيطان حين أجاب « لا تجرب الرب إلهك » [٢] ، فهو ليس رفضاً لفرصة ذهبية وإنما هو رفض للتعرض للضغط الذى لابد من أن يحدث على من يقبل هذا العرض ، وللاغراء الذى سيقع تحته بلا هوادة لـكى يترك كنيسته القبطية العريقة وينضم إلى كنيسة غريبة عن مصر قومية وعقيدة .

٨٨ ـ ولما رأى الكاثوليك أنهم فشلوا هذا الفشل الذريع فيما يتعلق بالقبط وجهوا سهامهم من جديد نحو الحبشة أملا فى أن يصيبوا شيئاً من النجاح. واقترح اليسوعيون على الملك لويس الرابع عشر أن يرسل إلى تلك البلاد طبيبا اسمـه دورول ليستطيع بخدمته الطبية أن يستميل إليه الملك ومن ورائه الشعب . ونفذ الملك الفرنسى الاقتراح وبعث بالطبيب المطلوب فأخذ دورول معه ترجماناً سورياً اسمه الياس . وسافر الاثنان معا حتى وصلوا إلى سنّار بالسودان وهناك قبض عليهما السلطان . ثم سمح لالياس بالسفر ولكنه احتجز دورول عنده كرهينة . واستطاع الياس أن يقابل الملك تكلاهيمانوت ابن الملك سجد . ووافق هذا الملك الحبشى على مجىء دورول إكراماً للملك الذى أرسله . وكتب خطاباً

---

(١) ملحق القصص ٦١٧ ــ ٦١٨ .

(٢) لوقا ٤ : ١٢ .

بذلك وأعطاه لالياس الذى حمله إلى سلطان سنّار . ولكن هذا السلطان تشكك فى نوايا الطبيب الفرنسى فحبسه ثلاثة شهور ثم قتله [١].

٨٩ ـ ولم يكتف لويس الرابع عشر بهذه الارسالية بل تقدم سفيره فى الآستانة يطلب من السلطان أعطاءه الحق فى بعض الكنائس فى بيت المقدس . وكانت هذه المقدسات فى حيازة اليونانيين . ولكن السلطان التركى رفض هذا الطلب وأعلن أنها لليونانيين منذ إنشائها [٢].

ومن هنا ندرك أن النوايا كانت متجهة إلى فرض سيطرة الكاثوليك على هذا الشرق العريق . فسعوا إلى التغلغل فيه عن طريق ثلاثة ميادين هى القدس والحبشة ومصر . ولكنهم فى هذه الفترة التى نزعم أنها مظلمة فشلوا فى الميادين الثلاثة . وهكذا تبخرت أحلامهم وضاعت أدراج الرياح .

٩٠ ـ واستمر الرخاء حتى سنة ١٦٩٥ م ، ثم هبط منسوب النيل فجاء هبوطه بالقحط وبالغلاء . فكانت النتيجة الحتمية أن انتشر الوباء فى أعقابهما فمات عدد كبير من الناس [٣] إلى حد أن المؤرخين ذكروا بأنه حين كان يمر انسان فى المساء فى شارع من شوارع القاهرة يجد العدد الكبير منطرحاً على الأرض أو مستنداً

---

(١) سلسلة ... ص ١٦٢ ـ ١٦٤ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الرابعة عشرة) ج ٤ ص ٨١٢ . وفى هذا الصدد يقول كومب وبانيفيل ودربوف فى الجزء الثالث من كتاب « مختصر تاريخ مصر » وهو الجزء الخاص بالعصر التركى ص ٩٥ ما يلى : " Les Européans établis en Egypte avaient naturellement de grands avantages sur la population chrétienne . . ." .

وترجمته ما يلى : « ان الأوربيين الذين استقروا فى مصر كان لهم طبعاً مزايا كثيرة على الشعب المسيحى الوطنى ... » .

(٣) إذا ما تعمقنا فى تاريخ العصر التركى أدركنا لماذا وضع آباؤنا ضمن صلواتهم الضراعة الى الله تعالى أن يحفظهم من الغلاء والوباء والفناء .

إلى جدران المنـــازل ، فاذا ما مرّ فى نفس الطريق صباح اليوم التالى يجـــدهم قـــد ماتوا !!! (١) .

٩١ ـ وفى أثناء هذه الضائقة الشديدة أخذ الأنبا يؤنس عدداً من الكهنة والأراخنة وذهب بهم إلى كنيسة السيدة العذراء بالمدوية . وكان يقيم القداس الإلهى فى الصباح الباكر ، وخلاله يصلى على ماجور صغير به ماء . وبعد الانتهاء من الصلوات المقدسة يرشم الماء بالميرون المقدس ويخرج بصحبة كهنته وأراخنته ويصب الماء فى النيل . وبعد ذلك يتفقّد الشعب ويوزع عليه مايستطيع من طعـــام وملابس . واستمر على ذلك أياما كثيرة . فاستمع الآب السماوى إلى صلواته وجاء النيل فى السنة التالية وافيا . فمحا بوفائه القحط والجوع وأعاد للبلاد رخاءها .

وقد شاء البابا المرقسى أن يعبر عن شكره لله فقرر أن يذهب إلى دير الأنبا أنطونى ليتسنّى له فى سكون الصحراء ورحابها أن يخلو إلى نفسه ويرفعها فى ضراعة حارة إلى الآب السماوى . وقد صحبه فى هذه الزيارة المبروكة القس يوحنا البتول خادم كنيسة السيدة العذراء بحـــارة الروم ، كما صحبه بعض الأراخنة . فقضوا أسبوعاً هناك ثم عادوا بسلام .

٩٢ ـ وكأنما شاء الله فى شامل رحمته أن يهب صفيه هذه الفترة الروحية الهانئة تقوية له ليستطيع بدوره أن يقوى شعبه . لان الهدوء الذى كان قد استقر لم يلبث أن تبخر إذ قد ألقى الشيطان فى قلوب بعض الناس أن يدّعوا أمام الوالى الجديد ـ أحمد قرة محمد باشا ـ بأن النصارى قد جددوا كنائسهم . فأرسل واحداً من أغواته ومعه قضاة الشرع وبعض الجند ليفحصوا حقيقة التجديد . فأبلغوه

---

(١) التوفيقات الالهامية ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤ .

أنه تمَّ بالفعل تجديد فى بعض الكنائس . على أن مراحم الله قد دفعت ببعض الأمراء إلى الاستشفاع فى القبط لدى الوالى فلم يمسّ الكنائس بأى ضرر ، ولكنه فرض غرامة على البابا يؤنس . فجمع أراخنته وتفاهم معهم ، واتفق الجميع على أن خير وسيلة هى أن يزور بيوت أولاده ويطلعهم على حقيقة الموقف وبذلك تعاون الكل على جمع المبلغ المطلوب ، وحمله الأراخنة إلى الوالى . فظلت الكنائس مفتوحة كما ظلت التجديدات على ماهى . ففرحت القلوب وارتفع منها الشكر لله الرحيم لأنه آزرهم ومكنّهم من الاحتفاظ بيعهم ومن إقامة شعائرهم[1] . ثم كمل الله مراحمه إذ جاء أمر السلطان بعزل قرة باشا من الولاية على مصر - وهو الذى استمر يثقل على الأقباط بالغرامات لكل مناسبة[2] .

٩٣ - ولما اطمأن قلب الأنبا يؤنس السادس عشر بعد أدائه الغرامة المفروضة أراد أن يستجم ويستروح عبير القديسين لتنتعش روحه . فقصد إلى دير الأنبا أنطونى مرة ثالثة حيث قضى مايقرب من أربعة أشهر . وقلق الشعب وأراخنته لهذا الغياب فانتدبوا ثلاثة من كبار أراخنتهم للذهاب إلى الدير والسؤال عن سبب هذه الاقامة الطويلة . ولما وصلوا وجدوا باباهم بخير ، وإنما بقى بين اخوته لما سعد به من هدوء نفسى واختلاء إلى الله . واتفق وصول الأراخنة الثلاثة فى يوم عيد القديس مرقوريوس (أبى السيفين) ، فحضروا القداس الإلهى ونالوا البركات الروحية . وعادوا بعد ذلك إلى القاهرة ومعهم أبوهم الروحى . فتلقاه الجميع بالفرح واحتفلوا بعودته احتفالا كبيراً .

٩٤ - وكان دير الانبا بولا قد أصابه الخراب بعد أن كان الانبا غبريال السابع (البابا الـ ٩٥) قد رممه ولم يسكن به راهب واحد فكان رهبان الانبا

---

(١) كتاب رقم ٣٩١ طقس بمكتبة دير الانبا أنطونى ، موجز .. حـ ٢ ص ٧٠ .

(٢) التوفيقات ... ص ٥٥٨ .

أنطونى يقصدون إليه مرة فى السنة ومعهم اللوحة المكرّسة [١] والأوانى اللازمة للخدمة فيقيمون به القداس ثم يعودون إلى ديرهم .

ولقد شاءت المراحم الإلهية أن تفتقد الكنيسة فأوحى الروح القدس إلى البابا يؤنس أن يعمر دير الانبا بولا بعد انقضاء مئة وتسع عشرة سنة على خرابه. فلما زار دير الانبا أنطونى للمرة الثالثة تحدّث مع الأب المكرّم مرقس رئيس الدير المذكور فى وجوب تعمير دير أبى السوّاح والمتوحد الاول الذى أشعل الطريق أمام جميع الأجيال المتعاقبة . فى السنة التالية لهذا الحديث (أى سنة ١٤٩٨ ش) قصد رئيس الدير الانطونى إلى القاهرة وأبلغ البابا المرقسى باستعداده هو وبعض رهبانه لتعمير دير الانبا بولا . فأعطاه الانبا يؤنس بعضاً من الأخشاب اللازمة للعمل . وحالما عاد الأب مرقس استصحب معه القمص تادرس والقس شنودة وجماعة من الرهبان الأشدّاء ، ومعهم بنّاء وعدد من قاطعى الحجارة ، وقصدوا جميعاً إلى مقر السائح القبطى الاول . فبنوا الأسوار والجوسق [٢] ، وأرسلوا إلى البابا يخبرونه بذلك . فبعث لهم بدوره بأحجبة الكنيسة وبطاحونة وبالأدوات اللازمة لإستكمال العمارة مع بعض النجارين .

ولما أتموا العمارة جهز البابا المرقسى أوانى المذبح وأدوات الكنيسة من كئوس وأوان وصلبان ،وستور وبخور، ومفارش وأبسطة ، وناقوس، وكساوى وآلة التكريس . واستصحب القمص سمعان خادم بيعة السيدة العذراء بحارة الروم والقمص عبد المسيح كاتب القلاية البابوية ، وأربعة من الاراخنة ، وذهبوا

---

(١) هى لوحة مربعة من الخشب يتوسطها صليب محفور تحيط به أسماء ربنا يسوع المسيح، تقام عليها صلوات خاصة بتكريسها ، وتعتبر مذبحا متنقلا يستطيع من يحملها أن يقيم عليها القداس الالهى حيثما كان .

(٢) أى القصر .

جميعاً يحملون ما جهزه البابا . فوصلوا دير الانبا أنطونى يوم ٨ بشنس حيث قضوا ستة أيام . ثم غادروا الدير يصحبهم كهنته ورهبانه ، وتوجهوا جميعا إلى دير الأنبا بولا ، فوصلوا إليه قبيل غروب الشمس فى يوم الخميس ١٦ بشنس . وفى صباح الجمعة قام البابا بنفسه بفرش الكنيسة وتعليق الستائر والقناديل . ثم وصل صباح السبت عدد من أراخنة الشعب ليشتركوا مع باباهم واخوتهم الرهبان فى الاستمتاع بالصلوات المقدسة . وفى المساء - أى فى ليلة الأحد المبارك - ابتدأ البابا يؤنس بالصلاة فأدى شعائر التكريس للكنيسة والمذابح والهياكل والأوانى والأيقونات . وانتهى من هذه الصلوات القدسية فى الساعة الثالثة صباحا ، أقام بعدها القداس الإلهى وتناول الجميع من الأسرار المقدسة . وبعد ذلك زاروا مقبرة الأنبا بولا طالبين منه الشفاعة من أجلهم ومن أجل إمتلاء الكنيسة . وفى عشية الاثنين كرسوا كنيسة ثانية باسم مار مرقس الكاروز العظيم انتهت بالقداس الإلهى فى فجر الاثنين . ولما انتهوا من كل هذه الصلوات الروحية العميقة تفقد البابا الدير ومعالمه . ثم طلب إلى أربعة من رهبان الأنبا أنطونى أن يقيموا بالدير فيكونوا الخميرة التى تخمر العجين كله . وأقام القس بشارة رئيساً عليهم . وبعدما زودهم بنصائحه الأبوية ومنحهم البركة الرسولية إستودعهم لمراحم الآب السماوى وتركهم قاصداً إلى دير الأنبا أنطونى مع كل من صحبوه . ثم استراحوا يومين فى ضيافة أبى الرهبان . وفى صباح اليوم الثالث أقاموا القداس الإلهى فرحاً بعيد الصعود . ثم غادروا الدير عائدين إلى القاهرة . ومنذ ذلك اليوم العظيم عادت الحياة الروحية إلى دير الأنبا بولا وارتفعت منه أصوات المصلين المسبحين ، وتجاوبت الصحراء أصداء هذه الابتهالات القدسية .

ثم رأى البابا يؤنس بثاقب بصيرته أن يفصل بين وقف دير الأنبا أنطونى

ووقف دير الانبا بولا حسماً لما قد يحدث من منازعات بين مديرى هذه الاوقاف فى المستقبل [١] .

٩٥ - ثم أحس الانبا يونس بالحنين إلى إقامة شعائر الميرون المقدس، وشاركه هذا الحنين عدد من أساقفته وأراخنته. وكان مقدم الأراخنة جرجس أبو منصور الطوخى . فأخذ على عاتقه استحضار كل ما يلزم لعمل الميرون . وفى أسبوع البسخة لسنة ١٤١٩ ش اجتمع ستة من الأساقفة تلبية لدعوة باباهم فى كنيسة السيدة العذراء المغيثة بحارة الروم . وحضر معهم الشيوخ والرهبان وجمهور الشعب . فصلى البابا وأساقفته وكرسوا الميرون اللازم [٢] . وامتلأ الجميع فرحاً لهذه الفرصة المباركة إذ أن آخر مرة تكرس فيها الميرون كانت فى عهد الانبا متاوس الثانى البابا الاسكندرى التسعين .

٩٦ - ولقد حدث سنة ١٤٢٢ ش حادث غاية فى الغرابة يتلخص فى أن النيل فى موسم الفيضان لم يزد ولم ينقص ، بل كانت مياهه تعلو ثم تنقص من منسوبها فى نفس اليوم . وظلت على هذا الحال أياماً متوالية . فامتلأت القلوب ذعراً حتى أن أحداً لم يستطع أن يباشر زراعته أو صناعته . وفى ذهول الناس التجأوا إلى الله فطالب الانبا يونس الشعب بالصوم الانقطاعى ثلاثة أيام ابتداء من يوم الاثنين ٢٧ مسرى إلى يوم الأربعاء ٢٩ منه . فازدحمت الكنائس بالضارعين . وفى الوقت عينه أصدر شيوخ المسلمين أمرهم للشعب بالصوم ، وكذلك فعل

---

(١) سلسلة . . . ص ١٤٦ — ١٤٨ .

(٢) من نعم الله أنه توجد للآن أربع نسخ من كتاب عمل الميرون الذى قام به هذا البابا المحبوب والنسخة الأولى تتضمن شرحاً مفصلا لما جرى فى تلك المناسبة المباركة وتاريخها سنة ١٤٢٠ ش وهى محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة ، ونسخة ثانية منقولة عنها لا تحمل تاريخا ونسخة ثالثة عليها تاريخ سنة ١٤٩٣ ش ، وبدير السيدة العذراء (برموس) نسخة رابعة بتاريخ ١٦٢٧ ش .

حاخامات اليهود فكانت أيام صـامها الشعب المصرى كله بمختلف أديانه . وارتفعت هذه الأصوام والصلوات إلى عرش الله وتآلفت منها قوة عظيمة فاستمع لها خالق الكل . وإذا بالنيل يعلو حتى بلغ ستة عشر ذراعاً ونصف . وكان ذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر توت المبارك - أى فى ليلة عيد الملاك ميخائيل رئيس جند السمائيين [1] وأكمل الله فيضه بأن تلبدت الغيوم وهطل المطر مدراراً إلى حد أن المياه روت الأماكن العالية . فكثرت الخيرات وامتلأت القلوب طمأنينة ، ورفعوا آى الشكر لله الرحيم الذى تداركتهم مراحمه بهذا الفيض الغـامر. ومن الطريف أن أحد الزجّالين عبّر عما ملأ القلوب من فرح بالبيتين التاليين :

النيل فى مصر وافى فى توت حادى وعاشر
والناس قد أرّخوه لله جبر الخواطر [2]

وفى هذه السنة عينها ذهب البابا المرقسى إلى الاسكندرية وأقام القداس الإلهى فى كنيسة الكارز المحبوب .

٩٧ - وحدث أيضاً فى نفس السنة أن الباب العالى عزل الوالى محمد باشا رامى. وبعد سنة من عزله تولى حسنين باشا كتحذا . وكان يشغل وظيفة شيخ البلد [3] إذ ذاك الأمير قاسم عيواظ رئيس المماليك القاسميين . وكان - خلافاً للمعتاد - حاكما عادلا وأباً حنوناً للشعب وكان المماليك فى ذلك العصر منقسمين إلى حزبين متساويين : القاسميين والفقاريين الذين كان يرأسهم ذو الفقار بك . وكان الحزبين متنافسين يستهدف كل منهما السيطرة على الآخر . ولكنهما كان على وفاق تام حين

(١) قطمارس شهر بؤونه المخطوط المحفوظ بمكتبة كنيسة السيدة العذراء الأثرية بحارة زويلة ، المسجل برقم ١٥ - ٧٠ ، المؤرخ فى ٢١ هاتور سنة ١٤٢٢ ش .

(٢) الـكافى ح ٣ ص ١٠٩ .

(٣) هو كبير المماليك الذى يلى الوالى مباشرة فى السلطة .

قدم حسنين باشا لتولى الحكم خشى على نفسه من تفاهمها ، وأوقع بينهما الشقاق إلى حد أنهما ظلا يتقاتلان حوالى ثلاثة شهور [1] فأغلقت المحال التجارية . واختبأ الناس فى بيوتهم فلم يخرج منهم إلا الذى اضطرته الضرورة القصوى لأن شوارع القاهرة كانت ميادين القتال . وتسببت هذه المعارك الدامية فى قتل العدد الكبير من الناس ، وفى حرق منازل كثيرة ، وفى النهب والسلب .

٩٨ - إلا أن العجب العجاب فى هذه الضيقة الشديدة أن القبط لم يصابوا بأذى . وفى هذا الصدد يقول لنا المخطوط « . . وبعد السبعين يوماً أراد الله تعالى أن يفرج عن العباد . . . فاطمأنت الرعية . ولم تحصل أذية لأحد من النصارى بصلاة هذا الأب القديس لأن الرضا . والمواهب التى منحها الله لهذا الأب لم تحصل لغيره من الآباء البطاركة من مدة الأب القديس الجليل أنبا متاوس البطريرك السابع والثمانين إلى هذا الأب القديس . لأنه كان موفقاً من الله فى جميع أيامه وفعاله » . [2]

٩٩ - ولم يقتصر الكرب على القاهرة بل امتدّ إلى « الدرب السلطانى [3] » . الذى أصبح محفوفاً بالمخاطر لتمرد العربان على السلطة ولجورهم وبطشهم . فظل القبط لا يستطيعون زيارة الأراضى المقدسة مدة إثنتى عشرة سنة . وحتى التجار لم يستطيعوا المرور من هذه المنطقة . ثم تراءف الله على الناس فاصطلح العربان . وعزل الباب العالى والى تلك النواحى ، وأقام عوضاً عنه محمد باشا الغزاوى (وهو من أعيان غزة) الذى كان نافذ الكلمة . فأطاعه كل العربان وبذلك حل الأمن

---

(١) جاء فى « تاريخ بطاركة الاسكندرية » المخطوط بيد القمص شنودة الصوامعى البرموسى ﺣ ٢ ص ٥٠٦ - ٥٠٧ أنهما اقتتلا سبعين يوما ، فى حين أن كامل صالح نخلة يقول فى كتابه « سلسلة ...» ص ١٥١ - ١٥٢ أن القتال استمر ثمانين يوما .

(٢) الصوامعى البرموسى ﺣ ٢ ص ٥٠٧ .

(٣) الطريق البري الممتد عبر الصحراء الشرقية الى منطقة غزة .

والامان . وأصبح الدرب السلطانى مأموناً لمن يريد السفر . وأرسل مندوب العزاوى باشا رسالة يبشر فيها أهل مصر بما حدث . ووصلت هذه البشرى إلى انبابا المرقسى ورجاله فامتلأوا فرحاً وأعطوا السبح لله.

١٠٠ - وتعبيراً عن هذه الفرحة التى غمرت القلوب انعقدت النية على أن يسافر البابا يؤنس إلى الاراضى المقدسة . فبعث برسائله إلى جميع أساقفة الصعيد والدلتا يبشرهم بما حدث ويبلغهم بعزمه على التقديس مع بعض كهنته وأراخنته . وكانت هذه الرسائل حافزاً لاستنهاض الهمم . وبدأ قبط الصعيد الذين يبتغون الزيارة المقدسة يتحركون نحو القاهرة من أول الصوم الكبير . فتجمعوا فيها فى يوم الجمعة الثانى منه . وتحرك الركب البابوى فى يوم الجمعة ٢ برمهات سنة ١٤٢٥ ش (سنة ١٧٠٩ م) . وكان يصحبه أنبا غبريال أسقف القدس وعدد من الكهنة والشمامسة وجمهور الشعب . والتقى هذا الركب بالآتين من الدلتا عند الصالحية . فوصلوا إلى القدس الشريف يوم الثلاثاء ٣ برمودة ونزلوا فى دير السلطان [١] . وقد احتفى بطريرك الروم الأرثوذكس ورؤساء الكنائس المختلفة بالبابا المرقسى وأبدوا نحوه كل تقدير وإكرام .

ولقد وضع القمص عبد المسيح خادم كنيسة السيدة العذراء كتاباً عن هذه الزيارة المباركة مازال موجوداً بنعمة الله ، وهو يصف الرحلة من بدايتها إلى نهايتها ويخبرنا بأن أربعة وعشرين كاهناً صاحبوا باباهم وسعدوا معه ببركة الاماكن المقدسة . ثم يحدثنا عن مختلف الشعائر الدينية الخاصة بأيام البسخة المقدسة . ونقتطف هنا حديثه عن صلوات سبت النور : « . . . وبعد ذلك قرئت تسابيح ليلة الفرح ورفع بخور باكر والقداس كالعادة ، ووزعت الأسرار المقدسة .

---

(١) هو الدير الذى وهبه صلاح الدين للقبط - راجع قصة الكنيسة القبطية ج ٢ ص ١٩٢ والهامش بنفس الصفحة .

وبعد تناول الشعب فى الساعة الأولى من النهار وأطفاء القناديل بأجمها والشموع ولم يبق فى القيامة أثر للنور بالجلة ، وقفلوا باب القبر المقدس بحرز وختموه الجند كالعادة ، وصار جميع الطوائف مبتهلين إلى الله متضرعين إليه ومنتظرين ظهور النور من النور الحقيق السيد الرب الإله الكلمة فيتحنن عليهم برحمته . وفى الساعة السادسة من النهار ظهر النور من القبر المقدس فائض النعمة ، وشاهدوه من الشقوق وهو يضوى . وعندما شاهدوا ذلك صار ضجيج كثير من كثرة العالم وكانت ساعة رهيبة جداً . وقد أخبر كاتب هذه السيرة الجماعة الواقفين عند المقتسل أن النور هبَّ وقاد القناديل التى فوقه ... وفى أثناء ذلك تجهـــز الآب البطريرك خريستفانوس بطريرك الروم وأبدل ملابسه ولبس التاج وسائر كهنته المطارنة والأساقفة والخوارنة والقسوس والشمامسة ورتبوا الدورات الثلاثة ، وداروا حول القبر المقدس . وكان السيد البابا الاسكندرى قد لبس التونيـــة القصب والأكمام والبدرشين لا غير من غير برنس ، ولبس طاقية مكللة باللؤلؤ والفصوص والحجارة الثمينة ، وربط الشمع فى يديه بالزنار ربطاً جيداً ، ووقف من داخل البيعة على الباب ، وعند مرور كل دورة من دورات بطريرك الروم أمام أبينا البابا يطامنا لبعضها ، وفى آخر الدورة الثالثة طامن له ووقف بباب الكنيسة واستدعاه للتوجـــه إلى القبر . ومن كثرة الزحام من الخلق الكثير لم يستطع الاقتراب من القبر فاختطفوه وحملوه من على الأرض إلى أن أدخلوه إلى قبر المخلص . . . وعندما أوقد البابا الشمع الذى فى يديه حملوه وأتوا به إلى بيعته ووقف بالشباك الحديد الذى بالكنيسة وأوقد الشمع الذى بيد أبناء طائفته جميعها . فيالعظم هذا الفرح والسرور والتهليل الروحانى الذى شمـــل المسيحيين المؤمنين باسمه القدوس فى تلك الساعة حتى ظن الجمع الواقفون فى أورشليم الأرضية كأنهم فى أورشليم السمائية وهنأوا بعضهم البعض وسجدوا لله القدوس وباركوه

على أنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما عاينوه وشهدوه . إذ أنعم علينا وشرفنا مشاهدة هذا النور لنعظه مع داود المرتل الفرح القـائل من أفواه الأطفال والرضعان أعددت سبحاً ، ونشكره مع يعقوب التلميذ الحوارى ذى البهجة والسرور القابل كل عطية وموهبة تامة إنما تهبط من فوق من عند أب النور . فله الحق من إحسانه وإنعامه علينا إلى الأبد آمين » (١) .

ويختتم القمص عبد المسيح وصفه بهذه الكلمات : « ثم قام الرئيس المولى جرجس أبو منصور والشعب جميعه بزيارة الأماكن الشريفة وبيت لحم وغيره بكل هدوء وسلام ، ورفعت القرابين يومياً فى الكنائس إلى أن اعتزموا على الرحيل إلى مصر بعد عمل الأحد الجديد الذى هو أحـد توما من أيام القيامة المقدسة ، وأقام فيه البابا والأسقف والكهنة القداس . وبعد الإنتهاء منه دخل السيد البطريرك ويصحبه الرئيس المولى إلى قبر المخلص وسجدوا لله ، وتباركوا منه وانصرفوا . وفى الغد أعدّوا عدة الرحيل وتركوا القدس الشريف فى اليوم الثـانى عشر من شهر بشنس بنفس نظام المجىء ، ووصلوا إلى وطنهم فرحين ومحفوظين بسلامة الله وعنايته (٢) .

وبعد أن سعد الجميع بزيارة الأماكن المقدسة، وامتلأت نفوسهم نشوة بالسير فوق الأرض التى وطئتها أقدام رب المجد . وبعد أن حلقت نفوسهم مع صلوات

---

(١) مجلة النهضة المرقسية للأقباط الارثوذكس بالقدس : سلسلة من المقـالات بعنوان « تاريخ الـكرسى الاورشليمى » لكامل صالح نخلة نقلا عن مخطوط رقم ٢٠٢ مسلسل ١٢٨ طقس محفوظ بمكتبة المتحف القبطى ، والأعداد من يوليو سنة ١٩٥٣ – فبراير سنة ١٩٥٤ .

(٢) تاريخ الكرسى الأورشليمى لـكامل صالح نخلة نشره بمجلة النهضة المرقسية – عدد مارس سنة ١٩٥٤ ص ٨٩ ، وقد أورد فى آخر الصفحة هذه الـكلمات : « هذه مقتطفات لم يعبث بها القـلم نقلت كما هى من المخطوط والموضوع بمعرفة القمص المـكرم عبد المسيح خادم كنيسة السيدة العذراء بمنية سرو بتاريخ ٨ برمهات سنة ١٤٢٦ للشهداء » .

أسبوع البسخة وسبت النور وليلة القيامة المجيدة عادوا إلى بلادهم وقد امتلأت نفوسهم نعمة وقوة . فوصلوها فى ٢٨ بشنس [1] .

وكانت للزيارة البابوية للقدس بركة مزدوجة : فهو وصحبه قد نالوا السعادة الروحية ، وهو فى الوقت عينه قد قوّى عزائم أولاده المقيمين فى بلاد المقدس وشجعهم على السهر فى حماية ممتلكاتهم وتعمير كنائسهم .

١٠١ ـ ولقد منح الآب السماوى البابا بؤاس نعمة عظمى هى توفيقه فى كل ما كان ينتويه من أعمال لأنه عاش ليراها وقد تمت فقد قام بتكريس عدد وفير من الكنائس فى مختلف البلاد المصرية بعد أن رممها المسئولون عنها . ورسم لهذه الكنائس القسوس والشمامسة للخدمة فيها . واستطاع أيضاً أن يعيد بناء دير الانبا بولا ويعمرّه بالرهبان ، ثم أن يزور الاراضى المقدسة إلى جانب زيارته الراعوية . وفوق هذا كله فقد اختطّ خطة لها روعتها فى خدمة شعبه وهى أنه حين رأى أن المرضى والمقعدين والكهول ليست لديهم المقدرة على الذهاب إلى الكنيسة أوصى كهنته بأن يحملوا إليهم الذخيرة المقدسة حتى لا يحرموا من هذا الغذاء الروحى الأقدس [2] . وهكذا سار الآباء على هذه الخطة التى تدل على التعاطف الوثيق بين الراعى والرعية .

على أن عدو الخير ساءه أن تنعم الكنيسة القبطية بكل هذه النعم الإلهيـــة فاستثار عليها الحرب ممن كان يجب أن يكونوا حلفاءها . ذلك أن عدداً من السوريين واللبنانيين الذين كانوا قد انضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية وفدوا إلى مصر واشتغلوا بالتجارة والصناعة ونجحوا فيها . وفى الوقت عينه حضر بعض الاوربيين الكاثوليك الراغبين فى المغانم المالية . فشجع حضور هؤلاء وأولئك الرهبان

---

(١) كتاب رقم ١٢٨ طقس ـ تاريخ عمل الميرون وظهور أعجوبتين محفوظ بمكتبة المتحف القبطى . (٢) سلسلة . ص ١٥٨ .

الفرنسيسكان على مضاعفة جهادهم ليظفروا ببعض القبط . ونتيجة لهذا الجهد المتزايد أصبح لهم دير وكنيسة بالموسكي . ثم لم يلبثوا أن ألحقوا مدرسة بالكنيسة ليكون التعليم واسطتهم التي يتغلغلوا بها إلى عقول أبناء القبط . ولقد كتب حافظ ابراهيم قصيدة تتضمن شيئاً من العتاب على المصريين منها :

ماذا جنيت وما جناه أبوك أظلمتهم يا مصر أم ظلموك
فبسمت للغرب الطموح وأهله ومنحتهم فوق الذى منحوك
وعبست فى وجه الشآم وإنما قطر الشآم وان عبست أخوك

على أن عبوس مصر فى وجه القطر الشقيق كان تعبيراً عما داخلها من شعور بخيبة الأمل بأزاء موقفه منها . ولكن بسمتها للغرب كانت فى غير محلها من غير شك [1] .

١٠٢ - ومن الوقائع الجديرة بالتأمل أن العهد الذى ينعم فيه القبط بباباً متيقظ لمسئوليته تلمع فيه شخصيات كبيرة حتى لكأنه مغناطيس يجتذب المواهب الكامنة ويبرزها . فنجد أن الأراخنة المساندين للانبا بولس السادس عشر كثيرون ولو أننا لا نجد عن أى واحد ما يشفى الغليل . وإنما نعرف أن أول ما عمله هذا البابا المرقسى الجليل هو اسناد نظارة الكنائس إلى أراخنة معلمين ، وكانت قبل ذلك مسندة إلى أصحاب الحرف . ويوصف الأراخنة بأنهم « مسيحيون كاملون فى فعل الخير والمعروف » [2] .

وأول أرخن جاء ذكره هو المعلم داود الطوخى وابن أخيه جرجس أبو

---

(١) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ص ٣٢ – ٣٤ ، ومما يؤسف له أن الغرب سار على خطة « فرق تسد » ، فلم يستنفر المسلم والقبطى فقط بل استنفر السورى واللبنانى ضد المسلم ، ولم يسر على هذه الخطة فى السياسة فقط بل سار عليها فى ما وصفه بالتبشير – راجع أيضا : دون « مقدمة لتاريخ التعليم فى مصر الحديثة » (بالانجليزية) ص ٩٠ .
(٢) البرموسى ج ٢ ص ٥٠٢ .

منصور الذين كانوا قد نزحا من بلدتها طوخ النصارى وسكنا فى حارة الأرمن بدرب الجنينة . على أن المعلم جرجس هو الذى يحتل المكانة الاولى . فنعرف عنه أنه حينما توفى إبنه الوحيد إتخذ له بيتاً فى حارة الروم ليكون إلى جوار الكنيسة وإلى جانب باباه الذى عيَّنه ناظراً للكنيسة . ففتح بيته لكل قاصد وكل محتاج . اما فى أيام الآحاد ، فبعد الانتهاء من القداس الإلهى كان يستصحب البابا والكهنة إلى بيته كما يحضر الفقراء ويقدم للجميع الافطار والقهوة . وفى الاعياد يقيم الولائم للفقراء والغرباء . ولم تقتصر غيرته الروحية على أعمال الرحمة بل امتدت إلى إعادة تعمير كنيسة مار جرجس (الفوقانية) بحارة الروم . ولما رأى البابا تفانيه أسند إليه أيضاً نظارة كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة . فرممها وزخرفها وأعاد إليها رونقها الاثرى واستكمل مكتبتها . فكان مجهوداً جباراً بذله هذا الإبن البار بكنيسته القبطية الارثوذكسية عدَّه الشعب أعجوبة (١) .

وحينما رغب البابا فى عمل الميرون أحضر له المعلم جرجس كل مستلزماته . فلما انتهت شعائره المقدسة ، قدم لكل من البابا والاساقفة الذين اشتركوا معه فى الصلاة - قدم لكل منهم بدلة كهنوتية كاملة وكأساً وصينية للأسرار المقدسة .

وحين سمحت مراحم القدير بحلول الأمان فى الطريق المؤدى إلى القدس ، وتمكن البابا المرقسى من زيارة الاراضى المقدسة ، كان المعلم جرجس هو الذى مهد لهذه الزيارة فقد إستدعى القمص عبد المسيح كاتب القلاية إلى بيته وعرفه رغبته فى أن يسعد بسفر البابا يؤنس ورجاله على نفقته الخاصة فى هذه الرحلة المباركة ثم كتب رسالة بهذا المعنى سلمها للشماس المكرم عبدالمسيح شتيوى الصايغ (٢) فقبل البابا الاسكندرى إكرام إبنه له وسافر الجميع فى غمرة من الفرح (٣) .

---

(١) كتاب رقم ١٢٨ طقس المخطوط بمكتبة المتحف القبطى .
(٢) وهنا أيضاً لا نعرف عن هذا الخادم السكندرى غير اسمه .
(٣) سلسلة . . . ص ١٠٤ .

والحق أن مسلك هذا الارخن - جرجس - مثالى . فهو حين فقد وحيده - لم يستسلم للحزن ولم يتمرد على الله ، بل كرس حياته وجهوده للخدمة البناءة .

أما باقى الأراخنة المعاصرين له فلا نعرف عنهم غير لمحات خاطفة : فالمعلم يوحنا أبو مصرى كان كبير المباشرين ، وناظراً على كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . فقام بصيانة مبانيها وزخرفة منبرها . وزيّنها بالنقوش الجميلة، وحصّن أسوارها . ثم وجّه اهتمامه إلى مكتبتها : فصرف المال الوفير على نساخة الكتب ووضعها فيها ، كما أقام لها أميناً هو الشماس المعلم نسيم بطرس .

ويوصف هذا الارخن فى آخر كتاب قطمارس شهر طوبة المخطوط القبطى المحفوظ بمكتبة كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة الوصف التالى : « اهتم بهذا الكتاب المبارك أجل وأشرف السادة المخاديم الكرام ، وأفخر طائفة المسيحيين العظام ، السيدى المخدومى الأخ الحبيب العاقل اللبيب ، المحب . وحيـــد دهره وأوانه ، وفريد عصره وزمانه ، صاحب المعرفة والعقل والنظام ، النافذة كلمته عند سائر الولاة والمقام ، وأرباب المناصب أجمعين ، وأس الأراخنة والمباشرين ، الشماس المكرم والأرخن المبجّل ، الدّين الارثوذكسى الشيخ العلم الشمس الأسعد المعلم يوحنا أبو مصرى ، أطال الله حياته وأوهبه العمر الفسيح » . ورغم المبالغات الطريفة فإنه يتضح لنا أن هذا الارخن كان من عظماء الدولة ، مسموع الكلمة لدى ولاة مصر المعينين من الباب العالى . فهو إذن قد جمع بين مهام الدولة وبين خدمة الكنيسة كما شهد له بذلك القمص غبريال كبيرة رعاة كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة (١) .

والمعلم ابراهيم أبو عوض ، وسليمان الصراف الشنراوى ، ومكرم الله أبو

---

(١) سجل القمص غبريال شهادته هذه فى القطمارس المذكور ، ويحمل رقم ١٣ - ٥٥ طقس وتاريخه ١٥ مسرى سنة ١٤٢١ ش .

فليفل ، وغبريال أبو سليمان الابيارى ، وسعد الغمراوى ، هؤلاء جميعاً يكتفى المؤرخون بوصفهم أنهم « معلمون أفاضل وأراخنة عظام » فى حين أنهم اكتفوا بالقول عن المعلم ابراهيم أبو سعد انه شقيق المعلم جرجس الطوخى [١] .

وإلى جانب هؤلاء الاراخنة يقف عالم كبير ومؤرخ ذو شهرة اسمه شمس الدين . وتعتبر كتبه للآن مرجعاً موثوقاً به لما جرى من الحوادث فى النصف الأخير من القرن السابع عشر [٢] .

١٠٣ - والذى يجب أن نذكره بالاعتزاز أنه كان على رأس هؤلاء الأراخنة جمعياً أساقفة عرفوا معنى المسئولية ، فسهروا على سلامة العقيدة الأرثوذكسية وعلى ترسيخها فى القلوب .

ومن أبرز هؤلاء الاساقفة الأنبا أثناسيوس أسقف كرسى البهنسا والأشمونين الذى كان ضمن من اشتركوا فى إقامة صلوات الميرون المقدس التى أقامها البابا يؤنس السادس عشر . ولقد كان هذا الاسقف من المتضلعين فى العلوم الكنسية ، فدأب على تعليم شعبه وعلى إرشاده إلى وجوب الحرص على عقيدة الكنيسة وتقاليدها . فلما ضيق المرسلون الخناق على المؤمنين سعياً وراء اقتناصهم باءوا بالفشل لان الشعب عمل بتوجيهات أسقفه ورفض أن يحيد قيد أنملة عن العقيدة الارثوذكسية . فتجاوبت القلوب إذ برز الاسقف الصاحى وسط شعبٍ واعٍ [٣] .

وهناك أسقف يغلب الظن على أنه من معاصرى هذا البابا هو الانبا ميخائيل أسقف مليج وأتريب . ومن نعم الله أنه لاتزال بين أيدينا بعض كتابات هذا

(١) كتاب رقم ٣٩١ طقس محفوظ بمكتبة دير الأنبا أنطونى

(٢) « القاهرة » لعبد الرحمن زكى ص ٢٠٧ .

(٣) أقليم المنيا فى العصر القبطى للقس ميمائيل بحر — مقال نشره فى مجلة صوت الشهداء ، السنة الرابعة العددان السادس والسابع (يونيو ويوليو سنة ١٩٦٢ م) ص ٤٠ .

الأسقف تدلنـــا على مدى اهتمامه بنشر الوعى الكنسى بين شعبه . ومن هذه الكتابات سنكسار رتبه هو شخصياً . وكذلك يوجد له كتاب يتألف من خمسمائة وستين ورقة. وهو مع ذلك ناقص لأن ورقاته الاخيرة غير موجودة. ولا نعرف كم كان عددها . وهذا الكتاب عنوانه : «الطب الروحانى - مجموع من قوانين الآباء القديسين وأسئلة وأجوبة معلمى البيعة ، وقد ترجم المستشرق الألمانى فرانزكوان هذا الكتاب إلى الألمانية ونشره فى مجلة «أوريَنز كريستيانوس» سنة ١٩٠٦ [١] .

١٠٤ - وليس بغريب على عصر ساده السلام إلى حد ما ، أن تتخلف عنــه مخطوطات عديدة ، وإنما الغريب أن تصلنا هذه المخطوطات فلا تمتد إليها يد التخريب . ومن طرائف المخطوطات المتبقية لدينا عن هذه الفترة مخطوطة مكتوبة فى لهرين - قبطى وعربى - تحمل فى آخرها تاريخ ٧ بابة سنة ١٣٩٨ ش، وتتضمن حياة سيدنا يسوع المسيح مكتوبة بالشعر المنثور على نمط «المقامات» . وتمشياً مع الروح القديمة لم يذكر المؤلف اسمه فهو ينتظم ضمن الجنود المجهولين [٢] .

وتوجد مجموعة من المخطوطات ضمن مجلد واحد - يرجع جزؤها الأول إلى ٣ مسرى سنة ١٤٠٧ ش ، وجزؤها الأخير إلى ١٢ برمهات سنة ١٤٠٩ ش . وتشمل موضوعات مختلفة : أهمها ميمر عن مجئ المسيح له المجد مع أمه السيدة العذراء ويوسف النجار إلى بلادنا وإقامتهم بجبل قسقام (الدير المحرق) . وأغلب الظن أن كاتب الميمر هو أنبا زكريا أسقف سخا لأنه كاتب الجزء الأخير من

---

(1) Franz Coln, dans " Oriens Christianus " VI (1906) pp 70 - 237; VII (1907) pp 1 - 135 ; VIII (1908) pp 110 - 229 .
وقد سجل المستشرق الالمانى جراف فى كتابه « ستودى ايه تستى » بأن هذا المخطوط يرجع الى القرن السابع عشر لأنه مع كونه لا يحمل تاريخاً معيناً الا أنه يحمل اسم الأسقف ميخائيل . وتوجد نسختان من هذا المخطوط ، كلتاهما محفوظتان بالمكتبة البابوية بالقاهرة ، رقم الواحدة ٣٩٠ (سنة ٥٠٧) ورقم الثانية ٤٣٢ (سنة ٧٥٣) .

(٢) مخطوطة ٣٢٢ - رقم ٢٧٩ - محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

المخطوطة وموضوعه أيضاً عن مجىء ربنا يسوع المسيح وأمـــه القديسة مريم ، والقديس يوسف وسالومى إلى مصر فى ٢٤ بشنس ،وقد قرىء هذا الميمر فى اليوم المذكور فى الكنيسة الكبرى القائمة وسط المدينة (سخا) حين كان كل الشعب مجتمعاً بها .»[1] .

وهناك مخطوطة بعنوان : «وصف الآيات الإلهية والعجائب الواضحة والعلامات الصريحة القوية التى صنعتها سيدتنا مرتمريم العذراء المختارة فى الزمن الذى كانوا يرمون فيه كنيستها المقدسة المعروفة بالمعلقة - بيد الأخ المحبوب والابن المبارك والشيخ المسكين الرئيس جرجس أبو منصور فى أيام الأب البطريك يونس بعد أن قام بعمل الميرون سنة ١٤٢١ ش » .

ومعها فى نفس المجلد مخطوطة بعنوان : « الآيات العظيمة الإلهية التى صنعها سيدنا يسوع المسيح لخير أبينا المغبوط البطريك يونس - المئة والثالث فى عدد البطاركة . وبصلواته ليتفضل الرب بأن يطيل حياته ويحفظ شعبه. وذلك قبل أن يذهب إلى أورشليم ويزور الأماكن المقدسة . وقد كتب هـــذا التاريخ الابن المبارك الشيخ المسكين المعلم جرجس أبو منصور فى شهر برمهات سنة ١٤٢٥ ش[2]

كذلك توجد مخطوطة تتضمن صلوات البسخة باللغة القبطية فقط . إلا أنه وردت فى آخرها الكلمات الآتية بالقبطية والعربية : « أذكر يارب الشماس ابن الشيخ بشارة ابن يوسف المعروف بالفاصح الحلاوى . وكان الفراغ من هذه البسخة الموقوفة على بيعة العذراء بدرب البحر بحارة البطريك بمصر القديمة فى يوم الاثنين المبارك ٢٠ مسرى سنة ١٤٢١ ش[3] .

---

(١) مخطوطة ٤٤٥ ــ رقم ٧٦٣ ــ محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة .
(٢) مخطوطة ٩٩ — ١٢٨ أدب محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .
(٣) مخطوطة ١١٨٠ محفوظة بالمتحف القبطى بالخزانة رقم ٤ .

وثمة مخطوطة أخرى جاء في آخرها مايلي : « تمت في ٢٠ مسرى سنة ١٤٢١ ش بيد غبريال أبو طبل بن سمعان الخوانكي بناء على طلب الشماس ابراهيم ابن بشاره ابن يوسف الكسيح الذي أوقف هذا الكتاب على كنيسة السيدة العذراء ... وقد أصبح فيما بعد ملكا لكنيستي الشهيد العظيم مرقوريوس (أبي السيفين) ورئيس المتوحدين الانبا شنودة اللتين في نفس المدينة (مصـــر العتيقة) . والمخطوطة تتضمن القراءات الخاصة بأسبوع البسخة المقدسة مكتوبة باللغة القبطية في حين أن العناوين مكتوبة بالقبطية والعربية [١]

ويبدو أن لهذا الناسخ أخاً اشتغل هو أيضاً بنساخة الكتب الكنسية . لأن هناك مخطوطة أخرى جاء فيها أن كاتبها إسمه إبراهيم أبوفضل بن سمعان الخوانكي وتتميز هذه المخطوطة بالزخارف الذهبية والحمراء والزرقاء . والصفحات الرئيسية مكتوبة داخل إطارات مكونة من زخارف وخطوط مختلفة . وهـــذه أيضاً تتضمن صلوات البسخة المقدسة ، ولكنها مكتوبة كلها باللغتين القبطية والعربية . والورقة ٣٨٠ (وجه) تابعة لمخطوطة أخرى تحمل رقم ٢٠٤ بعنوان : « ترتيب القصرية في خميس البسخة المقدسة » ، وهي محاطة باطار متباين الألوان وفي ظهر الورقة ملحوظة للقمص صليب عن بناء مسكن البطريرك إلى جانب كنيسة الشهيد مرقوريوس (أبي السيفين) في حارة شنوده . وفي آخرها سنة الشهداء ١٤٠٢ [٢] ـ ولهذا الناسخ عدة أيقونات محفوظة بالمتحف القبطي كانت أصلا تزين الكنائس المختلفة . وقد اشترك معه في رسم البعض منها رسام اسمه حنا الأرمني [٣] .

---

(١) مخطوطة ١٧١ ـ (رقم ١١٨٠) محفوظة بمكتبة المتحف القبطي ـ وقد تكون كنيسة السيدة العذراء التي لا تحمل اسماً في المخطوطة هي « العذراء الدمشرية » لأنها بجوار الكنيستين المذكورتين . أما الشماس والناسخ فلا نعرف غير أسميهما .

(٢) مخطوطة ١٧٨ ـ رقم ١٦٥٤ ـ محفوظة بمكتبة المتحف القبطي .

(٣) دائرة المعارف القبطية لرمزي تادرس ج ١ ص ١٦ .

كذلك توجد مخطوطة بالمتحف البريطانى مكتوبة فى نهرين : قبطى وعربى بها زخارف باللون الاحمر ، والحروف الكبيرة فيها بالاحمر والاخضر والاصفر وعنوان المخطوطة « كتاب الترتيب » ويشتمل على الصلوات والقدسات والاعياد السيدية والاصوام على مدار السنة وبعض أجزائها ترد فيه رؤوس الموضوعات باللغة العربية فى حين أن السطور الاولى والطقسية منها مكتوبة بالقبطية،ويشتمل أيضاً على ترانيم بأكلها لمختلف المناسبات : كالعرس فى قانا الجليل، وانكار بطرس، والهرب إلى أرض مصر ، وميلاد السيدة العذراء ، والاربعة حيوانات غير المتجسدين والاربعة والعشرين قسيساً – وكل منها يقال بلحنه الخاص ويتألف الكتاب من تسع وأربعين ورقة جاء فى ورقة ٣٨ (ظهر) منها تاريخ الانتهاء من كتابته وهو سنة ١٤٢٤ ش (سنة ١٧٠٨ م) وهناك نسختان مماثلتان لهذه المخطوطة إحداها فى كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) وثانيتها فى كنيسة السيدة العذراء بقصرية الريحان ، تتضمن كل منهما تفسيرات وافيه (1) .

ولم يقتصر نشاط الكتاب فى هذه الفترة على الكتابات الاصيلة بل امتد إلى نقل المخطوطات القديمة التى أدركوا نفعها لشعبهم . ومما نقلوه مخطوطة آية فى التنسيق والابداع – صفحتها الاولى مزينة بأربع أيقونات .

١ – ففى الركن الاعلى من الشمال أيقونة للمسيح مكتوب تحتها « السيد » ، وهى مرسومة داخل مربع محيط به دائرة زخرفية رائعة ذات خلفية ذهبية ، والزخرفة التى بها ملونة بالاحمر الغامق والاخضر الفاتح .

٢ – وفى الركن المقابل له أيقونة أم النور مكتوب تحتها « العذرى » مزينة على نفس النمط .

(١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطانى ص ٣٠٣ مخطوطة ٨٤٠ (النسخة المحفوظة بمكتبة المتحف المصرى ببرلين الغربية) .

٣ - أما الركن الأسفل على الشمال فيحتوى على مستطيل بداخله أيقونة تصور لنا تحول بولس بالطريقة التالية : رجلان واقفان على الأرض وإلى جانبهما حمار قد وقع شاول من عليه وفوقهم كلمات : « شاول شاول لماذا تطاردنى » . وفى أعلا هؤلاء جميعاً يد وسط دائرة ذات لون لبنى وفوقها بالذهبى كلمات : « أنا يسوع الناصرى » .

٤ - وفى الركن المقابل مستطيل مماثل يجلس فى وسطه بولس على أريكة مكتوب فوقها « بولس الرسول » ، وفوق رأسه « المنتخب » . ويقف ثلاثة رجال أمام الرسول مكتوب فوقهم « تلاميذ بولس » . والكتابة كلها باللون الذهبى » .

وقد جاء على الورقة ١٣٠ وجه أن المخطوطة كتبها الراهب القمص غبريال بناءً على طلب الأرخن الشيخ النشو أبو شاكر بن السنىّ الراهب بن المهذب وهى منقولة عن مخطوطة كتبها أنبا يونس أسقف سمنود المعروف بالسمنودى . والعجيب أنه مذكور بأن الأصل يرجع إلى مخطوطة جميلة كتبها جرجة بن سكسيك الناسخ المشهور. كذلك ورد على ورقة ٢١٨ وجه كتابات بخط عريض متناسق باللون الذهبى داخل اطارات سوداء وحمراء وصفراء تقول أن غبريال المذكور سابقاً أتمّ نقلها فى ٢٦ طوبه سنة ٩٦٦ ش . وفى آخر المخطوطة ورد بأنها :

١ - أوقفت على كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى السيفين) فى ٧ مسرى سنة ١٣٩٢ ش . .

٢ - أن الانبا يونس الطوخى - السادس عشر - قد تمّت رسامته يوم الأحد ٩ برمهات سنة ١٣٩٢ ش ، أنه فى سنة ١٣٩٤ ش حدث غلاء عظيم . والمخطوطة تشمل رسائل بولس والكاثوليكون والأعمال وهى كلها مكتوبة بالقبطى والعربى[1]

(١) مخطوطة ١٠١ رقم ٦٨٩ تفسير بمكتبة المتحف القبطى .

والمخطوطات التى بقيت لنا من هذه الفترة تعطينا صورة رائعة للانتاج الفكرى خلال السلام فتملأنا غبطة بالمجهودات التى بذلها آباؤنا وهى فى الوقت عينه فتملأنا أسى على ماكان يمكنهم انتاجه لو أنهم كانوا قد تمتعوا بالسلام على فترات أطول ثم - من يدرى ؟ قد يكونون أنتجوا حتى فى عهود الظلم والضيق ولكن يد التخريب امتدت إلى انتاجاتهم. وعلى أية حال يجدر بنا أن نرفع الشكر دوماً للآب السماوى لأنه لم يدع نفسه بلا شاهد فى كل فترة من تاريخ كنيستنا المجيد المديد .

١٠٥ - ومما يوجع القلب أن الأوبئة ظلت تجتاح بلادنا المرة بعد المرة فى هذا العصر الذى نحن بصدده. فلا يكاد الناس يطمئنون إلى زوال وباء حتى يزعجهم وباء جديد ! وهكذا حدثت ثلاثة أوبئة فى بابوية الأنبا يؤنس كان ثالثهم سبباً فى انتقال هذا البابا الجليل إلى الأخدار السماوية . فقد انتشر الوباء سنة ١٧١٠ م بشكل شنيع حتى لقد حصد الآلاف من الناس. وتلفَّت البابا يؤنس حوله فوجد أبناءه بين مريض ومائت . وامتلأت نفسه حزناً عليهم فأخذ يضرع من أجلهم فى حرارة. وكان قد بلغ شيخوخة صالحة ، وحفلت أيامه بالتعمير البناء . فوهنت قواه وهزل جسمه . وزاده هزالاً الصراع الروحى الذى يصارعه فيما يرفعه من ابتهالات من أجل أولاده فزال الوباء ، ولكن البابا انتقل إلى أحضان القديسين بعد أن ساس الكنيسة مدى اثنتين وأربعين سنة وثلاثة شهور . وكان انتقاله فى العاشر من شهر بؤونة سنة ١٤٢٧ ش فكان يوم حداد عام شمل مصر من شاطئها حتى مرتفعات نيلها . وشارك كل ساكنى مصر الشعب القبطى فى حزنه . واحتفل الجميع بالصلاة عليه فى تكريم ووقار . ثم دفنوه فى مقبرة الباباوات بكنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر العتيقة .

ومن العجيب أن الأرخن الروحانى جرجس أبو منصور الطوخى لحق ببابا ه

بعد انتقاله بعشرة أيام . فلحق الإبن بأبيه ليكون الاثنان معاً فى العالم السماوى كما كانا معاً فى هذا العالم البائد [١] .

١٠٦ – على أننا قبل الانتهاء من الحديث عن هذا البابا الجليل ومعاصريه يجب أن نذكر أنه قد عاش فى أيامه ناسخ اسمه مرقوريوس من منية أبو فيس (بالمنيا) . ومن الكتب التى عنى بنقلها سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى الذى نقله مع التفسير الذى قدمه أنبا بولس البوشى . ومن العجيب أن مرقوريوس – خلافاً المعتاد – قد كتب اسمه إلى جانب تاريخ فراغه من النساخة فى آخر الكتاب . وقد كتبهما بالقبطية فقط . أما التاريخ الذى سجله فهو سنة ١٤١٩ ش (سنة ١٧٠٣ م) [٢] .

١٠٧ – وليس من شك فى أن الأنبا يؤنس السادس عشر – هو وعصره – لدليلٌ ضمن الأدلة التى لاتحصى عن مدى فعالية الروح القدس فى الكنيسة القبطية فهو يجدد شبابها ويجدد حيويتها على الدوام ليجعل منها شاهداً صريحاً وشهيداً حياً لوعده الالهى : « فى العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم » [٣] .

ومن حوادث هذه الفترة أن بعض الأجانب تمكنوا من دخول أديرة وادى النطرون ولو أن أول أجنبى دخل بالفعل كان راهباً من رهبان الكابوسين ، ودخل دير الأنبا مكارى الكبير . ولما رجع إلى بلاده أخذ يتغنى بالمكتبة التى رآها فى الدير . فاسترعى حديثه التفات صديق له مولعاً باقتناء المخطوطات . فبذل قصارى

(١) سنكسار دير القديس أنبا أنطونى .

(٢) عن مقال القمص ميصائيل بحر بعنوان : « اقليم المنيا فى العصر القبطى » نشره فى مجلة « صوت الشهداء » السنة السادسة العددين ٢ و ٣ (فبراير ومارس سنة ١٩٦٤) ص ٤٧ .

(٣) يوحنا ١٦ : ٣٣ .

جهده فى هذا السبيل إلى أن نجح فى شراء نسخة نادرة من سفر المزامير مكتوبة بعدة لغات . ثم توالت بعد ذلك المحاولات للحصول على مخطوطات الأديرة . وأكبر مجموعة سطا عليها الأجانب هى تلك التى استطاع أن يستحوذ عليها المنسنيور يوسف السمعانى (اللبنانى) أمين مكتبة الفاتيكان .

ولقد حدث أن عاش عدد من الرهبان السريان فترة طويلة فى الدير الذى تسمى باسمهم نتيجة لذلك . وخلال إقامتهم فيه وضعوا الكثير من المؤلفات . ثم اضطروا إلى الرحيل إلى بلادهم فجأة فغادروا الدير بسرعة ولم يستطيعوا معها حمل كتبهم معهم . ولما سمع الأوربيون بعودتهم المفاجئة سيطرت عليهم شهوة الاستيلاء على الكتب السريانية وأول من وصل إلى دير السريان لهذا الهدف كان الراهب اليسوعى الياس السمعانى . ونجح بمعسول كلامه أن يستحوذ على أربعين مجلداً منها حملها إلى مكتبة الفاتيكان فلما رآها ساكن ذلك القصر طمع فى المزيد . فانتدب المنسنيور يوسف السمعانى لهذا الغرض . فوصل إلى البرية المقدسة سنة ١٧١٥ م . واستمتع بضيافة الرهبان له مدى ثمانية أيام عاد بعدها يحمل مجموعة قيمة من المخطوطات السريانية وبعضاً من المخطوطات القبطية والأخيرة أخذها من دير الأنبا مكارى الكبير [١] .

(١) « الأديرة ... » لصموئيل تاوضروس السريانى ص ١٠٩ ، والواقع أنه لايجوز لمثل هذا النجاح الرومانى غير سذاجة رهبان القبط بالاضافة إلى جهل غالبيتهم آنذاك .

انسياب النهر

١٠٨ - لم يمضِ على نياحة البابا يؤنس السادس عشر غير شهرين وأسبوع واحد حينما تمت رسامة خلفه ذلك أنه فى تلك الفترة لم يحدث أى اختلاف فى وجهات النظر ، بل لم تكن هناك حاجة إلى الذهاب للأديرة للبحث عمن يمكن أن يقام الرئيس الأعلى للكنيسة . لأن المعلم لطف الله [١] كاتب الأمير المملوكى وزوج بنت شقيق البابا الراحل كان يعرف أن فى دير الأنبا بولا راهباً اسمه بطرس نال كرامة الكهنوت من يد الأنبا يؤنس نفسه فاقترح إقامته خليفة للكرسى المرقسى . ولما كان المعلم لطف الله يستمتع بمكانة خاصة لدى الجميع كما كان معروفاً بمحبته للكنيسة والعمل على خيرها ، فقد وافق الجميع على اقتراحه . وعندها أرسل رسله إلى رئيس وقف دير الأنبا بولا ببوش وأعلمه بالاختيار الاجماعى للراهب بطرس فقيّده بالسلاسل ، وأرسله لساعته إلى مصر حيث تمت رسامته البابا المئة والرابع للكرسى المرقسى باسمه الرهبانى « بطرس » . وهو السادس بين من حملوا هذا الاسم واتفق أن كانت رسامته يوم جبر الخليج [٢] فاستبشر

(١) هو الذى وردت لمحة عنه ضمن الحديث عن الأراخنة فى ف ١٠٢ .

(٢) هو اليوم الذى كان يحتفى فيه المصريون بنهاية ارتفاع الفيضان عند بداية السنة القبطية - راجع ما جاء من الاحتفالات به خصوصاً فى أيام الفاطميين فى الجزء الثالث من هذا الكتاب .

الجميع بذلك وامتلأت القلوب بهجة . وأقيمت الشعائر الاحتفـــالية فى كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر العتيقة - وكان ذلك سنة ١٧١٨ م.

١٠٩ - وفى تلك الآونة اتفقت كلمة الصنّاع على تكوين نقابات لهم : فكان كل مجموعة من العمال المشتغلين بصناعة واحدة يؤلفون نقابة فيما بينهم تشرف على شئونهم . ولم يكن للنقابة اشراف مهنى فقط بل كانت لها فوق ذلك ناحية اجتماعية تهذيبية إذ أقامت صلة من الترابط والتعاون بين الصنّاع ، كما حرصت على الاحتفاظ بمستوى معين من الحياة ومن الأخلاق . فكانت تعاقب المقصّر وتثيب المجتهد . إلا أن العجيب أنه على الرغم من هذا الجهد النقابى فقد أدّت إلى شىء من الركود الانتاجى . فهبط مستوى الاتقان الصناعى ونقص الانتاج لأن الغالبية العظمى من الصنّاع كانت تتقاضى أجوراً هزيلة لا تكفى لسد ضرورياتهم مما اضطر نساءهم إلى العمل أيضاً للقيام بأود عائلاتهم [1] .

١١٠ - وحدث فى السنة التالية لرسامة الأنبا بطرس السادس (أى فى سنة ١٧١٩ م) أن قامت فتنة بلغت من حدتها أنها كانت أشبه بالحرب الأهلية.وانتهز الرعاع الفتنة فأمعنوا فى السلب والنهب . وفى أشعال النار فى البيوت . وقد نتج عن هذه الفتنة أن الباشاوات الموفدين من الباب العالى لتولىّ الحكم أصبحوا مجرد ألاعيب فى أيدى المماليك . بل لقد بلغ بالعامة أنهم تجرأوا على الوالى بالسب واللعن من غير أن يحاول ردعهم . وكانت هذه الفتنة الشرارة الأولى التى جعلت من السبع وثمانين سنة الممتدة مذاك إلى الحمـــلة الفرنسية فترة مليئة بالمنازعات والقلاقل . فلم تعد الخصومة قائمة بين حزب الوالى وحزب المماليك لحسب بل امتدت إلى الخصومة بين أفراد الحزب الواحد للوصول إلى الرياسة . وبالطبع

(١) المجمل .. تاريخ مصر فى العصر العثمانى لحسن عثمان ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

كان لهذه الفتن والقلاقل أوخم العواقب على الزراعة والصناعة معاً [1] . وليس ذلك فحسب بل أن الأمراء فى تماركهم كانوا يطوفون بالبلاد يسلبون وينهبون. وفى الاسكندرية أوجبوا على القبط مائة ألف ريال وهدموا الكنائس واضطر غالبية الناس إلى الهروب من المدينة (حتى المسلمين منهم) تجنبا لما قد يصيبهم من ضرب واهانة .

وبعد أن عاثوا فساداً حتى لقد ساووا بعض القرى بالأرض عادوا إلى القاهرة . ويبدو أنهم كانو قد سئموا كل هذه المنازعات وخاف البعض منهم على حياته فاجتمعوا ذات مساء فى الغورية وانتهى بهم الحديث إلى أن قال حسين بك (أحد أعوان ابراهيم بك الأمير المملوكى) : « كانا نهابون أنت تنهب ومراد بك ينهب وأنا أنهب كذلك، وعلى هذه الكلمات انفض المجلس وهدأت الفتنة [2] .

على أن كل هذه الانتفاضات الشعبية كانت تضيع هباءً منثوراً رغم أنها كانت بقيادة العلماء ومشايخ الحرف والتجار . ذلك لأن القيادات ذاتها لم تكن شعبية صميمة كما أنها لم تكن منظمة [3] .

١١١ - وخلال كل هذه السلسلة من الفتن كانت هناك فترات قصيرة من الاستقرار . وهكذا انتهت هذه الفتنة الاولى فتنفس الأنبا بطرس السادس الصعداء ، وقام برحلة راعوية . ومن نعمة الله عليه أن جعله ذا مكانة ممتازة فى نظر الحكام فسهلوا له هذه الزيارة الأبوية . وهكذا تفقد شعبه وقامت بينه وبينهم صلة المودة والتفاهم . ولم يكتف هذا البابا الساهر بمجرد الألفة والتفاهم

(١) « مصر والهلال الخصيب » . . . ص ٩٠ ، الـكافى ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) « عجائب الآثار . . . » ج ٢ ص ١٠٣ .

(٣) فوزى جرجس : دراسات فى تاريخ مصر ... ص ٢٠ - ٢١ .

بين أولاده ، بل سعى لدى الحكام إلى أن نجح فى استصدار فرمان باقرار الشريعة المسيحية فيما يتعلق بالزواج والطلاق [١] .

١١٢ – ولم يكد البابا بطرس ينتهى من زيارته الراعوية حتى سعى بعض الوشاة بالمعلم لطف الله عند الوالى رجب باشا . فقد كان هذا الأرخن الغيور بذل جهداً بالغاً فى تعمير كنيسة رئيس جند السمائيين – ميخائيل – الواقعة فى الطرف الجنوبى من القاهرة والمعروفة الآن بالملاك القبلى . ثم دفعه تفانيه إلى تعمير كنيسة مار مينا العجايبى (بفم الخليج) فجمل من الكنيستين آيتين تنطقان بمجد الله وبرغبة الناس فى الجمال . فشدد رجب باشا فى التضييق على المعلم لطف الله لأنه جدد الكنيستين المذكورتين من غير استئذانه . وبعد مفاوضات ، وبعد استشفاع عدد من المحبين رجع الوالى عن هدم الكنيستين ورضى بأربعين كيساً من الفضة دفعها المعلم لطف الله عن طريق هؤلاء الأحباء [٢] .

١١٣ – وكان هناك أرخن آخر اسمه مرقوريوس كان كاتباً لدى شيخ من أكابر الشيوخ فى مصر . وقد قام هذا الأرخن أيضاً بتجديد بيعة السيدة العذراء بالعدوية [٣] . وكان بهذه الكنيسة دير ملحق بها جدده أيضاً .

ومن مآثر الأرخن مرقوريوس أنه كان ناسخاً مجتهداً فترك لنا مخطوطة تتضمن عدداً من الميامر والسير أهمها :

١ – ميمر وضعه الأنبا قسطنطين [٤] أسقف أسيوط تمجيداً للشهيد القديس

---

(١) كامل صالح نخله سلسلة . . . الحلقة الخامسة ص ١٣ ، منسى القمص ص ٦٢٢ .

(٢) البرموسى ج ٢ ص ٥١٠ ،

(٣) من الكنائس التى خربت فى عهد المماليك ثم تجددت ولكن لم يعد لها أثر الآن والمقصود بالعدوية هنا منطقة بولاق .

(٤) هذا أيضاً أسقف لا نعرف عنه إلا أنه كاتب هذه الميامر .

يؤنس الهرقلي الذى تمّيد الكنيسة بيوم استشهاده فى ٤ بؤونة . وكانت هرقل احدى مدن أسيوط وقد أصبح أسمها الآن « حيور » .

٢ - ميمر للأسقف ذاته تمجيداً للشهيدة القديسة افروسينة التى أطلقت هى على نفسها اسم « زبرجد » وتعيد الكنيسة يوم استشهادها فى ٤ أمشير [١] .

وثمة مخطوطة تحمل نفس التاريخ ولكنها لا تحمل اسم ناسخها ، فلا ندرى إن كان هو الشماس مرقوريوس أم أنه ناسخ آخر وهذه أيضاً تشمل على عدة موضوعات أهمها مقـــال عن السبب فى تشييد كنيسة القديسة بربارة وكنيسة القديسين سرجيوس وواخس (أبى سرجة) فوق المغارة التى عاشت فيها العائلة المقدسة فترة من الزمن وقد ذكر الناسخ أن الذى أنفق على بنائهما هو « أحد أولاد الأبح » [٢] .

١١٤ - وهنالك ناسخ آخر جاء اسمه فى نهاية مخطوطة ترجع إلى هذا العصر اسمه سليمان ابن جبرائيل الفرارجى، لانعرف عنه إلا أنه نقل كتابات القراءات الخاصة بالآحاد السبعة للصوم الكبير بالقبطية وحـــدها ولو أنه كتب بعض العناوين بالعربية وقد جاء فى آخر المخطوطة انه كتبها تلبية لطلب القس ميخائيل كاهن كنيسة السيدة العذراء ببابلون ، وانتهى من كتابتها فى الثانى والعشرين من كيهك سنة ١٤٢٨ ش (سنة ١٧١١ م)، ولم يذكر إن كانت الكنيسة المذكورة هى المعلقة أو الدمشرية: فكلتاهما على اسم السيدة العذراء، وكلتاهما فى بابلون [٣] .

---

(١) مخطوطة ٨٨ — ٨٣ أدب — محفوظة بمكتبة المتحف القبطى ، وتحمل فى آخر ورقة منها اسم الشماس مرقوريوس وتاريخ فراغه من كتابتها سنة ١٧١٨ م .

(٢) مخطوطة ٤٧٦ — رقم ٤ ٨٠ — محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة . أما ابن الابح فقد جاء ذكره فى ج ٣ من هذا الكتاب ص ٩٥ و ١٩٦ .

(٣) مخطوطة ٧٢ — ٥٤ أدب — محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .

ومكتباتنا ليست وحدها فى احتوائها لكنوز الآباء بل نجد شتى المتاحف والمكتبات فى مختلف أنحاء العالم تفخر بها . ومن المخطوطات المحفوظة بالمتحف البريطانى مخطوطة تتضمن طروحات وتذاكيّات وذوكصولوجيّات والطريف أن هذه المخطوطة تحمل تاريخ ١٠ هاتور سنة ١٤٣٤ ش (سنة ١٧١٨ م) وهو « تاريخ مولد بشارة ولد ميخائيل ولد كاتبه » - أى أنها تحمل تاريخ ميلاد حفيد الناسخ [١]

وبمكتبة المتحف القبطى أيضاً مخطوطة تتضمن السنكسار القبطى . وهذا السنكسار مختلف عن الشائع قراءته الذى جمعه أنبا ميخائيل أسقف مليج والجزء الأول من هذه المخطوطة يرجع إلى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر . أما أوراقها الأخيرة فقد تم تجديدها فى ٢١ أمشير سنة ١٤٥٠ ش (٢٧ /٢/ ١٧٣٤ م) . وناقل هذه المخطوطة هو « يوليوس الراهب ابن الحج يوحنا الاصطفناوى تابع أبونا اخرستوطولوا باباص الحبش فى دير عابد » . والمخطوطة تتألف من ثلاثة أقسام ، جاء فى قسمها الثانى أن الأنبا خريستودولو قد ترجمها من اللغة الحبشية إلى اللغة العربية ، ثم طلب من الراهب يوليوس نساخة الترجمة [٢].

١١٥ - وحرى بنا معشر القبط أن ندرك أن عدداً كبيراً من الأساقفة الذين

---

(١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطانى ص ٣٦٣ مخطوطة ٨٦٥

(٢) من أهم الخدمات التى أداها الأساقفة القبط لأولادهم الأحباش ترجمة الكتاب المقدس وغيره من الكتب الكنسية وسير الشهداء وتعاليم الآباء من القبطية أولا ثم من العربية إلى الأمهرية والجعزية (وهما أكثر اللغات تداولا فى الحبشة) - راجع الكتاب الثالث من هذه « القصة » ص ٢٧٧ - ٢٧٨ . والقبط بجدتهم هذه قد خدموا الكنيسة القبطية أيضاً لأن بعض الكتب التى ضاعت فى الأصل القبطى أو العربى بقيت فى الترجمة - فحقاً أن ما يزرعه الإنسان إياه يحصد - ولو بعد حين والمخطوطة المذكورة رقم ٢ ١ (٥٥ أدب) محفوظة بالمتحف القبطى

رسمهم بابوات الاسكندرية على الحبشة قد اشتغل بالترجمة وبالتأليف لبنيان الشعب الذى ائتمنوا على رعايته. والمخطوطات والكتب العديدة الموجودة الآن بالديار الحبشية شاهد على الجهود التى بذلوها . ولكن الدعايات التى روّجها خصوم الكنيسة القبطية ابتداءً من القرن السابع عشر أوهمت القبط أنفسهم بأنهم قصروا فى أداء واجبهم نحو الكنيسة التى لم تنشأ إلا بمجهودات أبناء مصر والتى قامت الصلة بينها وبين الكنيسة القبطية منذ أن رسم الانبـــا أثناسيوس الرسولى العظيم أول أسقف لها سنة ٣١٨ م ش (سنة ٢٢٦ م غ)

ومن الطريف أن نلاحظ كيف أن صيغة الكتابة تتغير من جيل إلى جيل فهناك دفنار نقرأ فى آخره ما يلى : « كمل هذا الدفنار لشهرى هاتور وكيهك فى شهر مصرى سنة ١٤٤٥ ش . (سنة ١٧٢٩ م) نقلا عن نسخة بخزانة الكتب بكنيسة حارة زويلة الكبرى عن نسخة تاريخها ١١٠١ ش (١٣٨٤-١٣٨٥ م) بخط القس بطرس بدير أنبا أنطونيوس ببرية العربة .

« والمهتم بهذا الكتاب المقدس من ماله وتعبه الأخ الحبيب محب الغـــرباء والمساكين الأرخن المبجل الديّن الارثوذكسى الشماس المكرم المعلم نيروز ابن المتنيح فى الأحضان الابراهيمية نوار . صنع هذا التذكار المقدس برسم كنيسة أبى قير ويوحنا المعروفة باسم الست بربارة بقصر الجمع بفسطاط مصر . وقدمه هدية مع جملة كتب محفوظة بخزانتها وأوقفها عليها ، عمرها الله على الدوام . طالباً بذلك غفران خطاياه ، والوقوف أمامه بغير عيب . الرب الإله يعوض عليه عوض الواحد مائة وستين وثلاثين ويغفر خطاياه ، ويسكنه فردوس النعيم بعد التمتع بطول الأجل وذلك على يد العبد المسكين ساروفيم » . ويلى ذلك الآتى : « لا يباع ولا يرهن ولا يوهب ولا يخرج من البيعة المذكورة بوجه من وجوه التلف .

وكل من تعدى أو أخذه سلباً أو خفية ولم يرده إليها يكون تحت كلمة الحق القاطعة التى تحدر نفوس المخالفين إلى قاع الجحيم والعياذ بالله من فاعل هذا الفعل (١). وعلى بنى الطاعة تحل البركة آمين ، والشكر لله دائماً ».

وإليك خاتمة أخرى كان يكتبها الناسخ عن نفسه . ومن الطريف أنه يغدق على متولى الصرف على النسخ من ألقاب التبجيل والاحترام بقدر ما يأبى عليه تواضعه إلا أن ينعت نفسه بألفاظ التحقير والاتضاع .

(خاتمة كتاب قطمارس الخمسين) « أذكر يارب عبدك الخاطىء المسكين الغارق فى بحار الخطايا والذنوب الذى لم يستحق ذكر إسمه من أعماله الرديئة وأنت ياسيدى فاحص القلوب وأجثو بهامتى الخاطية تحت أقدام ساداتى الآباء الكرام الكهنة والشمامسة والأراخنة التاليين فى هذا القطمارس المقدس أن يقولوا بلسان فصيح وقلب جريح : يا سيدى يسوع المسيح أغفر خطاياه ولوالديه وأقاربه وأولاد المعمودية بالميرون الشريف كما غفرت إلى الخاطئة قديماً » (٢) .

١١٦ - ولقد فرح الأنبا بطرس بجهود أبنائه فى مختلف الميادين ، وكرّس الكنائس التى جددوها كما رسم لها الكهنة والشمامسة اللازمين للخدمة فيها . كذلك رسم أسقفاً على الكرسى الأورشليمى باسم أثناسيوس وآخر للأحباش باسم خريستودولو .

ومن مراحم الله أن أيام هذا البابا سادها السلام بعد الفتنة التى اشتعلت فى

---

(١) من العجيب أن مستر ايفلين وايت الذى عثر على الرقوق بدير أبى مقار ونقلها إلى المتحف القبطى انتحر قبيل التحقيق معه فى أمور غرامية وقد ترك خطاباً قال فيه أن لعنة آباء الدير قد حلت عليه !

(٢) من مقال لبسى عبد المسيح (أمين مكتبة المتحف القبطى) بعنوان « المكتبات والمخطوطات القبطية » نشره فى مجلة مدارس الأحد بعددها السابع من السنة الأولى - ١ أكتوبر سنة ١٩٤٧ (بابه سنة ١٦٦٤) ص ٢٠ - ٢١

بداية عهده . كذلك ساد التفاهم بينه و بين شعبه فسعد الجميع بالهدوء النفسى . وقد عبر الأراخنة عن فرحتهم بهذا السلام بأن تغايروا فى الأعمال الصالحة وفى إفتقاد اليتامى والارامل .

ثم اشتاق البابا بطرس إلى التبرك برفات مارمرقس كاروزنا الحبيب . فأخذ معه قنديلا من الفضة وضعه بالكنيسة المرقسية ، كما حمل عشرين أردباً من القمح وزعها على المحتاجين من الشعب السكندرى . وقد قضى فى مدينة الكاروز شهرين أحس خلالها بالغبطة تملأ قلبه . ولم تكن هذه الغبطة لما رآه من محبة الشعب فقط بل أيضاً لأنه وجد عدداً غير قليل من الاراخنة كتبة ومباشرين فى ديوان والى الاسكندرية . وكان هؤلاء الكتبة مرضياً عنهم فى الديوان وكانوا فى الوقت عينه أبناء بررة لباباهم .

ولم يكن الاسكندريون وحدهم بالكتبه الذين خدموا الدولة والكنيسة بل كان لهم نظيرين فى القاهرة ، سجل لنا التاريخ اسم إثنين منهم : أحدهما اسمـــه مرقوريوس ولكن العجيب أنه اشتهر بين أقرانه بكنية هى « ديك أبيض » وكان كاتباً عند أحد المماليك هو ابراهيم جوربجى عزبان . وقد أقامه الانبا بطرس السادس ناظراً على كنيسة السيدة العذراء المعروفة « بالعدوية » فاهتم بتجديدها وإصلاحها وتزيينها ثم دعا البابا لتكريسها . وانتهز الانبا بطرس السادس هذه الفرصة فكرس عدداً من الكهنة والشمامسة .

وكان هناك أرخن آخر أسمه المعلم جرجس أبو شحاته - نشأ فى أبنوب (جنوبى أسيوط) ثم جاء إلى القاهرة وتزوج من أخت المعلم لطف الله . واشتهر برحمته وصدقاته بين الجميع . وفى أعماله هذه كان يتشبه بباباه الذى قيل عنه بأنه « كان

سمح النفس فى المأكل والمشرب كثير الرحمة . . . كان الشعب جميعه فى أيامه بخير وعافية وطمأنينة » [١].

١١٧ - ومن المؤلم أن صفو السلام الذى لم يعكر ضيق أو تعسف قد عكره الوباء . ولم يكتف الوباء بحصد الرعية بل حصد الراعى أيضاً . وهكذا انتقل الأنبا بطرس السادس إلى الأخدار السماوية بعد سبع سنين وستة شهور من توليه رياسة الكهنوت [٢].

١١٨ - ومن أعاجيب الله فى كنيسته القبطية أنه أكمل قوته خلال ظلمة العصور العثمانية ، فأقام لها رعاة ساهرين متيقظين . ومن الآباء المعاصرين للبابا بطرس السادس المساندين له فى جهاده الروحى ورعايته الساهرة الأنبا بطرس أسقف أصفا الذى وجّه اهتماماً خاصاً إلى القوانين والنظم الكنسية . فوضع فيها كتاباً على شكل سؤال وجواب ليتلقن عنه الشعب الحرص على هذه التوجيهات الكنسية [٣] .

١١٩ - على أن أبرز المطارنة فى هذه الفترة كان من غير شك الأنبا ميخائيل أسقف البهنسا والأشمونين الملقّب «بالعلاّمة» . فقد كتب هذا الأسقف شرحاً وافياً للعقيدة الأرثوذكسية ردّ به على أضاليل لاون [٤] . ومما قاله الأنبا ميخائيل

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين المجلد الثالث ج ٣ ص ١٦٥ — ١٦٦ والظاهرة الغريبة أن الأسقف الأشمونى عاش فى القرن العاشر ولكنه سيطر على الفكر القبطى بكتابه « تاريخ بطاركة . . . » إلى حد أنه حتى تاريخ الباباوات الذين عاشوا بعده بقرون يرجعون إليه !

(٢) البرموسى ج ٢ ص ٥١٢ .

(٣) مخطوطة ٤٣٨ — رقم ٧٠٥ — محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة ، وتاريخها سنة ١٧١٥ م .

(٤) هو الأسقف الرومانى الذى عاصر البابا ديسقورس (البابا الاسكندرى الـ ٢٥) ، وقد لعب هذا الأسقف دوراً أسيفاً فى مجمع خلقيدون — راجع الفصل الأول من الكتاب الثانى لقصة الكنيسة القبطية .

فى شرحه مايلى : « . . . إن إيماننا متسلسل من الرسل والآباء الثلاثمائة والثمانية عشر بلا زيادة ولا نقصان . . . »

ا ـ إننا نؤمن ونعتقد بالآب والإبن والروح القدس إله واحد وجوهر واحد ، واحد بالذات مثلث بالصفات ، صفاته ثابتة فى ذاته الأزلية وهو كلمته المولود من ذاته الإلهية الذى هو نطق ذاته ، وروحه المنبثق من ذاته الذى هو حياة ذاته ثلاثة أقانيم متساوية ، ذات واحدة ذات عقل ونُطق وحياة ، خواصّ جوهرية بغير انفصال . . كلما للآب للابن والروح خلواً من الأبوّة ، وكلما للابن للآب والروح خلواً من البنوة ، وكلما للروح للآب والابن خلواً من الانبثاق ليس أقنوم أكبر وأقنوم اصغر ، أو أقنوم أبدى وأقنوم زمنى ، لأن لا ابتداء لهم ولا انتهاء ، متساوون بالقدرة والمجد والجبروت إلى الأبد .

ب ـ وأيضاً نعترف بتجسد أقنوم الإبن أى كلمة الله الآب المساوى له . . . ونزل الإبن حسب إرادة أبيه وروحه القدوس وحلّ فى أحشاء سيدتنا مريم العذراء . . شرح تجسده من الروح القدس : أعنى أن الروح القدس هو الذى أبدع القوة النفسانية فى أحشاء القديسة مريم من غير نطفة رجل ، وبها تصوّر ناسوت المسيح . . . والإبن لا يتحد فى شىء مالم يسبقه الروح القدس يقدسه على الشبه . والكاهن فى صلاة القداس يسأل حلول الروح القدس فيحل على المائدة ويقدسها ويتحد الإبن بها وتصير جسده ودمه .والذى يروم أن يتناول الإبن المتحد لا يصل لذلك حتى يأخذ المعمودية ويتقدس بالروح القدس ، وإن أخطأ بعد ذلك لا يتقرّب حتى يأخذ الغفران من الكاهن بالروح القدس . . . مسيح واحد من لاهوت وناسوت ... إنه إله وإنه انسان أقنوم لا يُجرّد من اللاهوت ولا من الناسوت لأن اتحاده كامل من كل وجه : أقنوم واحد وطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وفعل واحد . وهذا هو إيماننا .

جـ - إننا نؤمن بما تحقق فى مجمع نيقية : إن الروح القدس منبثق من الآب ، وأتباع لاون يعوّجون ويقولون إن الروح القدس منبثق من الآب والإبن . وفى هذا القول مخالفة لقول سيدنا « أرسل لكم البارقليط ذلك الذى ينبثق من الآب ويأخذ مما لى ويعطيكم » . فلو كان حسب ظنهم لقال « ذلك الذى ينبثق من الآب ومنى » ويقولون للبسطاء أن سيدنا قال فى إنجيله « أنا فى الآب والآب فىّ » . وما دام الإبن فى الآب والروح منبثق من الآب فمعنى ذلك أنه منبثق من الآب والإبن . ونرد عليهم ونقول : الروح القدس فى الآب أم لا ؟ ومعلوم أن الروح القدس فى الآب . فإذا كان الروح القدس فى الآب فيعنى ذلك أن الإبن مولود من الروح القدس أيضاً كزعمهم لأن الروح القــدس فى الآب . ويصير الإبن لابوبن ويصير الروح القدس آب أيضاً وتتبلبل خاصياتهم ...

د - إننا نؤمن بالاتحاد الكامل للإبن الذى هو من كل وجه اتحاد بغــير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . ولكن فى مجمع خلقيدون أضاعوا اتحاد مخلصنا وأنكروا أن كال اللاهوت أخذ كال الناسوت واتحد به اتحاداً طبيعياً اقنومياً . ولما تسألهم كيف كان اتحاد سيدنا ؟ فيقولون اتحاده كالزيت والماء أو الرسراس (الصمغ) فى الورق . ولما نقول لهم : أليس الذى قبل الصلب هو المسيح بلاهوته وناسوته ؟ وأليس أقنوم المسيح بلاهوته وناسوته هو الذى قام من الأموات ؟ يتعثرون ويقولون : إن أقنوم المسيح للاهوت هو . ونرد عليهم بقول بولس الرسول فى رسالته إلى كولوسى: فضح الرؤساء والسلاطين وأخرجهم بأقنومه [1] . وفى الفصل الأول من رسالته إلى العبرانيين يقول : « وبأقنومه صنع تطهــير

(١) فى ترجمة عربية قديمة ورد النص : « احذروا لئلا يعلبكم أحد بالفلسفة والضلالة الباطلة حسب تقاليد النــاس وحسب اسطقسات العــالم لا بحسب المسيح الذى حــل فيه كل ملء اللاهوت جسديا . وبرى جسده فضح الرؤساء والسلاطين وأخزاهم علانية » . كولوسى ٢ : ٨ - ٩ و ١٥

خطايانا » ويقول فى الفصل التـــاسع « وبأقنومه غـل خطايانا الكثيرة » ، وأبدلوا لفظـة أقنومه وقالوا « وبنفسه غفر خطايانا » . ثم يقولون إن سيدنا كان يدعو ذاته تارة ابن الانسان وتارة ابن الله ويفسرون ذلك أن له طبيعتين - طبيعة إلهية وطبيعة جسدية . ونجاوبهم : إن إلهنـا ومخلصنا يسوع لما كان يدعو ذاته إنساناً وابن البشر كان ذلك لعـــدم قابلية أولئك المدعويّـن فإنهم كانوا كالأطفال الرضّـع . ومن المعلوم أن الطفل لا يحتمل الغذاء الثقيل . وكان يستدرجهم قليلا قليلا إلى المعرفة . وحينما يرون آياته وعجائبه يتعلقون بالإيمان به فيظهر لهم لاهوته أنه الله وابن الله . سأل مرة تلاميذه فاحصاً لهم « وأنتم ماذا تقولون من أنا ؟ أجابه بطرس أنت هو المسيح ابن الله الحى » . يعنى أنك أنت المنظور كانسان أؤمن أنك الله وابن الله وكان هذا إيمان كل الرسل ...

هـ - نقول إن كل ما فعل سيدنا على وجه خلاصنا من عاليات ودنيات (أفعال إلهية وجسدية) بإرادة واحـدة مع أبيه والروح القدوس . وهذا ما تعلمناه من سيدنا إذ يقول : « مثل ما علمنى أبى هكذا أفعل » . وأيضاً « لا يقدر الإبن أن يعمل شيئاً من تلقاء نفسه » . وقوله « الآب فىّ وأنا فيه . أنا فى الآب والآب فىّ » . فالذين يزعمون أن فى سيدنا إرادتين وفعلين يرتـكبون مخالفة لأقواله الإلهية التى تبين (ان كل ما فعل بإرادة اللاهوت) ، وبقولهم فعلين - فعل خالق وفعل مخلوق يترتب عليه (ان اللاهوت أراد أن يصلب الناسوت والناسوت لم يرض بذلك بل صلب قهراً) . أقوال تضاد ما تسلمناه من الرسل والقديسين » .

رد على اعتراضات أخرى

١ - يقول الإنجيل « بعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً » ، فما معنى جاع أخيراً ؟ وهذا بخلاف العادة إذ يجوع الانسان فى أول الصوم .

أما السيد « فجاع أخيراً » ـ أى باختياره أحوج ذاته إلى الأكل والشرب (قبل الجوع نفسه) . إن السيد جاع كإنسان ، وأشبع الجياع كالله إذ أشبع الآلاف فى البرية من خبزات قليلة . وقد عطش ولكنه يقول : « إن عطش أحد فليقبل إلىّ ويشرب » . وقد تعب ومع ذلك يقول للناس : « تعالوا إلىّ ياجميع المتعبين وأنا أريحكم » .

ب ـ يقولون عن سيدنا ـ كان يسأل كن هو عارف وغير عارف ، عارف بلاهوته بما أنه إله وغير عارف بناسوته بما أنه إنسان ، وذلك كقوله لأخت لعازر « أين وضعتموه ؟ » وللتلاميذ « كم عندكم من الخبز ؟ » ، ونجيب : إن ربنا يسوع المسيح كان يعلم كل شيء بلاهوته وناسوته . قال يوحنا الإنجيلى : « إن يسوع كان عارفاً من قديم بالذين لم يؤمنوا به » ، يسوع كان عارفاً وليس اللاهوت فقط كان عارفاً دون الناسوت . بل يسوع كان عارفاً الذى هو من لاهوت وناسوت.أما عن سؤاله لأخت لعازر ليس لكونه لايعرف الموضوع بل ليحقق صدق الآية . أليس هو الذى عرف موت لعازر وقال لتلاميذه عن ذلك وهو على مسيرة ثلاثة أيام ؟

يقول الكتاب إن يسوع كان يعلم أن ساعته قد أتت ويقول : « إن واحداً منكم يسلمنى » ، ويقول لبطرس « لايصيح الديك حتى تنكرنى ثلاثة مرات » ، وليعقوب « ما اسمك ؟ » ، ولأهل سدوم وعمورة « قد نزلت لأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى إلىّ » ، ولموسى : « ماذا فى يدك ؟ » ـ فنحن نؤمن أنه فعل كل شيء بالتدبير قبل التجسد وبعد التجسد. (تكوين ٣ : ٩ ، ١٨ : ٩ : ٣٢ : ٢٧ ، ١٨ : ٢١ ، خروج ٤ : ٢) .

حـ ـ يقولون إن سيدنا خاف من الموت وعبس وجهه وقال : « يا إبتاه أن

استطاع أن يجوز عني هذه الكأس ، ويزعمون أن خوفه كان حقيقيـاً وليس بالتدبير . ونقول لهم : إن فزعه وعبس وجهه كان لنوعين ـ الواحـد أنه حزن بالتدبير لكي لا يحتج اليهود ويقولوا رأينا وجهه فرحاً وراضياً بالصلب فبلغناه مراده . والثاني حزن لأجل اليهود لا لأجل نفسه لأنه أتى لخلاصهم وهم لم يؤمنوا به لحزن لهلاكهم والشاهد أنه بعد صلبه توسَّل لأجلهم قائلا « يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون » وإلا فكيف الذى يقول للرسل : « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد » يعمل بخـلاف ما يقول ؟ أعني أنه لا يصح أن يوصي خواصَّه بعدم خوف الموت ويخاف منه : فلم يكن قدومه على الموت بخوف أو تحت اضطرار بل بإرادته مطوعا . أما قوله : « يا أبتاه إن استطاع أن يعبر عني هذه الكأس » فهذه على نوعين أيضاً . الواحـد كما قال يوحنا فم الذهب أنه قال هذا ليخفي سر التدبير عن الشيطان لأن الشيطان لما سمعه يقول « الذى يعمله الآب يعمله الإبن مثله » و « أنا فى الآب والآب فيّ » و « أنا والآب واحـد » خاف منه وهرب عنه . وإذ قال سيدنا « نفسي حزينة جداً حتى الموت يا أبي نجِّني من هذه الساعة » وقوله « إن استطاع أن يجوز عني هذه الكأس » ظن الشيطان أنه إنسان ساذج يخاف من الموت . ذلك أنه أخفى عنه سائر أحوال التدبير . والثاني مثل ما قال كيرلس الينبوع الحلو : « إذ هو لبس جسد آدم فن المعلوم صار كفيل دين آدم » . وصلاته على نوعين : الأول لأجل تعليمنا والثاني قانون كان لأجل خطية آدم . فلما أكمل الصلاة لكي تجوز عنه الكأس توسَّل إلى الآب قائلا : « يا أبي ـ آدم بمخالفته وصيتك رفضته ورفضت جنسه (ذريَّته) وأبعدتهم عنك . والآن فن أجلي أنا ابنك الذى لبست جسده وصرت آدم الثاني بالتدبير ، تجاوز عن خطية آدم الانسان الأول من أجـلي أنا الذي أطعتك حتى الموت لأني أنا

كفيله وكفيل ذريته ، وهذا هو معنى صلاته أن تجوز عنه الكأس ... »[1] .

° ° ° ° °

وهنا يجدر بنا أن نقف قليلا لنتمعن فى عمل الله العجيب خلال كنيسته القبطية - فقد كانت تجتاز فى ذلك العصر فترة حالكة من الناحيتين السياسية والإجتماعية حتى لقد ترسخ فى أذهان الكثيرين أن حلكة الظلام الذى خيم على مصر خيم على كنيسة مصر أيضاً . ولكننا إذا ما تمعنا فى كتابة هذا الأسقف وفيما تركه لنا هذا العصر من مخطوطات ، وإذا ما تأملنا فى جهاد الآباء المعاصرين له سطع وسط ظلمة السياسات العالمية نور روحانى أوضح لنا فى جلاء أن نعمة الله متى تجاوبت معها القلوب بددت كل ظلمة، بل جعلت من الظلمة نوراً. وأمام هذه الحقيقة المذهلة ندرك أننا لن نستطيع بعد اليوم أن نقول أن الكنيسة عاشت فى عصر ذهبى ثم فى عصور مظلمة . وكل ما نستطيعه هو الاقرار بأن الكنيسة مرت فى عصور من الضيق والظلم ولكنها ظلت خلالها مشرقة ، وأن التاريخ الكنسى مجموعة من عصور ساطعة وعصور أكثر سطوعاً لحق لنا أن نردد مع النبى بأن كنيستنا « خيمة لا تنتقل . لا تقلع أوتادها إلى الأبد . وشىء من أطنابها لا ينقطع »[2] ، ونسمع من خلال هذا الترديد صوت كنيستنا يهمس : سراجه أضاء على رأسى وبنوره سلكت الظلمة »[3] .

† † †

---

(١) مخطوطة رقم ١٧١ لاهوت محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة ، راجع أيضاً « أقليم المنيا فى العصر القبطى » مقال للقمص ميصائيل بحر نشره فى مجلة صوت الشهداء السنة الرابعة العددان الثامن والتاسع (أغسطس وسبتمبر) سنة ١٩٦٢ ص ٤٨ - ٥٦ .

(٢) أشعياء ٣٣ : ٢٠ . (٣) أيوب ٢٩ : ٣ .

تعديات مضاعفة

ا- أنبا يؤنس السابع عشر

« ولو كان هماً واحداً لاحتملته ولكنه همٌ وثانٍ وثالث »

١٢٠- ظلم مدلهم
١٢١- رسامة البابا المرقسى
١٢٢- سطو مخطط
١٢٣- نظام الامتيازات
١٢٤- امعان فى الاغراء
١٢٥- قائد مستميت
١٢٦- ذود الراعى
١٢٧- يوم من الفزع
١٢٨- الجنود خلف القائد
١٢٩- انتقال البابا إلى الفردوس
١٣٠- الطبيب أبو سالم

١٢٠ - وعاد الضيق يجثم على صدر مصر عامة والكنيسة القبطية خاصة . فقد عاود المماليك الفتن والقلاقل ضد الترك الذين اعتبروهم أغراباً عن مصر ، حتى لكأن المماليك أصبحوا مصريين فى خصومتهم مع الأتراك على الرغم من أن الجميع استهدفوا مصالحهم الشخصية إلا أن مصالح المماليك كانت أقرب إلى مصلحة مصر من مصالح ولاة الباب العالى وقد اشتد هؤلاء الولاة فى المطالبة بالأموال وضاعفوا طلباتهم . وبطبيعة الحال ضاعفوا الجوالى ⁽¹⁾ التى لم تكن مفروضة إلا على غير المسلمين . ولم يكتفوا بمضاعفتها على الأغنياء بل ضاعفوها حتى على الفقراء . وامتدوا فى تعسفهم إلى المقدمين ؛ كذلك فرضوها آنذاك على الأساقفة والكهنة والرهبان الذين كانوا معفيين من الضرائب - بل لقد أعفوا من الجزية فى فترات عديدة . ولكن فى هذه الفترة لم يكن من القبط شخص واحد صانته كرامته من تعديات الترك . ومما زاد الطين بلة أن جباة الجوالى لم يكونوا عملاء الوالى المتسلم زمام الحكم فى مصر ، بل كانوا جماعة معينين من السلطان لهذه المهمة بالذات

(١) الجبرتى . . . ص ٢٧٩ .

يحضرون لإستلام المال ويعودون به إلى الآستانة لساعتهم [1] .

١٢١ - وعلى الرغم من هذا الضيق فقد نجح الاساقفة والاراخنة فى الإلتقاء مع بعضهم البعض . وقد شاءت رحمة الله أن يجمعوا على راهب من دير القديس البار أنبا بولا اسمه عبد السيد . وكان هذا الراهب من أهالى ملوى ، ثم استجابت روحه لنداء الله فاندفع بقوة هذه الاستجابة إلى ترك أهل بيته والانضمام إلى مجمع رهبان الانبا أنطونى ثم اختاره الانبا يؤنس السادس عشر ضمن الاربعة الذين شاء لهم أن يعمروا دير الانبا بولا . فقضى بينهم بضعة سنين فى تعبد وفى سمى روحى متواصل حتى أن الانبا بطرس السادس ألبسه الاسكيم ورسمه قساً . لذلك اتجهت إليه الأنظار حين خلت السدة المرقسية . وتمت رسامته فى كنيسة الشهيد العظيم القديس مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر العتيقة باسم يؤنس السابع عشر ، فأصبح البابا الاسكندرى الخامس بعد المئة ! وكان ذلك بعد نياحة الانبا بطرس السادس بما يقرب من ستة شهور .

١٢٢ - وكأن القلاقل السياسية بالاضافة إلى التعسف فى جمع الجوالى لم تكن كافية إذ قد انضم إليها الكاثوليك ! فقد وجدوا فى اختلال الميزان الفرصة المواتية لمعاودة تعديهم على الكنيسة العريقة التى ظلت منذ أن أسسها مار مرقس كنيسة مصرية صميمة ارتبط مصيرها بمصير هذا الوادى الذى كان ومازال مطمعاً للطامعين . وحين عقد الكاثوليك النية على معاودة التعدى رأى أكليمنضس الثانى عشر الحبر الرومانى آنذاك أن يضع خطة محكمة قبل البدء فيه كى لا يطيش سهمه كما طاشت

---

(١) يصف القمص شنودة الصوامعى البرموسى هؤلاء الناس كما يلى : « وقبضوا الجوالى من الآباء الأساقفة والرهبان والقسوس ولم يكرموا أحداً . وكان المبنون لقبض ذلك جماعة بشتلية يحضرون كل سنة من الروم من طرف السلطنة الشريفة . . . » ، راجع مخطوطة عن تاريخ البطاركة ج ٢ ص ٥١٢ .

سهام سابقيه. فألف فى الفاتيكان ما يعرف « بالمجمع للدعاية »[1] - وهذا هو فى حقيقة الأمر مدرسة لقن فيها الطلبة وسائل الدعاية والاعلام إلى جانب دراساتهم اللاهوتية. ثم بعث بخريجى هذا « المجمع » إلى أسيوط وأبوتيج وصدفا وأخميم وجرجا والأقصر وحتى إلى النوبة فى آن واحد[2]. وقبل مغادرتهم روما صدرت إليهم التعليمات بالبحث عن الصبية القبط الأذكياء وادخالهم فى المدارس الكاثوليكية التى بدأت تنفتح فى مختلف هذه المدن تمهيداً لارسالهم إلى روميـــة لدراسات عليا. وبالطبع كانت الأموال التى رصدت لهذا المشروع طائلة.

١٢٣ - ولم يكن القبط آنذاك يرزحون تحت عبء الضــرائب والجوالى ووسائل البطش لابتزازها فقط، بل كان الأجانب الذين يفدون على بلادنا يعيشون تحت النظام المعروف بنظام الامتيازات. ومعنى هذا النظام أن الأجنبى يعيش فى بلادنا متمتعاً بحرية عجيبة! فلا يدفع ضــريبة للحكومة المحلية حتى إن

---

(1) Congrégation de la Propagande.

(٢) تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر لجرجس سلامة ص ٥٤، حيث يقول بأن الفرنسيسكان كانوا أول من فتح المدارس الأجنبية فى بلادنا، كما أنهم هم الذين « هيئوا لباقى الارساليات الأجنبية الأخرى التى وفدت إلى مصر سبيل الحضور والبقاء فى بداية حضورهم، وهم الذين كانوا يستقبلونهم » فهم بهذا العمل كانوا القوة التى مكنت مختلف الجماعات الأجنبية من التــألب علينا. ولا يتبادر إلى الذهن أن كلمة « تألب » هى افتئات على الخدمات التى قام بها هؤلاء الأجانب فى نشر التعليم لأنهم لو كانوا يستهدفون الخـدمة لوجه الله لاستحقوا منا كل شكر وتقدير. ولـكنهم مع الأسف جعلوا من العلم ومن الخدمة الاجتماعية وسائل لفت فى عضد الـكنيسة القبطية. فاستعانوا بوسائل الخـير للوصول إلى هدف مؤذ. وفى الواقع أنهم هم أنفسهم يشهدون بهذه الحقيقة إذ يقول هنرى دبهيران فى كتابه « مصر التركية » ما ترجمتــه ص ١٩٧ « لقد تعاون رهبان الطابوسين والجزويت على العمل فى مصر. وكان هدف الأب سيكار (الجزويتى) أساساً هو تبشير القبط ». وإليكم نص قوله:

" Les Capucins eurent l'Egypte pour domaine d' action ... Concurrement avec les Capucins", les Jesuites s'établirent en Egypte ... Le zèlé deployé par le Père Sicard avait surtout pour objet l'evangelisation des Coptes " .

اكتسب الآلاف من الجنيهات فى هذه الأرض الطيبة . ولا هو يخضع للمحاكم المحلية حتى إن اقترف جريمة القتل فى رابعة النهار ! فهو يستغل الأرض وأهلها بل وحكومتها أيضاً دون أى التزام من جانبه نحو هذا البلد وأهله (١) . فكان موقف هؤلاء القوم موقف الانسان الغنى الحر الطليق الغير مقيد بقانون ولا مسئولية أمام المصرى الفقير المكبل بالقيود . والقبطى إذ ذاك لم يكن مكبلا بقيود مواطنيه بالاضافة إلى القيود الضاغطة عليه بصفته الشخصية . ولكى تكمل الصورة يجب أن نذكر أن الكاثوليكى الطليق المستغل لمواردنا كان فى الوقت عينه يجد المال المتدفق عليه من الخارج ، والهدف الأوحد أمامه هو اقتناص أكبر عدد ممكن من أولاد الكنيسة القبطية ، وفى الوقت عينه كان القبطى مضطراً إلى دفع أمواله للوالى والمماليك ولعملائهم .

١٢٤ - وقد نجح بعض المبشرين فى استمالة عدد من الشباب الذين درسوا فى مدارسهم فعرضوا عليهم السفر إلى رومية بالأسلوب التالى : « أتريد يا ابنى العزيز أن تذهب إلى رومية وتلتحق بكلية أوربان التى للدعاية حيث يتكون الرسل للعالم

(١) كانت هذه الامتيازات نتيجة لمعاهدات أبرمها السلاطين العثمانيون مع مختلف البلاد الأوربية . وأولى هذه المعاهدات انعقدت مع فرنسا سنة ١٥٣٦ م ، وكانت إذ ذاك تنتهى بموت السلطان الذى أبرمها . فظل السلاطين المتعاقبون يمنحونها : كل بدوره . وامتدت لتشمل كل الدول الاوربية حتى اليونان ثم الولايات المتحدة . على أن المعاهدة التى أبرمت مع فرنسا سنة ١٧٤٠ م أصبحت شاملة مستمرة ممتدة من سلطان إلى سلطان . وقد نص فيها على أنه لا يمكن ادخال أى تعديل عليها إلا برضى فرنسا . وهذه المعاهدة التى اكتسبت صفة « الدوام » امتدت بدورها من فرنسا إلى غيرها من الدول المتمتعة بالامتيازات فأصبحت كل دولة أوربية والولايات المتحدة تؤلف فى كل طرف من أطراف الامبراطورية العثمانية « حكومة داخل حكومة » . واستمرت الامتيازات معمولا بها إلى سنة ١٩٣٦ ! - راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ج ٤ ص ٨١٢ .

أجمع ؟"[1] . وأول من نجحوا فى اصطياده شاب اسمه روفائيل الطوخى علموه فى مصر ثم أرسلوه إلى رومية حيث استكمل دراساته ، وبعدها رسموه أسقفاً على أرسينو (الفيوم حالياً) . ولكن الحبر الرومانى لم يلبث أن أرسل فى طلبه . فعاد إلى رومية حيث قضى بقية حياته . وخلال إقامته هناك اشتغل بطبع كتب الصلوات القبطية مع إجراء التغييرات اللازمة لجعلها تتفق والعقيدة الكاثوليكية .

ثم نجحوا بعد ذلك فى ارسال إثنى عشر شاباً قبطياً إلى روميـــة استقبلهم روفائيل الطوخى وكان ضمن أساتذتهم . وهكذا استطاع الكاثوليك - إبتداء من النصف الثانى من القرن الثامن عشر - أن يجتذبوا عدداً من الشباب القبطى ، ومن خلالهم بعض عائلاتهم إلى الكنيسة الكاثوليكية الغربية عن مصر عقيـدة وقوميـــة .

ولم يكن تباعد هؤلاء القبط عن الكنيسة التى ذاد عنها آباؤهم بالمـــأساة الوحيدة ، بل لقد تضاعفت بما دب من النفور بين أفراد العائلة وما قام بين العائلات من التشاحن والانقسام بسبب الزواج والتركات . وحسماً لكل هذه البلبلة لم يجد الكنيسة القبط بدأ من الشكوى إلى الأمراء الذين يشتغلون فى دواوينهم . فاشتكوا من سوء تصرف الكهنة اللاتين ومن تعديهم على حقوق البابا المرقسى. وقد أدت هذه الشكوى إلى انعقاد جلسة بالمحكمة الشرعية العليا حضرها الأنبا يونس السابع عشر وقسوس اللاتين وبعد الاستماع إلى أقـــوال الطرفين تقرر أن لبطريرك

---

(١) وهذا نصها الفرنسى كما أورده جورج مقار الكاثوليكى فى كتابه « تاريخ كنيسة الاسكندرية » ص ٣٢٧ :

" Veux tu, mon cher enfant, aller à Rome au Collège Urbain de la Propagande où se forment des Apotres pour l' univers entiers ? ".

ومن الواضح أنه تعبير يحمل الكثير من الاغراء فى طياته .

الأقباط الحق فى استعمال سلطته على أبنائه والتصرف فيهم بما توجبه قوانينه المرعية ، كما تقرر عدم التعرض له ولا التعدى على حقوقه . وتحررت بذلك حجة من المحكمة الشرعية تسلمها البابا الاسكندرى هذا نصها :

« صورة حجة شرعية صادرة من المحكمة الكبرى بمصر المحمية بتاريخ غرة محرم سنة ١١٥١ هـ هو أنه بمصر المحروسة لدى سيدنا ومولانا ... الأمير ابراهيم بك الدفتردار بمصر المحروسة حالا (وهنا قائمة بأسماء الأمراء الذين انعقدت بهم الجلسة) - بعد أن رفع كل من المعلم رزق الله والد الذمى ابراهيم بدرى النصرانى اليعقوبى بخدمة ميرالو الأمير ابراهيم بك الدفتردار بمصر المحروسة حالا (يلى ذلك أسماء الأقبـــاط الارثوذكس الذين رفعوا الشكوى من جور المرسلين الكاثوليك وعددهم أربعة وعشرون شخصاً) وغيرهم من النصارى اليعاقبة القبطة والقسيسين والرهبان يشكون من أن جماعة من النصارى اليعاقبة القبطة مخالفون لملتهم وبطريركهم والقسيسين والرهبان، وأن المخالفين المرقومين يريدون الذهاب إلى الافرنج الغير القبطيين ليدخلوا فى ملتهم لعدم دفع الجزية . وأن المعلم يوحنا بطريرك النصارى اليعاقبة القبطية ينهى الجماعة القبطيين المرقومين عن ذلك مراراً فلم ينتهوا ولم يسمعوا لقوله . وان القانون المتعارف بينهم أن كل من خالف كلام بطريركهم يكون مغضوباً عليه ويلزم الأدب اللائق بحـــاله . وان حصل التوافق والتراضى بين طائفة النصارى اليعاقبة القبطية المرقومين وكبيرهم أن كل من خالف ملته وكان قبطياً وانتقل من ملة القبطيين إلى ملة الافرنج وثبت ذلك عليه بالوجه الشرعى يكون على الأمراء الصناجقة وأغوات البلكات وكتخدا البلكات واختياراتهم الخروج من عهدة من ينتقل من النصارى اليعاقبـة القبطية المرقومين إلى ملة الافرنج الخروج من حقه وتأديبه بما يليق بحالة زجراً له ولأمثاله باعتراف كلٍ من طائفة النصارى اليعاقبة القبطية المرقومين الاعتراف المرعى

كما التوافق والتراضى المرعيين ولما تم الحال على هذا المنوال كتب هذا ضبطاً للواقع ليراجع به عند الاحتياج إليه والاحتجاج به وعلى ماجرى وقع التحرير.

فى غرة محرم الحرام افتتاح سنة احدى وخمسين ومائة وألف.

محمد عبد الرازق　　محمد على حنفى　　على على عبد النبى
محمد فواكه　　محمد خلاّف　　حسن على أحمد (١)

ومن عجب أن سرت بين الناس آنذاك شائعات بأن القيامة ستقوم. فأثرت هذه الشائعات عليهم تأثيراً متبايناً: فالبعض لجأ إلى الصوم والصلاة واسترحام الله، بينما خرج البعض الآخر إلى المتنزهات والحقول مرددين لبعضهم البعض «دعونا نعمل حظ ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة». والأعجب من هذا أن مصدق تلك الشائعات أرادوا أن يدعموا تصديقهم بارتكانهم إلى أن هذا «قاله... فلان القبطى وهو ممن يعرفون فى الجفور والزايرجات ولا يكذبون فى شىء (٢)». وقد أخبر فلان منهم على خروج الريح الذى خرج فى يوم كذا... وكثر فيهم الهرج والمرج... ومثل هذا من الهذيانات».

١٢٥ - ومما يجب ذكره بالاعتزاز أن الانبا يؤنس السابع عشر جاهد جهاد الابطال ليحفظ أولاده داخل حظيرة أمهم القبطية الارثوذكسية. فلم يتفقد شعبه بزياراته ورسائله فقط بل وضع عدداً من الكتب دفاعاً عن العقيدة الارثوذكسية. فكان قائداً خاض المعركة بنفسه ووقف فيها فى الصف الأول (٣).

(١) منسى القمص: «تاريخ الكنيسة القبطية ص ٦٢٣ - ٦٢٦». وهذا أيضاً دليل على يقظة المسئولين فى الكنيسة القبطية وعلى سعيهم بمختلف الوسائل إلى الذود عن رعيتهم رغم جبروت القوى المتعدية عليهم، كامل صالح نخلة - الحلقة الخامسة ص ٢٣ - ٢٤.

(٢) عجائب الآثار... ج ١ ص ١٤٧ - ومما تجدر ملاحظته أن الجبرتى شهد أن القبط ذوو معرفة بالموضوعات الروحانية وأنهم لا يكذبون فى شىء.

(٣) موجز... ج ٢ ص ٨٥.

صحيح أنه لم ينتصر انتصاراً حاسماً ، ولكن .

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده   وليس عليه أن تتم المقاصد

فهو قد جاهد الجهاد الحسن طيلة أيام بابويته . فإن تذكرنا أنه كان مكبلا بالقيود المفروضة عليه من الولاة العثمانيين ، وإن تذكرنا أنه عاش فى فترة كلها قلاقل سياسية حتى لقد تبدل عليه ثلاثة من الولاة غير الذين فروا هاربين خوفاً على حياتهم ، وإن تذكرنا أن الشعب القبطى آنذاك عانى الفقر والتعسف . إن تذكرنا هذا كله أدركنا عنف الجهاد الذى جاهده الأنبا يؤانس السابع عشر ، وأدركنا أنه جدير بالوقوف إلى جانب أسلافه العظام من باباوات الاسكندرية الذين قضوا حياتهم فى الذود عن العقيدة الأرثوذكسية . فكانت كنيستنا القبطية آنذاك شبيهة بسيدها وربها يوم أن قال لرسله : « هوذا يد الذى يسلمنى هى معى على المائدة »[١] . ولو أنها لم تتشبه به تعالى فى هذا الموقف فقط ، بل طالما تشبهت به خلال الأجيال فى تقبلها الاضطهادات وفى مواجهتها لصنوف المحن وفى بقائها ثم فى انتظارها على كل هذه الظروف والملابسات فى النهاية .

١٢٦ - ومن الأدلة على عناية هذا البابا بنشر التعاليم الأرثوذكسية أنه توجد مخطوطة مكتوبة بغاية الدقة ، يحيط بكل صفحة منها أطار من اللون الأحمر وتتزين صفحتها الأولى بزخارف متنوعة وهى تتضمن :

١ - مزامير الأجبية تتبعها توسلات مار أفرآم السريانى . ٢ - تجميعات الأرقام القبطية والعربية وتوجيهات وجداول لتسهيل تحويل التاريخ القبطى إلى العربى . ٣ - موضوعات مختلفة جديرة بتزيين الذاكرة كالوصايا العشر والأسرار السبعة والنصائح الإنجيلية وأعمال الرحمة . ٤ - توضيح العقيدة المسيحية والصلاة الربية[٢] .

(١) لوقا ٢٢ : ٢١ .   (٢) مخطوطة ١٠٣ (١٥٦ أدب) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .

ومن عجب أنه توجد مخطوطة أثيوبية بالمتحف البريطاني مجلدة بجلد مضغوط ومكتوبة بخط كبير متناسق عثر عليها في المجدل وتتضمن - إلى جانب الصلوات - بعض المراثي : « سلوة وعزا لمن كان حـــزين القلب » . وعلى ورقة ١٧٢ ب مذكرة مستفيضة تقول ان الكتاب قد أنفق عليه الكاهن مكرم الله لكنيسة التي هي كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم . وتكرر سرد هذا الواقع عـــدة مرات ، وإلى جانب كل من هذا السرد ختم واسم الحقير أثناسيوس أسقف الكرسي الأورشليمي . وعلى الورقة ٢٣٩ ا تبدأ صلوة أثيوبية . وقد تمت كتابة هذه المخطوطة سنة ١٤٤٢ ش (١٧٢٦ م) [١] .

وهنـاك مخطوطة جاء في آخرها أن ناسخها انتهى من كتـابتها في ١١ مسرى سنة ١٤٥٢ ش (١٦ / ٨ / ١٧٣٦ م) . تتضمن ميمراً عن القديس سرابامون أسقف نيقيوس كتبه البابا ألكسندروس الاسكندري بناء على طلب الكهنة والشعب وقرأه في كنيسة كانت تعرف باسم « تاورا » حيث تجمع جمهور كبير من الناس لسماعه [٢] .

وإننـا لنجد عناية خاصة بالتوجيهات الروحية المؤدية إلى بنيان المؤمنين كما يتضح من مخطوطة لا تحمل اسم كاتبها وإنما جاء في آخرها أنها تمت في ٢٦ بؤونة سنة ١٤٤٧ ش ، وعنوانها هو : « كتاب في الحكمة الروحانيـــة والأقاويل الشريفة والتعاليم الحسنة والإنظام المفيد والمواعظ النافعة وإقامة الدين الصحيح من قول سادتنا معلمي البيعة الأرثوذكسية » [٣] .

وإلى جانب المخطوطات المتضمنة للصلوات والتعاليم توجد مخطوطة تحتوي

---

(١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطاني ص ٣٠٥ مخطوطة ٨٤٦ (عن النسخة المحفوظة بالمتحف المصري ببرلين الغربية) .

(٢) مخطوطة ٢٧ ـ ١٠ أدب ـ محفوظة بمكتبة المتحف القبطي .

(٣) مخطوطة ٤٣٠ (رقم ٤٠٧) محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

على مئة وخمسين درساً عن سفر التكوين . والنص الذى ارتكن إليه كاتب هذه الدروس هو نص الترجمة التى قام بها سعيد الفيومى (من القبطية إلى العربية) [١]

ومرة أخرى لا نعرف من هو واضع هذه الدروس ولا من هو ناسخها . أما المترجم للنص القبطى فلا نعرف غير اسمه . فما أكثر الجنود المجهولين الذين انتظموا فى سلسلة خدام الكنيسة ! وما أعظم ما بذلوا من جهود فى سبيل الاحتفاظ بالعقيدة خالصة فى صفائها الأول !

وهناك مخطوطة أخرى كاتبها نصر الله فرج الله فيسان الطوخى تشتمل على عدة موضوعات مكتوبة على شكل سؤال وجواب ، يبيّن فيها المعلم ما يجب عمله لتتخلص النفس من الخطية . والتفسيرات الواردة مأخوذة كلها من الكتاب المقدس . وهذا الكتاب مطابق لما جاء فى كتاب « المعلم والتلميذ » الذى وضعه أنبا كيرلس الثالث [٢].

١٢٧ - ومن عجب أن الطبيعة أيضاً ساهمت فى إزعاج المصريين ! فقد حدث فى يوم من أيام الخميس (سنة ١٧٣٥ م) أن غامت الدنيا واصفرّت السماء إلى حد جعل الناس يزعمون أن القيامة ستقوم . وملأهم هذا الزعم خوفاً فتركوا القاهرة ولجأوا إلى الريف آملين أن يجدوا فى رحابته شيئاً من الوقاية . وودّع كلٌ منهم أهله وأصحابه ، واندفع يصلى ويضرع . ومر يوم الجمعة كما تمر الأيام . وإذا بهم يرون الشمس تشرق يوم السبت ! فعاد الفارّون وهم ينكتون على ما أصابهم من ذعر وما اكتنفهم من غباء [٣].

(١) مخطوطة ١٠٨ (١٩٣ لاهوت) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .
(٢) مخطوطة ١٢٣ (٢٠٩ لاهوت) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .
(٣) جيمس ألدريدج . . . ص ١٣٩ .

ثم حدث مساء عيـــد القيامة سنة ١٧٢٨ أن شب حريق فى كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم ، وفى صباح الاثنين (شم النسيم) شاع خبر هذا الحريق . فركب الوالى وجنوده خيولهم وذهبوا لمعاينة المكان . ثم أحضروا السقايين والفعلة ليطفئوها إلى أن نجحوا فى ذلك ولقد احترق الشىء الكثير منها ومن محتوياتها . كما أن الحريق هيأ الفرصة للرعاع لكى ينهبوا ما يستطيعون وضع اليد عليه [١] .

١٢٨ - ومن نعمة الله أن الولاة وكبار المسلمين آنذاك قد جعـــلوا القبط موضع ثقتهم إلى حد أنهم سلموهم إدارة مصالحهم والاشراف على حساباتهم ، وخلال التعامل المتبادل بينهم توثقت الرابطة الوطنية التى تجمعهم . فأنس المسلمون إلى إخوانهم القبط وأودعوهم أسرارهم واعتادوا أن يستشيروهم فى بعض أمورهم الهامة [٢] . ولقد استجاب القبط لهذه الثقة فبرز منهم عدد من الأراخنة ممتلئين محبة مسيحية خادمين وطنهم وكنيستهم معاً . ومن هؤلاء الأراخنة : المعلم جرجس السروجى الذى أنفق من ماله الخاص على بناء بيعة فى دير الأنبا بولا وصحب الأنبا بطرس ومن ذهب معه إلى الدير لتكريس الكنيسة ولرسامة القسوس والشمامسة [٣] ، ثم المعلم نيروز والمعلم رزق الله البدوى والمعلم يانوب الرفتاوى الذين قيل عنهم فى المخطوطات إنهم « كانوا يشترون الفقراء شراوى من حبس الجوالى ويخلصونهم [٤] » - فأدوا مسئوليتهم فى صمت عملا بقول رب المجد « متى صنعت صدقة فلا تصوّت قدامك بالبوق . . . [٥] » وثمة أرخن آخر عاش فى هذه الحقبة هو المعلم لطفى النطرونى ، وكان تاجراً نشطاً رابحاً استطاع أن يقتنى ثروة

(١) عجائب الآثار . . جـ ٢ ص ٢٢٦ .
(٢) كامل صالح نخله : سلسلة . . الحلقة ص ٢٢ .
(٣) شرحه ص ١٨ .
(٤) تاريخ البطاركة لشنوده الصوامعى البرموسى (مخطوط) جـ ٢ ص ٥١٣ .
(٥) متى ٦ : ٢ .

كبيرة . وحدث أنه فقد بصره . وفى ذات ليلة هجم على داره رجلان من جند المملوك محمد بك جركس وقتلاه . وكان معهم أربعة آخرون انتظروا عند الباب . فلما عرفوا أن زميليهم قد قضيا على المعلم لطفى دخلوا البيت ونهبوا كل مافيه[1] .

والحق أننا حين نتمعن فى سيرة الأنبا يؤنس السابع عشر وفيمن خدموا تحت رعايته يتردد فى أسماعنا قول الشاعر :

لا تعدم الهمة الكبرى جوائزها   سيَّان من غلب الأيام أو غُلبا

وكل سعى سيجزى الله ساعيه   هيهات يذهب سعى المحسنين هبا[2] .

وتم فى هذا الجهـــاد الشاق الذى باء بالفشل شبيهون بالأنبا ديسقورس البابا الاسكندرى الخامس والعشرين الذى صمد كالطود الراسخ فى وجه تكتلات الخلقيدونيين وانتهى به الأمر إلى النفى[3] . على أن التاريخ الممتد من مار مرقس إلى اليوم قد أثبت لنا المرة تلو المرة أن الله لا ينسى تعب المحبة .

١٢٩ - وبعد الجهاد العنيف فى سبيل عقيدة الآباء والأجداد ، وبعد الصمود المستميت فى وجه الضيق والبطش دخل الأنبا يؤنس السابع عشر إلى فرح سيده - وقد قاد دفة الكنيسة خلال ثمانى عشرة سنة وثلاثة شهور .

١٣٠ - وفى فترة من هذه الفترات المليئة بالفتن والقلاقل عاش طبيب اسمه أبو سالم النصرانى اليعقوبى الملطى يوصف بأنه «كان قليل العلم بالطب إلا أنه كان أهلا لمجالسة السلطان لفصاحة لهجته فى اللسان الرومى ومعرفته بسير الناس وسير السلاطين[4]» .

---

(١) عجائب ... حـ ١ ص ١٤٧ .

(٢) من قصيدة « مشروع ٢٨ فبراير » لأمير الشعراء - الشوقيات حـ ١ ص ٦٨ .

(٣) الفصل الاول من حـ ٢ من هذا الكتاب .

(٤) « معجم الاطباء » للدكتور أحمد عيسى بك ص ٩١ .

ب - أنبا مرقس السابع

١٣١ - البابا الجديد	١٣٤ - جهود مستمرة
١٣٢ - فتنة فسكون	١٣٥ - الراحة الكبرى
١٣٣ - أول أسقف كاثوليكى	١٣٦ - «أكرم الذين يكرمونني»[١]
١٣٧ - كبير مطارنة الصعيد	

١٣١ - لم ينقض غير شهر واحد وأحد عشر يوماً على نياحة البابا المرقسى حين قام الأساقفة بشعائر الرسامة الرائعة التى جعلت من الراهب سمعان الأنبا مرقس السابع - البابا المئة والسادس فى سلسلة الباباوات الاسكندريين .

وكان هذا البابا من بلدة قلوصنا فى منطقة البهنسا ، استهوته الحياة الرهبانية منذ شبابه الأول فقصد إلى دير الأنبا بولا حيث لبس الإسكيم المقدس . وظل سنوات يتردد ما بين هذا الدير ودير الأنبا أنطونى . إلا أنه استقر فى النهاية فى دير أول المتوحدين حيث رسم قساً بيد الأنبا يؤانس السابع عشر نفسه. فلما تنيح هذا البابا اتفقت القلوب على اختيار الراهب القس سمعان الذى تميز بالرحمة وعذوبة الصوت وفصاحة المنطق [٢]. فكان هذا الاتفاق سبباً فى عدم بقاء السدة المرقسية شاغراً أكثر من الواحد والأربعين يوماً .

١٣٢ - وكان السلام سائداً ، وظل سائداً سنتين بعد رسامة البابا مرقس . فكانت فترة هانئة - رغم قصرها - سعد فيها الشعب بباباه والتقى الكل فى صفاء روحى . ولكن السلام لم يلبث أن تبدد بسبب فتنة قامت بين العسكر . وقد بلغت هذه الفتنة حداً اضطر معه عدد كبير من المماليك إلى الالتجاء إلى الصعيد حيث أقاموا ثمانية شهور انتهت بعدها الفتنة. فعاد الأمراء مرة أخرى إلى القاهرة.

---

(١) ١ صموئيل ٢ : ٣٠ .

(٢) البرموسي ج ٢ : الجدول فى آخره .

١٣٣ - وما كاد المصريون يتنسمون عبير الهدوء حتى بادر الكاثوليك برسم أول أسقف على « الشعب القبطى الكاثوليكى » فى ٤ أغسطس سنة ١٧٤١ م . ومن السخرية بمكان أن هذا الأسقف الذى خرج على عقيدة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قد أطلق عليه اسم أثناسيوس ! وقد ظل هذا الأسقف مقيماً فى أورشليم ، وأقام له نائباً عاماً لكل مصر اسمه يسطس المراغى[١] . وقد جاءت رسامة هذا الأسقف الكاثوليكى فى أعقاب نزاع عنيف بين الروم واللاتين حول المقادس فى أورشليم سنة ١٧٤١ . وكانت فرنسا حامية اللاتين بينما دافعت روسيا عن الأرثوذكس. على أن النزاع فى الأراضى المقدسة انتهى بانتصار الأرثوذكس لتأييد الباب العالى لهم[٢] .

١٣٤ - ولقد بذل المسئولون عن الكنيسة القبطية جهوداً كبيرة تبدو لمحات منها فى ما تبقى من مخطوطات: كالمخطوطة المحفوظة لنا من غير اسم كاتبها ، وعنوانها « كتاب نزهة النفس ومزيل الخطايا والنكوص » . وينقسم إلى سبعة فصول : (١) المعمودية ، (٢) شروط الاعتراف والتوبة ومعها تفسير مفصل لوصايا الله ، (٣) تطهير القلب ، (٤) التوبة والصوم والصلاة ، (٥) فائدة حضور القداس ، (٦) الموت والقيامة ونهاية العالم ، (٧) الجحيم وعذاباته[٣] .

ومما يجدر ذكره أن بالمتحف البريطانى مخطوطة مجلدة مكتوبه فى نهرين : قبطى - عربى . والأوراق من ص ١ - ١٣ا - . تتضمن القراءات التى تقال عن المرأة بعد أن تلد ابناً وهى : عبرانيين ١:٨ - ١٢ ، مزمور ١:٣١ ، لوقا ٢١:٢ - ٣٥ ، ومن ١٣ب إلى ٢٤ب القراءات التى تقال عنها بعد أن تلد بنتاً وهى :

---

(١) جورج مقار ص ٣٤٤ .

(٢) ديمترى رزق ص ٤٩ .

(٣) مخطوطة رقم ٣٤٢ (٤٠٠) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .

١ كورنثوس ٨ : ١٢ - ١٤ ، مزمور ٤٤ : ٩ ، لوقا ١٠ : ٣٨ - ٤٥ ، ومن ٢٤ب إلى ٢٨ب صلاة من أجل الموعوظين . تلى ذلك فجوة . ومن ٥٦ب إلى ١١١ب صلوات الصبغة المقدسة (المعمودية) وقراءاتها وهى : تيطس ٢ : ١١ - ٣ - ٧ ، ١ يوحنا ٥ : ٥ - ١٤ ، ، أعمال ٨ : ٢٦ - ٣٩ ، مزمور ٣١ : ١ - ٢ ، يوحنا ٣ : ١ - ٢٢ ، من ١١٢ب إلى آخر الكتاب صلوات تكريس أوانى المذبح . وقد ورد تاريخ الانتهاء من كتابة هذه المخطوطة على ورقة ١١١ب وهو سنة ١٤٦٤ش (سنة ١٧٤٨م) وهى موقوفة على كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس بأعلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة [١].

وإلى جانبها مخطوطة طريفة للغاية إذ تقع تحت عنوان : « مجلس لطيف » بين عبد عيسو مطران نسطورى[٢] وأبو قرة أسقف ملكانى وأبو رياطة أرخن يعقوبى [٣] وقد اجتمع هذا « المجلس اللطيف » تحت أنظار وزير من وزراء هذا العهد (لم يذكر اسمه) . ولا نعرف ماذا كانت نتيجة هذه المناقشات التى دارت بين ثلاثة ينتمى كل منهم إلى عقيدة مغايرة لعقيدة الآخر . لأن الجزء الأخير من المخطوطة غير موجود ، ولكن تاريخها موضوع عليها وهو ١٧ توت سنة ١٤٥٤ش (١٧٣٧/٩/٢٥) [٤].

كذلك يتضح لنا من سجل المخطوطات بالمكتبة البابوية بالقاهرة أن سيرة الشهيد صليب التى وردت فى الكتاب الثالث من قصة الكنيسة القبطية قد دونت

---

(١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطانى ص ٣٥٣ ، مخطوطة ٨٤١ .

(٢) نسبة إلى نسطور الذى فرق بين طبيعتى السيد المسيح .

(٣) أطلق القبط هذه التسمية على أنصار مجمع خلقيدون فردوا عليهم بتسميتهم « يعاقبة » ـ أنظر الفصل الأول من ج ٢ لهذا الكتاب .

(٤) مخطوطة ٤٨٧ (رقم ٨١٨) بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

فى سنة ١٧٢٧ أيضاً إذ توجد المخطوطة التى تروى لنا جهاده واستشهاده وعليها تاريخ ٤ و ١٧ طوبه سنة ١٤٥٢ ش .

وبالمتحف البريطانى أيضاً مخطوطة فى تهربن : قبطى - عربى ، بعض حروفها الكبيرة مكتوبة بالأحمر أو الأصفر أو الأخضر، كما أن بعض صفحاتها مزخرف. وهى تتضمن الصلوات الخاصة بتقديس الزيت (المسحة) وثلاث أواشى : أولاها لمن طلب الصلاة من أجله ، وثانيتها من أجل الملوك الحاكين ، وثالثتها من أجل الموعوظين . وفى آخر صفحة منها اسم كاتبها - صليب ، وتاريخ الانتهاء منها وهو سنة ١٤٥٩ ش [١].

وهذه الومضات الخاطفة تمكننا من أن نلمح صورة الجهاد الذى جاهدوه ، وأن ندرك أنهم على الرغم من قيودهم ومن امتيازات خصومهم حاولوا قدر استطاعتهم أن يدرأوا عن كنيستهم الخطر الذى يتهددها .

وبالاضافة إلى هذه الومضات كانت هناك جهود أخرى متوازية لها : فنجد ستائر لتغطية المذابح وأبواب الهياكل لها جمالها ، متبقية عن هذه الفترة من بينها ستارة مذبح كتب عليها مايلى « أعددت مائدة قبالة أعدائى دهنت بالدهن رأسى وكأسك أسكرنى كالصرف . رحمتك وطيبك يطلبانى طول أيام حياتى » . وتحتها هذه الكلمات : « برسم بيعة مارى مينا العجايبى بمصر القديمة . اذكر يارب عبدك المهتم المعلم عوض وزوجته فى أيروشليم السمائية . سنة ١٤٦١ للشهداء » . وثمة ستر آخر شبيه بسابقه فى زخرفته وفيما عليه من آيات وفى أسفله هذه الكلمات : « برسم كنيسة مار مينا العجايبى بفم الخليج . اذكر يارب عبدك المهتم المعلم أنطونى مشرقى فى ملكوتك . سنة ١٤٧٦ للشهداء [٢] » .

(١) سجل . . . ص ٣٦٠ مخطوطة ٨٥٧ .

(٢) مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

١٣٥ - وقد دامت بابوية الانبا مرقس السابع أربعاً وعشرين سنة قاسى خلالها الكثير من الأهوال وصمد فى صمود سلفائه الاماجد. تنيح بسلام وهو فى كنيسة السيدة العذراء بالمدوية . وكان يوم نياحته الخميس الموافق الثانى عشر من شهر بشنس المبارك . فكان يومذاك تذكار رئيس جند السمائين الملاك ميخائيل، كما كان فى الوقت عينه عيد استشهاد القديسة الست دميانة . وقد ظهر ساعة نياحته القديسان المضيئان أنبا بولا وأنبا أنطونى .

١٣٦ - وأن هذا الراعى الصالح حين علم بالروح عن قرب انتقاله إلى مساكن النور استدعى الأنبا بطرس مطران جرجا وهو كبير مطارنة الوجه القبلى وائتمنه على رعاية الشعب إلى أن يتمّ اختيار البابا المرقسى التالى . فكان ساهراً على شعبه حتى النفس الاخير ، حريصاً على سلامته حتى بعد النفس الأخير . ولقد تجاوبت القلوب مع هذه الرعاية الأمينة فنقل الأراخنة جثمان باباهم الطاهر من كنيسة السيدة العذراء بالمدوية إلى كنيسة مار جرجس ببابلون (مصر العتيقة) ، وأضجعوه تحت أيقونة الشهيد العظيم بدير الراهبات الملحق بهذه الكنيسة، حيث قضوا الليل كله إلى جواره وهم يرددون الصلوات والمزامير والبشائر . وفى صبيحة الجمعة تجمّع الأساقفة والكهنة وجمهور الأراخنة والمعلمين والشعب ، وألفوا موكباً رائعاً حول باباهم الراحـــل ، وساروا به إلى كنيسة الشهيد العظيم القديس مرقوريوس (أبى السيفين) حيث أقاموا الصلوات الجنائزية الخاصة بتلك المناسبة الرهيبة ودفنوه إلى جوار أسلافه .

ومما تجدر الاشارة إليه أن يوم رسامة الأنبا مرقس السابع كان عيد تذكار دخول السيد المسيح أرض مصر ، فهو والحالة هذه قد تسلم مسئولية الرعاية العليا فى اليوم الذى تحتفى فيه الكنيسة بمقدم الراعى الصالح إلى بلادنا . فيوم

رسامته ويوم نياحته كانا يومين من أيام أعياد الكنيسة . وهذه بركة نالها هذا الآب اليقظ - فأكرمه الله تعالى رغم تضييق الناس عليه .

وهناك ذوكصولوجية « واطس » كانت تقال وقت حضور هذا البابا الصبور وهى : « الكوكب المضىء على قطيع المسيح ، العظيم رئيس الكهنة أنبا مرقس البطريرك ، لأنك ثبّت لنا ناموساً بالفضايل الكاملة ، وحفظت الوصايا المكتوبة فى الإنجيل ، أكملت كل الفضايل وشاع اسمك فى كل مكان . لأنك صرت طبيباً شافياً لأنفس طالبى المسيح . ظهرت لنا بلبيمك . وأعطيتنا تهليلا عظيما بالخدمة المقدسة وبالحياة التى ليسوع المسيح تباركت به كل قبايل الأرض وبلغ كلامك إلى أقطار المسكونة . أوامرك المستقيمة ضربت فى قلوب الجراطقة مثل سيف ذى حدين من قبل قوة الثالوث. فلهذا نعظمك مع المرتل داود قايلين: إنك أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملشيصادق. كل ركبة تجثو للرب وكل لسان يباركه . ومجد الله قد اتسع وملأ وجه المسكونة . فاطلب من الرب عنا أيها الأب الطاهر رئيس الكهنة الأنبا مرقس السادس والماية ليغفر لنا خطايانا آمين [1] » .

كبير مطارنة الصعيد

١٣٧ - كان راهب بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان اسمه بطرس ، ثم اختير رئيساً على ديره بالاضافة إلى مطالبته بالاشراف على بقية الأديرة فى وادى النطرون . وحينما شغر كرسى جرجا وأخميم استدعاه الأنبا مرقس السابع (سنة ١٧٤٢ م) ورسمه مطرانا على ذلك الكرسى . ولايزال ديره محتفظاً له فى المكتبة

(١) كامل صالح نخلة « سلسلة . . . » الحلقة الخامسة ص ٣٣ نقلا عن كتاب ترتيب الأبوغالمسيس والمردات والألحان بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة رقم ١٦٥ عموى و ١٢٣ طقس .

بمنشورين راعويين قال فى آخر كل منهما : « بطرس عبد عبيد الله المدعو بنعمته مطراناً على كرسى جرجا والصعيد الأعلى وكافة الشعب المسيحى بكرسى أخميم وجرجا وقفط وقوص ونقادة واسنا وأرمنت وما ينسب إليها » . وقد دارت بينه وبين المعلم جرجس الجوهرى مكاتبات فى موضوع ترميم الدير ، وهذه المكاتبات موجودة ضمن قطارس شهر بابه المحفوظ بمكتبة دير السريان (١) .

وحينما أحس البابا مرقس السابع بقرب انتقاله من هذا العالم استدعى الأنبا بطرس بوصفه كبير مطارنة الصعيد وائتمنه على رعية السيد المسيح إلى أن يختار الشعب البابا المرقسى التالى . فتحمل المطران ما ألقاه عليه أخوه الأكبر من مسئولية . لأنه فى الواقع كان ضمن الآباء المجاهدين فى سبيل العقيدة الأرثوذكسية ولا يزال للآن كتاب مما وضعه لتعليم شعبه نقتطف وريقات منه للدلالة على حرصه على الإيمان قال : « . . . ويجب أن يحترص الكهنة غاية الاحتراص عند قسمة الجسد المقدس لتوزيعه على المؤمنين . . . وأيضاً الجوهرة إذا كانت صغيرة وأخذها الانسان بعد صوم واجتهاد وصلوات وبحرق قلب اتحد كثيفها بجسمه ولطيفها بعقله . . . وقد بلغنا أن بعض الكهنة الجهّال بالشرع وبجلالة الجسد المقدس يخجلون من أن يناولوا انساناً جوهرة صغيرة لا سيما أرباب الرتب العالية البهية فى العالم ، وأن يختاروا لهم الجوهرة الكبيرة . وهذا غاية الكفر . ومن يفعل هذا من الكهنة فلا يستحق أن يكون كاهناً ، ومن يقصد هذا من المتقربين فليس بمسيحى ... لأن الكاهن لو اعتقد فى كل جزء من القربان كبيراً أم صغيراً أن النعمة الإلهية المتحدة بهم بالسواء لما كان يفضل الكبير على الصغير ولو أن المتقرّب أيضاً يعرف قدر جلالة الجسد وحقارته هو فى ذاته لاعتقد فى أصغر

---

(١) « الأديرة ... » لصموئيل تاوضروس السريانى ص ١٦٥ .

الأجزاء من الجسد أنه كثير عليه[1] وأنه غير مستحق لتناوله لكثرة خطاياه».

«... وينبغى على الكهنة أن ينبهوا القيّم فى كل وقت ويحثّوه على نضافة البيعة وغسل قناديلها وأوانيها ، لان البيعة باب السماء كما أن الله سبحانه وتعالى قد زين السماء وجعلها حسنة الناظرين ... ».

«... وإذ حصل لنا أسباب تعوقنا عن المجىء إليكم أياماً كثيرة وينشغل خاطرنا بسببكم فلهذا احتجنا أن نضمن كتابنا هذه الفصول لتكون كافية مدة سفنكم تستغنوا به عن كتب كثيرة . ومتى أتفق أن يعرض لكم شىء فى هذا الكتاب فاطلعونا على ذلك ونحن بعون الله نجاوبكم بما يسهله المسيح على أفواهنا . ولا يجب أن يظن أحد الناس بنا أننا قلنا او كتبنا شيئاً من عندنا . فلم نكن نكتب إلا ما قاله آباؤنا القديسون . المتنيحين والحاضرين الباقين ليكون السامع والطايع لأقوالهم من أبنائهم ورعيتهم ، والمخالف والعاصى من أضدادهم وأعدائهم ، لان السيد المسيح قال من سمع منكم فقد سمع منى ... ».

«... والله ولى الصلح وباغض السيأة يسحق الشيطان تحت أقدامنا سريعاً ويؤهلنا أن نكون من السامعين الطايعين الصابرين المجاهدين لنكون فى يوم الدين من الفائزين القائمين عن اليمين . . . بقوة يسوع المسيح ربنا الذى له المجد والاكرام والعز والسجود مع أبيه الصالح والروح القدس إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين آمين » . تم وكمل

(١) يقول لنا الآباء الرسوليون أن كل قطعة يتناولها المتقرب هى الجسد المقدس بأكمله ولكى يوضح ذهبى الفم هذه الحقيقة اللا مدركة قال بأننا لو وضعنا أى عدد من الأوعية فيها ماء فى الهواء الطلق لا نعكست الشمس بأكلها فى كل وعاء منها . فإن كانت الشمس التى هى مخلوقة تنعكس كلها فى الوعاء فكم بالحرى خالق الشمس يكون بأكمله فى كل جزء من الجسد المقدس. راجع الفصل الخاص بسر التناول فى كتاب «الأسرار السبعة» لحبيب جرجس .

« وذلك على يد ناشيه وجامعه من عدة كتب بطرس المدعو بنعمة الله أسقفاً على مدينة جرجا وتخومها . وذلك فى عهد رياسة الحبر الجليل والسيد المعظم الآب البطريرك الأنبا مرقس الجالس على الرتبة المرقسية الذى هو السادس والمئة » .

« كتب فى اليوم الثانى عشر من شهر توت المبارك سنة ألف وأربعمائة خمسة وسبعين للشهداء . وجامعه وضع علامته فيه لأجل من يقرأ فيه يرحم عليه حياً وميتاً . ومن قال سيئاً فله أضعاف . ونسأل من الذى تجسد لأجل خلاصنا أن يثبتنا على الايمان المستقيم . والشكر لله دايماً أبدياً آمين . الله رجاى . بسم الله الرؤوف الرحيم فلا أخاف . المجد لله فى الأعالى » . ـ ختم ـ [١] .

وهناك مخطوطة بعنوان « كتاب البرهان » لا تحمل اسم كاتبها ولكنها فى الواقع موسوعة لاهوتية من مؤلفات أبو شاكر بطرس بن الراهب نقلها أحد المهتمين بالعقيدة ـ ولا نعرف إن كان من الكهنة أم لا ـ وذكر فى آخرها أنها تمت فى ٩ طوبة سنة ١٤٦٧ش (١٥ يناير سنة ١٧٥١م [٢]) .

---

(١) « من أقوال الأنبا بطرس مطران جرجا » مقال القمص بطرس جرجس نشره بمجلة الايمان (عدد ١٠ سنة ٢٤) يونيو سنة ١٩٥٥ ص ٤١٧ ـ ٤١٩ .

(٢) مخطوطة ٤٣٦ ـ رقم ٧٥٢ ـ محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

تلميرات علب بها الأنبا مرقس (البابا الـ ١٠٦) على بعض التذاكيات التى تقال فى عشيات حدود شهر كيهك

١ - أبدى باسم الله القدوس الخالق كل دهور وأزمان
له تسبح ساير كل طقوس مخلصنا الملك الديان
خلق آدم وأنشأ الفردوس عالى مرفوع بغير عمدان
سكن فيه ساير كل طقوس من كان يرضيه بأعمال وإيمان
وجعل فيه كل شجر مغروس يطرح أثمار أصناف وألوان
هذا صنعه الرب القدوس لأجل آدم عبده الإنسان
وخلق له حوا فصار بها مأنوس وبها خلص آدم وبقى فرحان
وقد خلقها من ضلعه الملبوس وأخذ من الضلع الأيمن لما كان نعسان
وأوصاهم من فــه القدوس وقال لآدم أوصيك يا إنسان
كلوا من أشجار الفردوس وهذه الشجرة شجرة العصيان
احذر عنها دون كل غروس لا تأكل منها تصير عريان
وتموتوا أرواحاً ونفوس أنت وحوا تصيروا فى أحزان .
السلام لكِ يا ست الأبكار يا مريم تى بارثينوس
يا من فى احشاكِ قد صار مخلصنا إيسوس بى خريستوس .

---

٢ - تعظمك كل الطغمات يا مريم تى بارثينوس
قد نلتِ كل الكرامات وقد فقتِ رتب نى أنجيلوس
آدم أوصاه رب القوات عن شجرة كانت فى الفردوس
خالف ربه وصنع الزلات بغواية شيطان منجوس
سكن فى الحية بخدعات كانت فى الحلقة كالطاووس
وصارت تتكلم بلغات وطغت حوا بحيل وعكوس
قالت الإله رب القوات أوصاكم من فــه القدوس
لا تأكلوا من الشجرة ثمرات وهذا كلام عنكم مدسوس
أنا أقول لكم حقاً بثبات امضى وكلوا من تلك غروس

تصيروا أنت وآدم آلهة　شبيها بالرب القدوس
فرحت حوا بهذه الكلمات　من فم الثعبان الملبوس
ومضت إلى آدم وطغت　وأكلوا من الثمرة بشهوة النفوس .
السلام لكِ يا ست الأبكار　يا مريم تى بارثينوس
يا من فى احشاكِ قد صار　مخلصنا إيسوس بى خريستوس .

٣- صرتِ عروس يا مريم　للملك المجد الوحدانى
له كل السلطان والنصرة　أتانا بجسد إنسانى
آدم خالف وأكل الثمرة　لخرج مطروداً عريانى
من الفردوس إلى برا　لأرض الشقا صار تعبانى
حزيناً يبكى فى حسرة　مأسور فى رق الشيطانى
قد أخده ورماه فى حفره　فى قاع جحيم فيه نيرانى
وعذاب أليم قاسى بكثرة　صار له ولجميع كل إنسانى
ونسله قد صاروا عبرة　مدلولين بالأحزان
دبر تدبير رب القدرة　ليرده الفردوس ثانى
وأرسل غبريال بالبشرى　لمريم خير النسوانى
وأعطاها سلاماً بمسرة　خاطبها بفم ولسانى
قال الرب معك يا عذرا　تقبلين حبلاً روحانى
جاوبته مريم فى الحضرة　قالت لست أعرف إنسانى
غبريال أعطاها الخبرة　بحلول الإبن الوحدانى .
السلام لكِ يا ست الأبكار　يا مريم تى بارثينوس
يا من فى احشاكِ قد صار　مخلصنا إيسوس بى خريستوس .

٤- أنتِ هى الجنس المختار　من بيت داود الطوبانى
بوجودك يا طهر الأطهار　آدم بك صار فرحانى
سكن فيك الأزلى الجبار　الإبن الكلمة الوحدانى

وحملتـــه يا ست الأبكار تسعة أشهر من غير انقصانى
وولدته فى بيت لحم جهار كالطفل صغيراً عريانى
ورضعتيه فى مذود أبقـار ملفوف بخـــرق كالإنسانى
بحضور سالومى والنجار الشيخ يوسف الطوبانى
وأتوا إليه بخضوع ووقار وسجدوا إليه الرعيانى
وظهر نجمة يشعل كالنـار فى المشرق زاهى نورانى
وقد نظره فى تلك الأقطار مجوس قصدوا إليه بالمعانى
وجابوا هدايا بالقنطار ذهباً مع مراً ولبانى
والنجم يسير ليلا ونهار معهم يرشدهم عيانى
إلى حيث كان عالم الأسرار المولود خالق الأزمانى
وسجدوا له بفرح ووقار ونالوا منه الغفرانى .
السلام لكِ يا ست الأبكار يا مريم تى بارثينوس
يا من فى احشاكِ قد صار مخلصنا إيسوس بى خريستوس .

---

٥ ـ صرت سماء حقاً ثانى حلت الرب الصباؤوت
يا مريم فخر النسوانى سكن فيك حقاً بثبوت
وظهر منك شبه إنسانى أقنوماً واحداً من ثالوث
ورضع لبن الثديانى وعن الشيطان أخفى اللاهوت
وهيرودس صار حيرانى ومن أجله قد أمر بالموت
بجميع الأطفـال الصبيانى سكان بيت لحم بكل بيوت
وملاك الرب الروحانى مضى ليوسف ناداه بالصوت
فى النوم قايل له يا الثانى قم بسرعة لما الليل يفوت
خذ الطفـل وصر هربانى أنت وامه تنجوا من الموت
من هيرودس الملك الخوانى وكن فى أرض مصر مبعوت
امضِ إلى تلك البلدان لما يفنى ملكه ويموت

تعالى وارجع بالتانى لما يهلك ذاك الممقوت
ويوسف كان غير كسلانى بسرعه جاب أتان كان مربوط
وركب فخر النسوانى ومعها من له الخلق يقوت .
السلام لك يا ست الابكار يا مريم تى بارثينوس
يامن فى أحشاك قد صار مخلصنا ايسوس بى خريستوس .

---

٦ - القبــــة النبوية زينها موسى بكل ألوان
جعلها بذهب مطلية ووضع فيها سرج ينيرون
والالواح العهدية مكتوبة بأصبع الديان
وجعل فيها منارة مضيــة وقسط الذهب فيه المن يبان
وهذه على بنى الاسرائيلية شهادة يوم نصب الميزان
وذلك اشارة رمزية عليك يا هيــكل منصان
يا مريم بكر نقيــة قد صرت قبة للغفران
زينتك بأنوار مضية الله منشى كل الأكوان
وإلى الديار المصرية مضى بك يوسف الانسان
ومعك خالق كل البرية طفلا محمولا بين اليدين
بادت الأصنام بالكلية من قدامه فى كل مكان
وصارت أرض مصر محمية زالت عنها عبادة الأوثان .
السلام لك يا ست الابكار يا مريم تى بارثينوس
يا من فى أحشاك قد صار مخلصنا ايسوس بى خريستوس .

---

٧ - دعيت أم الله خالقنا يا مريم ابنة صهيون
تجسد منك وعتقنا من أسر الشيطان الأركون
عمانوئيل هو صار معنا إلهنا عالم ما سيكون
ورضعتيـــه يا شفيعتنا من لبنك شبه المخلوقين
لأنه أتى ليخلصنا وصنع أفعال البشريين

وليس لفعل الخطية دنا | أو ني أورو إن ابورانيون
وتواضع لكي يعلمنا | ويجعلنا له شعباً وبنين
وفي الأردن مع يوحنا | تعمـــد وأعطانا العربون
أراد أن يصلب عنا | ويخلص كل من كان مسجون
فأخذ شكل طبيعتنا | وصلب عند الإقرانيون
من شعب قد قبل اللعنة | وصاروا به مستهزئين
وجعـــلوا في جنبه الطعنة | جنس اليهود الجاحدين
وأسلم روحه سيـــدنا | وصار دمه لآدم ميرون
وهو الآن كائن معنا | وأحيانا وصرنا به فرحين .
السلام لك يا ست الأبكار | يا مريم تي بارثينوس
يا من في أحشاك قد صار | مخلصنا ايسوس بي خريستوس .

٨- سلم رآه الأب يعقوب | في الرؤيا حقاً بثبات
مرتفعاً عالياً منصوب | فوق وجه الأرض إلى السموات
وملايكة الرب المرهوب | نازلين عليه ألوف مع ربوات
وصاعدين للعرش المحجوب | وعليه جالس رب القوات
وقد صار من يراه مرعوب | وهـذا رمز واشارات
عن مريم قديم المكتوب | بكل أقوال ونبوات
هي حملت غافر كل ذنوب | وإليه تسجد كل الطغمات
بتدبيره قد صار مصلوب | ودفن في قبر مع الأموات
وفي ثالث يوم محسوب | قام سيدنا صاحب الهيبات
وخلص من قد كان متعوب | في نار جحيم ببكا وحسرات
آدم وبنيه بلغوا المطلوب | وخلصوا من تلك الرجفات
والشيطان صار مشجون مغلوب | موضعهم في تلك الظلمات .
السلام لك يا ست الأبكار | يا مريم تي بارثينوس
يا من في أحشاك قد صار | مخلصنا ايسوس بي خريستوس .

٩- هوذا الرب قد ظهر منك   يا مريم تى بارثينوس
واختار حسن طهارتك   ن سوتير إن أغاثوس
طوباك يا من قد صرت   أماً للإله القدوس
خلاص آدم قد كان بك   بحملك فى پن شويس ايسوس
أخذ جسداً كاملا منك   خلص به آدم بعد أن كان محبوس
فى قاع جحيم كان فيه يبكى   مسبيا مع پى ديافولوس
بسفكه عنه دماً زكياً   صار منه پريشا پيلاطوس
فى أحشاك يا مريم شلق   خلاص نى خريستيانوس
السلام لك يا من أكلت   خبزاً من يد نى انجيلوس
فى پى إرفاى جابوه لك   يا مريم بكر وعروس
أسأل وأطلب شفاعتك   أنا الخاطى عبدك ماركوس
وعن الشعب المشترك   فى الايمان بالإبن القدوس
يكونون محفوظين بك   أجساداً وأرواحاً ونفوس
والبيعة تكون فى طمانتك   وخدامها شمامسة وقسوس.
السلام لك يا ست الأبكار   يا مريم تى بارثينوس
يا من فى أحشاك قد صار   خلاصنا ايسوس پى خريستوس (١)



(١) من كتاب صلوات مخطوطة (قبطى - عربى) وجدته بين مخلفات أبى .

شدة على شـــدة

١٣٨- شبيه بالملائكة
١٣٩- تفاهة المالوف
١٤٠- ازدهار التصوف
١٤١- تضاعف الصراع
١٤٢- الاهتمام بالتجارة
١٤٣- غدر بالعهد
١٤٤- الاستبداد والذل
١٤٥- مناورة رومانية جديدة
١٤٦- على بك الكبير
١٤٧- عودة الظلام
١٤٨- فوضى شاملة
١٤٩- المعلم رزق
١٥٠- اراخنة مجهولون
١٥١- انبا يوساب ابن الابح وكتاباته
١٥٢- امانة التربة المصرية

١٣٨ - وفى غمرة العواطف الجيّاشة تجمعّت القلوب فأدت إلى اجمـــاع الرأى ، وتركز هذا الاجماع على الراهب يوسف الأنطونى . فتمت رسامته فى هدوء من غير حاجة إلى مشاورات أو مفاوضات . وقد أقيمت الشعائر المقدسة التى رفعته إلى الخلافة المرقسية بعد ستة شهور تقريباً من نياحة سلفه باسـم الانبا يؤنس الثامن عشر . فأصبح البابا الاسكندرى السابع بعد المئة سنة ١٧٧٠ ولقد وصفه معاصروه بأنه «طلق اللسان . عذب الصوت . محبوب . محسن . ممدوح السيرة . شبيه بالملائكة [١]» .

١٣٩ - وكانت القاهرة آنذاك قد هبطت إلى مجرد مدينة ريفيه فقدت زخرفها ورواءها . على أنه رغم ذلك شيدت فيها البيوت المنيفة والحدائق الفسيحة حتى لكأن ساكنيها رفضوا الاستسلام للركود . ولكن أبنيتهم وحدائقهم لم تعد تلك القصور الفخمة التى ابتدعها الخيال الجامح ، بل كانت كبيرة الحجم سميكة الجدران لا تعبر إلا عن حياة خلت من تذوّق الفن [٢] .

---

(١) منسى القمص ص ٦٢٧ .

(٢) جيمس الدريدج : القاهرة ص ١٢٨ .

١٤٠ - على أن المدقق فى تاريخ مصر عامة وتاريخ الكنيسة المصرية خاصة يعروه الذهول أمام حقيقة ساطعة هى أنه فى دجى العصور الحالكة يمتد خيط من النور . وقد وضح هذا الخيط المضىء فى نمو المذاهب الصوفية آنذاك . وقد اجتذبت هذه المذاهب العدد الوفير من الناس يقومون بعبادات مختلفة على أنغام الطبول والنايات . وهذا التشارك التعبّدى أقام بين الناس رابطة من التعاون والتآزر ، ومن الحدب على الفقير والعناية بالمنكوب. كذلك نشرت هذه العبادات نوعاً من الثقافة العامة بما كانت تستلزمه من تعليم دينى ومن حفظ الأشعار والأذكار لترديدها معاً . ويجب الاشارة هنا إلى أن كل حركة دينية قامت فى مصرنا الحبيبة أدت دائماً إلى شىء من الازدهار الأدبى والفنى . وهذه الحركة (التصوّفية) أدت إلى رواج الأدب الشعبى مثل قصص أبى زيد الهلالى وخضرة الشريفة والمواويل التى تصف الريف المصرى . وظهرت إلى جانبه بعض المؤلفات التى لها قيمة كبرى رغم ضآلة عددها كبدائع الزهور لابن أياس وكتاريخ ابن زنبل الذى وصف لنا الصراع الذى قام بين آخر سلاطين المماليك وبين سليم الفاتح . بل لقد امتد أثر التعبدات (الصوفية) إلى إيجاد فرق تمثيلية ؟ متنقّلة تعرض فنونها أيام الأعياد . وقد ظهر لأول مرة ما وصفوه « بالقرة كوز » وهو عبارة عن دمى يحركها رجل من خلف ستار ، وتجرى على ألسنتها النكات الهزلية ونقد الحكام بشكل يجمع بين التسلية والوعظ [١] .

وليس بغريب والحالة هذه أن يحوّل المجاهدين العصر التركى القاحل الذى ضاعت فى قفره معالم الحضارة - ليس بغريب أن يحولوه إلى حديقة مثمرة بالانتاج الروحى فهم إنما ينتظمون ضمن صفوف من سبقوهم من معمرّى الصحراء بالحياة الرهبانية وجعلوا من قفارها قطعة من الفردوس .

(١) المجمل .. ص ٢٧٤ - ٢٧٨ .

١٤١ - ومقابل هذا المخرج الروحى الفنى الذى نفّس الشعب من خلاله عما يضيق به صدره تضاعف الصراع بين عسكر الوالى وبين المماليك. وقد قويت شوكة الفريق الأخير ونجحوا فى التغلغل داخل الحامية التركية ذاتها . ولكن على الرغم من اصطفافهم فى صفوف المصريين فقد سطوا على الأراضى والعقارات دون مراعاة لمصر ولا لأهل مصر . فأصبحت « الوجبة » اليومية لسكان القاهرة بالذات القتل فى الشوارع والسلب والنهب والاعتداء حتى على حرمة البيوت . ولما كانت الانفعالات لها فعل العدوى فقد كانت الخصومات الحزبية تنتقل من الوالد إلى ابنه ومن المخدوم إلى خادمه [١] . وهذا التصارع للسيطرة وللاستحواذ على المال والاستيلاء على العقارات ملأ كل عاقل حسرة ويأساً من أن تجد مصر أية راحة أو طمأنينة تحت نير الحكم العثمانى [٢].

١٤٢ - ومع أن غالبية التجار فى ذلك العصر كانوا من المسلمين إلا أنه كان بينهم عدد غير قليل من القبط واليهود ، وأبرزهم قبط قوص ونقادة وأسيوط وأخميم . وقد اهتمّ التجّار القبط من أهالى هذه المدن بالتجارة مع السودان . وكان للذاهبين والآيبين طريقان رئيّان : أحدهما يتبع النيل ويسير بمحاذاته تقريباً ، بينما يخترق ثانيهما الصحراء إلى دارفور على الطريق المسمّى « بدرب

(١) ألدريدج .. ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(٢) شرحه ص ١٤٠ ، وفى هذا الصدد يقول صبحى وحيدة فى كتبه « أصول المسألة المصرية » ما يلى : « ما كادت تهدأ العمليات الحربية التى مكنت العثمانيين من دخول مصر ... وما كاد الاجناد العثمانيون الذين دخلوا القاهرة والمدن المصرية الكبيرة الاخرى ينتهون من اشباع غرائزهم الهدامة ، وما كادت تسكن الاضطرابات المتوالية بين الفرق العثمانية المختلفة داخل أسوار المدن على الارزاق والمرتبات والامتيازات المدبدة ، حتى انفجر بركان غرائز هؤلاء البكوات ومماليكهم وظل يرسل حممه فى غير هوادة أو كلل إلى أن دخل الفرنسيون ... حتى يكاد ليقوم فى روع من يتتبع حوادث مصر فى هذه الحقبة من تاريخها النص أنه فى غابة متوحشة تقتتل داخلها وحوش ضوار يفترس بعضها البعض وتفترس جميعا ماتلقاه بهذه الغابة من خلائق وادعة » — ص ٨٢ .

الأربعين . وأبرز تجار الصعيد آنذاك كان المعلم غبريال شنودة الذى قامت بينه وبين سلطان دارفور صلة من المودة متينة حتى لقد أصبح وكيله ومن الواجبات التى ألقاها هذا السلطان على المعلم غبريال شنودة تجهيز المحمل والكسوة الشريفة التى كان يرسلها السلطان سنويا إلى مكة . وقبل هذا الواجب يبيّن لنا المكانة التى استمتع بها هذا الأرخن والثروة الواسعة التى استطاع أن يكسبها (١) .

١٤٣ – كذلك ظــل عدد من الكتبة الأقبط يعمل فى دواوين الوالى التركى ورجاله . وأكبر هؤلاء الكتبة المعلم نيروز كاتب رضوان كتخدا (٢) . وقد استغلّ هذا الأرخن مكانته ليتقدم إلى الشيخ عبد الله الشبراوى (شيخ الاسلام) ويرجو منه السماح له ولقومه بزيارة القــدس – وكان ذلك سنة ١٧٦٤ م ش . وبالطبع سار على الخطة الواجبة بأن قدّم للشيخ هدية سنية بالاضافة إلى ألف دينار . وعندها سلمه فتوى مكتوبة مرفقة بخطاب يقول فيه بأن أهل الذمة لهم الحق فى القيام بشعائرهم الدينية وزياراتهم المشروعة . ففرح المعلم نيروز بهذه الفتوى وهذا الجواب وأبلغ كل من يعرفهم بامكانية زيارة الأراضى المقدسة . وانتهز عدد كبير هذه الفرصة لجمعوا عائلاتهم وما يحتاجون إليه من المــال والمؤونة للسفر ، كما أحضروا العدد اللازم من العربان لخفارتهم . ونصب المعلم نيروز الخيام خارج القاهرة جهة الغرب ليتجمع فيها كل العازمين على السفر .

وحدث خلال انتظارهم بعضهم لبعض أن قام الشيخ عبد الله الشبراوى بزيارة للشيخ البكرى الذى قال له فى تهكم : « أهكذا تكون الفتوى ياشيخ الاســلام ؟

(١) موجز ... ج ٢ ص ٧٣ – ٧٤ .

(٢) بلغ ولع هذا المملوك بالبذخ أنه قيل من قصوره أنه « عقد على قاعاتها العالية قبابا عجيبة الصنعة منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون . وكانت الأنوار تسطع فى هذه القباب أثناء الليل فيكاد يخطف بهاؤها ورواؤها الأبصار » – القاهرة لعبد الرحمن زكى ص ٢١٢ .

هل لأنهم هادوك وأرضوك تأذن لهم بالسفر على هذه الصورة من الأبهة ؟ ، فأنكر الشيخ الشبراوى أنهم قدموا له أية هدية . فعاد البكرى يقول : « بل قدموا لك ألف دينار مع هدية فاخرة . وبذلك هيأت لهم الفرصة لأن يعاودوا الطلب موسماً بعد موسم ، فتصبح هذه الزيارة عادتهم السنوية » . فامتلأت نفس الشيخ الشبراوى غضباً لهذه الكلمات وخرج من عند الشيخ البكرى واستثار العامة بدوره فخرجوا إلى المعلم نيروز وجماعته وسطوا عليهم وضربوهم بالعصى ، ورجموهم بالحجارة ، وسرقوا أموالهم . ثم استكملوا كل هذه الاعتــداءات بالسطو على الكنيسة القريبة من دمرداش [١] . كذلك طولب القبط بأن يدفعوا مئة ألف ريال ، وضيق عليهم على بك حسن أغا إلى حــد أنه أخذ منهم المبلغ فى أسرع وقت [٢] .

١٤٤ - كذلك امتد التعسف إلى جعل ركوب الخيل قاصراً على المسلمين ، أما القبط وبقية غير المسلمين فكانوا لا يركبون غير الحمير ، فإن مرّ عليهم أصغر مملوك كان عليهم الترجّل وتقديم التحية الواجبة . وكان يجرى أمام المملوك سايس ليمهد الطريق لسيده ، ومن لم يسرع فى التنفيذ كان نصيبه الضرب بالعصا [٣] .

وفى تلك الآونة جاء إلى القاهرة فرنسى اسمه فولنى . وبعد زيارته وضع كتابا عما شاهده قال فيه إن « الغريب تصيبه الدهشة لمرأى البؤس والفقر فى كل مكان . فالجمهور الذى يملأ الطرق والميادين ليس سوى قطع من الملابس القـذرة المهلهلة والعرى الفاضح . وكل ما يراه وما يسمعه يذكره بأنه فى بلد الاستبداد والذل .

---

(١) أغلب الظن أنها كنيسة من الكنائس التى كانت قائمة على أرض الأنبا رويس — راجع الكافى ج ٣ ص ١٤٠ ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) عجائب الآثار . . . ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) الدر البهج . . . ص ١٤٦ .

وليس من حديث يترامى إلى السمع غير الكلام عن القتل والضرب والمنازعات . وليس هناك أى ضمان للحياة وللممتلكات . والعدالة نفسها تنفّذ الحكم من غير رسميات ، لأن الضابط المنوط به الحراسة الليلية أو التفقّد النهارى يحكم ويقضى وينفّذ فى طرفة عين ، فيسقط رأس الفريسة البائسة فى الشنطة الجلد المعدّة لذلك كى لا توسخ الطريق ! [(١)] » .

١٤٥ - ولقد جاء فى تلك الفترة إلى البابا خصيصاً راهب اسمه برتلماوس موفداً من لدن الحبر الرومانى ليطلب إلى خليفة مار مرقس أن يعلن اتحاده مع كنيسة رومية وانضواءه تحت لواء بطريركها [(٢)] . فقابله الأنبا يؤنس بمنتهى الأدب وحسن اللياقة ولكنه أفهمه فى صراحة تامة أنه لن يحيد عن عقيدة آبائه وأجداده قيد أنملة ثم أرسل رسولا إلى الأنبا يوساب ابن الأبح أسقف جرجا يرجو منه أن يكتب الرد على رسالة الفاتيكان بالرفض فى صياغة من الأدب الرفيع . فاستجاب الأسقف لرغبة أبيه الروحى وكتب الرسالة المطلوبة .

١٤٦ - ووسط هذا الذل وهذا الفقر ومضت ومضة خاطفة حتى لقد بدا كأن مصر انتفضت لتنفض عنها هذا الغبار الكثيف الذى تراكم فوقها ! فقد ظهر على بك الكبير سنة ١٧٦٩ . وكان هذا الرجل مملوكاً أصله من مسيحيى جورجيا [(٣)] خُطف وبيع فى القسطنطينية ، ثم اشتراه ابراهيم كتخدا وجاء به إلى مصر . وقد

(١) شرحه ص ١٤٨ — ١٤٩ ، وما أبعد هذا الوصف مما قاله ناصر لخسرو وغيره ممن جاءوا إلى مصر فى العصور السابقة على هذا العصر التركى القاتم ، الدريدج ص ١٤٢ .

(٢) ومن أغرب الغرائب أن برتلماوس هذا جاء بخطاب كتبه الحبر الرومانى إدعاء منه أنه على لسان البابا المرقسى طالباً إليه التوقيع عليه ! راجع كامل صالح نخله « سلسلة ... » الحلقة الخامسة ص ٤٠ — ٤٢ .

(٣) ولاية ذات سيادة مستقلة ، يقع البحر الأسود غربيها . وهى الآن إحدى ولايات الاتحاد السوفيتى ، لكنها كانت مستقلة أيام على بك الكبير .

تميز بقوة الشخصية والرغبة فى السيطرة . واحتقار اللهو والعبث ، كما كان طموحاً بعيد النظر واسع الافق . وقد بدأ نفوذه يمتد فى تلك السنة حين رفض أن يرضخ لفرمان العزل الذى أصدره السلطان عبد الحميد الاول ضده . ولم يكن خروجه عن طاعة السلطان مجرد منافسة عادية بين المماليك بل كان حركة انفصالية استهدف منها الإستقلال بمصر . وحينما نجح فى ثورته على السلطان التركى ازداد فى بسط نفوذه خارج حدود مصر . فأرسل حملة ضد الحجاز بقيادة مملوكه أبى الذهب سنة ١٧٧٠ وانتصر فاستولى على مكة . وفى السنة التالية أستولى على دمشق . وحفزته انتصاراته إلى الاتصال بالروس لكونهم خصوم العثمانيين . وعقد تحالفا مع حكومة البندقية وفتح موانى مصر للتجارة الخارجية . فهو قد اتجه اتجاهاً دولياً نسيته مصر منذ عهد بعيد . وبالطبع حنق الترك عليه فاستمالوا أبا الذهب إليهم الذى استمال بعضاً من زملائه . وتقاتل على بك ورجاله مع أبى الذهب ومن انضم إليه عند الصالحية فأصيب الاول بجراح مات على أثرها ـ وكان ذلك فى مايو سنة ١٨٧٣ . ويرى بعض المؤرخين أن على بك الكبير فشل فى حركته لأنه لم يستغل طاقة الشعب المصرى الذى كان يكره حكامه العثمانيين ، فلم يعتمد فى معاركه إلا على حزبه الخاص من المماليك [١] . على أنه رغم هزيمة هذه الحركة فقد أثبتت أن لمصر شخصيتها البارزة ، وأنها فى حالة حسن القيادة والتنظيم تستطيع أن تكون دولة مستقلة قوية [٢] . فكان عهد على بك الكبير أشبه بالومضة الخاطفة التى ـ وإن قطعت الظلام ـ ترتد فى لحظات وخلال هذه الومضة الخاطفة استقرت الامور واستتب الامن وأحس الناس بالهدوء النفسى ، لقد بدت مصر فجأة كدولة مستقلة داخل

---

(١) دراسات فى تاريخ مصر السياسى . . . لفوزى جرجس ص ٢٢ ، « فى أصول المسألة المصرية » لصبحى وحيدة ص ١٠٨ .

(٢) الجمل . . . ص ٢٨٠ ـ ٢٨٣ .

الإمبراطورية العثمانية (١) . بل لقد بلغ بها الاستقلال أن سك على بك نقوداً باسمه وعليها علامته وائتمن المعلم رزق على سكها (٢) . ويصفه الجبرتى بقوله : « ولو لم يخنه مملوكه محمد بك لرد الأمور إلى أصولها . وكان لا يجالس إلا أهل الوقار والحشمة والمسنين . . . وارتفع شأن النصارى فى أيامه بكاتبه المعلم رزق والمعلم ابراهيم الجوهرى » (٣) .

١٤٧ - وقبض أبو الذهب على زمام الحكم وسعى إلى استرضاء الترك . ولكن الحكم لم يستتب له إلا ثلاث سنين توفى بعدها فجأة . وعندما تولى ابراهيم بك ومراد بك الحكم معاً دون الاذعان للوالى المعين من الباب العالى . ولكنهما فوجئا بحملة عسكرية أرسلها عبد الحميد الأول بقيادة حسن باشا الجزايرلى الذى انتصر عليهما . ورغم انتصاره فقد اتفق مع ابراهيم بك ومراد بك على أعطائهما المنطقة الواقعة ما بين برديس (قرب سوهاج) وشلال أسوان . على أن المماليك

(١) يصف الكاتب الانجليزى جيمس ألدريدج فترة حكم على بك الكبير بهذه الكلمات :

" There was a brief moment before Napoleon arrived when it seemed as if Egypt was about to emerge from this Turkish cocoon under its own steam, and re-establish itself once more as an independent Mameluke power . . . the people of Egypt were in revolt against the Turks, demanding that something be done to relieve their misery, and cut them free from the dead weight of Ottoman taxes and unbearable economic bondage ".

وترجمتها ما يلى : كانت هناك لحظة قصيرة قبل وصول نابليون بدت فيها كأن مصر على وشك الخروج من تلك الشرنقة التركية بقوتها الذاتية ، وترسيخ نفسها مرة أخرى كقوة مملوكية مستقلة . . . فقد قام أهل مصر بثورة ضد الأتراك مطالبين بوجوب عمل ينجدهم من بؤسهم ويقطع عنهم رباطات الثقل الميت الذى هو الضرائب المفروضة ويحررهم من العبودية الاقتصادية اللامحتملة . راجع كتابه « القاهرة » ص ١٥٣ .

(٢) عجائب الآثار . . . للجبرتى جـ ١ ص ٢٧١ .

(٣) شرحه جـ ١ ص ٣٨١ و جـ ٢ ص ٩١ .

عاودوا تنافسهم ومناوشاتهم فهيأوا الفرصة لابراهيم بك ومراد بك للعودة إلى القاهرة. فعادا وسيطرا مرة أخرى على البلاد.

١٤٨ — كل هذه المصادمات ضاعفت الضيق والضنك، فلم تفتك بالأشخاص فقط بل استولت أيضاً على كدهم وتعبهم. وقد بلغ البطش درجة ثار معها قبط الصعيد ورفضوا أن يدفعوا الجزية. ويبدو أن الفوضى كانت شاملة حتى أن أحداً لم يجرؤ على جمع الجزية من هؤلاء الثائرين [١]. وقد أدت الفوضى أيضاً إلى اهمال الأمور الصحية فكثرت المستنقعات مما جعل البلاد مرتعاً خصيباً للأمراض والأوبئة.

ولقد اشتد حسن باشا على القبط أكثر من سلفائه أضعافاً، فسلب منهم الكثير من الأموال، وأمر بعدم ركوبهم الخيل، وعدم استخدامهم مسلماً، كما أمر أن لا يتسمى أحد منهم باسم مشترك كسليمان مثلا، ولا تكون لهم بيوت فخمة، ولا يلبسون ملابس زاهية. ومما ضاعف الغمة أن انتشر وباء بين المواشى فازداد الفقر. وزاد على ذلك أن صدر الأمر بعدم خروج النساء مع عائلاتهن فى يوم شم النسيم [٢]. وتلا هذا الأمر قرار بأن يحضر القبط جميع من عندهم من العبيد والجوارى. فإن لم يخضعوا طوعاً واختياراً وقع التفتيش على كل ما فى بيوتهم واستبيح نهبها. فذهب كبارهم وتفاهموا مع الأمراء بالمال فسمحوا لهم ببيع العبيد والجوارى والاحتفاظ بأثمانهم. ولقد نفذ القبط هذا البيع ولكنهم خافوا أن يستولى الباشا على ما قبضوا من مال فاستودعوه عند أصدقائهم المسلمين ريثما تمر الضيقة. وقد صح تخوف القبط لان جند الباشا هجموا على بيوتهم بحثاً عمن تبقى فيها من الجوارى والعبيد. وفى هجومهم سرقوا ونهبوا الشىء الكثير [٣].

(١) ألدبريدج . . . ص ١٥١ .

(٢) عجائب الآثار . ج ٢ ص ١٣٩ .

(٣) شرحه ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠ .

ومع أن ولاية حسن باشا لم تدم غير سنتين إلا أنها رغم قصرها كانت مليئة بالاوجاع للقبط خاصة والمصريين عامة (١) .

ووسط هذه الاوجاع نلمح امتداداً للجهاد الروحى ، ويتبدّى لنا هذا الجهاد خلال عدد من الاشياء . فالجدار القبلى من ناحية الشرق لكنيسة السيدة العذراء (المعلقة) أيقونة لرئيس الملائكة ميخائيل يحمل ميزاناً فى يد وصليباً فى الأخرى. وفى أسفل الايقونة تاريخها : ١٤٩٢ ش = ١١٩٤ هـ . والايقونات السبع التى تزين حجاب الهيكل تحمل هذا التاريخ عينه كما تحمل اسم الفنان الذى رسمها وهو حنا الارمنى . وفى أعلا الحجاب سبع عشرة أيقونة : خمس عشرة منها الشهيد العظيم مار جرجس فى مناظر مختلفة خلال صراعه ضد دقلديانوس وأعوانه ، والبعض منها يصور الآيات التى أجراها الشهيد أثناء اضطهاده والايقونة السابعة عشرة الملاك غبريال . ويبدو أن الاولى تلفت أو ضاعت ووضعت مكانها أيقونة جديدة بعد ذلك بما يقرب من قرن . كما أن حجاب المكان المحتوى لجرن المعمودية بنفس الكنيسة يحتوى على إثنى عشرة حشوة مسدسة مزينة بالعاج غير المنقوش وهى مرتبة على شكل نجوم تتوسطها صلبان . أما البابه فقد كتب فى أعلاه بالعاج (قبطى وعربى) « السلام لهيكل الله الآب » ، وتحتها : « عمل هذا الحجاب المبارك برسم هيكل الشهيد العظيم مار جرجس بالمعلقة . أذكر يارب عبدك عبيد أبو خزام وولديه وأهل بيته وبنته المرحومة مريم فى ملكوتك . وكان ذلك سنة ١٤٩٣ للشهداء » .

بل إن هناك ما هو أدعى إلى العجب من وجود أيقونات وأحجبة وهو انه توجد بالمتحف القبطى شوكة ذات حدين مزخرفة بأشكال نباتية ومعها سكينة

(١) الشهابى . . ص ٨٤٧

من الصلب ذات مقبض مذهب . وللاثنين غطاء حفرت عليه الجملة التالية : «وقف القلاية البطريركية . عمل الأنبا يونس السابع بعد المئة سنة ١٤٩٣ الشهداء» . وهذه الجملة تفيد أن البابا نفسه هو الصانع لهذه الأدوات وإلا لكان قيل «برسم فلان» أو «المهتم فلان» أو «بناءً على طلب فلان» ولكننا لا نجد هنا أياً من هذه التعبيرات[1] .

١٤٩ - ومن كبار الشخصيات فى هذا العصر المعلم رزق (أو رزق أغا) . فقد كان متضلعاً من علمى الحساب والفلك بالاضافة إلى التعاليم الكنسية . وكان نزيهاً ، صادق الوعود ، خادماً لكل الناس. فاعتمد عليه على بك الكبير ورقّاه إلى درجة مدير حسابات الضربخانة المصرية[2] . وزادت ثقته فيه فجعله وزيره. ولما كان المعلم رزق واسع القلب فقد وضع معرفته الفلكية فى خدمة رحّالة انجليزى اسمه بروس جاء إلى مصر فى طريقه إلى الحبشة لدراسة مختلف الأقطار الافريقية . وكان يحمل ما يستند إليه فى دراسته من أدوات جغرافية وفلكية . فلما رست الباخرة التى تقله فى ميناء الاسكندرية ظن المسئولون عن الميناء أن هذه الأدوات عسكرية فاحتجزوها عندهم . وحين عرف المعلم رزق بما جرى أصدر أمره بالافراج عن الأدوات المحتجزة . فلما تسلمها مستر بروس عدَّ خدمة المعلم رزق جميلا عليه وأراد أن يعبّر له عن شكره فأرسل له هدايا قيّمة ولكن القبطى الخدوم رفض الهدايا وأعرب للرحّالة الانجليزى عن رغبته فى رؤية الأدوات الفلكية ومعرفة كيفية استعمالها . فلبّى طلبه . والطريف أن المعلم رزق هو الذى قدم الهدايا للمستر بروس فقبلها منه ، كما أنزله فى منزل خاص يقع فى

---

(١) «مرشد المتحف القبطى» لوديع شنوده ص ٤٣ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٥ – ٥٦ و ١٢٩ .

(٢) هى إدارة سك النقود .

بابلون حيث أدّى له واجب الضيافة [1].

وكان المعلم رزق منوطاً به المحافظة على النظام فى مديرية الشرقيـة . وكان الأشقياء بتلك الجهة قد اعتادوا السطو على قافلة المحمل ذهاباً وإياباً ، كما اعتادوا بقية السنة أن يقلقوا أهالى القليوبية بسلبهم الأموال ونهبهم ما يستطيعون الاستيلاء عليه من ماشية أو حصاد . فسهر المعلـم رزق على تأدية واجبـه إلى أن نجح فى القضاء على هؤلاء الأشرار وفى اقرار الامن . وبالاضافة إلى كل هذه الأعمـال فقد كان كاتباً للشيخ الحاق (أحد أئمة الاسلام الاربعة) « فبلغ من العظمة مالم يبلغه قبطى فيما رأينا . ومن مسقاته كرع ابراهيم الجوهرى . . . . » ، بل لقد قيل عنه « لما انتهت رياسة مصر إلى على بك الكبير ارتفع شأن النصارى فى أيامه بكاتبه المعلم رزق ومساعده المعلم ابراهيم [2] . فخدم سنوات طويلة بأمانة وتفان ولـكن رغم خدماته الجليلة اغتاله ابو الذهب الذى خان على بك الـكبير . ولم يكتف باغتياله بل علقه على باب زويلة حيث ظل معلقاً يومين قبل أن يجسر أحد أن ينزله ويدفنه .

١٥٠ - وقد برز إلى جانب هذا الأرخن الـكبير المعلم لطف الله أبو شاكر الذى كان كاتباً لاسماعيل بك خصم مراد بك وابراهيم بك . وقد اشتهر بالصلاح وبحب الخـير فعينه البابا يؤنس ناظراً على دير كوكب البرية أنبا أنطونى . واستجاب المعـلم لطف الله لثقة أبيه الروحى فبنى بالدير كنيسة الآباء الرسل وكنيسة أنبا مرقس ولما أتمها ذهب البابا إلى الدير وأدّى شعائر تكريسها فى جمهور من رهبانه وشعبه [3] .

(١) المماليك فى مصر لأنور زقلمه ص ١١١ ، تاريخ الأمة القبطية لكامل صالح نخلة وفريد كامل ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) عجائب الآثار ... الجبرتى ج ١ ص ٣٨١ وج ٢ ص ٩١ .

(٣) كامل صالح نخلة « سلسلة ... » الحلقة الخامسة ص ٣٩ - ٤٠ .

والمعلم فرج كاشف(١) منطقة دير مواس ، والمعلم تكلا سيدراوس كاشف منطقة بهجورة ، والمعلم عبود كاتب الخزانة (٢) . غير أننا لا نعرف عن ثلاثتهم إلا أسمائهم والوظائف التى كانوا يشغلونها . كذلك نعرف اسم اثنين ممن كانوا كتبة فى دواوين المماليك وهما المعلم ميخائيل فرحات الذى قيل عنه أنه قريب للشيخ الموهدى ابن أبى فانوس . وهذه الكلمات هى الوحيدة التى تعطينا لمحة عن وجود كتبة قبط ظلوا يعملون فى الدواوين (٣) فى هذه الفترة .

١٥١ - على أن أبرز شخصية ساندت البابا يؤنس فى هذه الفترة هى شخصية الأنبا يوساب المعروف بابن الأبح (٤) أسقف جرجا وأخيم - ومن نعمة الله أن التاريخ حفظ لنا بعض المعلومات عنه . فقد ولد فى النخيلة - جنوبى أبو تيج - وأطلق عليه أبواه اسم يوسف . فلما بلغ حوالى السابعة التحق بكتاب البلدة كما كانت عادة القبط على مدى أجيال . لأن الكتّاب كان دائماً ملحقاً بالكنيسة أو الدير . وكان التلاميذ فيه يتعلمون المزامير والتسبحة وغيرها من الصلوات الكنسية ، كما كانوا يتعلمون القراءة والكتابة والحساب . وبهذه الوسيلة كانوا ينشأون عارفين بتعاليم الكنيسة وطقوسها . وكان يوسف ممن استهوتهم هذه التعاليم الروحية فكان يتغنى بها فى غدواته ورواحه . ودفعه التغنى بها إلى التمعن فى معانيها . فتشبعت بها نفسه وملأته رغبة فى أن يعيش عيشة النسك والتبتل. فلما بلغ الخامسة والعشرين من عمره نفذ رغبته، فترك أهله وعشيرته وقصد إلى بوش (٥)

(١) الكاشف هو المراقب لجمع الضرائب . (٢) موجز . . . . ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) تاريخ الأمة المصرية ... (بالفرنسية) ج ٥ ص ٨١ .

(٤) سبق أن التقينا بيؤنس ابن الأبح الذى كان وزيراً للخليفة المستنصر بالله والذى بنى كنيسة أبى سرجه والست بربارة - راجع ما جاء عنه فى ج ٣ من هذا الكتاب ولسنا ندرى إن كان الرجلان من عائلة واحدة أم أنه مجرد تشابه اسمى ولكن الذى ندريه هو أن كليهما خدم كنيسته القبطية فى صدق وولاء .

(٥) شمالى بنى سويف وبها حديقة تقوم عليها كنيسة وعدد من القلالى للرهبان .

حيث كان يقيم رئيس دير الأنبا أنطونى كوكب البرية . وحين وقف أمامه أطلعه على رغبة قلبه . ففرح به رئيس الدير وأعاده البركة . ثم وضعه تحت رعاية شيوخ الدير ليعلموه ويرقبوه فيعرفون إن كان يصلح للحياة الديرية . وبعد أن راقبه هؤلاء الشيوخ عرفوا صدق عزيمته ومـــدى تطلعه نحو الروحيّات . فزكوه لرئيسهم . وعندها أرسله إلى دير العظيم أنبا أنطونى فى الصحراء الشرقية حيث وضعه الآباء تحت الرقابة مرة أخرى . وقد فرحوا بما رأوه من القناعة والاتضاع والاستعداد للتعلم وللحياة بمقتضى قوانين الرهبنة . فصلوا عليه الصلوات التى جعلت منه راهباً واحتفظوا له باسمه الأصلى « يوسف » .

وامتــلأت روحــه بالنعمة الإلهيـــة فعكف على البحث وتفتيش الكتب والمخطوطات . وبمداومته على الاطلاع والتمعن فيما يقرأ تضلع من التعاليم الكنسية وسير الآباء وأقوالهم ، فأصبح كالواحة المنعشة وسط العصر المجدب الذى عاش فيه . وحين رأى الشيوخ تعمقــه فى الدراسات الأبوية رشحوه للكهنوت ، فرُسم قساً فقمصاً . وزاده فيض الروح القدس نعمة ووداعة لجعل من نفسه خادماً لإخوته ساعياً إلى استرضائهم .

وكان الأنبا يؤنس الثامن عشر قد اختير من دير الأنبا أنطونى ، وظل طيلة حياته يشعر بجاذبية الحيـــاة الرهبانية ويحنين إلى من كانوا إخوته فى رهبنته ، فاعتـاد أن يسأل عنهم ليعرف أحوالهم . وحين علم أن بين الكهنة منهم واحداً اسمه يوسف انشرح صدره لأنه كان يحمل نفس الاسم أيام أن كان عائشاً بالدير وازداد قلبه فرحاً لما سمعه عن القمص يوسف من دأب على البحث ، وتعمّق فى الروحيات ، وتفان فى خدمة إخوته ، فرغب فى أن يراه وأرسل يطلبه . ولما تقابل الاثنان أخذ البابا يتحدث مع ابنه بالروح فى مختلف الموضوعات ، وتبيّن

له من هذا الحديث المتشعب عقليته النيرة وحسن تبصره . فعقد النية على رسامته أسقفاً . ولكنه كتم نيته واستبقاه فى الدار البابوية . ثم عهد إليه ببعض الأمور الإدارية وارتاح لتصرفه فيها . وعندها تشاور مع أساقفته وأبلغهم بكل ما دار بينه وبين الراهب القمص يوسف وبحسن تصريفه للأمور . وبعدها اقترح أمامهم رسامته لإيبارشية أخميم وجرجا ، فوافق الكل بالاجماع ، وامتلأت نفس البابا المرقسى ارتياحاً لهذا الاجماع فرسمه أسقفاً سنة ١٤٩٩ ش باسم الأنبا يوساب . ويوساب هو الشكل القبطى لاسمه العربى « يوسف » .

ولقد أبدى البابا بطرس كل هذه العناية فى اختيار الأنبا يوساب لأنه كان قد رسم الأنبا أنطونيوس فليفل قبل ذلك بست سنوات فلم يلبث هذا الأسقف أن انحاز إلى الكاثوليك بغواية دعاياتهم وأساليبهم الإغرائية . فكان انضمامه إلى الكاثوليك سبباً فى بلبلة الأفكار واشاعة الهرج مما جعل القبط يثورون عليه ويرفضون اقامته فى وسطهم ، كذلك امتلأ المسلمون حنقاً عليه . وقد دفع هذا الغضب الشعبى بوالى المنطقة إلى مراقبته فى تشكك وريبة . ثم استدعاه وسأله عما جعله يتنكر لكنيسته الوطنية ووجد إجاباته غير مقنعة فألقى به فى السجن . على أن الوالى العام أصدر الأمر بالافراج عنه . وقد أشيع أن قنصل فرنسا هو الذى تشفع فيه إلى أن نجح فى استصدار أمر العفو . فلما خرج هذا الأسقف من السجن لم يستطع الاقامة بين مواطنيه لما رآه منهم من مجانبة . فغادر مصر وذهب إلى رومية حيث قضى بقية حياته دون أن يركن إليه بأية خدمة راعوية . وبإزاء هذه المأساة الموجعة رأى البابا بطرس وجوب التدقيق فى حرص فى اختيار الأساقفة واختبار عقيدتهم إذ وجد أن إغراءات رجال الفاتيكان قد بلغت درجة من النفاذ إلى حد استمالة رجل قضى شطراً من حياته داخل دير من أديرة الآباء القبط الذين غمرت روحانيتهم الأرجاء [١] .

---

(١) وإن دهشنا لهذا المسلك فلنذكر أن يهوذا الاسخريوطى كان ضمن الإثنى عشر .

ولقد قضى الأنبا يوساب بضعة أيام فى الدار البابوية بعد رسامته تبعاً للعادات التقليدية التى جرى عليها الآباء. ثم قصد إلى أخميم التى كانت إذ ذاك مقراً للكرسى الاسقفى. وفيها أيضاً قضى الاسقف بضعة أيام رأى بعدها أن يتفقّد الشعب ليعرف بنفسه إلى أى مدى أثّر تحوّل سلفه إلى الكثلكة فى النفوس. فابتدأ الزيارة الراعوية من مدينة جرجا (١) عاصمة الاقليم.

ولقد امتلأت نفس الأنبا يوساب حزناً حين وقف على ما أصاب شعبه من تبلبل فى فكره. فأخذ منذ اللقاء الأول مع شعبه يوضّح العقيدة الأرثوذكسية توضيحاً صافياً، ويثبتها فى القلوب والعقول معاً. وبوعظه وتوجيهاته استقرّت القلوب وامتلأت غبطة بعقيدتها الأرثوذكسية. ولو أن بعض المارقين لم يتوبوا بل ظلوا على انتمائهم للكنيسة الخلقيدونية، وأنشأوا أولادهم على الولاء لهذه الكنيسه الغريبة عن مصر.

وبعد هذه الزيارة المليئة بالبركة جاءته رسالة الأنبا يؤنس الثامن عشر تحمل إليه الرجاء بأن يرد على خطاب الحبر الرومانى رداً منطقياً حصيفاً. فبعد أن اطلع على الرسالة التى يحملها الراهب برتلماوس وضع رداً مفصّلا ناقش فيه أهم القضايا المختلف عليها والتى تسببت فى أن يدبّ دبيب الانقسام الاول فى صف الكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية نتيجة لاجتماع مجمع خلقيدون المشئوم سنة ٤٥١ م. وتتلخص رسالة الأسقف الأخميمى فى أن « الأقنوم الثانى كلمة الله الأزلى المولود من الآب قبل كل الدهور تجسّد وتأنّس من الروح القدس ومن

(١) ذكر ياقوت فى كتابه « معجم البلدان » ان اسمها الأول « دجرجا » ثم أصبحت جرجا « نسبة إلى جورجيوس الكبادوكى الأريوسى الدخيل الذى فرضه الامبراطور قسطنطيوس على الكرسى الاسكندرى امعاناً منه فى اضطهاد بطل الارثوذكسية أثناسيوس الرسولى — راجع ماجاء عن البابا الرسولى فى ج ١ من هذا الكتاب.

مريم العذراء بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة خلواً من الاختلاط والامتزاج والتغيير فهو ليس إلهاً وإنساناً بل هو الإله المتأنس كما قال البشير «والكلمة صار جسداً [١]» ... والروح القدس منبثق من الآب فقط حسب قول البشير أيضاً . وقد قرره المجمع النيقاوى ارتكاناً إلى ما أعلنه رب المجد [٢] . فالله ذات موجود، ذات ونطق وحياة ، والنطق مولود من الذات وليس بوالد ولا بباعث ، والذات والد النطق وباعث الحياة وليس بمولود والحياة مبعوثة من الذات وليست بوالدة ولا بباعثة ، والذات قائم بذاته ناطق بخاصية النطق حى بخاصية الحياة ، والنطق قائم بالذات الوالد له ، ناطق بخاصية أى بخاصية الحياة ، والحياة قائمة بالذات الباعث لها ناطقة بخاصية النطق ، حية بخاصيتها الذى هو الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد الذى له المجد دائماً . آمين » . وهنا يحق لنا أن نهتف مع الشاعر بقوله :

إن الذى جعل الحقيقة علقماً — لم يُخلِ من أهل الحقيقة جيلا [٣]

حمل الراهب برتلماوس هذه الرسالة إلى الفاتيكان . ولما اطلع عليها الحبر الرومانى وجد فى منطقها قوة جعلته يتوقف بعض الوقت عن إرسال مبشرين من لدنه للعمل فى مصر بين صفوف كنيسة أنجبت مثل هذا الأسقف المتعمق فى الروحيـــات . على أنه لم يلبث أن تناسى هذه الحجج الدامغة التى سجلها الأنبا يوساب وعاود سعيه لاقتناص القبط .

وقد رأى هذا الأسقف الساهر أن تثبيت العقيدة يستلزم الكتابة ليجد المؤمنون بين أيديهم الأدلة التى يستطيعون بها الرد على معانديهم . فوضع كتاباً

(١) يوحنا ١ : ١٤ .

(٢) يوحنا ١٥ : ٢٦ .

(٣) من قصيدة لأحمد شوقى أمير الشعراء تكريماً للمعلمين ، مطلعها :

قف للمعلم وفه التبجيلا — كاد المعلم أن يكون رسولا

دعاه « سلاح المؤمنين » (١) ضمنه أهم التعاليم الأرثوذكسية . ثم بيّن بالتفصيل الاختلافات التي نشأت عن مجمع خلقيدون . كذلك وضع عدداً من الرسائل والكتب نسب البعض منها إلى الأنبا يونس تقديراً لبابا ه وامعاناً في نكران ذاته . وبالمكتبة البابوية بالقاهرة مخطوطة تتضمن إحدى وثلاثين مقالة للأنبا يوساب ، وموضوعاتها كما يلي : ١ - وجود الخالق المثلث الأقانيم ، ٢ - تجسّد المسيح ، ٣ - عن متى ١٨ : ٧ ، ٤ - عن متى ١٨ : ٩ ، ٥ - عن رومية ٩ : ٦ ، ٦ - عن ١ كورنثوس ١٥ : ٣ حتى آخر الإصحاح ، ٧ - عن الجامعة ٢٤ : ١٤ ، ٨ - حديث موجّه إلى القبط الذين تركوا كنيستهم لاتبـــاع كنيسة الفرنجة ، ٩ - الدينونة ، ١٠ - إلى أولئك الذين ينكرون قيامة الأبرار ، ١١ - إلى أولئك الذين سقطوا في خطايا كبيرة عن غير علم ، ١٢ - إلى بعض الأحباش الذين يزعمون أن الروح القدس دهن المسيح وأنه لهذا السبب دُعى المسيح ابن النعمة ، ١٣ - مجادلة مع فقيه مسلم ، ١٤ - إلى أولئك الذين يقيمون « ولائم الشهداء » أى ولائم في أعياد الشهداء ويستعينون فيها بالمغنين والشعراء والطبول . وهم مع ذلك لا يجمعون الفقراء والمعوزين ، ١٥ - عن المشاجرات والصخب في الكنائس (بيوت الله) ، ١٦ - عن صوم يومى الأربعاء والجمعة وعن تشاجر الكهنة بسبب الاعتراف ، ١٧ - مرثية عن البابا يونس المئة والسابع يوم نياحته ومعها مرثية عن ابراهيم الجوهرى ، ١٨ - عن الغرور الذى يظهر فى نفوسنا وعن علامات التواضع ، ١٩ - عن الاعتراف وعما يجب أن يعمله أبو الاعتراف مع التائبين ، ٢٠ - عن الايقونات رداً على سؤال وجهه واصف ابن الياس البرماوى ، ٢١ - عن تيوس

---

(١) فى سنة ١٩٠٥ نشر القس مرقس شنوده راعى كنيسة القبط الأرثوذكس بطهطا فى مجلة شهرية كان يصدرها باسم « مجلة مار مرقس » سلسلة من المقالات تتضمن أجزاء من كتاب « سلاح المؤمنين » ، وكان يستهدف نشر الكتاب كله تباعاً ثم اصداره ككتاب . ولكن المنية فاجأت هذا الكاهن الشاب النشط فلم تفسح أمامه الفرصة لتنفيذ هدفه .

الماعز المشار إليها فى لاويين ١٦ : ٥ - ١٠ ، ٢٢- عن مق ١٥ : ١٣ ، ويوحنا ١٧ : ١٢ ، و ١٤ : ٦ ، ٢٣ - عن الصوم ، ٢٤ - عن سلطان الظلمة ، ٢٥ - عن صلاة سيدنا ليلة آلامه ، ٢٦ - كيف أمكن أن روح صموئيل تظهر بأمر العرّافة أمام شاول ، ٢٧ - التوبة والحل ، ٢٨ - الكبرياء وحب السيطرة والتشامخ ، ٢٩ - الصبر والمثابرة وقت التجربة والضيقات ، ٣٠ - عن القيامة وعن معتقد أشياع بجمع خلقيدون بأن القديسين والشهداء سيكللون قبل قيـــامة الأجساد ، ٣١ - عن سقوط الشيطان وعصيان آدم وحواء [١].

وإذا ألقينـا نظرة - ولو كانت عابرة - على مختلف الموضوعات التى عالجها الأسقف الأخميمى لوجدنا غالبيتها مما يمكن الانتفـــاع به فى هذا العصر ، ولأدركنا سعة الدراسات التى يقدمها والهدف الواحـد الذى ترمى إليه رغم تباينها . فهى دليل على أنه من الآباء الذين أدركوا عظـم مسئوليتهم فسعوا إلى الاضطلاع بها . ورسائله هى فى الوقت عينه دفاع عن كرامة الكهنوت القبطى الذى حاول المبشرون الغربيون أن يقنعونا عن طريق دعاياتهم بالعكس منها .

وبالاضافة إلى كتابات هذا الأسقف اليقظ توجد مخطوطة بخط كبير سميك ، بعض كلماتها مشكل ، والنقط وعلامات الفصل فيها بالأحمر ، وعلى ورقة منها تاريخ ٢ برمهات سنة ١٤٨١ ش ، وفى آخرها تاريخ ١٠ بابة سنة ١٤٨٢ ش . نقلهـــا الايغومانس مشرقى الشطنوفى لكنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى السيفين) . والجزء الثـانى من هذه المخطوطة يتضمن قراءات الصوم الأربعينى المقـدس من العهدين القديم والجديد ابتداء من يوم الإثنين للأسبوع الرابع وامتداداً إلى يوم أحد الشعانين [٢] .

---

(١) مخطوطة ٣٣٠ - ٣٩٠ مسلسل محفوظة بالمكتبة البابوية تشتمل على ١٩٧ ورقة.

(٢) مخطوطة ١٧٣ - رقم ١١٨٤ - محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .

وبعد جهاد مستمر لا ينقطع، وبعد توضيح العقيدة فى صراحة بلسانه وقلمه، خلال بابوية ثلاثة من الآباء المرقسيين، أحس الأنبا يوساب بضعف الشيخوخة يدب دبيبه داخل جسمه. فبقى فى الدار البابوية بضعة أيام، ثم قصد إلى دير الأنبا أنطونى حيث استقبله الرهبان بالفرح والتهليل لأنهم كانوا يرون فيه أباً حنوناً وزميلاً وديعاً. ولكنه لم يقض بينهم غير أيام قليلة انتقل بعدها إلى فردوس النعيم - فى ١٧ طوبة سنة ١٥٤٢ ش. فأقام الرهبان صلوات التجنيز عليه، ودفنوه فى هدوء وبساطة. وقد عرفت الكنيسة فضله وأكرمته فجعلت من يوم نياحته عيداً تذكارياً [١].

ومن مخلفات هذه الفترة أيضاً مخطوطة فى حالة جيدة كتبها يوحنا أيوب ابن أخى المعلم الكاتب ابراهيم القاطن بحارة الروم بناء على طلب المعلم بقطر ابن المعلم حنالله يوحنا لطف الله. وقد انتهـــى الناسخ من كتابتها فى أول هاتور سنة ١٤٧٥ش، وتتضمن: ١ - أبصلودية كيهكية، ٢ - أجزاء من صلوات مختلفة باللغة القبطية [٢].

* * * * *

كما أن هناك مخطوطة أخرى مكتوبة بخط متناسق وبعضها مشكل، والكلمات الأولى لكل فقرة مكتوبة بالأحمر، وكذلك النقط والفصلات. وهى لا تحمل اسم كاتبها. وتتضمن تعليقاً على بشارة القديس متى وضعه أبو الفرج بن الطيب المشرقى. وقد عنى المربى يوسف منقريوس بنشره سنة ١٩٠٨ بعنوان «تفسير المشـــرقى» [٣].

---

(١) عن مقال للقمص صموئيل تاوضروس السريانى بعنوان «الأنبا يوساب بن الأبح» نشره فى مجلة المحبة عدد نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٦٨ ص ٣٢٢ - ٣٢٩.

(٢) مخطوطة رقم ١٠٠ (١٣٧ أدب) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى.

(٣) مخطوطة رقم ١١٠ (١٩٥ لاهوت) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى.

ومن آيات هذه الفترة أيضاً حجاب هيكل كنيسة الرسل بدير القديس العظيم أنبا أنطونى المصنوع من الخشب المطعـــم بالعاج وكذلك خوارس الكنيسة المصنوعة من الخشب المخروط . ويقول رهبان الدير أن هذه كلها قد صنعت فى مدينة أخميم بناء على طلب الأرخن المعلم لطف الله شاكر الذى أنفق على صنعها ونقلها إلى الدير كما جدد الكنيسة كلها سنة ١٤٨٧ ش . ولقـــد أهتم هذا المعلم الجليل بترميم كنيسة الأب الروحانى مرقس [١] القائمة فى الدير عينه [٢] .

١٥٢ — ولئن كانت الأيام لم تحتفظ لنا بغير هذه الكتابات فهذا لا يعنى أنه لا يوجد غيرها . ولكننا لا نعرف للآن إن كانت هناك مخطوطات أخـــرى ضاعت نهائياً ، أو أن هناك بعضاً منها مازال مخفياً فى ركن من أركان بلادنا التى احتفظت بالكثير من مخلفات القرون الماضية . إنها احتفظت بما كان فى أعماقها . أما ما كان ظاهراً للعيان فقد ضاع معظمه . حتى هذه التربة المصرية كانت أمينة على الأسرار التى استودعت فى داخلها .

• • • • •

نص الرسالة التى كتبها الانبا يوساب رداً على مزاعم البابا الرومانى :

« من يؤانس عبد يسوع المسيح . المدعو بنعمة الله ومراحمـــه إلى رئاسة الكهنوت تلميذ مار مرقس وخادم كرازته . . . . . .

« السلام منى إلى حضرة الأب الفاضل الراهب برتولوماوس اللاتينى الذى يدعى مرسولا بل رسولا من قبل بابا الرومانية إلى بلادنا الاسكندرية .

« بعد إهداء مزيد السلام إلى حضرتكم نعرفكم أنكم أرسلتم لنا صورة جواب

(١) راجع سيرته فى ج ٣ من هذا الكتاب .

(٢) الأديرة المصرية العامرة لصموئيل تاوضروس السريانى ص ٢٦ — ٢٧ ، كتاب رقم ٢٦ المحفوظ بمكتبة دير الأنبا أنطونيوس .

نكتبها إلى البابا الرومانى مضمونها أن نتبع رأى البابا وتصير كنيستنا مع كنيسته واحدة باعتقاد واحد لكى تكون أنت السبب فى اصطلاح الطوايف .

وانا لنعجب غاية العجب من كثرة زكاوة عقلكم ودقة فهمكم الرفيع الذى لم نره فى أحد قط من مدة كبيرة وما ينيف عن ألف ومايتى سنة . وما سمعنا بأن أحداً من المرسلين من قبل البابا الرومانى كتب من عنده صورة رسالة إلى آبائى البطاركة الذين سلفوا قبلنا ويعرفه فيها أن يكتبها للبابا الرومانى ويخضع له ويصير تحت اعتقاده كما صنعتم الآن . أو يكون فعلتم ذلك من مراحمكم الفايضة من قلوبكم لكى تجمعوا كامل الطوايف إلى الكنيسة الرومانية . أو يكون تحرك فيكم الروح البارقليط لكى تجمعوا الخراف إلى حضير واحد . أو تكون إيليا المزمع أن يظهر كما قال ملاخيا النبى : زعم أن يرد قلوب الآباء على البنين والأبناء إلى آبائهم ويعد للرب شعباً مستقيماً . لانكم لما أرسلتم لنا صورة الرسالة التى نكتبها إلى البابا الرومانى قد تهيأ لى فى رسالتكم تلك أنك تريد أن ترد سائر الخليقة إلى ما أنت عليه .

وقد انقسم عندى رأيكم أو عرضكم هذا إلى نوعين :

النوع الأول هو أن القديسين الذين تحرك فيهم الروح القدس وملأهم من كل أثمار الفضايل من أجل أتعابهم وجهادهم الذى صنعوه ، كانوا يريدون أن كافة الناس تتبع رأيهم فيمشون فى طريقهم ليصيروا مثلهم ويحصلوا على ما يحصلوه من النعم السمائية .

النوع الثانى هو الناس الأنجاس الذين يسعون فى الرذائل وذوى البدع والشياطين أنفسهم يريدون أن يجذبوا الناس إلى طريقهم ليصيروا معهم فى حالة واحدة فيما هم عليه .

ولم اعرف فى أى نوع هو ضميركم أفى الاول أم الثانى ؟ حماكم الله من ذلك وهداكم إلى الحق لانه قادر أن يفتح عينى قلوبكم لتعرفوا الاعتقاد وتهتدوا إلى الصواب .

وفى رسالتكم لنا هل يا ترى درستم سائر الكتب وفهمتم دقيات غوامضها وحققتم أن الاعتقاد الحقيقى هو عندكم حتى أردتم أن تجذبونا إليه . أو يكون بواسطة وحى من السماء أخبركم عن ذلك حتى الجأكم الامر إلى أن تصلحوا بين طوايف المسيحيين . لاننا نحن اطلعنا على اعتقادكم فوجدناكم تقرون باتحاد الطبايع أن الطبايع اتحدوا ، وتنقضون قولكم هذا بقولكم فى المسيح طبيعتين ومشيئتين وفاعلين ، وقد نقضتم معنى الاتحاد لأن الاتحاد معناه الوحدانية . وقد تبعتم لسطور الملحد لأن ذلك قال ان فى المسيح أقنومين . وقال لاون مرشدكم بالصورتين . وهو وليس أنا . إن إناء واحدة موضوعة للمجد والكرامة والأخرى ملقية للسب والهوان . وقد بنى لكم بناء جديداً واعتقاداً محدثاً وهدم ما قد بناه وعقده المجمع النيقاوى حيث قال : « من يزيد على هذه الأمانة أو ينقص شيئاً منها فليكن محروماً » لأن باعتقاده فى الصورتين قد صيّر فى المسيح الواحد من بعد الاتحاد عبداً ومعبوداً خالقاً ومخلوقاً . وقد نقض قول الأب كيرلس الكبير صاحب كرسى الاسكندرية حيث قال : « من قسم المسيح الواحد إلى فعلين أو إلى أقنومين ولم يحسن أن يتحدهما اتحاداً طبيعياً فليكن محروما » . وقال أيضاً الاب كيرلس : « من فرق أصوات المسيح المذكورة فى الإنجيل المقدس وفى الكتب المقدسة ونسب بعضها للاهوت وبعضها للناسوت كما تعتقدون الآن فليكن محروماً » .

ونسألكم عن اعتقادكم بالصورتين واقراركم بهما . ولما تقرون وتعتقدون . فإن الصورة هى القيّام والخاصة . والخاصة هى الاقنوم لأن معنى الاقنوم عين

خاص وغير ممكن أن تقوم صورة بغير أقنوم . وأنتم تعتقدون بصورتين ثم بأقنوم واحد . فإن كانت المقدمة صادقة تصير الثانية كاذبة وكذلك بالعكس .

ثم نسألكم عن اعتقادكم فى المسيح الواحد انه إله تام وانسان تام . ونسألكم أيضاً عن الأقنوم الواحد هل تنسبونه للإله أم للانسان . فلا بد أن تقولوا أن الأقنوم للإله خاصة فعرفونا هل هذا الانسان ذو أقنوم أم بغير أقنوم . فلا بد أن تجاوبونا قايلين بنقص الأقنومية . فأجيبكم أنه أولا عرفتمونا عن انسان كامل ثم قلتم ثانياً لنا ينقص الأقنومية وصيرتم الثانية ناقصة للأولى . لأن الكامل غير الناقص والناقص لم يدع كاملا . وصارت السالبة نافية للواجبة . ونقضتم اعتقادكم وحدكم . وهذا محال .

ثم نسألكم أيضاً عن الانسان الذى اتحدت به الطبيعة الإلهية هل هو انسان تام أم ينقصه شيء من الانسانية فلا بد أن تقولوا لنا انساناً كاملا فى كل الأنحاء ما خلا الخطية كما قال بولس الرسول . فأجيبك يا من تريد أن تدخل كافة الخليقة إلى معتقدك وأقول لك : عرفنى هل هذا الانسان التام له أقنوم أو ينقص الأقنومية ؟ فتسرعوا لنا قايلين : ينقص الأقنومية وأبطلتم ما اعتقدتموه بقولكم أنه انسان كامل ماخلا الخطية . وقد قررتم واعتقدتم أن الأقنوم للاهوت وحده ونسيتم الناسوت بغير أقنوم . فلنحضر الآن بيننا كاروز الامم تلميذ يسوع المسيح . تعال الآن يا بولس الإلهى وهات معك درج رسالة العبرانيين وخبرنا ماذا تقول عن المسيح الواحد . زعم أنه قال بأقنوم تولى تطهير خطايانا . فعرفنى يا رسول البابا . ما هو معنى تولية تطهير خطايانا وبأى نوع طهرنا منها ؟ فلابد أن تجيبنا قائلا لنا : إنه ما طهر خطايانا إلا بصلبه وآلامه وموته . فحسن جوابك هذا وإقرارك بذلك قد أدخلت الألم على اللاهوت وحده باعتقادك أن الأقنوم ينسب

إلى اللاهوت وحده بقولكم إن الناسوت بغير أقنوم وأبطلتم منفعة التجسد لأن صار على رأيكم هذا أن جميع أفعال المسيح التى فعلها لأجل خطايانا مثل الألم والصلب والموت والقيامة إنما كان ذلك جميعه بأقنوم اللاهوت بقولك إن الناسوت بغير أقنوم . وهذا من أعظم اعتقادات المحال .

ثم أسألكم عن الإنسان العام من كافة الطبيعة البشرية وما منها موجود فى العالم شخص شخص . هل يوجد منها شخص خاص بغير أقنوم فلابد أن تقولوا لا . فأسألكم عن الإنسان الذى اتحدت به الطبيعة الإلهية هل له أقنوم أم لا . فتجيبون قائلين : ينقص الأقنومية . فقد أبطلتم ساير الكتب التى تشهد أنه أخذ ما للبشرية ما خلا الخطية ويكون مثل قولكم : إن الإله لم يتحد بطبيعتنا كاملة . بل أخذ منها شيئاً وأبقى منها شيئاً مثلما تعتقدون أنتم إنه أخذ الطبيعة بغير أقنوم . وهذه الأقاويل يضحك منها ذوو العقول السليمة والفلاسفة وذوو النطق .

ولنسألكم أيضاً : عرفونا ما معنى الطبيعة . فلابد أن تقولوا الطبيعة هى الجوهر . فأجيبكم ما معنى الجوهر ؟ فلابد أن تقولوا إن الجوهر هو جنس لذاته والجوهر والجنس ما كان فوقه جنس وتحته جنس وما كان يعم ويخص ما كان منه كلى وجزئى . فأسألكم عن الطبيعة الإلهية بمن اتحدت ؟ بالجوهر العام أم بالخاص ؟ إن قلتم بالعام فقد أوجبتم أن التجسد كان بكافة الطبيعة البشرية . وكذلك الطبيعة البشرية يشترك معها سائر الحيوان بالجنسية ويكون مثل قولكم . لأن الاتحاد وقع بالجنس وتجنس الجنس . وإن قلتم إن الاتحاد كان بجوهر خاص من عام . وذكرتم الخاصة فقد اعترفتم بالأقنوم لأن الخاصة هى الأقنوم كقولنا فى جوهر اللاهوت : إذا قلنا جوهر الإله فقد عممنا الثالوث المقدس وإن قلنا خاصية الأبوة فقد عنينا أقنوم الآب وإن قلنا خاصية الحياة فقد عنينا أقنوم الروح . لأن معنى الخواص

هم الأقانيم ومن الحق الواضح أن الجواهر وإن شئت الطبايع فهى تحوى الأقانيم وليس الأقنوم يحوى طبايع لأن الأقنوم عين خاص لا يتكثر فبطل قولكم إن الأقنوم حاوى طبيعتين وبطل قولكم أيضاً إن الطبيعة التى أحدها اللاهوت بغير أقنوم لأن الطبيعة إذا كانت عامة فهى تحوى عدة أقانيم وإن كانت الطبيعة خاصة من طبيعة عامة فقد تحوى أقنوماً واحداً ولا يمكن أن تقوم طبيعة بغير أقنوم أو أقانيم . ولا يمكن أن تقوم طبايع كثيرة فى أقنوم واحد لأنه حيث الأقنوم هناك طبيعة واحدة جزئية . لأن الجزئى غير الكلى لأن الكلى يحوى أقانيم عـــدة .

ونسألكم أيضاً عن الذى صلب وقبل الحربة وجرى منه الدم والماء فهل ذلك من الإله أم من الإنسان؟ فلابد أن تقولوا إن الدم الذى جرى على الصليب هو من الإنسان وحده وتعارضون بولس الرسول القايل إنه بأقنوم تولى تطهير خطايانا وقولهم إنهم صلبوا رب المجد . وقوله أيضاً إنه قدم ذاته عنا لله الآب ذبيحة كاملة بل وأبطلتم اعتقادكم بقولكم إن الأقنوم ينسب إلى اللاهوت وحده والأقنوم هو المتولى تطهير خطايانا وصار كقولكم إن الدم الذى قطر على الصليب لا منفعة به لأنه دم إنسان ساذج . حاشا من ذلك وأن على هذه العقيدة الفاسدة البعيدة عن الحق الموضوعة على الباطل .

وأما دعواكم علينا بأننا تابعون لأوطاخى ومعتقدون باعتقاده . فهو باطل لأننا نحرمه ونحرم كل من يقول بقوله لأنه أدخل على طبايع المسيح الاختلاط والامتزاج ولم يحسن اتحاد الطبايع لأن معنى الاتحاد غـــير الخلط فنحن نفرزه من كنيستنا .

وأما دعواكم على الكوكب المنير ضيا. كورة مصر والاسكندرية الرجل

الجبار الذى سلّ سيف الروح وحارب أعـداء الحق وقاتل الامانة المستقيمة وضرب بحرم شفتيه طومس الاعـداء أعنى ذاك الآب الفاضل أنبـا ديسقورس الذى مات عن الحق تدعّـون عليـه أنه هو الذى حالل أوطاخى وهذه دعواكم باطلة لانه عندكم مكتوب فى أعمال الجمع الافسسى الثانى أنه لما قام أوطاخى الملحد أمام الجمع ليقول اعتقاده أقرّ قدام الجمع بلسانه أنه معتقد بالامانة الصحيحة كما قررها الآباء الثلثماية وثمـانية عشر بنيقية وحرموا كل من يخـالف قولهم ويحيد عن معتقدهم فيصير مثل سيمون الساحر ودقلا الـكافر فأول من حالله من أعضاء الجمع أستفانوس أسقف أفسس وبعده أسقف سالق وبعده فلان وفلان وآخرهم جميعهم حالله أبونا ديسقورس . ومن أجل أن كلام المذكور كان بمـكر وأخـذ الحل سرقة فمن أجل هذا بطل ذكر الجمع الافسسى الثانى .

وأما دعواكم على الآب الفـاضل أنبا ديسقورس أنه كان موافقاً لأوطاخى الملحد ليس ذلك بصحيح لأن ادّعاءكم عليه باطل لأنك إذا تصفحت فى البـاب الحادى والعشرين من أعمال الجمع الخلقيدونى حيث قال أساقفة الشرق : « هذا هو قول أوطاخى وهكذا يقول ديسقورس » أجاب ديسقورس وقال : « إننا نقول بلا اختلاط ولا امتزاج ولا بالاستحـالة » . لأن قولنـا فى المسيح وقول الآب ديسقورس « طبيعة واحدة لله الـكلمة المتجسد » مثلما قال الآب كيرلس . لأنك إذا تصفحت هذه الـكلمة أو قلتها بالعكس فيظهر لك الحق جهاراً . يعنى تقول إن الله الـكلمة المتجسد طبيعة واحدة .

فقد اتضح لك الحق الآن من كلام الآب كيرلس لأن ذاك المذكور ذا الذكر الجميل أعنى الآب كيرلس ينفى ويبعد كل من يقول بالطبيعتين بعد التجسد لئلا يبطل معنى الاتحاد .

ونسألك أيضا يامن تظن فى نفسك أنك ترد الضالين أن تعرفنى كم طبيعة فى الانسان الساذج لان الانسان قايم من جزء مايت وهو الجسد ومن جزء حى وهو النفس الحسَّاسة ومن جزء ناطق وهو الروح العقلية . فهو حى ميت ناطق وكل حى ميت ناطق انسان وبالعكس . فهل الجزء المايت جوهر أم عرض فلا بد أن تقول لنا أنه جوهر لانه من المفهوم أن جسم الانسان ليس بعَرَض . وماذا تقول عن جزئى الحى والناطق فلابد أن كان لكم عقل سليم من حوادث أمراض الهوى أن تقرّوا أنهم ليسوا بأعراض مثل شبه . وكل من ليس بعَرَض فهو جوهر . فقد ظهر لنا فى الانسان ثلاثة جواهر فهل يجب أن يقال كل انسان بثلاثة جواهر ؟ ان كان ذلك كذلك يجب أن يقال فى المسيح أربعة جواهر وهذا من أعظم المحال . وكذلك الانسان قايم من نفس ناطقة وجسم مايت . وقد شهد بولس الرسول وهو أصدق الشاهدين قايلا عن إقامة الروح مع الجسم أن كل واحد منها ضد صاحبه والروح يفعل ما يضر الجسم والجسد يفعل ما يضر الروح فهل هما جوهر أو جوهران ؟ إن قلتم أنهما جوهران فقد ظهر لنا الآن أن فى الانسان جوهرين ثم زيد عليهما جوهر ثالث أعنى الإله الكلمة . يكون كقولكم أن فى المسيح ثلاثة جواهر وبطل قولكم ان فى المسيح جوهرين. وان رجعتم للحق وقلتم إن الروح باتحادها بالجسد صار منها جوهر واحد أعنى الانسان فهذا هو قولنا أن الطبايع إذا اتحدت فى موضع واحد صار منها جوهر واحد . لان معنى الاتحاد أى الوحدانية وحيث صارت الوحدانية أبطلت الكثرة والعدد . لاننا نرى جسم الانسان مكونـًا من أربع طبايع أعنى النار والهواء والماء والتراب . ومع اختلاف كيفياتهم يقام منها جسم الانسان لان النار بالكيفية حارة وبالكمية حارة ورطبة وطبيعة الماء بالكيفية باردة وبالكمية باردة رطبة وطبيعة الارض بالكيفية يابسة وبالكمية باردة يابسة فصارت الخاصّيات ثمانية فأخذنا الحرارة

من النار وتركنا اليبوسة ثم الحرارة من الهواء فتركبا ، ثم أخذنا البرودة من الماء مع البرودة من الارض فتركبا ثم أخذنا الرطوبة من الهواء مع الرطوبة من الماء فتركبا . ثم أخذنا اليبوسة من النار التى تركناها أولا فتركبا . لخاصية النار الصفرة وخاصية الهواء الدم وخاصية الماء البلغم وخاصية الارض السواد . وهذه الخواص متحركة وفى جسم الانسان مادام حيا . تعرّف حركاتها المتفلسفون وحكماء الجسد . وكل طبيعة تعرف بحركاتها وحدها دون غيرها . ثم بعض الاحيان تتمازج حركات الطبايع بعضها ببعض لان الكثيف بالكثيف يتمازجان ثم إننا بعد أن عددنا الجزء المايت نقول فى الجزء الحى هل هو جوهر أم عرض مثلما قلنا أولا . فنقول الآن إن كان هو عَرَض فليس بثابت لكن نراه أعنى الجزء الحى فى الحيوان الناطق والغير ثابت دايما لحد الموت . فن الحق الواجب أن لايقال إنه عَرَض بل هو جوهر . ثم نقول عن الجزء الناطق هل هو جوهر أم عرض . فإن كان يقال فيه انه عرض كان يمكن أن يقال على الانسان فى وقت انه حيوان ناطق وفى وقت آخر حيوان ناهق لان الاعراض لا ثبات لها بل يجب أن يقال انه جوهر دايم البقاء والحياة صار معنا فى هذا الحيوان الناطق أعنى الانسان ست جواهر ثم أتانا زيادة على ذلك جوهر سابع أعنى الإله الكلمة فصار من هذه الجهة المتعددة أن فى المسيح سبع طبايع وبهذا القول فسد عليكم اعتقادكم بقولكم إن فى المسيح طبيعتين . وأما نحن إذا أقررنا بالوحدانية أبطلنا كثرة الاعداد . لان معنى الوحدانية أو الاتحاد تصير الاشياء المتعددة واحد كاجتماع الطبايع التى عددناها فى الانسان وباجتماعها فى موضع واحد صار منها جوهر واحد وهو الانسان . وكذلك قولنا فى المسيح الواحد المتألف من الطبايع المتعددة إنه جوهر واحد لان اتحاد البسيط بالكثيف غير اتحاد الجواهر الكثيفة أو الجواهر السايلة الممتزجة . لان اتحاد البسيط بالكثيف كاتحاد النفس العقلية

بالجسد الكثيف وكاتحاد النار بالحديد كما قال مار ديسقورس ومار كيرلس . وكذلك قد نرى أشياء كثيرة تتفاضل عن بعضها بعض بالزيادة ولم نرَ فيها زيادة جواهر مع زيادتها على بعضها بعض ومع تضاعفها بعضها على بعض فلا يظهر منها زيادة جواهر كقولنا فى الحجر الواحد إنه جوهر واحد قايم بذاته مستغنى عن غيره من جهة قيام وجوده . كذلك نرى الشجرة متضاعفة عن الحجر بالقوة النامية ويجوز عليها القول إنها كبرت وطولت وحملت وأثمرت وضعفت وماتت ومع ذلك جميعه لايقال عليها أكثر من جوهر واحد مع كثرة ما رأيناه فيها مما شرحناه . وليس ذلك موجوداً فى الحجر بل يقال عنها إنها جوهر واحد لا يكثر. وكذلك الحيوان الغير ناطق نرى فيه قوة متضاعفة عما نراه فى الشجرة أعنى القوة الحساسة وهى حياة الحيوان . لاننا فى هذا الحيوان نجد أنه يأكل ويشرب ويجوع ويعطش ويصرخ من الجوع ويعرف قانيه ومزود صاحبه ويألف من يوده ويهرب ممن يؤذيه . ومع كثرة هذه الاشياء المتضاعفة عما فى الشجرة فلا يقال أكثر من جوهر واحد مثل قولنا فى الشجرة وكذلك فى الحجر. وهكذا فى الحيوان الناطق نرى فيه قوة متضاعفة غير ما نراه فى الحيوان الغير ناطق أعنى القوة الناطقة لاننا نرى فى الانسان إنه يميز الزمان ويتحايل فى العواقب ويفهم الاوقات ويتفطن فى الحساب ويحسب المستقبل ويتحايل فى الصناعات . ومع هذه الاشياء المتضاعفة عما فى الحيوان الغير ناطق فليس أنه أكثر من جوهر واحد بل هو جوهر واحد مثلما قلنا فى الحيوان الغير ناطق إنه جوهر واحد وكذلك الشجرة والحجر وكل منها جوهر واحد . وكذلك نرى فى المسيح إلهنا لذكره السجود أن فيه قوة متضاعفة عما نراه فى الانسان أى كلمة الله الازلى المتحد بالانسان اتحاداً طبيعياً لاننا نرى أن المسيح وُلد من البتول وخاتم البتولية لم ينفكّ . وأخرج الشياطين من المتشيطنين . وأنه فتح عينى الاعمى المولود وأقام

الموتى بعد أن انتنوا ، ومشى على سطح المياه لمن هو على اليابس ، وزجر عواصف الرياح فأسكنها ، وبارك على قليل خبز فأشبع منه آلافاً كثيرة وعما فضل منهم اضعافاً كثيرة متضاعفة عما كان أولا . وقتل الموت بخشبة وأماته وكسر أبواب الجحيم وسجن الشيطان وفتح باب الفردوس الذى كان قفله الآب فى وجه آدم من أجل أكله من الشجرة . ومع هذه الأشياء المتضاعفة التى لم نرها فى الانسان الساذج فلا يقال فى المسيح انه أكثر من جوهر واحد حيث أنه صار فى موضع واحد . وإذا كان يقال فى المسيح إنه أكثر من جوهر واحد كان يجب أن نعدّ فيه كامل الصفات التى حددناها كالجرمية والنمو والحياة والناطقة والإلهية وفى هذه المفردات يظهر لنا أنه فى المسيح خمسة جواهر. وقد سبقنا وقلنا من أجل تركيب الطبايع نقول الآن من أجل اتحادها لأن الاتحاد غير التركيب حيث يصير الانسان شيئين أو أكثر من اثنين شيئاً واحداً لأننا قد سبقنا وقلنا إن الانسان قايم من أربع طبايع وهى النار والهواء والماء والتراب . وكل طبيعة من المذكورات ذات طرفين فاتحدت كل طبيعة بالأخرى بالجهة المنسوبة المناسبة لها أعنى الحرارة بالحرارة لأن الحرارتين إذا صارتا فى موضع واحد صار منها شىء واحـــد . وكذلك اتحدت الرطوبة بالرطوبة والبرودة بالبرودة واليبوسة باليبوسة وصارت الطبايع الأربعة متحدة اتحاداً طبيعياً كل واحدة بالأخرى من جهة المنسوبة المناسبة لها . وكل طبيعة من الاربع المذكورة لها خاصية تعرف بها باقية دايرة متحركة فى الجسم أعنى الصفرة والدم والبلغم والسوداء وقد صارت الطبايع الأربعة جوهراً واحداً وإن شئت طبيعة واحـــدة ذات جرم لأن كل جرم جوهر ولا ينعكس أعنى ليس كل جوهر جرماً . ثم نقول عن نفس الحياة أعنى النفس الحساسة الحيوانية إنها ذات طرفين الاول أنها دم متحرك جرم سيال والطرف الثانى أنه قوة حساسة قريبة من العقل تعرف بالطاقة من هذه الوجهة الأولى والطرف

الأول أعنى الدم وافق فى الجسم فى القرب والجنسية وقد اتحد بخواص الطبايع التى ذكرناها دايرة متحركة فى الجسم . وهذا الجزء هو أحد طرفى النفس الحية وهو المحرك لها وهو حياة الجسم جميعه وتبقى من النفس الحية الطرف الحساس اللطيف القريب من العقل لأنه ليس فى الجسم كيفية توافقه يتحد بها من أجل هذا صارت هذه باقية فى الحيوان رئيسية عنيه وهى المدبرة لكامل الحيوان .

ثم إننا نرى فى النفس الناطقة خاصيتين وإن شئت نوعين أعنى اللطافة والبساطة لأن النفس لطيفة روحانية كالملائكة والعقل بسيط لأنه هو صورة الله ومن أجل هذا النوع وهو العقل قال الله نريد أن نخلق انساناً كصورتنا ومثالنا ويتسلط على جميع الوحوش وطير السماء وسمك البحر . أما النفس من جهة لطافتها فقد وافقت أحد طرفى النفس الحيوانية التى هى القوة الحساسة واتحدت بها وبهذا النوع سمى حيواناً ناطقاً . أعنى الانسان صار فى موضوع واحد جوهر واحد وإن شئت طبيعة واحدة من جهه كل اتحاد طبيعة للأخرى بالطرف الموافق لها منها وصار الشكل موضوعاً واحداً حتى أننا نرى أن يصدر عن الجسم انفعالات روحانية كالوقوف فى الصلاة والركوع والسجود والتضرع بل وبالأكثر الصوم والسهر الزايد الذى يفوق طبع الجسد وهذا كله يصدر من أفعال الجسم . وإن قلت لى لماذا ؟ فأجيبك إنه ما يصدر عنه هذا بالفعل إلا من أجل الروح المتحدة بها اتحاداً طبيعياً أعنى اتحاد الطبيعة بالطبيعة الأخرى بالطرف الموافق لها كما قلنا أولاً .

وقد نرى أفعالا تصدر عن الروح من جهة جوهر العقل لأننا نرى الانسان فى حالة نومه تبطل حركات حواسه أعنى النظر والسمع والشم والذوق واللمس وتصير انفعالاتهم غير ظاهرة . ثم إذا تحرك أحد من المزاجات الأربعة أعنى الصفرة والدم والبلغم والسودة بواسطة النفس الحية فيرى فى نومه الحركات المختلفة

والصور المتغايرة ثم يرى العقل البسيط فى بعض الاحيان أنه يأكل أكلا ثم بعد اليقظة يرى فى الجسم علامة الأكل ظاهرة وبلها من عجب عجيب واتحاد طبيعى. إن العقل البسيط يأكل أكلا ويدخل تحت الانفعالات الجسمانية. فهاهنا يجب أن يقال أن الروح العقلى صار جسماً والجسم الكثيف فى وقت يصـــير روحاً. والكتاب المقدس يقول عن أهل عصر نوح لما أنصبت عقولهم فى الانفعالات الجسمانية أن هؤلاء القوم صاروا لحماً ياترى كانت الروح العقلية فارقتهم ؟ كلا. لكن لما انصبت عقولهم فى أفعال الجسد صاروا جسداً. وكذلك إذا انجذبت الأفعال الجسمانية إلى أغراض الروح فصار الجسم روحاً لأن الآباء المتقدمين الذين تمموا الفضايل دعوا رجالا روحانيين. ولماذا قولا ذلك والكتاب المقدس يقول إنكم آلهة وبنى العلى تدعون.

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه ونقول كما قلنا أولا إن كل طبيعة تتحد بالأخرى من جهة الطرف الذى يوافقها فاتحدت الروح العقلية بالقوة الحساسة الحيوانية من جهة اللطافة التى فى النفس الروحانية وصارت النفسان نفساً واحدة. ومن أجل هذا قال الكتاب: «من أهلك نفسه أحياها ومن أحياها أهلكها». ولم يقل من أهلك نفسه الحيوانية أحيا نفسه الروحانية لأنهما لما اتحدا صارتا نفساً واحدة وبقى معنا من نوعى النفس جوهر العقل باقياً ليس فى الانسان وليس فى النوع شيئاً يوافقه حتى يتحد به من أجل هذا صار رئيساً ومترئساً على الانسان بل وكافة المخلوقات التى تحت السماء كقول الله لآدم: «إنك تسود وتتسلط على كافة البرايا» أعنى بالعقل الذى هو أحد نوعى النفس العاقلة. ومع هذا جميعه الذى عددناه فى الانسان فإنه جوهر واحد وإن شئت طبيعة واحدة. وإن خاصية نطق اللاهوت الذى هو كلمة الله الآب أعنى أقنوم الابن لما أراد أن يتحد بالطبيعة البشرية اتحد بالعقل الذى هو صورة الله. اتحد الإله البسيط بالعقل البسيط. اتحد أقنوم الإله

بأقنوم الانسان . اتحدتا اتحاداً طبيعياً لانه حيث اتحد الاقنوم بالاقنوم اتحد الجوهر بالجوهر حيث اتحد الإله البسيط بالعقل البسيط اتحد بالنفس والجسد معاً اتحاداً يفوق طبع البشر . حينئذ لا نغلط فى شىء إذا قلنا إن الإله صار انساناً والانسان صار إلهاً . هكذا قال الانجيل المقدس : « إن الكلمة صار لحماً، ويقول بولس الرسول أيضاً « إن كنا عرفنا المسيح بالجسد فلسنا الآن نعرفه جسدانياً » ومن أجل هذا فلا يقال إن المسيح بعد الاتحاد طبيعة وطبيعة وندخل فى التجسد الكمية ولا نقول بالاختلاط والامتزاج كأوطاخى ولا نفرق ولا نفصل مثل نسطور ولكننا نعترف بطبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد مثلما قال الآب الكبير أنبا كيرلس . وقد بين لنا أيضاً معنى الاتحاد فى الحرم الثالث حيث قال : « من فرق بعد الاتحاد المسيح الواحد إلى أقنومين وطابق بعضهما ببعض بالصحابة فقط أم بالعظمة أم بالقدرة أم بالسلطان وليس يتحدهما بوحدانية طبيعية فليكن محروماً » .

وقال أيضاً فى الحرم الرابع : « من منا ميز تلك الاصوات المذكورة فى كتب الإنجيليين أم فى رسائل الرسل أم نطق بها الآباء القديسون أم قالها المسيح عن ذاته وفرزها إلى أقنومين أم إلى اثنين كل قايم بذاته ويصدق البعض منها لايقة لانسان وحده فقط كأنه غريب عن كلمة الله والبعض منها هى ملايم الله فهو يخصها إلى كلمة الآب وحده فقط فليكن محروماً » .

واسألك أيها الآب الفاضل الذى يريد أن يصير كافة المسيحيين تحت رئاسة البابا الرومانى لماذا قال الإنجيل إنى أنا هو خبز الحياة الذى نزل من السماء الذى يأكل منه يعيش إلى الابد . فأى طبيعة من الثنين تنسبها للمسيح بعد التجسد تسمى الخبز الحى الذى نزل من السماء . إن قلت إنها طبيعة اللاهوت الذى نزل

من السما. فقد كابرت وعاندت المسيح القايل : «إن الخبز الذى أعطيه هو جسدى». والخبز المعطى منه لنا وحقيقة جسده لم ينزل من السماء . وإن قلت لا بل هى طبيعة الناسوت فقد كفرت وعاندت الحق لان الآباء المؤيدين بنعمة روح القدس قالوا : «كل من قال إن طبيعة الناسوت نزلت من السماء فليكن محروماً» . من أجل هذا لا نقول إن فى المسيح بعد الاتحاد طبيعتين أو أقنومين أو فعلين بل طبيعة واحدة وفعل واحد يصدر عن المسيح الواحد . ونسألك أيضاً عن قولك وعقيدتك فى المسيح إنه طبيعتان ويصدر عنهما فعلان وتقول إن كل طبيعة تفعل ما يخص بها وحدها . فعرفنى أى طبيعة من الطبيعتين ولدتها مريم وهى بتول . فإن قلت هى طبيعة اللاهوت فقد كفرت ويكون مثل قولك أن المسيح لم يولد من مريم بالجسد ويكون المولود منها شبه خيال وأبطلت سائر الكتب التى تشهد أنه أخذ طبيعتنا كاملة . وإن قلت لا بل هى طبيعة الناسوت المولود من مريم فقد عاندت لأن مريم ولدت وهى بتول وهذا بخلاف ميلاد الطبايع البشرية لأنك قلت لنا أولا إن كل طبيعة تفعل ما يختص بها وهذا الفعل ليس مختصاً بفعل طبيعة جسمانية لأنه لو كان فعل طبيعة جسمانية لم تكن مريم بتولا بعد الميلاد وبطل قولكم إن فى المسيح طبيعتين وفعلين . لكن نحن نعترف إنه مسيح واحد جوهر واحد فعل واحد .

ونسألكم أيضاً عرفونا اعتقادكم فى الروح القدس كيف تعتقدون أنه منبثق من الإبن وخالفتم قول المسيح القايل عن الروح القدس البارقليط : «إنه من الآب ينبثق» .

ونسألكم أيضاً عن الإله هل له ذات موجودة . لابد أن تقولوا نعم . فهل هذه الذات الموجودة ذات حياة ؟ لابد من نعم . وهل هذه الذات الموجودة ذات

نطق ؟ لابد من نعم . فعرفونى أيضاً هل النطق مولود من الذات أو من الحياة أو من الذات والحياة ؟ لابد أن تقولوا مولود من الذات . لأن الذات علة النطق ، والنطق والحياة معلولان عن الذات . لأن النطق مولود منها والحياة منبعثة منها . وأيضاً عرفونا عن الحياة هل هى منبعثة من الذات أم من النطق ؟ فلابد أن تقولوا منبعثة من الذات والنطق . فأجيبكم إنكم لو قلتم لنا أن النطق مولود من الذات ثم الآن قلتم لنا أن الحياة منبعثة من الذات والنطق فصيرتم من قولكم هذا أن النطق ذاتاً أخرى وصيرتم فى اللاهوت ذاتين أو يكون مثل قولكم أن الحياة ابن للذات لأنكم تقولون أن الحياة مبعوثة من النطق والنطق مولود من الذات ويكون على هذا الرأى الفاسد أن الذات جد للحياة أو يكون فى اللاهوت ذاتين وجوهرين . لحانا الله وإياكم من هذه العقيدة الفاسدة . أما نحن فنعتقد : « أن الله ذات موجودة ذات نطق وحياة . وأن النطق مولود من الذات وليس بوالد ولا باعث . وأن الذات والد النطق وباعث للحياة وليس بمولود . وأن الحياة مبعوثة من الذات وليست بوالدة ولا باعثة . وأن الذات قايم بذاته ناطق بخاصية النطق حى بخاصية الحياة . وأن النطق قايم بالذات الوالدة له ناطق بخاصيته حى بخاصية الحياة . وأن الحياة قايمة بالذات الباعثة لها ناطقة بخاصية النطق حية بخاصيتها الذى هو الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد الذى له المجد دايماً . وعلينا نعمة ورحمة وبركة من الآن وإلى أبد الآبدين ودهر الداهرين . آمين » .

• • • •

الانبا بطرس : كان راهباً بدير السيدة العذراء (الشهير بالسريان) ، ثم رسمه الانبا يؤلس الثامن عشر أسقفاً على منفلوط باسم بطرس . وبالدير المذكور كتاب خاص بتكريس الكنائس جاء فيه : « عمل برسم واضع العلامة فيه وقفاً

مؤبداً وحبساً مخلداً على القلاية العامرة بالأسقفية لأجل تكريز الكنائس . ولا أحد يتصرف فيه ببيع أو قبض ثمن لأجل أجر الذى صرفه عليه لأنه من مخلفات الأب المطران أنبا أثناسيوس مطران القدس الشريف . وصار بيد الأنبا بطرس أسقف نقادة ودرجا فى سنة ١٤٧٠ للشهداء الأطهار . والشكر لله دائماً .

ولا نعرف عن هذا الأسقف غير هذه السطور القليلة .

القس عطية : أحس بالدعوة الروحية للرهبنة فدخل دير الأنبا مكارى الكبير، ثم اختير لرياسة ديره فى بابوية الأنبا يونس الثامن عشر . كان ذا خط جميل فانشغل بنساخة الكتب التى كان يبيعها لينفق من ثمنها على احتياجات الرهبان ولوازم الدير . ومن المخطوطات التى كتبها قطمارس لشهر بابة محفوظة بمكتبة دير السريان مؤرخ سنة ١٥٠٠ للشهداء الأطهار . وهو منسق ومزخرف بطريقة توقف الأنظار .

أحداث لها العجب

ا ـ أنبا مرقس الثامن

١٥٣ — تشاوك الآباء والأبناء
١٥٤ — رسامة البابا المرقسي
١٥٥ — المملوكان ابراهيم بك ومراد بك
١٥٦ — بطش الطبيعة ايضا
١٥٧ — البطش حتى بالموتى
١٥٨ — زحف نابليون
١٥٩ — بعض من المكتبة القبطية
١٦٠ — ملكية الأرض
١٦١ — الاستيلاء على البهائم
١٦٢ — منتهى الفقر والضنك
١٦٣ — ضغط الفرنسيين على القبط
١٦٤ — غـزو الشام
١٦٥ — تضاعف البلايا
١٦٦ — مذبحة بأمر الوالي
١٦٧ — تدخل الانجليز في صف الترك
١٦٨ — موت وخراب ديار
١٦٩ — المظالم الحطب
١٧٠ — صورة قاتمة كسيفة
١٧١ — حـكم مينو
١٧٢ — تضاعف الأرزاء
١٧٣ — صوت من الحق
١٧٤ — الصراع الروحي
١٧٥ — فرصة لمعاودة البناء
١٧٦ — تقييم الحملة الفرنسية

١٥٣ – « ... وأروع ما في تاريخنا سلسلة باباوات الاسكندرية الذين كانوا يمثلون الشخصية المعنوية للاقباط ـ لقد كان أراخنة الشعب يأتون بهم مكبلين بالسلاسل ليجلسوهم على عرش مار مرقس . لم يكن هناك تنافس على المراكـــز الكنسية لأنهم كانوا يقدرون خطورة مسئوليتها . والواقع أن كنيستنا القبطية بتقاليدها وطقوسها التي احتفظت بها حتى الوقت الحاضر تعتبر متحفاً حياً للمسيحية الأولى . وهي في ذلك تختلف عن الكنائس في الدول الغربية التي دخلتها تغييرات عدة . والواجب علينا أن نحتفظ بهذه الصورة ونزيل عنها كل شائبة ... » [1] .

والواقع أن هؤلاء الباباوات لم يمثلوا الشخصية المعنوية للاقباط فحسب بل كانوا الآباء الحانين على أبنائهم ، فوقفوا في الصف الاول ليذودوا عنهم ، وشاركوهم

(١) من محاضرة للدكتور عزيز عطية أستاذ تاريخ العصور الوسطى لنشرتها له مجلة مدارس الأحد بعددها الثاني من السنة الثالثة (يناير سنة ١٩٤٩) ص ٨ .

كل ما جازوا من أهوال ، كما شاركوهم كل أحوالهم المتباينة وهذه الحقيقة تبدو لنا فى روعتها إذا ما عرفنا أن من باباواتنا من نال إكليل الشهادة ، ومنهم من راح ضحية الوباء وهو يتفقد شعبه ، بل إن منهم من ضُرب وأهين وزج به فى غياهب السجون .

ولعل فى هذا التشارك الذى ربط الآباء بالأبناء سبباً فى الحفاظ على كنيستنا خلال ما جازت من ضيق وآلام . فمثلا يروى لنا المخطوط أن الانبا مرقس الثامن الذى خلف الأنبا يوٴنس الثامن عشر قد « قاسم المؤمنين مصايب ذلك الجيل المشئوم وتفطرت أحشاؤه حزناً وقاسى بسماع الأذن ونظر العين تلك الظروف التى أبطأت ظهور المسيحيين[1] » .

١٥٤ - ولقد كان هذا البابا قبل ارتقائه السدة المرقسية راهباً بدير الأنبا أنطونى اسمه يوٴنس . وحينما أحس الشعب وآباؤه بحاجتهم إلى الراعى الأول ليسوس أمورهم ، اتجهوا جميعا برأى واحد إلى هذا الراهب الأنطونى . فتمت رسامته بعدما يقرب من أربعة شهور من نياحة سلفه . واختاروا له اسم الكاروز ، فشابه فى كونه « يوحنا الملقّب مرقس[2] » . وتمت شعائر رسامته سنة ١٧٩٧ م .

١٥٥ - وخلال هذه الفترة كان المملوكان ابراهيم بك ومراد بك مازالا مسيطرين على البلاد بعد عودتها من الصعيد . وقد ظلا يناوشان الولاة الموفدين من سلطان تركيا ، ويضطرانهم إلى الإذعان لهما . وهذا التنافس المستمر على السلطة جعل الحياة المصرية فى قلق واضطراب . والغريب أن ابراهيم بك

(١) البرموسى . . . ج ٢ ص ٥٢٠ .
(٢) فهو كان « يوٴنس » فأصبح « مرقس » .

ومراد بك ظلا على وفاق طيلة حياتهما، فلم يخن أحدهما الآخر ولم يستهدف قتله! وهما فى هذا قد خالفا جميع سابقيهما من المماليك. ولكنهما سارا على خطتهم فى كونهما أحاطا نفسيهما بشتى أنواع البذخ التى كانت متيسّرة آنذاك. فظلت مصر أيام سيطرتهما تئن تحت نير الفوضى والضرائب الباهظة، وتحت نـير الظلم والطغيـان.

١٥٦ - ومع المؤلم أن الطبيعة تضافرت مع طغيان الانسان إذ قد حدث فى نفس سنة ١٧٨٩ أن هطلت الأمطار مراراً بطريقة غير معهودة فى مصر، حتى لقد انحدر سيل المياه من الجبال وملأ الشوارع والبيوت والوكالات إلى حد أن عدداً من البيوت فى حى الحسينية سقط. وقد صحب هذه السيول رعد قاصف وبروق تخطف الابصار فامتلأت القلوب فزعاً. ثم تفشى الوباء فى أعقاب هذه السيول تفشياً مزعجاً حتى لقد كان الناس يرددون فى ذهابهم وإيابهم كلمة: «يا خفى الالطاف نجنا مما نخاف [1]».

١٥٧ - وعلى الرغم من السيول ومن الوباء استمر ابراهيم بك ومراد بك يناوشان قوات حسن باشا المعيّن من الباب العالى. على أن انشغال حسن باشا بمقاتلة المماليك لم يمعه عن الاستبداد بالقبط. فأصدر الاوامر الصارمة ضدهم - وهى أوامر تحتّم عليهم دفع مبالغ باهظة له، كما تحتّم عدم ركوبهم الخيل وعدم ارتدائهم الملابس الفاخرة وعدم استخدامهم المسلمين [2]. بل لقد كانت الصرامة بالغة إلى حد أن من لا يلبس الملابس الخاصة التى أوجبها الوالى التركى يرجمونه ويحثّون عليه التراب! [3] وحتى القضاء الشرعى أصبح تابعاً للاستانة إذ كان

(١) الكافى جـ ٣ ص ٢٠٥.
(٢) مصر والهلال الخصيب ص ١٠٠.
(٣) منتى القدس ص ٦٤٦.

السلطان العثمانى يرسل من عنده قاضى القضاة الذى كان يطلق عليه لقب « قاضى عسكر أفندى » . وكان من بين اختصاصات هذا القاضى تقسيم التركات . وبهذه الطريقة ابتزّ الترك مال الأحياء ثم استولوا على الجزء الأكبر من مال الموتى !

١٥٨ – ثم زحف نابليون وجنده على مصر . وفى الفترة التى ظهرت فيها طلائع الفرنسيين عند الشاطىء المصرى تضاعفت وطأة الظلم فتجاسر العامة ودخلوا بيوت القبط وكنائسهم وأديرتهم بحثاً عن الأسلحة . على أن الله « معين من ليس له معين » قد جعل الأمراء آنذاك يمنعون العامة من الفتك بالقبط ومن تخريب كنائسهم [1] .

وجدير بنا أن نتأمل وصف المعركة التى دارت بين الفرنسيين وأهل مصر ، فتبيّن مدى اندفاع المصريين ذوداً عن أرضهم رغم فقرهم وعدم حيازتهم الأسلحة المناسبة ووقوفهم فى وجه عدو يزيد عنهم عدداً وعدة . فيقول لنا جيمس ألدريدج ما ترجمته : وحالما رأى المصريون الجيش الفرنسى رموا بأنفسهم عليه فى عنف . وكانت معركة حامية الوطيس سالت فيها الدماء غزيرة من الجانبين . ولكن الفرنسيين كانوا سريعى التنقّل فأطلقت نيرانهم من الأربع جهات ، فى حين أن الضباط المماليك ربضوا فى مكانهم وكان ذلك فى شهر يوليو فى يوم شديد الحرارة ، وزادت شدته عاصفة رملية . فراقب القاهريون دخان المعركة والرمال تعلو فوق مدينتهم ... وفى النهاية هرب المماليك ... وسارع مراد بك نفسه إلى قصره بالجيزة ، وجمع كل ما يمكنه من ثروته فى خمس عشرة دقيقة ، وأمر جنوده بإحراق المخازن العسكرية والبارود والمراكب الحربية الراسية عند الجيزة ، ثم

(١) عجائب الآثار ... ج ٣ ص ٢ .

هرب إلى الصعيد [١].

ودخل نابليون القاهرة فى ٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨ واستولى على قصر فخم كان قد بناه محمد بك الألفى ، ولم يكن قد سكن فيه بعد . وكانت تحيط بالقصر حديقة مترامية الأطراف . والقصر بحديقته كان قائماً على المكان الذى أصبح فيما بعد فندق شبرد . وهذه واقعة بها شىء من الطرافة المسرحية ، لأن الاحتلال الأوربى بدأ من تلك البقعة وانتهى عندها حينما أحرق فندق شبرد سنة ١٩٥٢ [٢] .

وخلال الأيام الأولى بدا كأن الاحتلال الفرنسى فيه شىء من الهدوء والتآخى فقد أخذ الجند يطوفون شوارع القاهرة وهم عزل من السلاح ، وكانوا يتضاحكون مع الشعب ، ويدفعون فيما يشترونه مبالغ باهظة . فبدأت الطمأنينة تتسرب إلى القلوب وانفتحت الدكاكين . وكأنما فى ليلة أو ضحاها انفتح معظم

---

(١) فى كتابه « القاهرة » ص ١٠٥ حيث يقول :

"As soon as the Egyptians saw the French army, they hurled themselves at it with fury . The battle was bloody on both sides . But the French manœuvered all over the place, and the Mameluke officers didn't, so that the Egyptians were caught in a terrible crossfire. It was a hot windy day, and the citizens of Cairo watched the dust and smoke of the battle rising over their city . . . at the end, the Mamelukes fled . . . Murad Bey himself rushed to his palace at Giza, collected what he could of his fortune in fifteen minutes, told his soldiers to burn all the Military stores, & gunpowder, & gunboat along the river at Giza, then fled to the said ... ".

على أن وصف الجبرتى لأسباب هزيمة المماليك يعطينا صورة عجيبة ، فبعد أن حدثنا عن عدم همتهم وسوء تدبيرهم وأعمالهم يقول : « ... حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون فى ريشهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتبكون فى رؤيتهم مغرورون فى قتلتهم ... » من « عجائب الآثار ... » ج ٣ ص ٧ — ٨ .

(٢) « القاهرة ... » ص ١٥٩ .

فرنسى ملأ القاهريين مرحاً إذ رأوا قوائم الطعام بأسعار محددة والناس يأكلون بالشوك والملاعق والسكاكين . وهكذا سار الفرنسيون بخطى خفيفة فكانت بداية غاية فى المهارة .

ثم أصدروا رسالة وجهوها إلى المصريين ليستميلوهم إلى جانبهم ، ورغم الهدف المقصود منها ففيها فقرات جديرة بالتمعن ، فقد جاء فيها « . . . فإن كانت الأرض المصرية إلتزاماً للماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقاً كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك . . . . »[1] .

وخلال الأسابيع الأولى من دخوله القاهرة أنشأ نابليون « المعهد العلمى المصرى » لكى يبدأ علماؤه المئة الذين استحضرهم معه عملهم مباشرة . وكان يحضر مناقشاتهم بنفسه ، ويتقدم إليهم بأسئلته .

وبهذه البداية الفائضة بالألفة والعناية زعم القبط أن هؤلاء الزاحفين قد يكونون أخف وطأة وأنهم قد ينقذونهم على الأقل من الفساد والتعسف الملازمين للحكم التركى . ولكن زعمهم لم يلبث أن تبدد لأن نابليون أخذ يتماق المشايخ . ثم أعلن فى منشور أرسله إليهم بأنه مسلم وأنه صديق للباب العالى . وقد استهل هذا المنشور بالعبارة التالية : « بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه . . . » إلى أن قال : « . . . ويا أيها الشرباجية وأعيان البلد

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ص ٥ .

قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون خالصين . وإثباتاً لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرى وضربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دائماً النصارى على محاربة الإسلام ....»[١] على أن هذا المنشور لم يفعل فعله لأن المسلمين لم يصدقوه ونادوا بالمبادرة إلى القتال . وقد استجاب الشعب لهذا النداء «بحيث أن جميع الناس بذلوا كل ما فى وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم ببذل أموالهم »[٢]. ومن المؤلم أن جميع المنشورات التى أعلنها نابليون كان يستهلها بهذه الصورة . ورغم قصورها عن توصيله إلى هدفه فقد كان يضيف إليها أحياناً كلمة «المحب للملة المحمدية» .

على أن نابليون لم يلبث أن كشف عن ريائه إذ قد ضم عدداً من القبط إلى الديوان الذى ألفه . ولكن عمله هذا لم يكن تودداً للقبط إنما كان انتقاماً من العلماء لتشجيعهم الثورة التى قام بها القاهريون فى وجه الفرنسيين بعد شهر واحد من دخولهم[٣] . وخلال هذا القتال سيطرت الفوضى . فقام الناس فى الريف يقتلون بعضهم البعض مما أدى إلى أن يسقط العدد العديد من الأقباط شهداء ، لأن الاعتداءات وقعت عليهم بطبيعة الحال . كذلك تفشى السلب والنهب . أما فى القاهرة فقد سطا الأمراء على بيوت القبط وأديرتهم ، وعلى بيوت مختلف المسيحيين بحثاً عن الأسلحة .

ولكى يتدارك الفرنسيون الموقف رأوا وجوب التصالح مع الشعب — المسلمين والقبط على السواء — فقام «عدد كبير من نصارى الشوام والافرنج البلديين »[٤] بدور الوسطاء ، وانتفعوا بالمال الذى فرضوه ثمناً لوساطتهم . على

---

(١) « مظهر التقديس بذهاب الفرنسيس » أو يوميات الجبرتى ج ١ ص ٢٧ — ٢٩ .
(٢) شرحه ج ١ ص ٤٨ .
(٣) ألدريدج . . . ص ١٦١ .
(٤) الجبرتى ج ١ ص ٦١ .

إلا أنه رغم هذا التصالح استمر التوتر ولم يذق الفرنسيون والمصريون طعم الراحة منذ ذاك إلى نهاية الحملة الفرنسية .

١٥٩ - وفى وسط هذه الغمة ظل بعض القبط فى مراكزهم ، فيحدثنا أحد الفرنسيين عن أن كل قرية كان لها كاتب وصراف من القبط فكان الصراف يتلقى المال والضرائب العينية بينما يسجلها الكاتب فى الدفتر الخاص بها . وكان الكتبة بالذات يتمتعون بحظوة خاصة لدى الأمراء المماليك لما يقومون به من خدمة لا يستطيع غيرهم تأديتها .

١٦٠ - وفى منتصف شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ (أى بعد دخولهم بشهرين) أصدر الفرنسيون قانوناً بتجديد الانتفاع بالأرض وبحق المنتفعين فى توريثها لأولادهم فى حدود انتفاعهم بها . ومع أن هذا القانون لم ينفذ جدياً إلا أنه كان الشرارة التى أيقظت الوعى بتجديد الملكية الفردية للأرض[١] . إذ أن السلطان التركى كان يعتبر كل الأراضى المصرية ملكاً له ، والعاملين بها مجرد عبيد يزرعون ويفلحون وينتجون ليقدموا له فى النهاية ثمرة جهودهم المضنية .

١٦١ - وحدث فى السنة الأولى من دخول الفرنسيين أنهم حاصروا نواحى الخانكة وضربوا العرب المقيمين فيها ، وبعد القتال نهبوا البيوت وسلبوها . ثم قبضوا على من استطاعوا إلقاء الأيدى عليه من الرجال والنساء ، وأحضروهم إلى القاهرة حيث حبسوهم فى القلعة . وفى طريقهم إلى العودة استولوا على كل ما وجدوه من البهائم وباعوها فى القاهرة . « فصاروا يبيعون البقرة بريالين وثلاثة والنعجة وابنها بريال . فاشترى غالب ذلك نصارى القبط[٢] » .

(١) دراسات فى تاريخ مصر السياسى . . . لفوزى جرجس ص ٢٩ .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ١٢٨ .

١٦٢ - ثم أعقب ذلك فـترة من الركود ، إذ أطلق الفرنسيون الحرية للمصريين . إلا أن هذه الحرية وقتذاك لم تأت بثمر لكساد الأسواق وحصار البوارج الأنجليزية للموانى المصرية ، ومنعها الصادرات والواردات . فاشتغل الشعب الذى بلغ حالة يرثى لها من الفقر والضنك بالحرف الدنيئة كقلى السمك وبيع الفطير والأشربة المسكرة ، كما أن عدداً كبيراً منهم اشتغل حماراً لكثرة استعمال الجنود الفرنسيين لهذه الدابة ، حتى لقد عبّر أحد شعراء الفترة عن هذه الحالة بقوله : « إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم فى مصر بين حمّار وخمّار » .

ومما يوجع القلب أن رعاع القبط انضموا إذ ذاك إلى الشوام والأروام واليهود فى الظهور بمظاهر العظمة والترف : فركبوا الخيول وتقلدوا السيوف ، ولم يتعففوا عن لحش الكلام ولا عن الاستبداد بالمسلمين . وليس بغريب على هؤلاء الرعاع أن يسلكوا مثل هذا المسلك لأنهم كانوا من الساخرين بالدين وبرجال الدين كذلك اشتركوا فى احتفالات رأس السنة التى أقامها الفرنسيون [1] .

١٦٣ - على أنه ماكادت السنة الثانية من الحملة الفرنسية تبدأ حتى طالبوا القبط بمائة وخمسين ألف ريال فرنسى قالوا إنها متبقية من الضريبة التى كانت مفروضة عليهم من السنة الأولى وتأخروا عن دفعها . فاضطر الأراخنة إلى التعاون لدفع هذا المبلغ ذوداً منهم عن شعبهم [2] .

١٦٤ - ثم رأى نابليون أن يغزو الشام فهاجمها ببعض جيشه مستبقياً البعض الآخر فى مصر واصطدمت قواته بالقوات العثمانية فى عكا والرميلة ولكنه فشل

(١) شرحه جـ ١ ص ١٣٣ — ١٣٤ و ١٥٢ .
(٢) شرحه جـ ١ ص ٢٠٢ .

فى الحالتين . والواقع أن الجنود البحارة الانجليز هم الذين هزموه لأنهم سارعوا إلى مساندة الترك [١] . على أنه رغم فشله فقد نجح فى تحطيم الحامية العثمانية التى كان ينوى السلطان التركى محاربة مصر بها . ثم اضطر نابليون إلى الانسحاب من الشام والعودة إلى مصر لأن المهدى كان قد ظهر وبدأ يحض على قتـــل الفرنسيين . ولكنه لم يبق فى مصر غير شهر واحد عاد بعده إلى فرنسا سراً تجنباً لوقوعه فى أسر الانجليز [٢] .

١٦٥ - وقد كان لإنشغال نابليون بالحرب فى الشام ، وظهور المهدى ، أثرهما على الحياة المصرية إذ قد ازدادت حدة التوتر كما سقط كثير من الضحايا . ويبدو أن البلايا تجتـذب البلايا - فلم يكن الترك وتعارك الفرنسيين معهم ومع المماليك بالبلايا الوحيدة التى رزح تحتها المصريون ، بل زاد عليها انتشار الطاعون الذى وصفوه آنذاك « بالكبة » لشدة فتكه بهم . وهنا سارع الفرنسيون إلى اتخاذ كل الوسائل الوقائية للحد من امتداد الطاعون . فأعلنوا منشوراً به الأوامر المشددة على وجوب التبليغ عن أى شخص مريض ، وحالما يصل البلاغ تقام كارنتينة حول المنطقة التى ظهرت فيها الحالة ، وينتقل الطبيب لإجراء كل ما يلزم من الاحتياطات دفعاً للعدوى . وبهذه الوسائل نجح الفرنسيون فى التغلب على الطاعون [٣] . صحيح إنهم فى ذلك كانوا يستهدفون الحرص على حياة جنودهم ، ولكنهم من غير شك حموا العدد الكبير من المصريين ، وفتحوا أذهانهم إلى امكانيـة الوقاية من هذا المرض القتـال .

١٦٦ - ثم حدث أن أرسل السلطان التركى جيشاً بقيادة ناصيف باشا ، فدارت

(١) الدريدج . . . ص ١٦٥ .

(٢) « تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر اسماعيل » لأحمد عزت عبد الكريم ص ٢٩٣ .

(٣) الجبرتى جـ١ ص ٨٣ و ١٥٣ .

المعارك بينه وبين الفرنسيين . ومع أن أحداً لم يحرز نصراً حاسماً إلا أن ناصيف باشا دخل العاصمة وأمر بقتل النصارى دون تفريق بين أجنبي وسوري وقبطي . فقد أراد القائد التركي أن يغطي فشله بتوجيه غضب الشعب ضد غيره . ولم يجد من يستثير الغضب الشعبي ضده غير المسيحيين . فأصدر هذا الأمر الوحشي الذي لم ينفذه الجيش وحده بل شاركه فيه العامة أيضاً . وليس من شك في أنه قد سقط العدد الكبير من الشهداء ولكننا لن نستطيع تحديده ولا معرفة أسماء من استشهدوا . على أن مراحم الله تداركت شعبه . فذهب ضابط تركي اسمه عثمان بك إلى ناصيف باشا وقال له : « ليس من العدالة أن تهرقوا دماء رعايا الدولة فإن ذلك مخالف للارادة السنية . وعندما صدر الأمر بالكف عن هذه المذبحة [1] . وهكذا نجد أن الآب السماوي يقيم لأولاده من يدافع عنهم حتى من صفوف الباطشين بهم !

١٦٧ ـ وتضاعف البطش والقلق لأن الانجليز أرسلوا مركبين إلى بحر القلزم (الأحمر) وأطلقوا مدافعهم على منطقة السويس كذلك استولوا على ما كان يحمله التجار المصريون من البن ومختلف الحاجيات التي كانوا متجهين بها إلى العاصمة . ففر جمهور الناس هرباً من هذه الاعتداءات ولجأوا إلى القاهرة وأشاعوا ما حدث مما زاد القلوب اضطراباً .

وكان وصول المركبتين الانجليزيتين البادرة الأولى للتدخل الانجليزي الفعلي إلى جانب الترك (بعد تدخلهم في الشام) لإخراج الفرنسيين من مصر ، إذ قد رست المراكب الانجليزية في المياه المصرية تحت قيادة سيدني سميث . وأدرك كليبر (الذي أقامه نابليون قائداً للحملة عند مغادرته مصر) أنه لن ينتصر فوافق على

---

(١) الرموزي ج ٢ ص ٥٢٠ .

التوقيع على معاهدة مؤداها الخروج من البلاد وعندها قدم إلى القاهرة ومعه محمد أغا موفداً من الباب العالى ، واجتمع بالناس الذين توافدوا للسلام على الأغا العثمانى . وفى اليوم التالى ألف كليبر ديوانا من العلماء والأعيان وكبار النصارى من الأقباط والشوام وكبار التجار ، مطالباً الكل بتحصيل ثلاثة آلاف كيس من المال لتمكين الفرنسيين من الرحيل .

١٦٨ - وفى هذه الفترة برز الرعاع : فقد وقف السبعوك يرقبون الفرنسيين تأهباً الساعة التى يجلون فيها عن البلاد ، واقترب مراد بك وغيره من المماليك من القاهرة واتخذوا وقفة الضباع التى تجبن عن القتال فتتربص آمسة أن تظفر بفريسة يقتلها غيرها . وبين هؤلاء وأولئك أخذ الرعاع يقتلون الفرنسيين الذين كانوا هم وقائدهم كليبر أشبه بمن وقع فى المصيدة . فقد أغرق الانجليز مراكبهم ولم تكن لديهم وسيلة للخروج . ورأى كليبر أن الوقوف هكذا ليس مطاقاً فقرر أن يضرب ضربته . ومن ثم جمع جيشه وخرج إلى عين شمس (هليوبوليس) وقاتل الترك بكل ما أوتى من عنف . ففر الترك من أمامه منذ الضربة الأولى ، وفرّ معهم المماليك . ورأى القاهريون الفارّين وسمعوا دوّى البارود ، فخرجوا يعملون عصيهم وهرّاواتهم إذ لم يكن لديهم غيرها . ولكنهم فى الوقت عينه أدركوا أنهم فى خطر من الترك . وتسجيلا للواقع أن المعارك ضد الفرنسيين لم يخضها الترك ولا حتى المماليك . وإنما خاضها الشعب المصرى منذ البداية وخاصة سكان القاهرة [1] . كذلك أدرك الترك والمماليك معاً أن الفرنسيين رغم انتصارهم لن يستطيعوا الصمود فاتخذت كل جماعة منهم منطقة خاصة فى القاهرة . وأراد الترك أن يتسلوّا خلال انتظارهم فلم يجدوا من تسلية تشغلهم غير قتل القبط إذ قد نادى نصّوح باشا وسط السوق : «قاتلوا النصارى وجاهدوا فيهم» .

---

(١) الدويدج . . . ص ١٦٦

فلما سمع العامة هذا النداء هاجوا واندفعوا إلى الحارات يقتلون من يجدونه فيها، ثم هجموا على بيوت القبط التي بناحية بين السورين وباب الشعرية وجهة الموسكي(١). ثم رأى عثمان كتخدا أن اكتناز المال أنفع له من قتل الناس فأعلن أن كل من يقبض على نصراني أو يهودي يحضره إليه . وحين يقع هؤلاء في قبضته يطالبهم بمبلغ معين من المال مقابل اطلاق سراحهم (٢) . ورأى القبط أن خير وسيلة أمامهم هي الهرب من القاهرة . فكانوا يأخذون نساءهم وأولادهم ويتسلقون الجدران والأسوار ويذهبون إلى مصر العتيقة أو إلى الجيزة .

أما الفرنسيون فقابلوا بثورتهم باشعال الحرائق في بعض أحياء القاهرة وأهمها بولاق . وفي وجه هذه القوى المتمادية ثار القاهريون ثورتهم الثانية التي استمرت سبعة وثلاثين يوماً ولكنها باءت بالفشل في النهاية

١٦٩ - واشتد التوتر كما تضاعف الحقد والبغضاء فانتهى هذا كله بمقتل كليبر بيد سليمان الحلبي في ١٧ يونيو سنة ١٨٠٠ . وحبس الجميع أنفاسهم متوقعين أن ينتقم الفرنسيون انتقاماً مروعاً . إلا أن الفرنسيين رأوا من الحكمة الاكتفاء باعدام القاتل واثنين آخرين كانا شركاءه في التآمر على الجريمة . كذلك أجروا تفتيشاً دقيقاً للأزهر ليعرفوا إن كان قد اختبأ بداخله غريب أو أفاق، وإن كان أخفى فيه أحد شيئاً من السلاح . لأن سليمان الحلبي القاتل كان يدرس بالأزهر . وبازاء هذا البحث رأى المشايخ إخلاء الجامع من المجاورين وبخاصة الترك منهم. ثم حملوا الكتب الخاصة والموقوفة والأمتعة خارجه . ثم توجه المشايخ إلى كبير الفرنسيس - مينو - واستأذنوه في اغلاق الأزهر وتسميره كي لا يجد فيه أي شخص ملجأ يهرب إليه فعارضهم بعض القبط الحاضرين معهم . ولكن المشايخ

---

(١) الجبرتي ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) شرحه ج ٢ ص ٣٦ .

أسكتوهم وحصلوا على الإذن باغلاقه . فسمرّوا أبوابه من كل الجهـات [١]

ويقدم لنـا الجبرتى صورة تمكننا من أن ندرك مدى الاضطرابات والفتن فيقول : « . . . وتعدّى القوى على الضعيف ، واستمرت أسواق المدينة بحفرة والطرق مقفرة ، والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة ، والوكايل مغلوقة والنفوس مطبوقة ، والغرامات هاطلة والأرزاق عاطلة . . . وإذا أراد الانسان أن يفرّ إلى أبعد مكان ، وينجو بنفسه ويرضى بغير أبناء جنسه ، لا يجد طريقاً للذهاب ، وخصوصاً من أشرار الأعراب ، الذين هم أقبح الأجنـاس . . . [٢] » . وبهذه الكلمات التى هى جزء مما خطه مفكر مصرى عاش خلال تلك الأحداث نرى ما كان يقاسيه المصريون جميعاً من بؤس وقلق .

١٧٠ - ومما زاد الطين بلة أن الفرنسيين كانوا ما زالوا فى حاجة ملحة إلى المال ليستطيعوا الرحيـل . فصاروا يجوبون المدن والقرى يطلبون مبالغ محـددة من كل منها ، ويحددون لتقديمها وقتا . فإن لم يستطع الناس تقديم المال المفروض فى الوقت المحدد ضربوهم « بالمقارع والـكسّارات على ركبهم ومفاصلهم . . . » وبالطبع كان المشاهدون لهذه الفظائع يمتلئون فزعاً : « فيصانعونهم وأتبـاعهم بالبراطيل والرشوات، وانضم إليهم الأسافل من القبط والأراذل من المنافقين [٣] » .

ومن الموجع أن أحد الذين عينهم الفرنسيون للمطالبة بالمـال كان قبطياً اسمه شكر الله « فنزل بالناس منه ما لا يوصف فكان يدخل إلى دار أى شخص كان لطلب المال ومعه العسكر من الفرنساوية والفعلة . . . فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا المقرر ... » ثم ازدادت الأمور تأزماً إذ صدرت الأوامر بفرض مبالغ باهظة

١) شرحه ج ٢ ص ٧٤ .
٢) شرحه ج ٢ ص ٦٣ .
٣) الجبرتى ج ٢ ص ٦٩ .

على الصنائع والحرف فاضطرب الجميع ، وزادت وساوسهم وأشيع أن يعقوب القبطى تكفل بقبض ذلك . . . ويقلد فى ذلك شكر الله واضرابه من شياطين القبطة . . . [١] » .

ومقابل هؤلاء «الشياطين» نجد أن الشيخ السادات حين ضاق به الأمر لرهن حصصه أرسل إلى كبار القبط لكى يسعوا فى قضيته [٢] .

وهذه من غير شك صورة قاتمة كسيفة لا تملأ النفس حسرة فقط بل تملأها دهشة أيضاً . إذ كيف تسنى لهذا الشعب الذى ضاقت به السبل إلى هذا الحد أن يمرَّ منها ويعاود الحياة ؟ - بل ويجاهد إلى أن يرفع رأسه من جديد ؟ ! وليس من شك فى أن كل هذه البلايا التى جازها الشعب المصرى وظل باقياً - ليس من شك فى أنها توضّح لنا حقيقة ذلك الوعد الإلهى الكريم « مبارك شعبي مصر » .

١٧١ - وكان القائد الفرنسى مينو قد أشهر اسلامه قبل مقتل كليبر بقليل وأطلق على نفسه اسم « عبد الله » ولبس ملابس الشيوخ المسلمين وتزوج بمسلمة أنجب منها ولداً . فآلت إليه السلطة العليا بعد كليبر . ولكن اسلامه لم يفده شيئاً لأن المسلمين فى مصر يتشككون فيمن يشهر اسلامه من الأوربيين . ولهذا ظلوا يعتبرون « عبد الله » فرنسياً كغيره من مواطنيه الذين ظلوا على مسيحيتهم . وعلى أية حال لم يكن أمامه مخرج من المأزق الذى كان فيه ، ولم يحاول أن يقوم بأى عمل يستطيع به أن يكسب به ود المصريين من جديد . فانغمس فى إقامة الحفلات فى الحدائق العامة . ولكن حتى هذه الحفلات ضاعت قيمتها لاضطرار من يريد حضورها إلى دفع ثمن الدخول [٣] .

---

(١) عجائب الآثار . . . ج ٣ ص ١٣٥ و ١٣٦ .

(٢) شرحه ج ٣ ص ١١٥ .

(٣) ألدريدج . . . ص ١٦٨ .

ثم رأى أن يعيد تنسيق الديوان الذى كان قد أنشأه نابليون منذ وصوله القاهرة . فأخرج منه القبط والسوريين المسيحيين والعناصر المدنية الإسلامية ، وقصر العضوية فيه على تسعة من المشايخ . كذلك رفت عدداً من الكتبة القبط من وظائفهم بدواوين الحكومة . وفى الوقت عينه رأى الجنرال بليار (الذى تسلم قيادة الجيش) أن يحاول تدارك الموقف وتخفيف حدة التوتر فأقام وليمة عشاء دعا اليها مشايخ الديوان وأعيان التجار وأكابر نصارى القبط والشوام[1] .

١٧٢ - على أن هذه المحاولة من جانب بليار جاءت بعد فوات الاوان لأن الجيش الانجليزى نزل فى أبو قير فى ٧مارس سنة ١٨٠١ ، وفى الوقت عينه وصل الجيش التركى إلى العريش . ولما وصلت الأنباء بوصول الجيشين سرى الفزع فى القلوب - وفى هذه المرة فزع الفرنسيون كما فزع المصريون وزاد الهم أضعافاً بتمرد المصريين من جهة وبتفشى الطاعون من الجهة الأخرى . وكان الطاعون فى هذه المرة رهيباً لم يعهد له مثيل حتى بين من اعتادوا فتكه بهم مراراً وتكراراً . فحصد الآلاف بل ومئات الآلاف إذ يقدر البعض أن ثلث السكان ماتوا به[2] . وبما أن المرض لا يفرق بين حاكم ومحكوم ، وبين مصرى وتركى ، فقد مات عدد وفير من المسيطرين على مصر آنذاك من بينهم مراد بك . وتضاعفت الأرزاء بزحف الانجليز والترك الذين وصلوا مشارف القاهرة وحاصروها فأجاعوا شعبها المنهوك . وهكذا تضافرت كل قوى الشر والطغيان على المصريين .

١٧٣ - وفى وسط كل هذا الظلام والظلم سلّم الفرنسيون . وأركبهم الانجليز على مراكبهم وأعادوهم إلى فرنسا . وبانسحاب الفرنسيين دخل الترك القاهرة مرة أخرى . وكعادتهم قتلوا ونهبوا وأحرقوا وانتهكوا كل الحرمات . فازدادت

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) شرحه ص ١٣٧ .

الثالثة المدلهمة حالكة . ولم يبق الانجليز فى مصر إلا الوقت الكافى لاعادة الترك إلى السيطرة عليها ، ولا نستطيع أن نتصور الأهوال التى اجتاحت المصريين إذ ذاك . ولكن كلمة قصيرة قالها أحد الانجليز الذين دخلوا القاهرة مع الترك تعطينا صورة مزعجة لما يصيب الانسان من عمى نتيجة لأغراضه السياسية . فقد قال حين رأى الترك يذبحون اليهود والمسيحيين والقبط : « يا لحظنـــا فى أن لنا حلفاء مباركين ! (١) » وبإزاء هذا الانحدار الروحى اكتفى غيره بأن يقرر الواقع الموجع فقال : « لقد أعاد الإنجليز مصر إلى أمان الظلمة والجهل (٢) » . على أن الحق لا يعدم له نصير رغم كل ظلم ، فيكتب انجليزى ثالث كلمات فيها الأسى والندم إذ يقول : « مهما كان الهدف ، ومهما بلغ الثمن النهائى ، فإن مصر مدينة لبونابرت بدين الاعتراف بالجميل لأنه أعطاها لحظة عابرة من إضعاف لأثر الباب العالى . أما انجلترا فتعلق بها وصمة فى كونها السبب لإعادة وضع مصر سنة ١٨٠١ تحت النير التركى مرة أخرى . فمصر — موضوع التصارع بين أكبر امبراطوريتين فى العالم — قد سلموها بلاشرط يضمن لها خير المستقبل إلى الترك (٣) » .

---

(1) " What blessed allies we have ! ".

(2) " . . . the tottering Ottoman Empire and the Mamelukes were restored to, once again, hold Egypt in the safety of darkness and ignorance ".

والملحوظتان أوردهما جيمس ألدريدج فى كتابه « القاهرة » ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٣) من كتاب موبرلى بل « من فرعون إلى الفلاح » ص ١٨١ حيث يقول :

" . . . whatever may have been the motive, whatever may have been the ultimate cost, Egypt owes to Bonaparte a debt of gratitude for having, even for a moment, lessend the influence of the Porte. And to England must remain the disgrace of having, in 1801, replaced her under that yoke. Egypt, the cause of contention of the two greatest empires of the world, was handed over to the Turk without one single stipulation for her future welfare ".

فما أشبه الليلة بالبارحة !

١٧٤ - نرى من خلال كل هذه الانقلابات والأهوال أن بابوية الأنبا مرقس الثامن كانت وجعاً على وجع . فماذا عمل خلال كل هذه الخطوب؟ لقد كان متعذراً عليه أن يتنقل بين شعبه لخطورة مثل هذا التنقل . فهو - من غير شك - قد انصرف إلى الضراعة والتوسل لأن هذا الباب كان الباب الوحيد المفتوح أمامه . فكانت حياته تنفيذاً فعلياً لذلك البيت الشعرى الذى كتبه أمير الشعراء بعد ذلك بقرن من الزمان حين هتف :

سُدّت علىّ مذاهبى ومسالكى   إلا إليك فما عساى أصنع

كذلك انصرف إلى الكتابة لتكون وسيلته لتعزية القلوب الكليمة فوضع مواعظ عديدة لقراءتها فى الكنائس . وهذه المواعظ تتناول مختلف الموضوعات ولو أنها تهدف إلى غاية واحدة هى بنيان المؤمنين . ومن نعمة الله أن بقيت هذه المواعظ للآن ، وهى مجموعة ضمن كتاب واحد محفوظ بالمكتبة البابوية بالقاهرة[١] . والموضوعات التى عالجها البابا مرقس الثامن هى : ١ - فى الرحمة ، ٢ - من أجل الذين يتكلمون فى الكنيسة من غير أدب ، ٣ - من أجل دورة الفقراء فى الكنيسة - وقد قال فى الدَّرَج[٢] : أنا أسألكم بلين المسيح وتواضعه أن تبطلوا دورة الأطباق ولا يدور الفقراء فالأطباق يقفون بها فى الخورس التحتانى وذلك وقت التسريح . ومثل ذلك يقف الفقراء بجانبهم بأدب ووقار[٣] . ٤ - من أجل الأشابين - قال : « حينما تعمدون أطفالكم تحملونهم إلى البيعة بغير أشابين لأجل حل الميرون ، ويحملهم الصبيان والشبان والكبار وليس لأحد منكم

(١) مخطوطة رقم ١٨١٠ .   (٢) أى السفر .

(٣) يبدو عطف البابا على الفقراء من هذا التنبيه كما يبدو منه أيضاً حرصه على نظام الكنيسة وهدوئها لأن وقت التسريح هو الوقت الذى يصرف فيه الكاهن الشعب بالبركة - أى بعد الانتهاء من الصلوات . أما الموضوع التالى فيبين لنا حرص البابا على القيم الروحية فى التعامل الاجتماعى .

إشبين لحص لأجل الاعتراف عن الطفل وحمل الميرون . فياترى إذا كان الطفل حمل طفلة فى الميرون وكبرت وتزوج بها الطفل الحامل لها فى الميرون تنالها خطية عظمى لأنها أخته فى الحقيقة . كذلك إذا حمل رجل طفلا كبر وتزوج بنته من هنا يحصل التعدى على ناموس الكنيسة » ، ٥ - من أجل الذين يشربون الخمر فى الكنيسة : « ... هذه عادة من عوايد عبادة الأوثان لأن أولئك كانوا يستعملون الملاهى عند أكلهم وشربهم أمام أصنامهم وقد شهد بذلك الرسول بولس فى قورنثية » ، ٦ - من أجل الذين كانوا يزوجون بناتهم إلى الأمم "غير مسيحيين، ٧ - من أجل تربية الأولاد وتعطيل بعض الكنائس من عدم خدمة الشمامسة ، ٨ - من أجل الذين يقصدون السحرة فى محضرة الناس ، ٩ - من أجل الذين يتهاونون فى تعميد أولادهم ، ١٠ - من أجل الشفقة وعمل الخير ، ١١ - من أجل الذين يعترضون على الله فى أحكامه ، ١٢ - من أجل الكهنة والتزامهم راعى النفوس بتعليم رعيته ما يجب للخلاص ، ١٣ - من أجل التخيمة ، ١٤ - من أجل المنافقين ، ١٥ - من أجل التناول من السراير المقدسة ، ١٦ - من أجل المنافقين المبغضين لإخوتهم ، ١٧ - من أجل ما صار لنا من التعب ، ١٨ - من أجل الانذار الإلهى لمن ارتكبوا المعاصى ويطلقون نساءهم بغير سبب ، ١٩ - تعزية فى الشدائد ، ٢٠ - ثم صورة جواب إلى الوزراء والقضاة والمدبرين والشبان والحكام القائمين بسياسة أهل الحبشة وما تحويه من الأقاليم، ٢١ - ثم صورة جواب منه إلى ملك الحبشة ..»[1]، ٢٢ - رسالة إلى انسان كان فى شدة وخلاص منها (نسخة فى سنة ١٥٢٠ ش) ، ٢٣ - رسالة مرتبة نسخت فى سنة ألف وخمسمائة اثنين وعشرين قبطية وهى استغاثة بطلب المعونة وتشجيعاً للشعب على احتمال ضيقاته ... ، ٢٤ - رسالة تأمل وتعجب فى غرور هذه الدنيا ومن يثق بها ... ، ٢٥ - رسالة تعزية إلى

(١) هنا أيضاً تتضح عناية البابارات الاسكندريين بأبنائهم الأحباش

السان كان فى شدة وخلص منها يقول فيها : « إن الكتب الشرعية يابنى الحبيب عزّى الله قلبك بعزاء الروح القدس المعزى تدعونا إلى تعزية بعضنا بعضاً بالحلم والأدب والمحبة والعادة بحجة على ذلك فقد صار مستحباً وفرضاً. وما هذا إلا لأن المباشر بذاته الألم والحزن قد يعدم الرأى الصايب عند حلول المصايب أو يخفى الأمر الواجب لاستيلاء الاكتئاب عليه فيحتاج إلى من يذكره . لذلك أكتب إليك . . . » ، ٢٦ - رسالة من أجـل السان شلح الرهبنة فى سنة ١٥١٥ واسمه الرهب حنا أبو عازر ، ٢٧ - رسالة أخرى إلى راهب شلح الرهبنة وأحب هذا العالم ، ٢٨ - أسماء الآباء من أول الخليقة وعدد سنى كل واحد منهم نقلا عن النسخة السبعينية وهى توافق مانشرته جمعيـة المنشأة القبطية فى تقيجتها سنة ١٦٢١ ش[1] .

وهذه الموضوعات تبيّن لنا بوضوح سعة أفق الأنبا مرقس الثامن ومدى حرصه على شعبـه وسهره على رعايته . ولا يسعنا إلا الأسف على أن هذه الكتابات البابوية الهادفة محبوسة داخل الدواليب ولا يسمع عنها إلا الباحث الساعى نحو المعرفة . ومما يزيد الأسف أضعافاً أن جهل القبط بكتابات آبائهم (وبخاصة فيما توصف بالعصور المظلمة) دفعهم إلى الزعم بتقصير هؤلاء الآباء الساهرين . ثم ضاعفت الدعايات الأجنبية هذا الزعم . فكنيستنا القبطية ليست كنيسة الجنود المجهولين فحسب بل إنها هى نفسها فوق ذلك الجندى المجهول الأكبر: إنها مجهولة حتى من أبنائها رغم بسالتها على مدى القرون .

وإلى جانب ما كتبه البابا بنفسه توجد مخطوطة يزّينها صليب شبيكة متعدد الألوان على الورقة ٢٢٨ (وجه) منها ، وفى كل من ركنيها السفليين شجرة ليمون.

(١) منسى القمص . . . ص ٦٢٩ - ٦٣٠ ، تاريخ الأمة القبطية . . . ص ١٢٣ ، «نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر» لتوفيق اسكاروس ج ٢ ص ٤٩ - ٥٣ ؛

كذلك تحمل ورقتها ٢٢١ (وجـــه) صورة للقديس متى البشير ، وفى أسفلها وردت هذه الجملة : « رسم الحقير يوحنا أحقر الشمامسة خدام بيعة العذرى بحارة الروم عمرها الله » .

والجزء الثانى من هذه المخطوطة هو انجيل القديس متى . يحيط بصفحتـــه الأولى أطار بديع . والورقة ٨٢ (وجه) يزينها رسم لنجمة داود مزدوجـة وموضوعة داخـل دائرة . وفى أسفل الورقة طبق تزخرفه دوائر من أوراق الشجر المتشابكة . والشكل ملون بألوان متعددة . أما ورقة ٧٩ (وجه) فعبـارة عن أيقونة لمار مرقس البشير على خلفيّه من الذهب. والانجيل مكتوب بالقبطية والعربية [١] . ومن هذه المخطوطة نفهم أن الشماس سار على خطة البابا فى العناية بكتابة الـكتب البيعية ولو أن البابا ـ بحـــكم أبوتـه ـ انصرف إلى كتابة ما يبنى شعبه .

وهنـاك مخطوطة أخرى جاء فى آخرها أن كاتبها هو الايغومانس جرجس ميخائيل كاهن كنيسة الأم دولاجى والقديس ميخائيل (الملاك) بمدينة أسنـا . والمخطوطة تتضمن قراءات أسبوع البسخـة . وقد تمت كتابتهـا فى ١١ مسرى سنة ١٥١٤ ش [٢] .

وثمة مخطوطة ثالثة تتضمن أمثال سليمان الحكيم (أربعة عشر اصحاحاً منها فقط) وسفر أيوب فى نهرين : قبطى وعربى بخط ابراهيم أبو طبل ابن سمعـان الحوانكى وبرسم الانبا كيراس أسقف البهنسا . والمخطوطة محلاة بالمداد الأحمر المتناثر على كل صفحـاتها . وفى أولها صليب متعدد الألوان . وهى مجلدة بجلدة

(١) مخطوطة ١٩١ ـ رقم ٣١ محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة ومؤرخة ٢٠ بؤونة سنة ١٥١١ ش .

(٢) مخطوطة ٧١ ـ ٣٣ أدب ـ محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .

مصقولة منقوشة لها لسان ليستعمله القارىء علامة أثناء قراءته . والتاريخ فى آخر المخطوطة هو ٢٦ طوبة سنة ١٥١٠ ش [١] . ويبدو أن هذا الناسخ قد كتب نسخة أخرى للكتاب عينه محفوظة الآن بالمتحف البريطانى . وقد أضاف إلى سفر أيوب تمهيداً قبل البدء فيه سماه « تقدمة » وابراهيم أبو طبل هذا كان ملتحقاً بخدمة كنيسة أبى السيفين بمصر القديمة . وقد كتب نسخته الثانية على نفقة الشماس والأرخن العالم يوسف بن الياس البرماوى . والتاريخ الوارد على الجزء الاول من المخطوطة هو ٢٤ بابه سنة ١٥١٢ ، وعلى الجزء الثانى هو ١١ هاتور سنة ١٥١٢ ش [٢] .

ويمكن أن نستنتج أن هناك مخطوطات أخرى ترجع إلى هذا العصر ولكنها ضاعت أو ما زالت فى ركن ما - إذ ليس من المعقول أن تكون مخطوطة من القاهرة وأخرى من أسنا وثالثة من منطقة البهنسا من غير أن يكون للمدن الأخرى نصيب فى مثل هذا العمل .

١٧٥ - وبعد الجلاء الفرنسى بشهور قليلة حين حل شىء من الهدوء الاجتماعى نودى بعدم التعرض ليهودى أو نصرانى قبطياً كان أو شامياً او رومياً لان الجميع رعايا السلطان ، كما نودى على الجميع بأن ينسوا ما فات « لأن الماضى لا يعاد [٣] » . وفى الوقت عينه قال عابدى باشا فى ديوانه حيث اجتمع الأمراء والمشايخ : « إنا

---

(١) من مقال القمص ميصائيل بحر بعنوان « أقليم المنيا فى العصر القبطى » نشره فى مجلة « صوت الشهداء » السنة الرابعة العدد الحادى عشر (نوفبر سنة ١٩٦٢) ص ٢٤ .

(٢) من سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطانى للدكتور كروم ص ٣١٨ : مخطوطة ٧٢٤ . ويبدو أن الأرخن يوسف الذى أنفق على كتابة هذه المخطوطة شقيق للأرخن واصف الذى وجه سؤالا إلى الأنبا يوساب بن الأبح لأن كليهما يوصف بأنه ابن الياس البرماوى .

(٣) الجبرتى . . . ج ٢ ص ١٨٣ .

رأينا النصارى إذا تعاقدوا على شيء لا ينقضوه ولا يختلوا عنه بدقيقة [1] » .

وعندها وجد البابا فرصة العمل فقام بإصلاح الكنائس والأديرة التي وجدها متصدعة [2] . ومما يستلفت النظر أن هناك « بدرشيل » بابوى قد زين كمه الأيمن بالآية القائلة : « يمين الرب رفعتني . يمين الرب قوتني » . بينما كتب على الكم الأيسر « يداك صنعتاني وجبلتاني فأفهمني » و « المجد لله في العلا وعلى الأرض السلام » . وجاء عن هذا البدرشيل : « مما اهتم به السيد الأب المكرم أنبا مرقس الثامن بعد المئة [3] » . كذلك حصل (في هذه الفترة) المعلم ابرهيم الجوهرى على الاذن ببناء كاتدرائية جديدة بحى الأزبكية . فبدأت عمارتها في ظل هذا البابا الصبور . على أن العمر لم يمتد به ليرى تمام بنائها ، كما لم يمتد به لينعم بالهدوء الذى أعقب العواصف الهوجاء التي مرت عليه . لأنه تنيح في السنة التالية لانسحاب الفرنسيين ، فانتقل إلى العالم الذى لا يزعزع سلامه عاصف ولا تغير ظلمة على أنواره . وكانت مدة رياسته ثلاث عشرة سنة وشهرين . ولقد دفن في الكنيسة الجديدة التي دعيت باسم الكاروز الحبيب والتي أصبحت في عهد خليفته المباشر (أنبا بطرس الجاولى) المقر البابوى [4] .

---

(١) عجائب الآثار . . . ج ٢ ص ١٧٤ .

(٢) منسى القمص . . . ص ٦٣٢ .

(٣) « دليل المتحف القبطي » لمرقس سميكة ج ١ ص ١٢١ ، وكلمة « بدرشيل » مأخوذة عن اليونانية ومعناها ما يحيط بالرقبة وهو أحد الملابس الكهنوتية وفى الكثير من الملابس المتبقية نجد القطعة المشغولة المزركشة منسوجة على انفراد ومخاطة بعد ذلك على الثوب . على أنها كانت أحياناً تكون ضمن النسيج الأصلى ثم تغطى بطبقة من الشمع قبل صبغ الثوب . وبعد أن تتم صباغته ينزع الشمع فتكون الزركشة بلون الكتان الأصيل على أرضية ملونة .

(٤) كان الكرسى المرقسى فى الاسكندرية لأنها المدينة التي تلقت البشارة من مار مرقس وفيها نال إكليل الشهادة . ثم نقل الأنبا خريستودولس (البابا الاسكندرى الـ ٦٦) المقر البابوى إلى القاهرة سنة ١٠٣٩ بكنيسة السيدة العذراء (المعلقة) . فلما آلت السدة المرقسية إلى الأنبا غبريال ابن تريك (البابا الاسكندرى الـ ٧٠) اتخذ من كنيسة أبى السيفين =

ومما يجدر ذكره أن هناك رسالة راعوية مازالت باقية للأنبا مرقس الثامن بعث بها لشعبه حين استقرت الأمور وزالت المحن والضيقات مستهدفاً تثبيت القلوب بتوجيهها إلى أن العناية الإلهيـــة ساهرة على الكنيسة . وهذا هو نص الرسالة : « باسم الله الرؤوف الرحيم »

« يا الله الخلاص »

« البركة الكاملة . والنعمة الشاملة . على ذات الأبناء المباركين . الأحبـــة الطائعين . القمامصة المدبرين . والكهنة المؤتمنين . الشمامسة المكرمين . والأراخنة المبجلين . وكافة الشعب المسيحى بارك الله عليهم بالبركات الروحانية الحالة على رسله وأنبيائه وصانعى إرادته ووصاياه بشفاعة العذراء فى كل حين . آمين .

« بعد تجديد البركات إليهم وإهداء السلام الروحانى عليهم الموجب لإصدار هذه الرسالة إليهم ـ نعلم ودكم أننـا نريد أن نشرح لكم بعض الأمور السائرة فى هذه الأيام . وإن كانت محزنة لكن الله قادر أن يبدلها بفرح وابتهاج . إلا أن الضرورة ألجأتنا أن نورد لكم السبب الذى من أجله صارت هذه الأمور . لأن كل شىء موضوع له محمول . وكل موضوع ومحمول له نتيجة . والحال أننا إذا استعملنـا الأمور المنهى عنها . وابتدأنا أن نتعلم عادات الأمم الغربية ولازمنـا

= (مصر القديمة) مقراً بابوياً ، ثم أعادها الأنبا مرقس الثالث (البابا الـ ٧٣) إلى المعلقة مرة أخرى . وفى سنة ١٢٩٢ اتخـذ الأنبا يؤنس الثامن (البابا الـ ٨٠) مقره البابوى فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . ثم اضطرت الأحداث السياسية البابا متاوس الرابع (البابا المرقسى الـ ١٠٢) إلى جعل كنيسة السيدة العذراء المنيثة بحارة الروم مقراً بابوياً . واستمر البابوات يقيمون بهذه الكنيسة إلى أن تم بناء الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية فأصبحت هى المقر البابوى فى أواخر بابوية الأنبا مرقس الثامن إلى نهاية بابوية الانبا كيرلس السادس (البابا المرقسى الـ ١١٦) . فلما اعتلى الانبا شنودة الثالث الكرسى المرقسى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٧١ جعل من الانبا رويس المقر البابوى وبخاصة لقيام كاتدرائية عظمى باسم مارمرقس فوق هذه الأرض تضم المزار الذى يحوى رفات الكاروز الحبيب .

معاشرة فاعلى الشر. وأبدلنا حب بعضنا بعضاً بالعداوة. ورحمة المساكين ومواساتهم التى تعلو كل فضيلة بدلناها بالقساوة وعدم الالتفات إليهم وبدلنا الطهارة بضدها. والتواضع بالرياء والصلف. واستعملنا أشياء كثيرة نستحى من ذكرها. وليس قولى هذا بقصد شتمكم لأنى أنا مثلكم فى البشرية والطبع. ولست أزكى قدام الله. وإنما قولى هذا أن أذكركم بالأسباب الموجبة لحلول الغضب والسخط. ونتيجة هذا حصول الغلاء والوباء وتسلط الحكام الذى هو أمر كل شىء. وأمور أخرى غير ذلك. وما يطول فيه الشرح منى. ما باشرناه جميعنا وكابدناه. كل ذلك ونحن لا نرجع عن فعلنا الردىء. ولا نميل بقلوبنا نحو التعطف الإلهى ليرد عنا سخطه ونرجع عن ردىء أفعالنا. لأننا لو فعلنا ذلك لرفع الغضب ليس عنا فقط بل وعن الناس أجمعين. لأنه لو وجد فى أرض سدوم وعامورة عشرة أبرار لما أهلكها الرب. أما نحن الآن فثابرون ليس على الأعمال الصالحة بل على ضد ذلك. عكسنا المقدمات كلها وأضعنا تدبير حياتنا فيما لا ينفع ولا يفيد. فلا الشيخ يستحى من شيخوخته. ولا الأب يحسن تدبير أولاده بأن ينظر كيف يرضون الرب. ولا الشاب يشفق على شبابه. ولا النساء تستحى من بعولهن. ولا العذارى من بتوليتهن. وأعاذنا الله وإياكم من ذلك من أن يكمل علينا القول النبوى: ليس بار ولا متفهم ولا مريد الله لأنهم جميعاً زاغوا وطغوا. ليس من يعمل صلاحاً ولا واحد. (مزمور ١٤: ١-٢، ٥٢: ٢). فلا يكون هذا يا رب بل لتدركنا مراحمك لئلا يقال فى الأمم أين إلههم.

قد سمعتم ما ذكرناه لكم من المحن والتجارب التى حلت بنا فى هذه السنين فهلموا الآن يا أحبائى لنتأمل أعمالنا القبيحة. ونفحص أعمالنا الردية. تعالوا نفحص قلوبنا ونفتش ضمايرنا وننظر هل لنا نية خالصة على عمل الصلاح من الآن وصاعداً. وهل نبدأ سيرة التوبة أم لا. وهل نلتزم الصوم والصلاة والرحمة

والصدقة على أخوتنا المساكين أم لا . وتهيأنا لحفظ الوصايا ، والتزام سنن الرب التى إذا ما خالفها قوم نزل غضب الله عليهم . لقد تعدينا وصاياه . وعملنا ما لا يرضى صلاحه . فمن أجل هذا نزلت بنا هذه التجارب ونحن لا نرجع عن قبيح أفعالنا . فأى عين لا تبكى . وأى قلب لا يحزن . وأى فم لا يندب . وأى ضمير لا يذوب . فمن لنا بنائحات تولول على ما أصابنا . ومع ذلك فإننا إلى الآن ونحن لا نرجع عن سوء أفعالنا ولتعظ بامهال الله علينا !

« فإن كان يا أخوتى الجزاء فى العالم شديدة حوادثه بهذا المقدار . فماذا يكون جوابنا يوم مجلس الديان العظيم على كرسى مجده . يوم تنكشف فيه خفايا الظلمات . يوم تضطرب فيه قوات السماوات . يوم تتساقط فيه الكواكب . يوم تنحل فيه السماء والأرض تنطوى كالرداء . يوم يجرى قدامه طوفان النار . يوم يظهر فيه الصديقون متلألئين مثل الشمس . يكون فيه الخطاة مساقين بملائكة لا ترحم . مقيدين بالقيود الجهنمية إلى السجن الجحيمى الذى لا انفكاك منه .

« فأسألكم يا أخوتى بلين المسيح ووداعتـــه أن لا يثقل عليكم كلامى . لأنى نطقت به من مرارة نفسى بصفتى أبوكم الشفيق . وأنا مثل الوالدة كثيرة الحنان على أولادها . والذى أرجوه من الرب وأتمناه دائماً . وأطلبه من رحمته أن لا يكون من هذا الحال حاله . بل تكونوا جميعاً كجسد واحد مؤلف من أعضاء كثيرة . شفوقين . رحيمين . محبين . غيورين على فعل الخير . طاهرين مخلصين لله وللناس . مقدسى النفس والجسد والروح . وهذا إكليلى وفخرى . وهذا نياحى وراحتى وفردوسى . أن تكونوا رعية بلا لوم قدام الله لأنكم جميعاً جسدى وروحى . وثمرة أحشائى . وجرحكم كلها فى ضميرى .

« فالمطلوب من هذا جميعه . ونتيجة خطابنا لكم . تقوموا جميعكم معنا بنفس واحدة وغيرة مرة . وقلب ممتلىء من خشية الله كلكم . الأغنياء والفقراء . الرجال

والنساء . الشيوخ والشبان . الكهنة والرهبان والعلمانيون . فترجعون عما يغضب الله إلهنا . وننزع القساوة من قلوبنا . ونسالم بعضنا بعضاً . ونقطع العادات الردية عنا . ونلازم الطهارة التى بدونها لا يعاين أحد مجد الله .

ومن كان ناقصاً فى شىء من ذلك فلنصلى كلنا من أجله . ونقول يارب لا بغضبك تبكتنا . ولا برجزك تؤدبنا . بل برحمتك دبرنا . وارحمنا يا رب فإننا ضعفاء ومساكين . وأشفق يا إلهنا على شعبك . وغنم رعيتك . لأننا صرنا كمثل الخراف وسط الذئاب . ومثل الغنم التى لا راعى لها . فلتدركنا مراحمك يا رب . فإننا نأتى إليك بنية صالحة وقلب مستقيم . فليرفع ربنا عنا هذه التجارب فى هذا الدهر الفانى . وفى الدهر الآتى . ويمتعنا بملكوته الأبدية بما لم تره عين . ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر . ويسمعنا وإياكم صوته الفرح القايل : تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملك المعد لكم قبل إنشاء العالم فليكن لنا جميعاً بنعمة ربنا يسوع المسيح .

كونوا محالين مباركين من فم الله القدوس . ومن فم الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية الكنيسة . ومن أفواه الآباء وأصحاب المجامع الثلاثماية والثمانية عشر بنيقية والماية والخمسين بالقسطنطينية . والمايتين بأفسس . ومن فى أنا الحقير « مرقس » خادم بنعمة الله الرتب المرقسية . التى لا تحد ولا تدرك بسلام الرب يحل عليكم والبركة والنعمة تحوط بكم مدى الليالى والأيام . والشكر لله دايما .

(طبق الدرج الأصلى المحفوظ بالقصر البطريركى) [1] .

ومن نعمة الله أن الشعب استجاب لنداء باباه الفائض بالمحبة فاستقامت أمـــوره .

---

(١) كامل صالح نخلة « سلسلة ... » الحلقة الخامسة ص ٨٤ ـ ٨٨ .

ب - تقييم الحملة الفرنسية

١٧٦ - بين التعمير والتدمير

١٧٦ - قبل متابعة سير التاريخ فى منعرجاته وانفراجاته ، بل حتى قبل الحديث عن أراخنة القبط فى هذه الفترة العصيبة - قبل هذا وذاك نقف قليلا لنستعرض السنوات الثلاث (والواحدوعشرين يوماً) التى عاشها الجنود الفرنسيون على أرضنا المشتهاة . فقد جاءنا نابليون ليغزو مصر . وكم من غزاة داسوا بأقدامهم الغليظة هذه الأرض الطيبة . ولكن نابليون لم يكن رجل حرب وحسب ، بل كان رجلا يسعى إلى فتح آفاق العلم أيضاً . فقد استحضر معه مئة عالم فى شتى ميادين العلوم والآداب ، منهم المؤرخين والفنانين والجغرافيين ، ومنهم الأطباء ورجال العلم والبحث . ولم يستحضرهم بأشخاصهم فقط بل استحضرهم بكافة الأدوات والآلات اللازمة لتأدية عملهم أيضاً . وقد انتشر هؤلاء جميعاً فى مختلف بلاد مصر من البحر الأبيض إلى أسوان . وما زال بين أيدينا المؤلف الضخم الذى كان إحدى ثمرات الجهود التى قام بها هؤلاء العلماء ، ويقع فى أربعة وعشرين مجلداً : كل مجلد منها كبير الحجم ضخم المحتويات ، واسمه « وصف مصر »[1] . وهذه الموسوعة هى أعظم مجهود علمى بذل حتى بداية القرن التاسع عشر ، وقد قسمت إلى ثلاثة أقسام رئيسية : الآثار ، الحالة الحديثة والمعاصرة إلى وقت الحملة الفرنسية ، الخواص الطبيعية لمصر .

كذلك استحضر نابليون ثلاث مطابع معه : عربية وفرنسية ويونانية ، ولو أن « وصف مصر » لم يطبع فى مصر لأن العلماء قضوا وقتهم فى جمع المعلومات والصور والخرائط أثناء إقامتهم فى بلادنا . فلما عادوا اشتغل ستون عالماً بتنسيق

---

(1) Description de l'Egypte .

كل هذه المعلومات والصور والخرائط ، ورتبوها لتأتى بالفائدة المرجوة منهـــا [1] .

ثم شاءت المراحم الإلهية أن يعثروا على حجر رشيد . وحالما عثروا عليه أحضروه إلى القاهرة . فأمر نابليون لتوه بعمل نموذجين لهذا الحجر . وواحد من هذين النموذجين هو الذى استعمله شمبليون فى الكشف عن ســـر الكتابة الهيروغليفية ففتح للعالم معرفة الحضارة الفرعونية . وهذا العمل وحده يكفى لأن يجعلنـا نحس بالعرفان نحو هؤلاء العلمـاء الفرنسيين الذين جاءوا مع الحملة . وقد اضطر شمبليون إلى استعمال نموذج دون الحجر الأصلى الذى استولى عليه الانجليز يوم أدخلوا الترك إلى مصر تحقيقاً لأغراضهم من إبعاد فرنسا عنهـا . ولا يزال هذا الحجر الأصيل يتوسط مدخل الجناح المصرى بالمتحف البريطانى بلندن .

ومن أهم ما نشره الفرنسيون الوسائل الطبية . فقد علم الأطبـاء المرافقون للحملة الشعب المصرى معنى تبليغ الطبيب عن المريض حالما تبدو عليه علامات المرض ليسارع الطبيب إلى معرفة نوع المرض ومعالجته . ومن هذا التبليغ علموا الناس أيضاً وجوب تبخير الملابس والأثاث وتعريضها للشمس على الأسطح ، كما علموهم وجوب عزل المرضى عن الأصحاء إذ أقاموا الكرنتينات كلما سمعوا بالوباء أو بالطاعون . فأفادوا الشعب المصرى بتعليمه كل هذه الوسائل [2] . كذلك وضع كبير الأطباء منهم رسالة عن الجدرى وكيفية علاجه ، وأرسل نسخة منها لكل عضو من أرباب الديوان كى ينشروها على الشعب ويستعملوا ما أشار به من أدوية للتغلب على هذا المرض [3] .

---

(١) « تاريخ مصر الحديث » لمحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٧٤ .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٨٢ و ج ٢ ص ١٠٠ – ١٠١ .

(٣) الجبرتى ج ٢ ص ٩٠ .

ومن أهم التنظيمات الاجتماعية التى أوجبوها تسجيل المواليد والزواج والوفيات، واستتبع هذا التسجيل ضبط المواريث والأملاك، ومن ثم تمكن القاضى الشرعى من الحكم العادل فى هذه المسائل [1].

ولقد كان «المعهد العلمى المصرى»[2] وسيلة لتفتيح الأذهان. كما أن الديوان الذى أنشأه نابليون قد هيأ الفرصة أمام المصريين لأن يقوموا بدور إيجابى فى مجتمعهم ويتبادلوا الرأى معا. فكان هذا الديوان البذرة الصغيرة التى لم يتمّ نموها وقتذاك والتى رغم ذلك كانت أساس مجلس الشورى الذى تألف أيام الخديوى اسماعيل، ثم بعد سنين طويلة قامت الحياة النيابية البرلمانية كامتداد له.

وبالاضافة إلى هذا كله فالحملة الفرنسية قد أيقظت الشعب المصرى كشعب، وجعلته يحس بكيانه. وإليكم ماقاله أحد الكتاب المعاصرين: «ولقد ظلت القومية المصرية فى ذلك الركود البشع حتى كانت الحملة الفرنسية الوافدة من بلاد لا هى عربية ولا تركية... فهزّت الشعب المصرى هزًّا عنيفاً... كانت كل القوى المتصارعة التى لها مصلحة فى طرد الحملة الفرنسية تسعى إلى استمالة الشعب المصرى إلى جانبها... حمل السلاح بشكل واسع لأول مرة منذ أجيال طويلة، فشعر بذاته وبقوته وتحددت قوميته، ونبع من صفوفه أبطال وقادة مثل البشتيلى والخضرى وحامل العلم الجماهيرى الحقّاق عمر مكرم»[3].

من هذا كله يتضح لنا أنه رغم الأهوال والخطوب، ورغم القلق النفسانى الذى ملأ القلوب. فإن مصر ـ والعالم كله ـ قد انتفع من مجىء نابليون ورجاله إلى البلاد المصرية. فالأوجاع والضيقات قد زالت، أما النتائج العلمية والديمقراطية

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٩٣ ـ ٩٤.

(2) Institut d'Egypte.

(٣) «دراسات فى تاريخ مصر ...» لفوزى جرجس ص ٢٥ ـ ٣٠.

والاجتماعية والفنية فلا تزال باقيـــة . ولنسجل هنا شهادة رجل ينتمى إلى الامبراطورية التى كانت تناوىء فرنسا إذ ذاك وهى : « لقد أخذ بونابرت معه بعثة من العلماء ، والعمل المذهل الذى قام به هؤلاء العلماء خلال إقامتهم القصيرة قد كشف لمصر عن نفسها كما كشف عنها للعالم الغربى . لقد كان فجراً لحياة جديدة لها . . . »[1] ثم جاء أمريكى فى وقتنا الحاضر وقدم بدوره شهادة عن هذه الحملة فقال : « رغم قصر مدتها وفشلها فالحملة الفرنسية كانت فترة مليئة بالنتائج الحاسمة لمصر . فحملة بونابرت أظهرت الشرق الاوسط وعلى الأخص مصر كمنطقة غاية فى الأهميـة الاستراتيجية للقوى العظمى . . . أما فى مصر فقـــد هيأت الطريق لتغييرات كانت السبب - خلال قرن - فى تطوير البلاد[2] » .

وتوكيد هذه الحقائق يستهدف ثلاثة دروس على غاية من الأهميـة : الأول هو أن الفشل أو النجاح ليس مقياساً لقيمة العمل . فالعمـل البنّاء مبؤتٍ ثماره إن عاجلا أو آجلا رغم كل مظاهر الفشل . فالعبرة هى فيما يجتنيه الانسان من هذا العمل ، والانسان هنا قد يكون ضمن الجيل الثالث أو الرابع .

(١) فالنتاين تشيرول : « الغرب والشرق » ص ٧٢ حيث قال ما نصه :

" He (Bonaparte) took with him a French Scientific Mission whose amazing work during the brief years of French occupation revealed Egypt to herself as well as to the western world, It was the down of a new life for her ... " .

(٢) ب . م هولت : «مصر والهلال الخصيب» ص ١٥٩ - ١٦٠ حيث قال ما نصه :

" Breif and unsuccessful though the French occupation had been, it was an episode fraught with consequences for Egypt ... with Bonaparte's expedition . . . the near East, Egypt in particular, was revealed as an area of immense strategic importance to the great powers ... Within Egypt, the French occupation prepared the way for changes which, in a Century, were to transform the Country " .

والدرس الثانى هو الإمكانيات والحيوية وقوة الاحتمال التى أودعها الله داخل شعب مصر . وهذه القوى هى التى مكنته من البقـــاء رغم الغزوات والبطش والضيق . فكم من شعوب تلاشت أمام اضطهادات أقـــل قسوة . ولكن هذا الشعب الصبور الصامد قد عرف أن ينتصر على عوادى الزمن . وكلما سنحت له الفرصة برزت قواه وثبتت حيويته . وهذه نعمة من النعم الإلهية التى خصّ بها شعبه الذى وعد ببركته .

أما الدرس الثالث فهو أن الترك الذين طالما تغنى الكتّاب بشجاعتهم الحربية ، والمماليك الذين كانت أبرز صفاتهم الحرب والطعان - هؤلاء وأولئك تراجعوا ، بل وفرّوا أمام الفرنسيين . فى حين أن الشعب المصرى الذى لا يجد غير السخرية من غالب الكتّاب لاستكانته وعجزه عن القتال هو الذى حارب الفرنسيين بعزيمة ماضية !

ومن المناسب أن نورد هنا مقتطفات مما جاء فى « وصف مصر » ، فقد قيل فى الفصل الخاص بالأدوية مايلى : « ان معظم الأدوية التى حافظ المصريون على استعمالها مستخرج من الخضراوات . . . وكل منهم يعرف الدواء المنـــاسب له ولا يستشير الطبيب إلا للأمراض الخطيرة أو فى حالات خاصـــة . والأدوية متوفرة بكثرة فى الاجزاخانات العديدة فى القاهرة وفى كل مدن مصر . وفى الاجزاخانات أيضاً تتوافر المشروبات المرطبة كالخروب والتمرهندى والعرقسوس والليمون والبرتقال مضافاً اليها أحياناً رائحة الورد أو الزهر أو البنفسج وسكان الريف يستعملون شَربة سائلة يحضرونها من الحنظل (العجور) الممزوج باللبن المخمر (الرائب) أو الماء . كما أنهم يغلون بعض النباتات ويعملون منها سائلا يستخدمونه لتطهير الجروح والخراريج التى يعصبونها بعد ذلك بشاش جاف سبق

لهم نفعه فى هذا السائل . . . ولدى المصريين أنواع من القطرة كلها فى شكل مسحوق ، وهى تتكون من أملاح (طبيعية أو صناعية) مجففة ومعها الشاش الذى نقع لفترة غير قصيرة فى سوائل قابضة . . . وهناك تركيبات يعتبرونها أدوية كالطيوب الملينة للبشرة أو كالمشروبات التى تعطى شيئاً من الدفء والاسترخاء أو كالمأكولات المقوية . . . كذلك يستعمل المصريون العدد العديد من وسائل التجميل ويحبون العطور ...[1] » .

أما عن القبط فقد جاء عنهم : « انهم من غير شك سلالة المصريين القدماء ، فقد احتفظوا بشكلهم الجسمى وبعاداتهم ولغتهم . ويبدو أن أصولهم ضائعة فى عهود سحيقة . ولون بشرتهم أشبه بلون بشرة الأحباش ، ووجوههم ممتلئة من غير انتفاخ ، وعيونهم جميلة سوداء صافية على شكل اللوزة وهى ذات نظرات ناعسة ، وشعورهم سوداء مجعّدة [2] . . . وبما أنهم لا يستطيعون الوصول إلى الوظائف الادارية الكبرى فهم يحتفظون بسر المهن التى يزاولونها ... ولكل بك ملتزم متصل به مباشرة يقضى معه جزء من السنة فى عاصمة المنطقة المنوط به حكمها. كذلك لكل كاشف كاتب قبطى له مساعد أو أكثر من بنى جنسه وليس للكاتب ولا لمساعديه مرتب خاص محدد . على أن لرئيس الكتبة فقط سب بارات يوميا بالاضافة إلى طعامه واقامته . أما الباقون فرتباتهم مرهونة بما يجمعون من الضرائب . . . مما دفع بالبعض منهم إلى محاولة الكسب غير المشروع بمختلف الوسائل [3] .

(١) « وصف مصر » الكتاب الأول « الدولة الحديثة » لروويه ص ٢١٨ — ٢٢٢ .

(٢) « وصف مصر » الكتاب الثانى الدولة الحديثة لروويه ص ٣ .

(٣) « وصف مصر » الكتاب الثانى « مذكرة عن الزراعة والصناعة والتجارة » لجيرار ص ٥٨٦ — ٥٨٧ .

حـ - أراخنة هذا العصر

١٧٧ - هدير وهدوء	١٨١ - المعلم ملطى
١٧٨ - شهادة سورى	١٨٢ - انطون ابو طاقية
١٧٩ - اسماء اعلام	١٨٣ - ابراهيم الجوهرى
١٨٠ - الجنرال يعقوب وفيلقه	١٨٤ - جرجس الجوهرى

١٧٧ - لئن كان تاريخ مصر يتشابه مع نيل مصر فالشبه فى أكثر من ناحية ، ومن يتتبع قصة هذا الوادى يجدها تسير هادئة أحياناً هادرة أخرى ، منسابة فى استرخاء أحياناً ، متكسرة على الصخور الصلدة أخرى . فهى تشبه إنسياب النيل فى هذا كله . وهناك تشابه آخر كنا نجده قبل انشاء السد العالى حين كان النيل يعلو فى موسم الفيضان وتفور مياهه المحمرة المليئة بالطمى ، ثم يهبط منسوبها تدريجاً وتصبح هادئة ذات لون على شىء خاص من الاخضرار يطلق عليه الاجانب « أخضر نيلى »(1) . ففى موسم الفيضان تتكاثر مياه النيل وكأنها تتزاحم ، ثم إذ بها تتناقص وتهدأ . هكذا أيضاً قصة الكنيسة بصفة خاصة وتاريخ مصر بصفة عامة . فنجد فترة مليئـــة بالشخصيات هادرة بالأحداث ، ونلتقى بأخرى هادئة منسابة . والفترة التى بدأت بثورة على بك الكبير وامتدت لتشمل الحملة الفرنسية من تلك الفترات الكثيفة : فهى لم تزخر بالحوادث الجسام فقط بل زخرت أيضاً بالرجال البارزين : منهـم الجنود المجهولين ومنهم القادة الذين أوصل لنا التاريخ قصتهم . وهؤلاء وأولئك قد قدموا لنا مثلا يجب أن نحتذى به هو انهم خلال العواصف والأنواء ، ووسط الاجناس المتباينة التى سطت على مصر ، نجحوا فى الاحتفاظ بالقومية المصرية كما نجحوا فى ابرازها كلمـــا سنحت لهم الفرصة . كانوا أوفياء لهذه الارض الطيبة وركزوا ولاءهم عليها على مدى العصور . فنجد مثلا أنه حين ثار على بك الكبير ونجح فى الاستقلال بمصر كان المعلم رزق من ورائه يخدمه ويؤازره . وليس من

(1) Nile Green .

شك فى أن المعلم رزق لم يكن وحده - فاليد لا تصفق وحدها - ولو أنه كان أبرز المجاهدين إلى جانب المملوك الثائر[١].

١٧٨ - وثمة مثل آخر يؤكد هذا الاعتزاز بالقومية مدعماً بالاعتزاز بالكنيسة يقدمه لنا كاتب سورى إذ يقول : « أن كنيسة أقباط مصر قد قامت استجابة للمواطف القومية . فهى على مدى خمسة عشر قرناً قد حافظت على الإيمان فى وجه سطوة الحكام المتشامخين والاضطهادات المتوالية ... فأعظم من أية جروح أوقعها بها الاضطهاد أو البدع هى تلك الجروح التى تحملتها البقية من الاوفياء طوعاً من أجل جعالة الدعوة العليا[٢] . . . »[٣].

١٧٩ - وفى هذه الفترة التى تكشفت فيها الحوادث إزداد فيها وضوحاً هذا الوفاء القوى وهذا التمسك العقيدى . فكتب البابا مرقس الثامن ما كتب وسار على هديه الأبناء . ومن الاراخنة الذين لم يقدم لنا التاريخ غير كلمات قصيرة عنهم : المعلم لطف الله المصرى أحد الأعضاء الستين الذين تألف منهم الديوان العام الذى أنشأه نابليون . وشاركه هذه العضوية المعلمون ابراهيم جر العايط والشيخ ابراهيم مقار والشيخ ابراهيم كاتب الصرة . على أنه حين قضت ثورة القاهريين على هذا الديوان العام تشكل بدلا منه ديوان خاص يتألف من أربعة عشر عضواً فقط كان

(١) الموجز . . . ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) فيلبى ٣ : ١٤ .

(٣) أدوارد جبره جورجى . « الشرق الأوسط ، دينه وثقافته » (بالانجليزية) ص ٧٥ حيث يقول ما نصه :

" . . . the Copts of Egypt whose church arose in response to the national sentiment. For fifteen centuries it guarded the faith against odds of arrogant rulers & recurrent persecutions . . . Greater than anyscar that heresy might have caused them to carry, were the wounds that the loyal remnant willingly endurd for the prize of the high calling . . . ".

المعلم لطف الله المصرى أحدهم[1]. أما ابراهيم جر العايط الذى جاء اسمه على رأس قائمة الاعضاء فقد كان من كبار تجار مصر وأعيانها. فلما أصبح عضواً بالديوان العام وضع تقريراً مدعماً بالبيانات والاحصاءات عن حالة مصر الاقتصادية والتجارية. ولا تزال نسخة من هذا التقرير محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس[2]. القس روفائيل الذى يوصف باستمرار « بالمترجم الكبير »[3]. المعلمان نصر الله ويوحنا روكه اللذان اشتغلا بالترجمة أيضاً[4]. المعلم عبد الله الذى طولب بجمع العمال لاقامة المتاريس أثناء المعارك التى دارت بين الفرنسيين والانجليز[5]. المعلمون سدرة الشماع وبانوب الجيزاوى وجرجس سراباموس وملطى ساروفيم ويوحنا الصولى الذين عينهم نابليون رؤساء للمالية فى بعض المديريات[6]. حنا بينو المتولى على بحر بولاق بجمع المراكب وشحنها[7].

١٨٠ - هؤلاء الرجال لانعرف عنهم غير ما تحمله هذه الكلمات القليلة. إلا أنها رغم قلتها تمكننا من أن نلمح أهميتهم فى المجتمع الذى عملوا من أجله. وبما أن هذا اللمحة عابرة يمكننا اعتبارهم ضمن الجنود المجهولين. أما المعروفون فقد تواترت أسماؤهم على الأسماع فى مختلف المناسبات. ولنبدأ بيعقوب حنا لان سيرته مثار الجدل: فالبعض يرون فيه رائداً مقداماً سبق جيله فى تفكيره،

(١) من مقال القمص صموئيل تاوضروس السريانى نشره فى مجلة المحبة عدد ٧ سنة ٣٥ (يوليو سنة ١٩٦٩) ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ١٣ — ١٤ .

(٣) « عجائب الآثار ... » ص ١٣٧ و١٣٨ و١٤٢ و١٧٩ .

(٤) الجبرتى ج ٢ ص ١١١ و ١٨١ ؛ « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ج ٣ ص ١١٩ .

(٥) الجبرتى ج ٢ ص ١٠٨ .

(٦) « الجنرال يعقوب » تأليف لجنة التاريخ القبطى ص ١٦ .

(٧) « عجائب الآثار ... » ج ٣ ص ٧٥ .

بينما يصمه البعض الآخر بأن انضم إلى الفرنسيين لمنفعته الشخصية .

ولد يعقوب حنا فى ملوى . وتعلم فى الكتّاب تبعاً للعادة . وكان ذكياً طموحاً ، لجمع كل ما يستطيعه من المعلومات . ولما بلغ العشرين من عمره ألحقه أبوه بخدمة كاتب عند أحد أقاربه المسئولين عن جباية الضرائب لأحد المماليك. وهنا أيضاً دأب يعقوب على تحصيل ما يمكنه من المعلومات الادارية والحسابية . ثم برز بشكل واضح فى تيار على بك الكبير وسياسته الدينية السمحة ، وتمكن خلال العمل لدى سليمان بك (من أبرز مماليك على الكبير) من أن يتتبع أحوال مصر السياسة والمالية والعسكرية فاكتسب خبرة واسعة كما نجح بما أبداه من المهارة والدقة والأمانة من أن يكتسب ثقة هذا المملوك الذى جعله مديراً عاماً لماليّته . ولم يكتف يعقوب باكتساب المهارات العقلية بل تعلم من المماليك ركوب الخيل واستعمال السيف .

ثم تزوج من ابنة عمه وأنجب منها ولداً . ولكن الولد مات فى طفولته ولحقت به أمه فى نوبة من نوبات الطاعون . وبعد موت زوجته الاولى بأثنتى عشرة سنة تزوج من فتاة سورية (من حلب) [1] .

وحدث حين استقر المقام بنابليون بونابرت فى القاهرة أنه طلب إلى المعلم جرجس الجوهرى ـ عميد القبط آنذاك ـ أن يقدّم اليه بعضاً من رجال القبط الذين يمكن الاستناد إليهم فى إدارة الأمور. فقدّم إليه يعقوب مع الخمسة الذين سبق الحديث عنهم بأن نابليون قد عينهم رؤساء . فهو قد عين الخمسة لذلك العمل ولكنه استبق يعقوب وعيّنه مديراً عاما للحملة الفرنسية . وكان يعقوب قد أحرز لقب « معلم » كما نجح فى اقتناء ثروة ضخمة . فلم ينهض بأعباء تموين

---

(١) جاء فى كتابى يعقوب نخلة روفيلة والجبرتى انه لم يتزوجها تبعا لطقس القبطى .

الجيش الفرنسى المنتشر على طول النيل لحسب بل انه قام أيضاً بإدارة مالية الوجه القبلى من توزيع الضرائب وجبايتها بالاضافة إلى تنفيذ الاوامر الادارية التى كان يصدرها الجنرال ديزيه . نفذ هذا كله بدقة فائقة حتى أطلق عليه شريف مكة لقب « عظيم حملة ديزيه فى الوجه القبلى » .

وحدث أن تأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن دفع الضرائب فأمر الجنرال بليار باحتجاز مشايخها رهينة عنده . فلما علم المعلم يعقوب بذلك احتج ونصح الجنرال المذكور بعدم ارهاق الأهلين . فوافقه ديزيه على ذلك وتم الافراج عن الرهائن .

ولما نجح الجيش الفرنسى فى اخضاع الصعيد كله حتى أسوان ، رجا الجنرال ديزيه من المعلم يعقوب أن يفكر فى وسيلة يتمكن بها من الاتصال بجنوده المتناثرين فى الوادى . وبعد التفكير اهتدى إلى الحل الوحيد يومذاك وهو تنظيم فرقة من الهجانة تتولى أعمال البريد . فنالت هذه الفكرة أعجاب ديزيه .

وباشتراكه مع الحملة الفرنسية ، ومن خلال تجاربه السابقة ، أخذ المعلم يعقوب يفكر فى أنه يجب على أبناء مصر أن يقوموا هم أنفسهم بحمايتها متى استدعى الامر . فتفاهم فى الموضوع مع ديزيه الذى أصبح صديقه . ونتيجة لهذا التفاهم جمع المعلم يعقوب ألفين من شبان الصعيد الذين كانوا يشتغلون مع الجيش الفرنسى كصناع وعمال ، ووضعهم تحت التدريب العسكرى بأمرة ضباط إنتقاهم كليبر القائد العام بنفسه - فتألف بذلك الفيلق القبطى بقيادة يعقوب الذى منحه الفرنسيون لقب « جنرال » وهبوه سيفاً . كذلك منحوا ابن أخيه لقب « كولونيل » .

واعتاد الجنرال يعقوب أن يقيم الحفلات لتكريم القائد ديزيه وضباطه . ويصف لنا أحدهم حفلة من تلك الحفلات كما يلى : « حسب عادة البلاد كانت

القاعات التى استقبلنا فيها مفروشة بالحصر والسجاد والارائك وعلى جوانبها المساند . وقدم لنا الخدم الماء البارد الممتزج بالروائح العطرية فالقهوة ... وبعد نصف ساعة مدت مائدة كبيرة عليها أنواع من الكعك والفطير وأصناف الفاكهة والمربيات والألبان . وكان معظمها لذيذاً وله رائحة زكية . . . وبعد ساعتين مدت على المائدة (التى أزيل كل ما كان عليها) الخبز وطواجن الارز الدسم الممزوج باللبن وأصناف الخراف المشوية وأرباع العجول ، ورؤوس هذه الانعام مسلوقة ، وإلى جوانبها أكثر من ستين طبقاً تحوى أنواعاً من الخضر والفالوزج (البالوظة) والفطائر والعسل النقى . فلما انتهينا من الأكل غسل الخدم أيدينا ، وطيبوها بماء الورد ، ثم شربنا القهوة ثانية . . . وبعدنا جلس للأكل ضيوف يعقوب وحين فرغ هؤلاء جاء دور الخدم . . . » .

ويسترسل الفرنسى إلى وصف الخدم والحشم والجوارى السودانيات والحبشيات . ثم ينتهى إلى القول : « ويطول بنا الكلام إذا وصفنا كل ما كان يحيط بالمعلم يعقوب من مظاهر الأبهة والمجد . . . [1] » .

وحينما اضطر الفرنسيون إلى التسليم واستمر الجيش التركى بمعاونة الانجليز يتقدم فى زحفه على القاهرة ضاقت الدنيا فى وجوه المصريين أشد الضيق لان : « العساكر الذين مع الناس بالبلد صاروا يخطفون ما يجدونه بأيدى الناس من المآكل والمشارب وغلا سعر الماء ... فاعتصم الكبراء فى بيوتهم إذ امتلأت الشوارع والازقة بالرعاع من طالبى السلب والنهب والقتل . أما يعقوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع واستعد استعداداً كبيراً بالسلاح والعسكر المحاربين . وتحصن بقلعته التى كان قد شيدها بعد الواقعة الأولى . . . والمناداة

(١) يبدو من هذا الوصف أن يعقوب سار على خطة المماليك فيما أحاط به نفسه من وسائل الترف والبذخ . فلقد استعادت القاهرة رونقها من جديد رغم القلاقل والفتن .

فى كل وقت بالعربى والتركى على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس ...»[1].

ثم لما انتهى أمر الحملة الفرنسية بالهزيمة أمام الانجليز عزم الجنرال يعقوب على السفر إلى فرنسا . «فخرج بمتاعه وعازقه وعدى إلى الروضة وكذلك جمع إليه عساكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلى قائمقام وبكوا وولولوا وترجوه فى ابقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب صنائع مابين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم أنه يرسل إلى يعقوب أنه لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه» . وكان يعقوب يستهدف من سفره السعى إلى اقناع حكومة انجلترا بوجوب انشاء جيش مصرى صميم للذود عن وطنه . وقد رجا قبطان باشا حسن (الوالى التركى) من بليار أن يقنع الجنرال يعقوب بالبقاء فى مصر للانتفاع بمواهبه . ولكن يعقوب صمم على السفر . وقد سافر معه أمه وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخيه الكولونيل غبريال سيداروس وبعض الأقارب منهم الياس بقطر الذى كان قد وضع قاموساً فرنسياً عربياً . والمظنون أنه هو أيضاً ابن لأحد إخوة يعقوب .

أما كبار الأراخنة كجرجس الجوهرى فقد أعطاهم ابراهيم بك الأمان فخرجوا معاً وسلموا على قبطان باشا ثم رجعوا إلى دورهم[2] .

ولما أبحرت الباخرة فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١ وقف يعقوب على ظهرها يتطلع إلى شواطىء وطنه إلى أن غابت عن أنظاره .

على أن المنية عاجلته بعد ذلك بستة أيام فقط . وكانت آخر وصية له همسها فى أذن بلنيار وهو يحتضر هى رجاؤه بأن يدفن إلى جانب الجنرال ديزيه . وبالفعل نفذوا له وصيته .

(١) عجائب الآثار ... ج ٣ ص ٩٦ . (٢) شرحه ج ٣ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

وقد قال عنه محمد صبرى فى مؤلفه «تاريخ مصر الحديث» ما يلى: «إن يعقوب فى بداية الاحتلال الفرنساوى التحق بخدمة الفرنسويين الذين دخلوا مصر أصدقاء يحملون راية جديدة هى راية الحرية، وبارح مصر على رأس وفد مصرى مؤلف من أعيان القبط. وكانت فكرته الاساسية مخاطبة انكلترا فى أمر استقلال مصر. ولكن وفاته العاجلة فى الطريق قضت فجـأة على مشروع مفاوضة دول أوربا فى ذلك الاستقلال».

بينما يقول عنه دكتور شفيق غربال ما يلى: «أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخليص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى، وإنما هو مزيج من مساوىء الفوضى والعنف والاسراف، ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمـة مستمرة... وثانى ما فى تأييده هو إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك الوقت) مدربة على النظم العسكرية الغربية...» ثم انتهى إلى القول: «والذى نروم أن نذكره وننبه إليه هنا على ضوء الوثائق التى وجدت حديثاً فى محفوظات وزارة الخارجية الانكليزية هو أن فكرة الاستقلال المصرى التى نشأت فى ظـل حملة بونابرت كانت قد خطرت منذ فجر القرن التاسع عشر للمصريين. فإن واحداً منهم وهو المعلم يعقوب القبطى أعرب عنها بلسانهم. إلا أن موته قبل الأوان حال بينه وبين عرض هذه القضية والدفاع عنها أمام وزارات أوربا»[1].

كذلك نقرأ فى كتاب «أصول المسألة المصرية» ما يلى: «وقد أخفقت الحملة الفرنسية عسكرياً ولكنها أفلحت فى توجيه أضواء العلم الحديث إلى ماضى مصر

(١) وردت تفاصيل حياته فى كتاب «الجنرال يعقوب واستقلال مصر» للجنـة التاريخ القبطى، ويصف الجبرتى فى كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ج ٣ ص ١٦٢ تفاصيل حركة يعقوب القبطى موضحاً فى الوقت عينه أنه هدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى وبنى مكانها قلعة ذات سور وأبراج اتخذها مسكناً له وأقام عليها حراساً من شباب الفيلق الذى ألفه.

البعيد ولفت نظر الدول لفتاً عنيفاً إلى أهميـــة مركزها السياسى ثم فتح نفوس بعض أبنائها التيارات الغربية الحديثة . ونحن نجد أول صدى هذه التيارات فى مشروع المعلم يعقوب لتحرير مصر من الحكم العثمانى . ويعقوب من الأقباط الذين لازموا الفرنسيين منذ بدأت حملتهم فتمثل آراءهم السياسية . . . وقد اتجه الألفى بعد يعقوب إلى الانجليز واستعان بهم فى محاولة استعادة الحكم فى مصر . . . ولكنه لم يكن فى ذلك أكثر من حاكم معزول يلتمس السبيل إلى استرداد حكمه فلم يرتفع إلى الوعى الذى بلغه يعقوب »[1] .

ومقابل هذا الثناء والتقدير يقول لنا يعقوب نخلة روفيلة : « إن يعقوب حنا سار فى خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه ... فإنه فضلا عن مخالفته لهم فى الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية . كما أن رجال الدين ولا سيما البطريرك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله . . . وسمعت من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريرك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة فلم يقبل . وعاوده بالنصيحة مرة أخرى فجاوبه جواباً عنيفاً ... وسمعت من آخر أن ما كان بينه وبين البطريرك من المنازعة والمشاحنة دفعه إلى التجرؤ على الدخول فى الكنيسة مرة راكباً جواده وشاهراً سلاحه ... »[2] .

ويعلق وليم سليمان على هذا الكلام بقوله : « يقف البطريرك والكنيسة هذا الموقف من يعقوب فى وقت لم تكن القومية بالمعنى الحديث قد ظهرت فى مصر ، وفى ظل حكم المماليك ومؤامراتهم المتواصلة للتفرقة بين جماهير الشعب تمكيناً لسلطانهم ، ومع وجود الحملة الفرنسية فى البلاد وهى التى استمالت الكثيرين ومن

---

(١) لمؤلفه صبحى وحيده ص ١٢٩ — ١٣١ .

(٢) فى كتابه تاريخ الأمة القبطية ص ٢٨٩ — ٢٩٠ ، راجع أيضا يوميات الجبرتى ج ١ ص ٦٧ و ج ٢ ص ٣٧ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٦٣ ، ١٣٤ ، ١٨٤ .

بينهم بعض رجال الأزهر وراضح أن هذا كله لا يمس القيمة التى أثبتها الدارسون لمشروع الاستقلال الذى تبنّاه يعقوب وصحبه »(١).

والذى يتضح لنا من تتبع سيرة الجنرال يعقوب أنه - وان تطلع نحو استقلال الوطن ونحو تأليف جيش وطنى - لم يكن خادماً للكنيسة اطلاقاً . بل لقد اتخذ أحياناً موقفاً معادياً منها . فلم يقل عنه أحد - حتى مادحوه - انه بنى كنيسة أو رممها أو وقف عليها شيئاً من أمواله الطائلة ، ولا انه صرف على نساخة الكتب الكنسية أو ساهم فى أى مشروع كنسى .

أما أشهر رجال الفيلق القبطى فهم :

١ - الكولونيل غبريال سيداروس الذى كان يشتغل فى دائرة ابراهيم بك وقت دخول الفرنسيين مصر ، ثم تولى أعمال محمد بك الألفى مدة سنتين . وبعد ذلك اشتغل دليلا فترجماً فوكيلا للقائد كليبر ، ثم أصبح وكيلا فى فرقة الجنرال ديزيه . اشترك فى القتال مع عمه فى موقعة جرجا التى انهزم فيها المماليك والبدو شر هزيمة . كذلك حارب فى معركة أسوان وعين بعدها وكيلا الفيلق القبطى .

٢ - حنا هرقلى من مواليد منفلوط ، عبد الله منصور من مواليد القاهرة . وقد سافر ثلاثتهم مع يعقوب إلى فرنسا ، وانضموا إلى جيشها حين حارب الروس فى موقعة راجوز سنة ١٨٠٦ . وقد اعترف امبراطور فرنسا ببسالتهم ومنحهم وسام « جوقة الشرف »(٢) . أما الفيلق القبطى فقد صدر الأمر بتسريحه من وزارة الحربية الفرنسية فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٤(٣).

(١) فى كتابه « الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية الصادر عن وزارة الثقافة الهامش على ص ١٢ ، راجع أيضاً مقالا للأستاذ فرنسيس العتر نشره فى مجلة « الحق » العدد الثالث من السنة الرابعة (نوفبر سنة ١٩٥٣) ص ٢٠ - ٢٣ .

(2) Légion d'Honneur

(٣) الجنرال يعقوب لجنة التاريخ القبطى ص ٢٧ - ٢٩ .

١٨١ - المعلم ملطى يوسف - كان من مواليد حارة السقايين [١]، تلقّى تعليمه في الكتاب كغيره من أبناء القبط. وكان متفتّق الذهن فاستوعب كل ما أمكنه استيعابه من تعليم. وقد بلغ سن الرجولة حين كان محمد أبو الذهب مسيطراً على البلاد، وكان بين أكابر رجاله الدفتردار [٢] أيوب بك الذى رأى أن يعين المعلم ملطى فى ديوانه لثقته فى دقته وأمانته. فاستمر يؤدى هذا العمل إلى أن دخل الفرنسيون مصر. ولقد سقط أيوب بك فى المعركة الأولى التى شنّها الفرنسيون. ووجد المعلم ملطى نفسه من غير عمل إذ ذاك فاعتكف فى داره فى صمت وهدوء يرقب الحوادث. ورأى كيف أن نابليون هدم الكنيسة المرقسية بالاسكندرية ومنارتيها الحصينتين بحجة أن الانجليز قد يعتصمون فيها ليقاتلوه من عليها.

ولما استقر الأمر بالفرنسيين لاحظوا أن المحاكم الوحيدة الموجودة فى مصر هى المحاكم الشرعية: وأراد نابليون بإزاء هذا الواقع أن يقوم ببعض التشريعات استرضاء للأهالى وسعياً إلى تحسين حال القضاء. ولتنفيذ رغبته أنشأ ديواناً عاماً يتألف من ستين عضواً برياسة الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر. وكان من بين أعضائه أربعة من القبط [٣]. على أن ثورة القاهريين التى اندلعت بعد مجىء الفرنسيين بشهر أطاحت بهذا الديوان. فلما هدأت الثورة رأى الفرنسيون أن يستبدلوا الديوان العام بديوان خاص لا يضم غير أربعة عشر شخصاً يستمر الشيخ الشرقاوى فى رياسته. ثم جعلوا المعلم ملطى قاضيه الكبير ورئيس مجلسه التجارى وفوضوا إلى هذا الديوان أمور التجارة والمواريث والدعاوى المختلفة. ثم رأوا أن يعقدوا جمعية عمومية لهذا الديوان فاستقدموا مشايخ البلاد وأعيانها،

(١) حى قديم من أحياء القاهرة مجاور لقصر عابدين، تقوم فى وسطه كنيسة مبنية باسم الملاك المبجل غبريال.

(٢) منصب الدفتردار يعادل منصب وزير الخزانة الآن.

(٣) سبق ذكرهم قبل الحديث عن الجنرال يعقوب.

وانضم اليهم أعيان التجار وكبار القبط والشوام ومديروا الديوان من الفرنسيين. فلما التـــأم جمعهم شرع المعلم ملطى فى قراءة فرمان الشروط ثم بدأ فى المناقشة. وكان من واجباته فى كل جلسة افتتاحها واستهلال مناقشاتها. فكان ذلك دليلا على تقدير المشايخ وكبار التجار والمزارعين له (١).

وحدث أن رأى المسئولون فى هذا الديوان وجوب كتابة حجج الأملاك، فمن كان لديه الحجة مكتوبة يحضرها إلى الديوان، ومن لم يكن فى يده حجته أعطوه ثلاثين يوما مهلة ً لكتابتها واحضارها. واجتمع أعضاء الديون بعد هذا الموعد المقرر ولما تكامل الجمع شرع ملطى فى قراءة المنشور وتعداد مابه من الشروط مسطور وذكر من ذلك أشياء: منهـــا أمر المحاكم والقضايا الشرعية وحجج العقارات وأمر المواريث، وتناقشوا فى ذلك حصة ً من الزمن، وكتب هذه الاربعة أشياء أرباب ديوان الخاصة وهم يدّبرون رأيهم فى ذلك وينظرون المناسب والأحسن وما فيه الراحة لهم وللرعية (٢).

وكان المعلم ملطى نزيها محباً لمواطنيه القبط والمسلمين، كما كان وطنيا لم يقبل عضوية الديوان إلا حين رأى أنه سيكون مع غيره من مواطنيه وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوى. وقد حدث فى احدى الجلسات أن بدأ الفرنسيون يسألون عن تقسيم المواريث فى مصر ويقترحون تنفيذ القانون الفرنسى. فسألهم المعلم ملطى: «وما حكمكم فيه»؟ أجابوا: «نحن لا نورّث الولد بل نورّث البنت وحدها لأن الولد أقدر على اكتساب الرزق». فخشى إذ ذاك من أن تكون غايتهم فرض قانونهم هـذا. فنادى على المشايخ وسألهم عما يصنعونه فى قسمة

(١) الجبرتى (يوميات) ج ١ ص ٧٩ و ٨٧ وعجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١ ص ١٩ و ٢٢.
(٢) الجبرتى ج ٢ ص ٩٠.

المواريث أجابوا بأنهم يسلكون بمقتضى الشرع . فسألهم : « ومن أين لكم ذلك »؟ فردّوا عليه بأنه من القرآن ، وذكروا الآيات القرآنية المؤيدة لكلامهم . فقال ميخائيل كحيل العضو الشامى بالديوان إذ قد استشف ما يستهدفه ملطى من أسئلته: « نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون [1] » . وبهذه اللباقة اتفقت كلمة المواطنين ومعهم الشوام على مجابهة أى تشريع يفرضه عليهم المستعمر . لأن ملطى وكحيل طلبا لفورهما إلى المشايخ أن يكتبوا لهما كيفية القسمة ودليلها . فسايرهما المشايخ وكتبوا لهما ما طلباه .

وظل المعلم ملطى وزملاؤه القبط والشوام فى هذا الديوان الخاص حتى قبيل انسحاب الفرنسيين . وكان عبد الله مينو معارضاً فى الانسحاب بعد اشهاره اسلامه . وأراد أن يتودد إلى المسلمين فأخرج المسيحيين من الديوان كما رفت عدداً منهم من وظائفهم فى الحكومة . وبذلك فقد المعلم ملطى وظيفته للمرة الثانية . فلما أجلى الفرنسيون عن البلاد ودخلها الترك دخل معهم الدمار والبطش . وكان المعلم ملطى ضمن من قبضوا عليهم ، فقطعوا رأسه ورموها عند باب زويلة حيث بقيت ملقاة يومين قبل أن يجرؤ أحد على الخروج لحلها ودفنها مع جسده . فهو شهيد معروف بين الآلاف من الشهداء المجهولين . ثم استولى الترك على داره وأمواله . وجميع من كتبوا عن هذه الحقبة أجمعوا على أنه كان خادماً أميناً لوطنه ولمواطنيه [2] .

١٨٢ ـ المعلم أنطون أبو طاقية ـ هو سليل عائلة عريقة غنية : نما نفوذها فى عصر المماليك وازداد هذا النفوذ أيام الفرنسيين . اشتغل بالتجارة ونجح

(١) شرحه ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) مقال القمص صموئيل تاوضروس السريانى نشره فى مجلة المحبة عدد ٧ سنة ٣٥ ، ص ٢٣٢ — ٢٣٨ .

فيها إلى حد مكنه من جمع ثروة طائلة فبنى داراً فخمة فى حارة السقايين لا تزال آثارها باقية للآن [1] على مقربة من كنيسة الملاك غبريال التى بنيت فيما بعد فى عصر الانبا كيرلس الرابع (أبى الاصلاح) .وحينما استقرّ الأمر للفرنسيين عيّنوه عضواً فى مجلس التجارة ، ولما وجدوه أميناً نزيهاً أقاموه نائباً لحاكم مدينة بلبيس ، ثم لم يلبثوا أن جعلوه محاسباً لمصروفات الحكومة .وحدث أن عجز المصريون عامة عن دفع الأموال الطـــائلة المفروضة عليهم . فقبض عليه الفرنسيون وطالبوه بتسديدها عنهم . فدفعها ونال لنفسه الافراج وللشعب الراحة النفسية . وفى مثل هذا العمل دليل على أن ثروة المعلم أنطون كانت طائلة ، إذ كيف استطاع تسديد ديون شعب بأكله؟ وعلى ذلك قرّبه الفرنسيون وأعادوه إلى وظيفته « محاسباً » .

وفى سنة ١٧٩٩ وجد الفرنسيون أنفسهم فى حاجة إلى المال ، فزار نابليون نفسه المعلم أنطون ، وطلب منه ما يريده على أنه سلفة فقط ، فخلع طاقيته من على رأسه وملأها له مالا ، وعندما عدّه وجدوه يبلغ مليون وثلاثمائة ألف فرنك . فكتب له نابليون صكاً بذلك . ولكن الصك لم يكن سوى حبر على ورق لأن الفرنسيين لم يعيدوا من المبلغ فرنكاً واحداً لابناء ذاك الذى خـــدمهم والذى مات شهيداً .

وقد زعم البعض أن تسميته بأبى طاقية ترجع إلى ما فعله مع نابليون . ولكن التسمية ترجع إلى أن أباه كان يشتغل بتجارة الطواقى .

ثم عاد العثمانيون بمعاونة الانجليز فاستباحوا دم القبط وبالتالى سقط الآلاف من الشهداء . ونقرأ أن « قتـل الباشا ثلاثة أشخاص من النصارى وهم أنطون

(١) هذا ما جاء فى كتاب توفيق اسكاروس ج ٢ ص ٣٤٢ — وهذا الـكتاب طبع فى القاهرة سنة ١٩١٣ . ولـكن التغييرات التى شملت القاهرة منـذ سنة ١٩٥٢ قد امتدت إلى هذا الحى القديم كما امتدت إلى غيره .

أبو طاقية وابراهيم زيدان وعبد الله بركات معلم الديوان سابقاً . وفى الحال أرسل الدفتردار لختم على دورهم وأملاكهم وشرعوا فى نقل ذلك إلى بيت الدفتردار على الجمال ليباع فى المزاد فبدأوا باحضار تركة أنطون أبى طاقية فوجد له موجود كثير من ثياب وأمتعة ومصاغ وجواهر وغيرها وجوارى سود وحبوش وساعات واستمر سوق المزاد فى ذلك عدة أيام . وكان استشهادهم فى ٨ بؤونة سنة ١٥١٨ ش[١] (سنة ١٨٠٢ م) .

وهذا شهيد آخر نعرف اسمه ونعرف بعض الشىء عنه ولكننا لا نعرف عن الشهيدين الآخرين غير ما ذكر .

١٨٣ - أخيراً ، وعلى القمة ، نصل إلى الحديث عن أرخنين جليلين مازالا ملء الأسماع رغم مرور الزمن : هما المعلمان ابراهيم وجرجس الجوهرى وقبل الحديث عنهما يجب القول بأنه حدث سنة ١٩٤٢ أن أرادت جمعية اسمها « جمعية السيدات القبطية لتربية الطفولة » ، أن تحصل على إذن من المجلس الملى العام[٢] ببناء مدرسة على أرض فسيحة تقع ما بين كنيسة السيدة العذراء - قصرية الريحان - وكنيسة مار جرجس بمصر العتيقة . وقد حصلت على الاذن فعلا . وقد تبين لها أن الأرض من الأوقاف التى وهبها ابراهيم الجوهرى للكنيسة . وقد جاء فى حجة الوقف تعبير رائع عن وجوب استمرار العطية وهو : « نور لا يموت . وقنديل لا يطفأ » .

(١) عجائب الآثار ... ج ٣ ص ٢٢٢ ، توفيق اسكاروس ج ٢ ص ٣٤٢ - ٣٤٥ .

(٢) هو مجلس يتألف من أربعة وعشرين عضواً يختارهم الشعب بالانتخاب ، ومدة العضوية أربع سنين قابلة للتجديد عند الانتخابات التالية . وأول مجلس أنشىء سنة ١٨٨٢ م وسيأتى الكلام عنه فى حينه . يقول أنبا يوساب بن الأبح إن ابراهيم الجوهرى تنيح فى ٢٥ بشنس سنة ١٥١١ ش (مايو سنة ١٧٩٦) ، بينما يقول الجبرتى إن نياحته كانت سنة ١٧٩٥ م - وعلى أية حال فالتاريخان سابقان على الحملة الفرنسية .

والواقع أن المعلم ابراهيم تنيح قبل الحملة الفرنسية ، بينما ظـــل أخوه المعلم جرجس فى الخدمة إلى عهد محمد على . ولـكن بما أنهما شقيقان ، وبما أن اسميهما قد اقترنا معاً فى الأذهان ، أرجأنا الحديث عن الأخ الأكبر لنجمع بينهما فى الـكتابة كما جمع الله بينهما فى الانتماء .

. وأول ما يجب ملاحظته هو أن أبويهما كانا فقيرين متواضعين ، إذ كان أبوهما يوسف يتعيش من صناعة الحياكة . ولـكن الذى « يرفع الفقير من المزبلة ليجلسه مع رؤساء شعبه »[1] ، هو الله تعالى . فابراهيم الذى كان أبوه على هـذا الفقر بلغ من الجاه والثروة ما دفع الناس إلى اطلاق لقب « سلطان القبط » عليه . وهذا اللقب يتضح لنا من نقش قديم على حجاب أحد الهيا كل فى كنيسة بدير الأنبا بولا الذى عمّره هذا الأرخن الـكبير من ماله الخاص ، كما يبينه لنا القطمارس المحفوظ بذلك الدير .

تعـلم ابراهيم فى الـكتّاب كـغيره من أولاد القبط فى ذلك العصر . وبما أن الله قد حباه عقلا متفتحاً وبصيرة متطلعة فقد أتقن كل العـلوم التى كانت متيسرة له . وكان حتى وهو بعد صغير ينصرف إلى نساخة الـكتب الـكنسية ، فيصرف ما يعطيه له أبوه من دراهم على هذا العمل البنّـاء . ثم استمر بطبيعة الحال فى هذا العمل حين إلتحق بخدمة أحد المماليك ، واعتاد أن يقدم ما يكتبه إلى البابـا المرقسى الأنبـا يؤنس الثامن عشر . وابتهج البـابا بهـذا المجهود ، واستفسر عن المورد الذى يستند إليه فى الصرف على عمـله . فلمـا عرف حقيقـة الأمر قال له : « ليرفع الرب اسمـك ويبارك عملك وليقم ذكراك إلى الأبد » . وتوثقت المحبة بين البابا وابنـه المـكافح ، فأوصى به المعـلم رزق كاتب على بك الـكبير .

---

(١) مزمور ١١٣ : ٧ (مزمور ١١٢ من صلوات الساعة التاسعة فى الأجبية) .

واستجاب المعلم رزق لتوصية باباه فاتخذ من ابراهيم كاتباً مساعداً له . فلما انتهى الحكم إلى محمد بك أبو الذهب اعتزل المعلم رزق وظيفته وحل المعلم ابراهيم محله . وبانتقال الحكم إلى ابراهيم بك ومراد بك اتخذه الاول رئيساً لكتبة القطر المصرى . وهى وظيفة يمكن تشبيهها الآن برياسة مجلس الوزراء . فظل موضع ثقة ابراهيم بك إلى آخر نسمة من حياة هذا المملوك .

ومن نعمة الله أن صفت العلاقات بين القبط والمسلمين ، بل بينهم جميعاً وبين الأمراء . وثمة صورة لها روعتها تبين لنا مدى هذا الصفاء نجدها فى وصف الجبرتى لعرس ابنة الأمير محمد أغا البارودى (صهر مراد بك) قال : « وحضر . . . الأمراء والأعيان ... وكذلك جميع التجار والنصارى وكتاب القبط ومشايخ البلدان وبعد تمام أيام العرس . . . عملوا للعروس زفة لم يسبق نظيرها . ومشى جميع أرباب الحرف وأرباب الصنائع ومع كل طائفة عربة وفيها هيئة صناعاتهم مثل القهوجى بآلته وكانونه والحلوانى والفطاطرى والقزاز بنوله حتى مبيض النحاس والحيطان والمعاجينى ... وكان فى مجموعها نيفاً وسبعين حرفة وذلك خلاف الملاعيب والبهالوين والرقاصين ...[1] » .

على أن هذا الفقير الذى بلغ هذه المرتبة من الثروة والجاه والنفوذ لم يتشامخ ولم يستبد بالناس ، لأنه نشأ منذ البداية على خوف الله . فكان متواضعاً عطوفاً ، متفانياً فى خدمة الكنيسة والوطن معاً . حتى لقد شبهوا حياته بالدائرة المرسومة التى لا تعرف لها بداية ولا نهاية[2] . . . ومما لاشك فيه أن « لكل إنسان فى هذه الحياة قادح ومادح - وهذا الرجل كثر مادحوه وقل قادحوه ... » فماذا يقال فى رجل لم يتقدم أحد بذمه أو بنسبة منقصة إليه ؟ فإن قيل لرفعة مقامه

(١) « عجائب الآثار . » ج٢ ص ٢٢٤ .

(٢) « نوابغ الاقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر » لتوفيق أسكاروس ج١ ص٢٠٧

وهيبته ، فلم ُير أحد يغتابه فى غيبته . أو قيل خوفاً من سطوته فقد كانت ترتاح النفوس للتقرب منه لتعرض عليه ظلامة ً فيعدل فيها أو كربة فيفرجها »(١).

ولقد تزوج من إحدى قريباته شاركته مشاعره ووجداناته ، فسار كلاهما فى طريق المحبة والخدمة . ورزقهما الله بولد أسمياه يوسف وبابنة أسمياها دميانة، ربياهما فى خوف الله وتقواه . ولما بلغ أبنهما سن الشباب خطبا له شابة توسما فيها المشاركة الروحية والوجدانية . وهيأ له أبوه بيتاً أثثه بأفخر الأثاث . على أن المراحم الإلهية لم تسمح بهذا الزواج المرتقب إذ قد نقلت العريس إلى الفردوس قبل اتمامه . وبلغ من حزن المعلم إبراهيم أنه سمّر باب البيت الذى أعده بالمسامير ، ثم كسر السلالم كى لا يدخله أحد . فتداركته المراحم الإلهية بأن ظهر ملاك الرب له ولزوجته فى نفس الليلة وأعلن لهما أن الله نقل ابنهما حباً فيه ورفيها . فامتلأ قلباهما عزاءً لهذه الكلمات وأستمرا على خدمتها . وعلى حدبهما بالفقراء .

وعندما حدث الانقلاب الذى أحدثه مجىء حسن باشا قبطان المعين من الباب العالى فرّ إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد مستصحبين معهما المعلم إبراهيم وعدداً من رجالهما . وكان قبطان باشا كغيره من ولاة الترك غشوماً باطشاً ، فقتل ونهب قدر المستطاع . وبالطبع أستولى على بيوت الكبراء ومن بينها بيت المعلم إبراهيم والبيت الذى كان قد أعدّه ليوسف ابنه . وأضطرت زوجته إلى الاختفاء فى بيت حسن أغا كتخدا على بك . ولكن ناكرى الجميل دلّوا الباشا على مكانها ، فاستحضرها واضطرت إلى الاعتراف ببعض الخبايا . ثم استحضر ابنته دميانة أيضاً فطلبت إليه مهلة جمعت خلالها الفقراء والمعوزين وجاءت بهم إليه ، وقالت : « إن أموال أبى فى بطون هؤلاء وعلى أجسامهم » . وبهذا الجواب حمتها المراحم الإلهية من بطش ذلك العاتى (٢) .

(١) شرحه جـ ١ ص ٢١٢ .

(٢) ملتقى النهرين ص ٦٣٧ — ٦٣٨ .

ثم طلب حسن باشا قبطان إلى قاضي القضاة إحصاء ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهري عظيم القبط يومئذ على الكنائس والديارات من أطيان وأملاك وغير ذلك. ثم أحس بما وراء ذلك من الفشل وظهور الفتنة فخاف واستدعى اليه المعلم إبراهيم وكلمه في الأمر. فصالحه المعلم إبراهيم على مبلغ كبير من المال. فنودى فيهم بالأمان وعدم التعرّض لهم بمكروه فعادوا إلى ما كانوا عليـــه. على أن العساكر السلطانية لم تلبث أن عاودت الخطف ـ فعمّت الشدة جميع النصارى فضربت عليهم المغارم وطولبوا بخمسة وسبعين ألف ريال نقرة وأمر بإحصاء جميع دورهم وملكهم فأحصيت. فقرر عليها أجرة تدفع إلى خزينة السلطان. ثم ضرب عليهم غرامة أخرى قدرها خمسة آلاف كيس [1]. فضاقت عليهم الدنيا برحبها وباع الكثير منهم جميع ما عنده حتى ملابسه وملابس عياله. وقرر على كل شخص جزية جديدة قدرها دينار بلا فرق، وذلك خلاف الجزية الديوانية المقررة على كل واحد منهم. وتتبع الديارات وأخذ كل ما وجده فيهـــا من ودائع. وقبض على المعلم واصف أحد عظماء القبط يومئذ ورئيس حسابات الديوان المصرية وعليه جمع الايرادات والمصروفات. فجلده وحبسه وطالبـــه بالأموال. وكان المعلم واصف كاتباً حاسبا عاقلا حاد الذهن وقّاد الذاكرة. وكان يعرف التركية حق المعرفة [2].

على أن كل هذه المآسي دالت وانتهت حتى لقد تمكن إبراهيم بك ومراد بك

---

(١) كان الكيس يحوى ما قيمته خمسة جنيهات الآن (راجع أيضا «عجائب الآثار ..» ج ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) توثيق اسكاروس: «نوابغ ...» ج ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ نقلا عن الكافي ج ٣ ص ١٨٧ ـ ويبدو أن مؤلف الكافي نقل عن الجبرتي الذي يصف هـذا القبطي في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ج ٢ ص ١٢٠ بهذه الكلمات: «وواصف هذا أحد الكتاب المباشرين المشهورين ويعرف الايراد والمصاريف وعنده نسخ من دفاتر الروزنامة ويحفظ الكليات والجزئيات ولا يخفى عن ذهنه شيء من ذلك ...»

من العودة إلى القاهرة ومن استعادة السلطة . فعاد المعلم إبراهيم معهما واشتغل فى تلك الفترة ببناء السور البحرى بأكمله لدير كوكب البرية الانبا أنطونى . وهذا السور يعرف للآن باسم سور الجوهرى كذلك أحضر للدير ساقية . ورمم كنيسة السيدة العذراء المغيثة بحارة الروم . وشيّد بيعة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) بدير الأنبا بولا بالجبل الشرقى ؛ كما شيّد بيعة باسم الأنبا أبللو والأنبا أبيب بدير البرموس حيث أقام قصراً للضيافة أيضاً . وبنى بدير الأنبا يؤنس كامى (السريان) قصراً للضيافة كذلك . وأضاف له حوشاً خارجاً بالجهة القبلية وبنى حوله سوراً . وأضاف إلى كل هذا التشييد تقدماته من الزيوت والشموع والبخور والكتب والأوانى إلى الأديرة وإلى مختلف الكنائس فى مصر كلها وفى بيت المقدس أيضاً "(١)

ومن الحقائق التى يجب أن نعرفها ونعتز بها ذلك الجهد الشاق الذى بذله القبط فى تلك الفترة صوناً لأولادهم من تعدى الغربيين . ومن الأدلة على هذا الجهاد رسالة نشرها مندوب البابا الرومانى بالقطر المصرى على جماعة الكاثوليك الذين كانوا كلهم بالوجه القبلى وذلك تنفيذاً للمعاهدة التى قامت بينه وبين بطريرك الاقباط سنة ١٧٩٤ م عند معتمد دولة النمسا وفيها يوصى الأقباط المتكثلكين بمدن جرجا وأخميم وفرشوط ونقادة بذلك الاتفاق الذى عقد بينه بصفته كيرلس رئيس عام رهبان المرسلين الكاثوليك والخواجة كركوروشى قنصل النمسا والأب أكليمنضس رئيس عام سابقاً وبين البطريرك أنبا يؤنس والمعلم ابراهيم الجوهرى والمعلم جرجس أخيه رؤساء طائفة الاقباط بمصر . وكان الاتفاق على ما يأتى : ١ - المتزوجون من الفريقين لهم حرية اختيار الصلاة بأية كنيسة أرادوا قبطية أو كاثوليكية . ٢ - من الآن فصاعداً لا ينبغى أن يتزوج الاقباط من الكاثوليك ولا الكاثوليك

---

(١) توفيق اسكاروس ... جـ ١ ص ٢١٨ .

من الأقباط . ٣ - لا يدخل قسوس الكاثوليك بيوت الأرثوذكس ليكرزوا لهم ولا قسوس الأرثوذكس بيوت الكاثوليك . ٤ - لا ينبغى إرغام أى أحد ليصلى بكنيسة معينة بل ليترك لكل واحد اختيار الكنيسة التى يحب . ٥ - لا يصح فيما بعد إذا حدث خـــلاف أن يرفع الأمر إلى الحكومة بل إلى الرؤساء من الكنيستين ولهم حق مقاصة المتعدى .

وهناك قصة على جانب من الطرافة تتلخص فى أن المعلم ابراهيم الجوهرى كان حاضراً الصلاة فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وكان يومذاك على شىء من التعجل . فأرسل إلى القمص ابراهيم عصفورى [١] خادم الكنيسة والخديم لتلك الشعائر من يقول له : « المعلم يقول لك أن تسرع قليلا وتبكر فى الصلاة ليتمكن من اللحاق بالديوان » . أجابه الكاهن : « المعلم فى السماء واحد . والكنيسة لله وليست لأحد [٢] . فإن لم يعجبه فليبن كنيسة أخرى » . ولم يغضب الجوهرى لهذا الرد ولم يفعل ما فعله غيره عند الغضب من الكاهن بطاعة غضبهم وهجران كنيسة آبائهم لكنيسة مغايرة فى العقيدة . بل اتخـذ من كلمات القمص ابراهيم عصفور التوجيه الأبوى وبنى بالجهة البحرية لبيعة السيدة العذراء كنيسة لطيفة على اسم الشهيد العظيم أبى السيفين . فلما تم بناؤها قال الكاهن الذى تسبب فيها : « حمداً لله الذى جعل استياءك سبباً فى بناء كنيسة أخرى فزادت ميراثك وحسناتك » [٣] .

ومن أروع ما جاء عن هذا الأرخن الذى عرف أن يتاجر بوزناته لمجد الآب السماوى أنه عاد إلى بيته مرة بعد صلاة ليلة عيد القيامة المجيدة فرأى الأنوار

(١) كان هذا القمص من أعلم علماء عصره ، وهو الذى ناظر الشيخ السادات على مشهد من العلماء والمشايخ فشهدوا بعلمه . ومما يؤسف له أنه للآن لم يعثر أحد على أى كتاب ألفه هذا القمص العالم ــ فلا ندرى أضاعت مؤلفاته نهائياً أم مازالت فى طى الخفاء .

(٢) منسى القمص . . ص ٦٢٦ ــ ٦٢٧ .

(٣) توفيق اسكاروس ... شرحه جـ ١ ص ٢٦٤ .

مطفأة كلها . وحين تلمس طريقه فى الظلام إلى الداخل وسأل زوجته عن السبب قالت له : « كيف نستطيع أن نبتهج بالنور ونعيد عيد النور المنبثق من القبر الفارغ وقد حضرت عندى هذا المساء زوجة قبطى سجين وهى وأولادها فى حاجة إلى الكسوة والطعام ؟ وقد ساعدنى الله فذهبت إلى زوجة المعلم فانوس[1] الذى نجح فى استصدار الأمر باطلاق سراحه » . فذهب المعلم ابراهيم لساعته وأحضر الرجل وزوجته وأولاده واستضافهم عنده ولما عاد بهم إلى بيته أضيئت الأنوار . وبعد أيام أوجد للرجل عملا . على أن الدرس الأعظم روعة هو أن ذاك الذى عانى السجن والبطالة قال للمعلم ابراهيم بأن هناك من هو أولى منه بالوظيفة لأنه أكثر احتياجاً ! وفرح الأرخن الكبير بهذه المحبة الفعالة وأوجد عملا للاثنين[2] .

وثمة حادثة أخرى جرت بعد انتقاله من هذا العالم تبيّن لنا إلى أى حد بلغ عطفه على الناس حتى بعد تركه إياهم ، وهى أن رجلاً فقيراً كان معتاداً أن يأخذ منه مساعدة دورية ذهب إلى منزله فى الموعد المحدد فقيل له ان المعلم ابراهيم قد رقد فى الرب » فسأله عن مكان مقبرته وذهب إلى كنيسة مار جرجس بمصر العتيقة مثوى الأرخن العظيم وأخذ يبكى بكاء مراً . وغلبه النعاس فنام . وعندها تراءى له الجوهرى فى حلم وقال له : « لا تبك . وأنا لى فى ذمة فلان (الزيات ببولاق) عشرة بنادقة ، فسلم عليه منى واطلبها منه وهو يعطيها لك » . وصحا الفقير من نومه ولكنه خجل من تنفيذ الأمر . ونام ثانية فتراءى له الأرخن الجليل مرة أخرى ووجّه نفس التوجيه . ولكنه تردد رغم ذلك . فلما نام المرة الثالثة رأى الحلم عينه وسمع المعلم ابراهيم يقول له : « لا تقلق أذهب كما قلت

(١) لا نعرف شيئاً عن هذا الرجل الذى كان له من النفوذ ما مكنه من استصدار العفو عن مواطن له .

(٢) منسى القمص ص ٦٢٣ — ٦٢٦ ، توفيق اسكاروس ج ١ ص ٢٥٠ — ٢٥٢ .

اليك . وسأخبر فلان بأمرك » . فقام الفقير لساعته وقصد إلى ذلك الزيات وسلم عليه من غير أن يفاتحه فى الموضوع . فتفرّس فيه الرجل وسأله عما به . وحين سمع ما حدث قال له : « بالحق نطقت لأن المعلم ابراهيم قد تراءى لى أنا أيضاً . وأبلغنى الرسالة التى أمرك بها . فإليك ما فى ذمتى ومثلها أيضاً عنى » .

ومن عجب أن هناك أسرة سريانية أرثوذكسية من حلب هى أسرة أنطونيوس لا تزال ترفع القداديس الإلهية أياماً معيَّنة فى السنة على اسم المعلم ابراهيم الجوهرى . والسبب فى هذه التذكارات هو أن السيد نعوم الجد المباشر للعائلة كان من كبار التجار فى حلب . وقد حاول الكاثوليك اقتناصه بعيداً من أمه المستقيمة العقيدة فلما ضاقوا ذرعاً بهذا الأرثوذكسى المتمسك بإيمانه القويم نهبوا أمواله وتسببوا فى طرده من حلب . وكغيره من مختلف الناس لم يجد غير مصر الحنون يأوى إليها . وشاء الله الرحيم أن يتعرَّف السيد نعوم هذا بالمعلم ابراهيم الجوهرى الذى لما عرف ما حدث له أكرمه وأوجد له عملا فى ديوان الحكومة . وبعد أن اشتغل عدة سنوات بجد واجتهاد عاد السيد نعوم إلى حلب ثانية يحمل الثروة التى جمعها من عمله فى القاهرة ، واتخذ منها خميرة لمعاودة التجارة . ولم يلبث أن أصبح من كبار الأثرياء . وقد روى لأهل بيته مافعله مع الأرخن القبطى الجليل فرأوا كلهم أن يقيموا القداسات باسمه اعترافاً بفضله [1] .

ومن المخطوطات المتبقية لدينا مخطوطة تتألف من مائتين وخمس وأربعين ورقة بتاريخ بؤونة سنة ١٤٦٨ ش (٨ يونيو سنة ١٧٥٢ م) لا يذكر ناسخها اسمه بل يكتفى بالقول بأنه كتبها تلبية لطلب المعلم ابراهيم الجوهرى ، وعنوانها : « كتاب المقالات - وعنوانه فأختصر على تمليقه من كتاب عبد الله الناشى فى

(١) توفيق أسكاروس : « نوابغ . . » ج ١ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ ، ٢٦٠ .

المقالات وسمى بالكتاب الأوسط ، ومن الواضح أن الكاتب الأصيل هو الشيخ الصفى ابن العسال وهو يقول إنه استعارها من « مولى متفضل » يصفه بكلمات « مولاوى الأخ المتفضّل الرشيد أبو المجد » . والمخطوطة لها جزء ثان يشمل قسمين ويتكون من ثلاثمائة وخمسين ورقة موضوعها : « ما اختصر على تعليقه من كلام بعض المسيحيين فى الرد على الكتاب المعروف باللمعة المضيئة الذى جردّه أبو المنصور بن الفتح الدمياطى من كتابه الذى قصد به الرد على النصارى . تهذيب صفى الدولة أبو الفضائل ابن العسال المصرى » .أما الجزء الثالث للمخطوطة فموضوعه يبّين إلى أى مدى اهتم مفكرو القبط فى توضيح عقيدتهم ، وهو : « سؤال وجواب عن حلول أصل الأصول فى امرأة » . وكاتب الاجابة هو فرج بن جرجس بن أفرام . وهنا أيضاً لانعرف عن المجيب شيئاً غير اسمه الذى ورد خاليا من أى لقب (١) .

ولما بلغ المعلم ابراهيم الجوهرى نهاية الشوط وانتقل إلى الفردوس عم الحزن جميع القلوب . بل إن ابراهيم بك نفسه سار فى الجنازة اكراماً له وتقديراً لخدماته . وبعد فترة وجيزة لحقت به زوجته ثم ابنته التى عاشت عذراء رغم أنها لم تلتحق بأى دير .

وهنا حقيقة يجدر بنا الوقوف عندها : فالمثل الدارج يقول « من خلف مامات » . ولكن المعلم ابراهيم الجوهرى رغم أبوّته لاثنين ـ لم يترك نسلا من بعده ، ومع ذلك فاسمه اليوم يتردد صداه من الشمال إلى الجنوب فى هذا البلد الذى أحبه وخدمه وعلى ألسنة أولاد الكنيسة التى عاش طيلة حياته متفانياً فى خدمتها .

(١) مخطوطة ١١٨ ، ـ رقم ٥٧٨ ـ محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

وهناك خطاب لا يزال موجوداً كتبه المعلم إبراهيم الجوهرى (بالتركية) إلى السلطان لاثبات حق دير شمران بعد أن أوضح موقع الدير والأفدنة التابعة له المطلوب الكشف عليها وهذه صورته :

« امضاء السلطان محمود ـ رزقة دير شمران بموجب تربيع سنة ٩٣٣ بناحية معصرة دير شمران بولاية الأطفيحية (خط ديوانى تركى) .

١٢ فدانا و ١٢ قيراطا

القبلى	البحرى
ينتهى إلى المعصرة المعروفة قديماً بطوغان	إلى الطريق الموصل للمعصرة
الشرقى	الغربى
إلى الترعة الدايرة	إلى البحر الأعظم
من ديوان الجيشى	٢١ / سنة ١٢١٤

« إن حجة الرزقة المذكورة اثنا عشر فداناً ونصف فـــدان مستخرجة من الدفتر المقيد به كالمبين أعلاه وذلك طبقاً لما هو موجود فى تقرير حجة نظـارة ناظر الدير المذكور وهذه صورة طبق الأصل صار تحريرها . والأمر والفرمان لمن له الأمر .

صاحب الدولة والسعادة سلطانى   أدام الله بقاه

الداعى لتقديمه هو أن لدير شمران الكائن بالقرية المسماة بهذا الاسم التابعة للمعصرة بولاية الأطفيحية بمصر أطياناً صالحة للزراعة مساحتها اثنى عشر فداناً ونصف فدان .

وحيث أنه اقتضى الكشف على أطيان هذه الرزقة فالمرجو من الحضرة السلطانية التكرم بأمر التأشير على كشف الدير المذكور من محل الاختصاص بما يطابق تقرير الحجة الموجودة تحت يد ناظر الدير المذكور .

والأمر موكول للحضرة السلطانية أفندم ؟   عبدكم
معلم إبراهيم جوهرى [1]

---

(١) توفيق اسكاروس ... ج ٢ ص ٣١٢ .

وكانت آخر خدمة أداها هذا الأرخن المجاهد هى أن حصل على فرمان لبناء الكنيسة المرقسية بالأزبكية . وكان القبط آنذاك لا يحصلون على الفرمانات إلا بشق النفس . أما المعلم إبراهيم فقد حدث له أن أميرة من أميرات البيت السلطانى قضت فى مصر فترة من الزمن وهى فى طريقها إلى الحج . وتعيّن عليه أن يكون فى خدمتها طول فترة بقائها فى بلادنا . فلما أزمعت الرحيل أرادت أن تعبّر له عن شكرها لما قام به من خدمات فسألته عما يريد . فطلب إليها أن تصدر له الفرمان بالبناء . وفعلا استصدرته له . على أن الله تعالى لم يسمح له بأن يعيش ليرى الكنيسة التى سعى إلى إقامتها . فبدأ فيها ثم استكملها أخوه جرجس . وقد أصبحت مذاك المقر البابوى إلى ختام حياة البابا كيرلس السادس (البابا الاسكندرى الـ ١١٦). كذلك نجح فى أن تتوسط الأميرة لرفع الجزية عن الرهبان ورجال الكهنوت [1] .

وقد أوقف الكثير من أملاكه على الكنائس حتى لقد بلغ عدد الحجج المثبتة لتقدماته مائتين وثمانى وثلاثين حجة محفوظة الآن بالمكتبة البابوية بالأزبكية [2] .

وخير ما نختتم به هذه السيرة العطرة مقتطفات مما قاله عنه الجبرتى وهى : «ومات الذمى المعلم إبراهيم الجوهرى رئيس الكتبة الأقباط بمصر. وأدرك فى هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم . . . فكان هو المشار إليه فى الكليّات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة والميرى وجميع الايراد والمنصرف وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده واشارته . كان من دهّاقين [3] العالم ودهاته . لا يغرب

---

(١) توفيق اسكاروس . . . جـ ١ ص ٢٢١ .

(٢) من مقال نشر بمجلة المحبة (يونيو سنة ١٩٦٠) نقلا من السنكسار تحت يوم ٢٥ بشنس : ص ١٨٣ — ١٨٧ .

(٣) أى الساسة .

عن ذهنه شيء من دقائق الأمور . ويدارى كل إنسان بما يليق به من المداراة . ويحابى ويهادى ويواسى ويفعل ما يوجب انجذاب القلوب والمحبة . ويبعث الهدايا العظيمة والشموع إلى بيوت الأمراء . وعند دخول رمضان يرسل إلى غالب أرباب المظاهر ومن دونهم الشموع والأرز والسكر والكساوى . وعمت فى أيامه الكنائس وديور النصارى . وأوقف عليها الأوقاف الجليلة والأطيان . ورتّب لها المرتّبات العظيمة والأرزاق والدارة والغلال . . . [1]

أما الأنبا يوساب ابن الأبح فقد استعمل تعبيرات الكتاب المقدس فى وصفه فقال عنه « إنه صار عيناً للأعمى ورجلا للأعرج وزوجاً للأرملة ورئيساً مهتماً بكافة الديورة ومديراً أميناً لكلّ الكنائس . ولم يخز ذلك البار الأرخن إذ قال مع أيوب الصديق « إنى نجيّت المسكين الصارخ واليتيم الذى ليس له معين ، وبركة الضعيف كانت دائماً علىّ ، وقلب الأرملة قد فرّحته ولبست الحق والعدل كالثوب وجعلته على رأسى كأنه إكليل . . . » ولم يفكر قط أن يميز واحداً عن آخر فى قضاء الحق، ولم يكن ثم عنده لا شعوبى ولا يونانى ولا عجمى ولا يهودى ولا روى ولا قبطى ، ولكنها كلها خليقة الله . . . »[2] فلما انتقل المعلم إبراهيم الجوهرى إلى الفردوس رثاه الأسقف الجرجاوى بكل اعزاز فقال : « فياله من اضطراب عظيم صار فى كورة مصر بل فى كافة الأقطار المصرية . ناحت الشيوخ ، بكت الشبان ، خرج الفلاحون ، ولولت العربان . كان القاضى يبكى ، والكهنة يرفعون أصواتهم بالعويل ، تعالى يا كل الأرامل وابكين على رجلكن الذى كان يهتم بكنّ بالطعام والكسوة . والتمسّوا يا كل الفقراء والمساكين ، واصنعوا لكم مناحة على من يباشر أحوالكم كل حين . نوحوا وابكوا أيها الرهبان سكان

(١) الجبرتى (تاريخ) ج ٢ بين وفيات سنة ١٢٠٩ هجرية .

(٢) توفيق اسكاروس . . . ج ١ ص ٢٢٤ .

البرارى على من يتفقد كل حالاتكم دائماً ، اجتمعوا ونوحوا أيها الكهنة خدام الرب والبسوا مسوحاً على الذى كان دائماً يتفقد الكنائس بالمحرقات والقرابين، نوحوا وابكوا يا كل خدام بيت الرب على الذى كان مريضاً دائمـــاً بحمل كل احتياجاتكم . وبالأكثر كان النواح العظيم عند الأب المعظم أنبا يؤنس على ابنه الحبيب البار الصديق أعنى إبراهيم ... » (١)

وهكذا نجد كيف تتحقق أقوال الله فى أولاده فنقول مع المرتل فى ختـــام الحديث عن هذا الأرخن الجليل : « ذكرى الصديق للبركة » .

١٨٤ — وكان جرجس أصغر الأخوين ، تعلم فى الكتاب كأخيه ، وكأخيه أيضاً بدأ حياته العملية كاتباً عند أحد المماليك . فلما انتقل أخوه إلى دار النعيم

---

(١) من نشرة لجمعية نهضة الكنائس القبطية الأرثوذكسية المركزية بالقاهرة — وزعت فى حفلة إحياء ذكرى المعلمين ابراهيم وجرجس الجوهرى التى أقيمت بكنيسة مارجرجس بمصر العتيقة يوم ٢٥ بشنس سنة ١٦٥٥ ش (سنة ١٩٣٩م) . ومقبرة هذين المعلمين الجليلين تقوم فى رحاب هذه الكنيسة . ويذكر الباحث توفيق أسكاروس أنه كان من عادة القبط أن يدفنوا مع كبرائهم (أو مع شهدائهم) نبـذة عنهم ولـكن مقبرة الجوهريين لا تضم غير رفاتهما . ويرجح توفيق أسكاروس أنه كان هناك مخطوطة أو أكثر وأن النار التى شبت فى الكنيسة سنة ١٥٥٨ ش لا بد أن تكون قد التهمتها . كذلك يذكر أن راهباً بكنيسة السيدة العذراء (المعلقة) أبلغه أن شخصاً اسمه باسيلى تادرس يعيش فى قرية القسيس قليوبية لديه كتاب مخطوط يتضمن ترجمة وافية للمعلم إبراهيم ولـكن باسيلى هذا يضن بأن يطلع أحداً عليه مبالغـة منه فى الحرص . وأن المعلم حنا مرتل كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة سنة ١٩١٠ قال له بأن إبراهيم روفائيل الطوخى لديه أيضاً كتاب به ترجمة الأرخن الجليل وأخبار مختلفة كما أن فخرى عبد النور كبير أقباط جرجا (فى مستهل القرن العشرين) أخبره بأن فى كنيسة جرجا كتاباً به بعض الشىء عن هـذا القبطى الـكبير الذى عرف أن يعيش كما يحق الدعوة التى دعى إليها . (نوابغ الأقباط ... ج ١ ص ٢٦٦) هذا وقـد أورد توفيق اسكاروس نصوص الحجج المحفوظة بالمكتبة البابوية المسجلة لوقفيات الجوهريين فاستغرق سردها من ٢٦٧ — ٣٦٦ من كتابه المذكور .

عيّنه ابراهيم بك ومراد بك مكانه. فأصبح كبير كتبة مصر لهذا اعتبره الفرنسيين عيد القبط.

وحدث بعد استقرار الفرنسيين بشهرين أنهم أرادوا الاحتفال بأحد أعيادهم، فدعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام. وفى هذا الاحتفال لبس جرجس الجوهرى كركة بطرز قصب على أكتافها إلى أكامها، وعلى صدرها شماسات قصب بأزرار. وكذلك فلتيوس. وتعمموا بعمائم كشميرى. وركبوا البغال الفارهة وأظهروا البشر والسرور ... »[1].

وحدث حين ذهب بونابرت إلى السويس أن استصحب بعض المشايخ والمديرين والمهندسين والمصورين كما استصحب المعلم جرجس الجوهرى والمعلم أنطون أبو طاقية للاستعانة بخبرتها. وقد اقتدى عسكر نابليون به فاعتادوا استصحاب المعلم جرجس حيثما ذهبوا. حتى انه حين وصلت الانباء بأن مراكب الترك رست فى أبو قير مع الانجليز، وأراد الفرنسيون تعدية النيل إلى الضفة الأخرى من ناحية بولاق أخذوه معهم أيضاً[2].

وحين دخل الترك القاهرة على أثر انسحاب الفرنسيين وبدأوا يعيثون فساداً هرب العدد الكبير من القبط إلى مصر عتيقة والجيزة. «أما أكابر القبط مثل جرجس الجوهرى وفلتيوس[3] وملطى فإنهم طلبوا الأمان من المسلمين لكونهم انحصروا بدورهم وهم بوسطهم. فأرسلوا لهم الأمان[4]».

(١) يوميات الجبرتى ج ١ ص ٧٦.

(٢) شرحه ج ١ ص ١١٥ و ١٩٣ ويبدو أنهم كانوا يستصحبونه فى مختلف رحلاتهم — راجع «عجائب الآثار ...» ج ٣ ص ٧٥، ١٥٤، ١٥٧.

(٣) لانعرف عن هذا الأرخن سوى اسمه رغم أنه يأتى دائماً بعد جرجس الجوهرى ويسبق ملطى أيضاً.

(٤) الجبرتى ج ٢ ص ١٣٧.

أما فى الفترة الأخيرة للحملة الفرنسية ، حين آلت القيادة إلى الجنرال بليار، فإن هذا الجنرال اتخذ دار جرجس الجوهرى مسكناً له [١] .

وحدث أن أراد الوالى هـدم المنازل المجاورة لمنزله والتى كانت تهدمت واحترقت أثناء المعارك ضد الفرنسيين لكى يبنى بدلا منها ثكنات لحرسه فنصب خيمة عند بيته على مقربة من العمل ليباشره بنفسه . وعندما رتب مساعده قوائم أرباب الحرف ونبهوا عليهم بالحضور مبتدئين بالقبط ، لحضروا يتقدمهم جرجس الجوهرى وواصف وفلتيوس ومعهم طبول وزمور . فكان العمال يشتغلون على أنغام الطبل والزمر والغناء . واستمروا فى ذلك عدة أيام ثم تبعتهم طوائف أخرى . ومع أن هذا العمل سر الوالى إلا أنه طالب المطبلين والمزمرين بدفع مبالغ من المال ـ فمن دفع مبلغاً يرضيه أنقص ساعات عمله ومن دفع مبلغاً أقل مما يبتغيه أطال عليه مدة العمل وأتعبه [٢] .

وحدث فى السنة عينها (سنة ١٨٠٢ م) أن جاء إلى مصر عدد من سيدات الباب العالى ومعهن زوجة قبطان باشا فتبارى العظماء فى اكرامهن ومعهم جرجس الجوهرى الذى أعدّ داراً خاصة لاستضافة البعض منهن فيه . وبالطبع اعتنى بفرش هذه الدار عناية خاصة حتى لقد فرش بساطاً من الكشمير فى مدخلها . وقد تم زواج اثنين منهن فى آن واحد فأقيمت وليمة العرس فى هذه الدار [٣] .

على أن كل هذه الخدمات التى أدّاها جرجس الجوهرى لم تكن بالضمان الكافى له ضـد الطغيان التركى . فلم يلبث الوالى أن أطلق عسكره على بيوت

---

(١) شرحه ج ٢ ص ١٢٩ .

(٢) « عجائب الآثار ... » ج ٣ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٣) توفيق اسكاروس ج ٢ ص ٢٩٤ .

الكبراء لينهبوها. فنهبوا من بينها بيت جرجس وأخذوا منه النفائس الكثيرة والفراوى الثمينة [١].

ثم آل الأمر إلى محمد على باشا فأقر المعلم جرجس الجوهرى فى وظيفته وهى كبير كتبة القطر المصرى. ولما استتب له الأمر بقضائه على المماليك أقام الزينات ودعا المشايخ وكبار القوم إلى ديوانه، ولندع الجبرتى يستكمل لنا الوصف إذ يقول: «..ودخل إليه المشايخ فخلع عليهم فراوى سمور.. ثم حملوا شنكا ومدافع كثيرة وطبولا. وأحضر فى ذلك الوقت المعلم جرجس وكبار الكتبة وعدتهم اثنان وعشرون قبطيا ولم تجر عادة باحضارهم فخلع عليهم أيضا ثم نزلوا إلى بيت السيد المحروقى فتغدوا عنده ثم عوّقهم إلى العصر ثم طلبهم الباشا إلى القلعة فحبسهم فى تلك الليلة واستمروا فى الترسيم وطلب منهم ألف كيس (وكان ذلك فى يوم الخميس)... (وفى الأربعاء التالى) أفرجوا عن النصارى الأقباط بعد ما قرروا عليهم ألف كيس خلاف البرانى وقدره مائتان وخمسون كيساً ونزلوا إلى بيوتهم بعد العشاء الأخيرة فى الفوانيس» [٢]. على أن هذه المباغتة التى عاش فيها محمد على بالمعلم جرجس وزملائه كانت الأولى. تبعتها غيرها. وانتهت كلها إلى أن احتدم غيظه عليه إذ خامره الشك فى أن يكون جرجس قد احتفظ ببعض مال الجباية لنفسه وبدافع هذا الغضب أمر بسجنه هو ومن يعملون معه واستدعى المعلم غالى ليراجع الحسابات. وبعد مراجعته أبلغ الباشا بأن المبالغ مضبوطة وأن المعلم

---

(١) شرحه ج ٣ ص ٢٤٢.

(٢) «عجائب الآثار...» ج ٣ ص ٣٠١ — ٣٠٢ ومن الطريف أن نذكر أن الجبرتى بعد وصفه لتفصيلات الاحتفال قال بأن «ديوان افندى» قرأ فرمانين على المجتمعين، ثم علق على الفرمانين وما جاء فى أعقابهما من أحاديث بقوله «... ونحو ذلك من الكلام المحفوظ المعتاد المنمق...». وهذا التعليق يوضح لنا تفهم المصريين لوضع الولاة رغم سكوتهم لفترات يهبون بعدها. فهم شعب صبور ولكن صبرهم ينتهى دائماً إلى ثورة كما يتضح لكل مطلع على تاريخهم.

جرجس انما أشفق على الناس فلم يحتم عليهم دفع المبالغ المفروضة . ومع أن محمد على اقتنع بذلك إلا أنه طالب جرجس ومن معه بدفع أربعة آلاف وثمانمائة كيس من المال ، كما أنه عيّن المعلم غالى (الذى كان كبير كتبة الألفى بك مكانه) . وبعدما أفرج عنهم . على أن المعلم جرجس اضطر إلى بيع الكثير من ممتلكاته ثم انزوى فى الصعيد ـ ولو أن البعض يظن أن الباشا هو الذى نفاه بعد ابتزاز أمواله [١] . أو بعد أن قضى أربع سنوات بعيداً عن القاهرة صدر له الإذن بالعودة . ولكنه لم يعش غير سنة واحدة انتقل بعدها إلى دنيا الخلود ودفن إلى جوار أخيه المعظم فى رحاب مار جرجس بمصر .

ولا يذكر التاريخ اسم زوجته ولا صلة قرابتها به قبل أن تصبح شريكة حياته . ويبدو أنه لم يخلف غير بنت اسمها « غنارة » ، وهى جدة لرجل من رجال الدولة أيام محمد على باشا اسمه رزق الله الصباغ . إلا أن المعلم رزق الله هذا مات دون أن يخلف أحداً [٢] .

وجدير بالذكر أن للمعلم جرجس الجوهرى صورة بالحجم الطبيعى فى القاعة الشرقية من قصر فرساى [٣] ـ وهو القبطى الوحيد المصور مع خمسة من كبار المسلمين يتوسطهم نابليون نفسه [٤] .

ولقد شارك جرجس أخاه المعظم فى خدمته الكنيسة من تعمير الكنائس والأديرة ووقف العقارات عليها ، ومن معاونته للمستورين والفقراء [٥] .

(١) شرحه ج ٣ ص ٤٣١ ـ ٤٣٦ ، أنظر أيضاً ص ٢٢٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ .

(٢) توفيق أسكاروس : ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٣) هذا القصر بناه الملك لويس الرابع عشر وجعل منه آية من الفن والجمال . وفى إحدى قاعاته أبرمت معاهدة الصلح بين الحلفاء وبين ألمانيا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى .

(٤) توفيق اسكاروس : ج ٢ ص ٢٨٧ ، عجائب الآثار . ج ٤ ص ١٠١ .

(٥) تاريخ الأمة القبطية لكامل صالح نخلة وفريد كامل ـ الحلقة الثانية ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

ومن الوثائق الجديرة بالتأمل التقليد المخطوط بعلامة الأنبا بؤلس الثامن عشر الذى أسند به نظارة كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) إلى المعلم جرجس نقتطف منها ما يأتى : «بسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد . الحمد لله ذى القدرة والعظمة والجلال ، الصادق فى وعده والمقال العادل فى الحكم والأفعال . الذى جعل بيعته المقدسة ثابتة مزينة بالجمال ومنحها بالأنوار البهية والأسرار والغفران . وجعلها كعروسة وسفينة النجاة لكل غرقان . كراتب الطقوس النورانية منذ الابتداء وإلى آخر الأزمان . . . لذلك رأت القلاية البطركية اليؤلسية التى بنعمة الله تعالى لازالت آراؤها متفقة ومقاصدها إلى الصالحات موافقة أن تتمسك بذوى الصفات المستحبة المشكورة . من شهر عنهم المساعى المبرورة فتفرسهم فى خدمة البيعة المذكورة ويحبهم الرب الإله ويبنيهم وينميهم ولما كان الإبن المبارك الدّين الارثوذكسى الأرخن المبجل الشماس المكرم الفرع الزاهر من الأصـــل الطاهر المعلم جرجس أبو جوهرى بارك الله عليه مخصوصاً بهذه الاشارة . والمعبر عنـــه بهذه العبارة . الذى له هذه المحاسن ليست بمستعارة . واتفقت الجماعة على صلاحيته وأهليته المشهود له بنجاحه وشفقته . وفوضت إليه القلاية بخدمة هذه البيعة المشار إليها أعلاه تفويضاً كاملا . وقلدناه هذه الوظيفـة . ووكلناه عليها ليكون فيما يرضى الله عاملا . ويكون ناظراً على مصالح هذه البيعة وعلى أولادها وكهنتها وشمامستها وخدامها علواً وسفلا . وعلى نذورها وأوقافها ومقبوضها ومصروفها كما جرت به العادة لمدبرى البيع المقدسة وجميع ما استقرت عليه القاعدة إلى هذه الغاية . فليتقدم بالاجتهاد ويقوم بأمورها بالاستعداد . . . ويلزم عليه أن يكرم الكهنة وسائر الخدمة . . . ويجمع شمل أولاد البيعة بالالفـــة الروحانية والمحبة المسيحية . ليمجدوا الله تعالى إذا شافوا منه الاحسان . . . وقد سطرنا له هذا التقليد شاهداً له بهـــذا التفويض . فليفعل بكل ما يجب عليه مثل أمثاله ،

ويتغلب بخوف الله تعالى فى أقواله وأفعاله . . ويتصرف تصريف الوكيل الأمين الحكيم . ويتدبر كتدبير الرؤساء التامين . ولا يهمل فى شىء من الواجبات . ولا يرخص فى حالة من الحالات . ويتذكر قول الرب له المجد من أراد أن يكون فيكم كبيراً فيكون لكم خادماً . . . فسبيل الأولاد المباركين الكهنة المؤتمنين والشمامسة المكرمين القاطنين الواردين والمترددين وكل الخدام بهذه البيعة المقدسة أن يقيموا الصلاة فى كل وقت وحين . . . ويتفقوا معه على كل عمل صالح . والمسئول والمطلوب من الرب الإله الساكن فى أعلا سماه . والقديس محب آبائه مرقوريوس صاحب البيعة يعينه بقوته الإلهية على ما يضمره من الصالحات وينويه . . . ويجعل خدمته فى هذه البيعة سعيدة . ونهايته فيها بالفة الروح حميدة . . . ويحنن عليه قلوب المتولين عليه . ويغفر له الخطايا والذنوب ويوهبه دوام الصحة فى عقله ونفسه وجسده والقوة فى قلبه وفهمه واعتقاده ويفسح فى جيله على أيامه أياماً . . . وسلام سيدنا يسوع المسيح الذى حل بدءاً على تلاميذه الأطهار وهم فى علية صهيون مجتمعون يحل ذلك السلام الروحانى على الإبن المبارك المعلم جرجس أبو جوهرى . والنعمـــة والبركة والتحليل والغفران والخلاص والمعونة من فاى أنا خادم بنعمة الله الكرسى المرقسى . والرحمة والرأفة يشملوه ويتضاعفوا عليه . وجميع التحاليل والبركات الابصطالية والمجامع الأرثوذكسية . ومن أفواه الآبا خلفاهم يحل عليه بالدوام ويحفظه ويعمره ويثبت فى الأرض ذكره . . .

فى يوم الثلاث المبارك خامس شهر برمهات المبارك الشهداء الأطهار السعدا الأبرار بركاتهم علينا . آمين »[1] .

ولا يفوتنا تسجيل شهادة الجبرتى له إذ يقول عنه يوم وفاته : « ولما مات أخوه

(١) عن نشرة لجمية نهضة الكنائس القبطية الأرثوذكسية المركزية بالقاهرة وزعت فى حفلة أحياء ذكرى المعلمين ابراهيم وجرجس الجوهري ص ١١ - ١٥ .

فى زمن رياسة الأمراء المصريين تمين مكانه فى الرياسة على المباشرين والكتبة وبيده حل الأمور وربطها فى جميع الأقاليم المصرية . نافذ الكلمة وافر الحرمة . وتقـدم فى أيام الفرنسيس فكان رئيس الرؤساء وكذلك عند مجىء الوزير والعثمانيين وقدموه وأجلسوه لما يسديه إليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس أفندى . ورأيتـه يجلس بجانب محمد باشا خسرو وبجانب شريف أفندى الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره ، ويراعون جانبه ويشاورونه فى الأمور . وكان عظيم النفس ويعطى العطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوى والبن . ويعطى ويهب . بنى عدة بيوت بحارة الونديك والأزبكية وأنشأ داراً كبيرة وهى التى يسكنها الدفتردار الآن ويعمل فيها الباشا وابنه الدواوين عند قنطرة الدكة . وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم . ولم يزل على حالته حتى ظهر المعلم غالى وتداخل فى هذا الباشا (محمد على) وفتح له الأبواب لجمع الأموال . والمترجم (جرجس) يدافع فى ذلك . وإذا طلب الباشا طلباً واسعاً من المعلم جرجس يقول له هذا لا يتيسر تحصيله فيأتى المعلم غالى فيسهل له الأمور ويفتح له أبواب التحصيل . فضاق خناق المترجم وخاف على نفسه فهرب إلى قبلى ثم حضر بأمان . . . وانحط قدره ولازمته الأمراض حتى مات وانقضى وخلا الجو للمعلم غالى وتعين بالتقدم ووافق الباشا فى أغراضه الكلية والجزئية . وكل شىء له بداية ونهاية ، والله أعلم[1] » .

---

(١) عجائب الآثار .. جـ ٤ ص ١٢٦ . ولئن كنا هنا نورد سير الأراخنة القبط إلا أنه يجب أن نذكر أنهم عاشوا فى صميم الحياة المصرية فشاركوا إخوتهم المسلمين السراء والضراء . ولقد أورد صبحى وحيدة فى كتابه « أصول المسألة المصرية » ص ١٠١ - ١٠٤ أسماء عدد من الرجال الذين ساندوا السلاطين أمثال سعد الدين ابراهيم بن غراب الاسكندرانى وزير السلطان برقوق الذى كان جده قد أسلم ثم قال : « هذه أمثلة قليلة نجدها هنا =

بداية الانفراج

١٨٥ ـ يجدر بنا قبل متابعة ركب التاريخ أن نسرد مقتطفات مما سجله رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابه « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » بعنوان « ما ينبغى ذكره فى رؤساء أحبار أهل الذمة » ـ قال : « فأما بطريك اليعاقبة فهو أكبر أهل ملته والحاكم عليهم ما امتد فى مدته . وإليه مرجعهم فى

= وهناك فى كتب العصر وهى تشعرنا بأن الأمر لم يكن شذوذاً وإنما كان قاعدة عامة فى عهود السلاطين جميعاً وفى دواوين الحكومة ودواوين الأمراء على السواء . وكان هؤلاء الرجال يأتون من صميم الطينة المصرية ويشتركون فى الحكم ويوجهون مصائره دون أن يكون فى سلوكهم شىء من روح العبودية الذى أراد أن يراه الذين عرضوا لتاريخ ذلك العصر . . . كذلك نعرف أن أرباب الحرف كانوا يسبون السلاطين فى الطرق ومواجهتهم ويتظاهرون تحت نوافذ القلعة ويشكتون على أهلها . بل إنه حدث على أثر فتنة من الفتن أن ثار العامة وقبضوا على قائد العسكر وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس وهم يضربونه ويصفعونه بالنعالات » .

التحليل والتحريم . . . وشرعته مبنية على المسامحة والاحتمال والصبر على الأذى وعدم الاكتراث والاحتفال . وهو مؤدب لنفسه فى الأول بهذه الآداب . . . فدأبه التخلق من الأخلاق بكل جميل . وأن لا يستكثر من متاع الدنيا فإنه قليل . فليقدم المصالحة بين المتحاكين إليه قبل الفصل والبت . فإن الصلح كما يقال سيد الأحكام وهو قاعدة دينه المسيحى . . . ولينظف صدور إخوته من الغل . . . وكذلك الديارات . . . يتفقد فيها كل أمر ويجتهد فى اجراء أمورها على ما فيه رفع الشبهات . علماً أنهم إنما اعتزلوا فيها التعبد فلا يدعها تتخذ متنزهات . وأنهم إنما أحدثوا منه الرهبانية التقلل فى هذه الدنيا والتعفف عن الشهوات . . . بل خلوة منزهة عن الحرام مرصدة على الحلال . . . »[١].

١٨٦ - كذلك يجدر بنا التأمل فيما جاء فى بعض الرسائل التى كانت تكتب فى مختلف العصور من الخلفاء إلى البطاركة عند توليهم ، فقد ورد فى إحداها ما يلى : « . . . وكانت طائفة النصارى اليعاقبة بالديار المصرية لهم من حين الفتح عهد وذمام ووصية سابقة من سيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام . . . ولابد من بطريرك يرجعون إليه فى الأحكام . ويجتمعون عليه فى كل نقض وابرام . ولما كانت الحضرة السامية الشيخ الرئيس المبجل المكرم . الكافى المعز المفخم . القديس شمس الرئاسة عماد بنى المعمودية . كنز الطائفة الصليبية . اختيار الملوك والسلاطين (فلان) وفقه الله هو الذى تجرد وترهب . وأجهد روحه وأتعب وصام عن المآكل والمشرب . وساح فأبعد . ومنع جسمه لذيذ المرقد . ونهض فى خدمة طائفته وجد وخفض لهم الجناح وبسط الخد . وكف عنهم

(١) توفيق اسكاروس . . ج ٢ ص ٣٢ - ٣٣ ، وبعد أن أورد المقال بأكمله ذكر فى آخره أنه منقول من كتاب مخطوط محفوظ بمكتبة جامعة أوكسفورد هو « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » للقلقشندى .

اليد . واستحق فيهم التبجيل لما تميز به عليهم من معرفة أحكام الإنجيل وتفرّد . اقتضى حسن الرأى الشريف أن يلقى إليه أمر هذه الفرقة ويفوّض . ويبدلهم عن بطريركهم المتوفى ويعوّض . فلذلك رسم بالأمر الشريف لا برحت مراسمه مطاعة ... أن يقدم الشيخ شمس الرئاسة المذكور على الأمة النصرانية اليعقوبية . ويكون بطريركاً عليها على عادة من تقدمه وقاعدته بالديار المصرية ... فليسلك سبيل السواء ولا يملك نفسه الهوى . وليتمسك بخوف الله تعالى إن فعل أو لوى . أو أخبر عن الحواريين أو روى فالعلم مراقب . والحكيم أمر أولى القول بالفكرة فى العواقب . والحاكم غداً بحقوق الخلق مطالب ... »(١).

١٨٧ - وبعد هذا التأمل نعود إلى متابعة الركب لنجد أنه فى هذه الفترة بدأ ينفرج الطريق أمام المصريين. ولما كان شق أى طريق جديد يستلزم الجهد والعناء فقد كانت بداية هذا الطريق الجديد تتسّم بالجهد والمشقة رغم فسحته فى النهاية . وكانت مصر آنذاك لاتزال تحت تراكم بطش الوالى التركى والتحزّب العنيف بين المماليك . وقد صحب هذا البطش وهذا التحزب ركود مزعج فى الزراعـــة والصناعة . على أنه لما كان الخالق المبدع قد أودع داخل النفس الانسانية قوة على مواجهة أحداث الحيـــاة فقد برزت هذه القوة فى أن أرباب الحرف والتجار والمهنيين شكلوا « طوائف » معترف بها : لكل طائفة لوائح منتظمة ورؤساء منتظمون ومبالغ محددة من الضرائب . وكان الاعتراف بهذه الطوائف رسمياً إلى

(١) توفيق اسكاروس . . ج ٢ ص ٣٥ - ٣٩ ، ثم أورد بعد ذلك الرسالة المبعوث بها إلى أنبا يؤنس العاشر المعروف بالمؤتمن (البابا الـ ٨٥) ص ٣٩ - ٤٢ تتبعها رسالتان بنفس المعنى دون ذكر اسم البابا المقصود بكل منهما ص ٤٣ - ٤٧ وجدير بالذكر أنه توجد مخطوطة بالمكتبة البابوية بالقاهرة (٤٣٢ - رقم ٧٤٩) بتاريخ ١٦ مسرى سنة ٩٣٠ش (٩ أغسطس سنة ١٢١٤ م) يتضمن جزؤها الخامس تقاليد الأساقفة فى حين أن جزءها السادس يحتوى على أمثلة من المراسلات بين الباباوات والأساقفة والأراخنة وهى مكتوبة بلغة شعرية ذات السجع .

حـد أنه متى كان بعض الأعضاء أو كلهم من القبط فإن الشيخ المنوط به جمع الضريبة يأخذ منهم الجزية أيضاً . والعجب أنه حين كانت العلاقات بين المسلمين والقبط تسوء كان عمل رجال الحكومة هو الفصل بين الفريقين (داخل الطائفة).

كذلك استطاع سكان المدن الوصول إلى حماية أنفسهم بتقسيم المدينة الواحدة إلى عدد من الأحياء المنفصلة عن بعضها البعض يسمى كل حى منها « حارة » . وكان لكل حارة اكتفاء ذاتى وفى الوقت عينه لها سورها وبوابتها ومع أن هذا التقسيم كان تفتيتاً للوحدة العامة التى يجب أن تتكوّن منها الدولة القوية إلا أنه كان آنذاك نوعاً من الدفاع عن النفس نشأت فى ظله بعض الصناعات التى كثيراً ما كانت فى أيدى عائلات متخصصة . وهذا أدّى بالتالى إلى انقراض صناعات وحرف بأكملها [1] . وهكذا نجد المجتمع المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر مجتمعاً غشاه الظلم وسطا عليه الركود . وهنا نعود فتسطع أمامنا هذه الحقيقة الأخّاذة : حقيقة سر مصر الذى أودعه إياها مبدعها . فرغم كل مامرّ عليها من ظلم وظلام ظلت حيويتها مشتعلة تلتهب كلما انتهت فترة من فترات البؤس والضيق. وهذا ماحدث بعد الانقلابات والقلاقل التى انتابتها من أوائل القرن الثامن عشر حتى نهايته . فبعد خروج الفرنسيين ظلت مصر فريسة لتناحر المماليك والعثمانيين والألبانيين بالاضافة إلى المماليك ، واستمر هذا التناحر إلى أن أعلن الشعب المصرى رغبته فى تولية محمد على « الباشوية » .

(١) فمثلا كانت صناعة النسيج ترتبط بعدد من الصباغة والتطريز والشراريب والخيوط المفضضة والمذهبة كما كانت تشمل صناعة الحصر (الجبرتى : عجائب الآثار . ج ٢ ص ٢٥٠)، كذلك كانت صناعة الزيت رائجة وكانوا يستخرجونه من بذور الخس والقرطم والسلجم والقنب والسمسم وثمة صناعات جانبية كتقطير ماء الورد فى الفيوم وصناعة قوالب السكر والعسل الاسود فى الصعيد وصناعة ملح النوشادر ويؤخذ أغلبه من قمامات القاهرة والدلتا وكان من الصادرات الرئيسية تتمون به أوروبا كلها ، واستخراج الملح بالتبخير وملح البارود . راجع كتاب « المجتمع الاسلامى والغرب » ص ١٤١ - ١٤٤ .

١٨٨ - وكان الله فى شامل حكمته قد هيأ لكنيسته الرجل الذى يرعاها رعاية الأب الحقيق فيوفّر على الأساقفة والأراخنة ضرورة الاجتماع التشاور فى هذه السنوات المتأرجحة . ذلك أن الأنبا مرقس الثامن أراد أن يرسم مطراناً على الحبشة فوقع اختياره على الراهب مرقوريوس المولود فى بلدة الجاولى المتمّيد بدير كوكب البرية أى الرهبان . غير أن التدبير الإلهى رتب تأجيل الرسامة ورأى البابا المرقسى أن يستعين بهذا الراهب الذى استقدمه من البرية فرسمه مطراناً عاماً [1] الكرازة المرقسية باسم ثيئوفيلس وأبقاه إلى جانبه فى الدار البابوية ليستشيره وليجعله مهيمناً على الأمور الادارية ، فعاش إلى جانبه مذاك . فلما أتت الساعة ليختار الأساقفة والأراخنة الخليفة المرقسى وجدوا ضالتهم المنشودة فى شخص الأنبا ثيئوفيلس الجاولى فلم يحتاجوا حتى إلى رسامته لأن الشعائر المقدسة التى ترفع الراهب إلى الأسقفية هى بعينها التى ترفعه لتجعل منه البابا الاسكندرى . ذلك لأن القانون الكنسى الأصيل يعتبر البابا الاخ الأكبر بين

---

(١) هذه أول مرة فى تاريخ الكنيسة القبطية يقام فيها مطران عام لأن جميع الباباوات السابقين على الأنبا مرقس الثامن حينما كانوا يستعينون بالرهبان فى مختلف المهام الكنسية لا يمنحونهم أكثر من رتبة القمصية لأنهم كانوا مقتنعين بالتعليم الرسولى الذى يرى وجوب رسامة الأسقف على شعب معين حسب قول الانجيل عن رب المجد « أسقفنا وراعى نفوسنا » . فكان مساعد البابا الذى اعتاد الشعب أن يصفه بكلمة « تلميذه » راهباً لا يزيد على « القمص » أما فى سنة ١٨٠٢ - أى بعد تعاقب مئة وسبع من الباباوات على مدى ١٧٣٤ سنة - فقد اختط الأنبا مرقس الثامن خطة رسامة مساعده أسقفا . ولئن قيل أنه صاحب الحق فى الرسامة إلا أن القانون الكنسى الأصيل يقول بأن أية خطوة جديدة يجب عرضها على المجمع والعمل بمقتضى رأى الأغلبية . والرسل أنفسهم وضعوا هذا الاساس باجتماعهم وتشاورهم معا حول موضوع ختان الامميين قبل معموديتهم (أعمال ١٠) . وبما أن كنيستنا القبطية الأرثوذكسية لا تؤمن بعصمة انسان مهما سما فيمكننا نحن الشعب القبطى أن نقول (مع احترامنا الجزيل) بأن البابا مرقس الثامن قد أخطأ فى هذه الرسامة . وإن كان الماضى لا يعاد إلا أن أخطاءه يجب أن تذكر لعلنا بهذا التذكر نتجنب الوقوع فيها مرة أخرى .

إخوته الأساقفة - فهو بيتهم لم يبلغ مرتبة الأب "(١)". فأقيمت صلوات التنصيب التي جعلت منه الانبا بطرس البابا التاسع بعد المئة بعد نياحة سلفه بثلاثة أيام فقط. فتسلم مهام كرامته وسط زحمة الاضطرابات السياسية والتنافس الحزبي المرير.

وقد تميز هذا البابا بفضائل جمة شهد بها الأجانب قبل المصريين: فكان وديعاً محباً لشعبه، باذلا منتهى جهوده لخير أبنائه، شغوفاً بالدرس والمطالعة، حليما في رياسته، محبوباً من الجميع لبساطته المتناهية ولتقشفه واكتفائه بالقليل.

وكان أول من اتخذ الكنيسة المرقسية بالأزبكية مقراً بابوياً - وهي الكنيسة التي كان إبراهيم الجوهري قد حصل على الإذن ببنائها.

١٨٩ - وخلال السنوات الثلاث الأولى لبابويته نجح محمد على في استمالة المشايخ وزعماء الشعب إلى جانبه. فبعثوا في مايو سنة ١٨٠٥ برجاء إلى سلطان تركيا أن يجعله الوالي عليهم. وبعد سنة من الزمان وصلهم الرد بالموافقة فأصبح محمد على «الباشا» المعتمد من الباب العالي. فبدأ بحكمه عصر جديد لمصر: عصر من الانفراج والاستقرار لم تكن عرفت طعمه منذ قرون طويلة الأمد. على أن المماليك ظلوا يناوشونه في السنوات الأولى من حكمه. فدبروا مؤامرة هجموا بمقتضاها على القاهرة في أغسطس سنة ١٨٠٥ ليستعيدوا سلطانهم عليها. ولكن محمد على عرف بمؤامرتهم مقدماً واستطاع أن يفتك بهم "(٢)". وقد علق الجبرتي على اندحار المماليك بقوله: «لم يتفق للأمراء المصرلية (المماليك) أقبح ولا أشنع من

(١) وهذه الحقيقة توضحها الكنيسة في صلواتها كما ذكرنا. فالأسقف الذي يصبح بابا تتلى عليه صلوات «تنصيب» لا صلوات «رسامة». وصلوات التنصيب لا تبلغ روعتها عشر الروعة التي لصلوات الرسامة حيث يترنم الأساقفة بالصلوات التي يرتفع بها الراهب درجة درجة إلى أن يصل إلى الكرامة البابوية. ثم إنه في الوقت عينه - يوجه الكلام إلى أحدهم - لا يخاطبه بكلمة «يا أبي».

(٢) عصر محمد على لعبد الرحمن الرافعي ص ١٩.

هذه الحادثة وطبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وغلّ أيديهم »[1] . ورغم هذه الهزيمة فقد تزعم محمد بك الألفي حركة مناوءة محمد علي . فتواطأ مع الانجليز أملا في أن يقيموه واليا على مصر ويعيدوا للمماليك سطوتهم . وبالفعل سعوا لدى الباب العالي لعزل محمد علي وإقامة الألفي مكانه . وقد تعهد هذا الأخير بأن يدفع السلطان ألف وخمسمائة كيس جزية سنوية[2] . ونجحت مساعي وتعهدات الألفي إلى حد أن أرسل السلطان أربع بوارج وسفينتين وملحقاتها إلى الاسكندرية ووصل بعض الجنود الانجليز مع الترك للاشتراك معهم في القضاء على محمد علي ولما وصلت الأنباء تفاهم محمد علي مع المشايخ على محاربة الانجليز . وحينما تقرر القتال استعد الشعب كله للاشتراك فيه « . . . والأقباط اشتروا المقاطف والغلقان والفؤوس والقزم وآلات الحفر وشرعوا في بناء حائط مستدير أسفل تل قلعة السبتية . . . »[3] ويسترسل الجبرتي فيقول : « . . . وأما النصارى فإنهم حصنوا مساكنهم ونواحيهم وحاراتهم وسدوا المنافذ وبنوا كرانك واستعدوا بالأسلحة والبنادق وأمدهم الباشا بالبارود وآلات الحرب دون المسلمين . . . »[4] وكان ذلك في يونيو سنة ١٨٠٦ .

ولقد حالف النصر محمد علي . ثم كتب العلماء والمشايخ رسالة أخرى معلنين فيها صراحة اصرارهم على استمرار محمد علي في ولايته عليهم « لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف . . . »[5] وهنـــا تبرز شخصية الشعب المصري الذي عبر عن ارادته تعبيراً من القوة بحيث رضخ له

(١) شرحه ص ٢١ .
(٢) كل كيس يحتوي على ما يساوي خمسة جنيهات .
(٣) « عجائب الآثار . . . » جـ ٤ ص ٤٩ — ٥٠ .
(٤) شرحه جـ ٤ ص ٢٢٦ .
(٥) الرافعي . . . ص ٣٣ .

الباب العالى . ونجد أن محمد على نجح حيث فشل على الكبير لأن الأول استعان بالمصريين وبزعمائهم الوطنيين فى حين أن الثانى لم يرتكن إلا على مماليكه متجاهلا القوة الكامنة داخل أبناء مصر . فكان المرسوم الذى أصدره سلطان تركيا بالابقاء على محمد على مبيناً على تأييد الشعب لواليه . ثم شاءت العناية الإلهية القضاء على الحكم المملوكى ومؤامراته فمات البرديسى بك فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ وتولى شاهين بك المرادى مكانه . وكان هذا الزعيم الجديد خصما لدوداً للألفى بك فانسمت الهوة بين المماليك وبالتالى تضاعفت أسباب فشلهم . وكان الأوان قد آن لأفول نجمهم لأن الألفى بك توفى فى يناير سنة ١٨٠٧ .

ثم وصلت البوارج الانجليزية إلى مياه الاسكندرية فى مارس سنة ١٨٠٧ واتصلت بالقنصل الانجليزى فى القاهرة فاتصل هو بدوره بالمماليك فى الصعيد كما تعهد بتقديم رشوة للحافظ التركى للاسكندرية . ورغم كل هذه المكايد فقد انهزم الانجليز فى موقعة رشيد فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ . ويصف الجبرتى ما حدث بقوله: « وردت الأخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الانجليز وصلت . . . وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت . فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين . . . » [1] .

على أن الانجليز لم يرتدعوا بالهزيمة وظلوا على اتصالهم بالمماليك زاعمين أنهم بهذه المثابرة على الاتصال يقهرون المصريين . وتجمعت قواتهم من جديد عند رشيد وضربوها بالمدافع . ثم كتب أحد قوادهم ـ واسمه ستيوارت ـ إلى الجنرال

---

(١) مرجعه ص ٥٦ .

فريزر يقول « تبين لنا أن الأعداء (أهل رشيد) لا يكترثون بالمصائب التى تنزل بهم ... وأن نجاحنا معلق على نجدة المماليك . فإذا جاءوا إلينا أمكننا أن نرسل إلى البر الشرقى من النيل قوة تشترك فى القتال . أما الآن فيستحيل علينا ذلك لأن العدو متفوق علينا ... » ثم اضطروا إلى خوض معركة عند قرية حماد فى ٢١ أبريل سنة ١٨٠٧ فشلوا فيها فشلا ذريعاً وسقط فيها اثنان من قوادهم كما وقع أربعمائة وثمانون أسيراً على رأسهم قائدان آخران فى أيدى المصريين . فأرسلوهم فى المراكب إلى القاهرة . ووصل الأسرى إلى بولاق فى ٢٩ أبريل . فتجمعت الجماهير على شاطئ النيل وفى الطرقات لرؤيتهم . ومع هذا كله بعث الجنرال فريزر برسله إلى المماليك يناشدهم العهود . ولكن المماليك الذين اعتادوا الغدر ببعضهم البعض لم تستثرهم هذه المناشدة خصوصاً وأنهم رأوا بعيونهم الانتصار الساحق الذى أحرزه المصريون . فلم يكن أمام الانجليز بدُّ من الانسحاب فأجلوا على بلادنا اضطراراً . وكان جلاؤهم فرصة مواتية لمحمد على لدخول الاسكندرية وضمها إلى الوطن المصرى بعد أن ظلت سبع سنوات تابعة للسلطان التركى مباشرة . وكان هذا الانسحاب الانجليزى هو الثانى فى سجل اعتداءاتهم علينا وقد دام ستة شهور . لأن الانسحاب الأول كان عقب اعادة الترك إلى السيطرة على مصر وإجلاء الفرنسيين عنها [١] .

١٩٠ - والعجيب أن سنة ١٨٠٧ قد اكتظت بالأحداث الموجعة التى انتهت كلها بالسلام والطمأنينة . لأنه بعد كل هذه المحاولات العدائية من المماليك ثم من الانجليز ، جاء الفيضان شحيحاً فداخل الناس خوف من نقص المحصول نتيجة لهذا الشح ورجوا من محمد على أن يطلب إلى الرؤساء الدينيين الصلاة ليبارك الله فى

---

(١) عصر محمد على لعبد الرحمن الرافعى ص ٦٤ - ٧٠ ، عجائب الآثار ... ج ٤ ص ٣٧ - ٣٩ و ٤٦ - ٤٨ .

النيل فترتفع مياهه الارتفاع المطلوب . وبالفعل ارتفعت الصلوات من الجميع . أما الانبا بطرس فذهب مع جماعة من الاساقفة والكهنة يتبعهم الشعب إلى شاطىء النيل . وهناك أقاموا شعائر القداس الإلهى . ولما انتهوا منها أخذ البابا المرقسى قربانة من البركة مع الماء الذى غسل به الأوانى المقدسة وطرحها فى النهر الخالد . وعندها فارت مياهه وارتفع منسوبه . فرفع الجميع آيات التسبح لله المتحنن الذى لم يرحم الشعب المصرى بالفيضان فقط وإنما شمل القبط برحمته أيضاً بأن جعل لبابام مكانة وكرامة فى عينى محمد على باشا . فتمتعوا بالحرية الدينية كما ذاقوا طعم السلام . وهكذا نرى أنه كما انهزم المماليك وانسحب الإنجليز جاء الفيضان وافياً بعد شحه .

١٩١ ـ ولما كان محمد على باشا ذا دهاء فإنه حالما استقرت له الأمور أخذ يستميل إليه المشايخ وقادة الشعب فترك لهم المتأخر عليهم من الضرائب . ويعلق الجبرتى على ما داخلهم من ارتياح نفسى فقال : « ... واستخدموا كتبة الأقباط . وانقلب الوضع فيهم بضده وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائظ والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكى والتناجى مع الأقباط واستدعاء عظمائهم فى جمعياتهم وولائمهم والاعتناء بشأنهم والتفاخر بترددهم والترداد عليهم والمهاداة فيما بينهم[1] ... » .

١٩٢ ـ وساد مصر السلام وبدأت تستعيد أنفاسها وتحس بشىء من الطمأنينة الداخلية إذ أن محمد على أخذ يسوس البلاد فى كثير من الحزم والاتزان . ثم استنجدت به الحكومة التركية لمحاربة الوهابيين فى الحجاز فاستعد للحملة . وفى أول مارس سنة ١٨١١ أعد مهرجاناً فخماً بالقلعة ليقلد فيه ابنه طوسون قيادة

---

(١) عجائب الآثار . . ص ٦٨ ــ ٦٩ .

الجيش المختار للذهاب إلى القتال وفى هذا المهرجان دعا أكابر الرجال وفى مقدمتهم المماليك . فلبوا جميعا هذه الدعوة إذ عدوها التفاتة كريمة من الباشا وذهبوا مرتدين أفخم الملابس ممتطين جيادهم المطهمة . وفى لحظة معينة دوّى الرصاص من نوافذ إحدى تكنات القلعة فكان دويّه الاشارة المتفق عليها للانقضاض على المماليك وقد تم الفتك بهم فعلا إذ قد دخل أربعمائة وسبعون منهم مع أتباعهم إلى القلعة صبيحة ذلك اليوم فقتلوا جميعاً ما عدا أمين بك الذى قفز بحصانه من أعلى السور - على ارتفاع ستين متراً - وحينما اقترب من الارض قفز من على جواده وأخذ يجرى داخل الصحراء ثم استمر فى سيره إلى أن بلغ حدود سوريا [١] . فكانت من غير شك مذبحة مروعة استهدف منها محمد على باشا تثبيت سلطته واراحة نفسه من مناورات هؤلاء العابثين بالأمن الذين لامّ لهم غير الغدر ومحاولة الاستئثار بالحكم . ومع ذلك فهذه المذبحة الشنيعة قد أراحت مصر من طغيان هؤلاء المماليك الذين ظلوا على ما يربو من الخمسة قرون مسيطرين عليها . ولكنها من الناحية الاخرى قد ملأت القلوب رعباً أفقدها الشجاعة والطمأنينة - بل أفقدها الشجاعة الادبية أيضاً . ففقدت بذلك دعامة من دعائم الحياة القومية الكريمة .

إلا أنه على الرغم من هذا الرعب فقد كان هناك من استطاعوا أن يكرسوا نفوسهم للحياة الروحية فينشغلوا بالجهاد البنائى . ومن هؤلاء المنشغلين بالروحيات جندى مجهول انشغل بنساخة جزء من « تاريخ الشيخ المكرم الارخن المسيحى جرجس بن أبى اليسر ابن أبى المكرم ابن أبى الطيب المعروف بابن العميد » .

(١) مصر محمد على « لعبد الرحمن الرافعى ص ١١٢ - ١١٨ » ويقول إن قتل المماليك بالقلعة كان البادرة الأولى التى استثارت الناس عليهم فى الأقاليم فقاموا عليهم حيثما استطاعوا وقتلوا من تمكنوا منه حتى لقد بلغ عدد قتلاهم ألفا .

وهذا عنوان مخطوطة هى فى الواقع مختارات من ميامر أغابيوس المنبجى المعروف بمحبوب بن قسطنطين . وهذه المخطوطة تتضمن أيضاً مختارات من الآيات القرآنية التى تتحدث عن العقيدة المسيحية . وقد جاء فى أولها ما يلى : « لما كنا نسمع ثلب الاسلام أخذنا بيدنا كتاب القران وفتشنا فيه فوجدنا منه ما يرد الأخصام الذين كانوا يثلبونا به وهم الجهال الذين لم يعرفوا القران . فأخذنا من كل سورة ما يناسب لنا فى رد الجواب » . كملت فى ١٠ بشنس سنة ١٥٣٣ ش (١٧ مايو / ١٨١٧م) »(١) .

١٩٣ - ومن مراحم الله فى هذه الفترة أن نجح بعض الأراخنة فى سعيهم إلى إعادة تعمير الكنيسة المرقسية بالاسكندرية بعد أن كان الفرنسيون قد خربوها . فأصدر محمد على فرماناً (سنة ١٥٣٤ ش) إلى المعلم صالح عطاالله أحد أراخنة الاسكندرية يمنحه الإذن فى أن يجمع الاكتتابات لبناء الكنيسة ، وفى الوقت عينه منحه الفعلة والبنائين اللازمين للعمل . وكان الأنبا بطرس الجاولى فى ديره آنذاك بينما كان فى الاسكندرية عدد من الأساقفة ومعهم الأراخنة المعلم جرجس أبو ميخائيل الطويل وأخيه المعلم حنـــا والمعلم سرابامون والمعلم منقريوس أبو يوسف البتنونى والمعلم عبد الملك أبو يوسف حياطة . فكتب المعلم صالح عطاالله إلى البابا يبشره بالمنحة العظيمة ، بينما كتب الأساقفة والأراخنة إلى القمص يوسف رئيس هربة دير الأنبا أنطونى ببوش . ورداً على هذه الخطابات المتضمنة للأخبار المفرحة أرسلوا تبرعات عينية من الوقف ومما قدمه الأراخنة حملها المعلم جرجس حسب الله البياضى وأوصلها إلى المعلم عبد الملك أبو يوسف حياطة . « لأن هؤلاء جميعاً كانوا واسطة فى هذه الشركة الروحانية » .

ولقد بلغت غيرة الشعب وحماسته مبلغاً مكنه من أن يتمم بناء الكنيسة

(١) مخطوطة رقم ١١٤ (٢٠٠ لاهوت) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .

خلال سنة من الزمان فبعث بمندوبيه إلى البابا ينبؤه بذلك فقصد إلى الاسكندرية ليكرس الكنيسة التي تمت. وصحبه الأنبا سرابامون والقمص جرجس رئيس دير أبي مقار والقمص حنين والقس موسى خادما كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم والقس عازر خادم كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة والقس أبسخيرون كاهن الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية والأرخن المعلم منقريوس أبو يوسف البقنوني الذي تولى الصرف على الرحلة من جيبه الخاص والمعلم يوسف الغمراوي والمعلم باخوم ابن شقيق الأنبا سرابامون. ووصل البابا وصحبه إلى دمنهور صباح الأربعاء ٣ بابة سنة ١٥٢٥ش فأدوا شعائر القداس الإلهي بكنيسة الملاك ميخائيل. ثم استمروا في سفرهم فوصلوا إلى الاسكندرية صباح الجمعة ٥ بابة. ولكنهم لم يقيموا صلوات التكريس إلا ليلة الأحد فقضوا الليل كله في هذه الشعائر ذات الروعة الخاصة وأكملوها بالقداس الإلهي فجر الأحد. ثم قضوا ثلاثة أيام في مدينة الكاروز العظيم عادوا بعدها إلى القاهرة فوصلوها يوم الاثنين ١٥ بابة.

١٩٤ - ثم رأى الأنبا بطرس الجاولي ضرورة إقامة شعائر الميرون المقدس وأبدى رغبته لأبنائه. وتلبية لهذه الرغبة جهز المقدس خليل الحطاب ببولاق ما يلزمهم من حطب الزيتون وباقي المستلزمات، وتكفل بالصرف عليها المعلم يوحنا أبو ميخائيل الطويل كاتب ديوان محمد علي والمعلم منصور سرابامون كاتب ديوان الأموال والمعلم منقريوس أبو يوسف البقنوني. وفي الأسبوع الأول من الصوم الكبير، وقبل تأدية شعائر طبخ الميرون ذهب البابا المرقسي إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة ليستشفع بأم النور وينال بركتها كي يتم هذا العمل المقدس. فخرج الكهنة وخدام هذه البيعة المقدسة لاستقباله بالألحان الكنسية حسب الطقس والتفوا حوله ودخل الجميع معاً. وبعد الانتهاء من شعائر القداس الإلهي تقدمت الأم المباركة الراهبة ملكة رئيسة دير السيدة العذراء بتلك الجهة

ونالت البركة الأبوية ثم رجت من الأنبا بطرس وصحبه أن يتفقدوا فى الدير . فلبوا دعوتها ثم رفع الجميع شكرهم للآب السماوى وانصرفوا [1] . وبعد ذلك أقيمت شعائر الميرون المقدس فى كنيسة مار مرقس بالأزبكية - وقد اشترك سبعة أساقفة مع البابا فى تأديتها .

١٩٥ - ثم وصـــل رسل موفدين من إمبراطور الحبشة يرجون من البابا المرقسى رسامة مطران لهم عوضاً عن مطرانهم الذى تنيح . وقد أكرم محمد على باشا وفادتهم . وكان الأنبا مرقس فى زيارة لدير كوكب البرية فبعث إليه أسقفا القدس الشريف وأبو تيج (اللذين كانا فى القـاهرة آنذاك) برسالة يخبرونه فيهـا بطلب الأحباش واهتمام الوالى به . فلما وصلته الرسالة وقع اختياره على راهب أنطونى اسمه القس مينا ، وقال لعرب الدير : « سأقول للأب مينا أن يركب الهجين وينزل معنا . فإن أطاع لساعته كان بها وإن لم يطع فقيدوه واركبوه على الهجين واحرسوه فى السفر » . ولما طلب إلى القس مينا أن يركب معه أطاعه . على أنهم ما كادوا يصلون إلى دير الطين (قبلى مصر عتيقة) حتى ظن الراهب أنه إن تمارك مع البدوى المرافق له استطاع أن يفلت منه . ولكن البدوى والقس شنودة (تلميذ البابا) فطنا للأمر فقيداه وحملاه إلى القلاية البابوية العامرة [2] ، ومنها أخذاه إلى منزل المعلم جرجس أبو ميخائيل الطويل حيث ظل تحت الحراسة . وفى عيد السيدة العذراء (الأحد ١٥ مسرى سنة ١٥٣٤ ش) قام الأنبـــا بطرس الجاولى ومعه عدد من الأساقفة بتأدية الشعائر المقدسة التى حوّلت الراهب القس مينا إلى نيافة الأنبا كيرلس مطران الحبشة . فأقام بالقلاية البابوية العامرة إلى أن جهزوا له كل

(١) كتاب ١٠١ طقس ص ٥٣ .

(٢) نرى من هذه التعبيرات أن البابا بطرس الجاولى قد حافظ على التقاليد الأصيلة فى اتخاذ « تلميذ » له لا تزيد رتبته عن القمصية ، كما أن مؤرخ ذلك العهد قد حافظ هو أيضاً على التقليد الكنسى فوصف الدار البابوية بكلمة « قلاية » .

ما يحتاج إليه السفر ، وأعدوا له من يرافقه من الكهنة والشمامسة والرهبان وما يلزمه من الكتب والملابس الكهنوتية والفرش والنحاس . واتبعوا العادة التي جرى عليها الآباء منذ البداية فدفعوا له أجرة الجمال التي نقلته إلى السويس ثم أجرة الغليون الذي ركبه إلى جدة ومنها إلى مصوع . وقد صحبه البابا والمطارنة إلى دير الأنبا رويس الذي كان آنذاك نقطة الخروج من القاهرة لمن ينبغي السفر جنوباً [١] .

كذلك حدث أن شغر كرسي البهنسا والفيوم والجيزة . وكان في دير السريان آنذاك راهب محبوب جداً من إخوته فأخذوه إلى الانبا بطرس الجاولي ليرسمه أسقفاً على الكرسي الشاغر . ولأن البابا كان من دير الانبا أنطوني فقد كان ميالا إلى اختيار رهبان ديره لرسامتهم أساقفة . على أن الرهبان آنذاك استمروا في الحاحهم إلى حد جعل البابا ينزل على رأيهم ويرسم من اختاروه أسقفاً باسم الانبا ايساك . ومن الطريف أنه توجد في ديره للآن بدله كهنوتية كاملة باسمه نسج فيها أنها تمت سنة ١٥٥٥ ش [٢] .

١٩٦ - وتوالت المراحم الإلهية - ذلك أن البابا الاسكندري كان قد اضطر إلى عدم رسامة أساقفة السودان لأن النوبة كانت قد سقطت في أيدي ولاة اليمن . ولكن محمد علي باشا تمكن من استعادتها لسلطان مصر فأصبح الطريق إلى السودان مفتوحاً . ووجد البابا المرقسي الفرصة مواتية فرسم أسقفين للقطر السوداني الشقيق كما رسم معهما الرعاة اللازمين للخدمة . فعادت الرابطة التي تربط البلدين إلى ما كانت عليه .

١٩٧ - ولقد تكاثرت مراحم الله بصورة عجيبة في تلك الفترة - فما كاد

(١) كامل صالح نخلة « سلسلة . . . » الحلقة الخامسة ص ١٢٢ - ١٢٥ .

(٢) « الأديرة المصرية العامرة » لصموئيل تاوضروس السرياني

الأنبا بطرس الجاولى ينتهى من تكريس الكنيسة المرقسية بالاسكندرية ومن اقامة شعائر الميرون من رسامة الأساقفة حتى نجح المعلم يوحنا أبو ميخائيل الطويل فى استصدار فرمان من محمد على باشا بالاذن فى تعمير الاديرة بالقدس الشريف. ثم ذهب هذا الأرخن الغيور ومعه الارخن حبيب حنا إلى البابا وأطلعاه على الفرمان. وعندما أرسل البابا فى طلب المهندس أنطونيوس عصفور وعهد اليه بتنفيذ عمليـــة التعمير. وفرح المهندس أنطونيوس بالثقة البابوية وذهب مع الأرخن حبيب حنا إلى دمشق حيث سلموا فرمان التعمير إلى واليها فصدق عليه وكتب لها فرماناً بذلك. ومن ثم ذهب كلاهما إلى قاضى مدينة القدس وفى حضرة نقيب الاشراف وأعيان المدينة سجلوا الفرمان فى المحكمة. وبعد اتمام كل هذه الخطوات الرسمية اللازمة شرع المعلم حبيب والمهندس أنطونيوس فى العمل. وقد نجحا بنعمة الله فى تعمير دير السلطان [1] وحاكورته ودير الرمان وقاعة الملكة هيلانة ودار سالم الناظر ومختلف الاماكن المجاورة لقبـــة القيامة ودار القمص سمعان ودير الشهيد العظيم مار جرجس. ومما يثير العجب أن كل هذا التعمير تم فى ٢٤ برمهات سنة ١٥٣٧ ش - أى أنه لم يستغرق أكثر من سنتين !

١٩٨ - زعم عدو الخير أن فى استطاعته تعكير صفو هذا الهدوء فاستثار بعض الناس إلى أن يقولوا أمام ابراهيم باشا (ابن محمد على) بأن النصارى يؤمنون بخروج النور من قبر السيد المسيح يوم السبت التالى ليوم الجمعة العظيمة : يوم الصلبوت الكريم. فدعا إبراهيم باشا الانبا بطرس واستفسر منه عن الخبر ثم طالبه بأن يذهب معه إلى القدس ليرى بعينيه ماذا يحدث. فسافر البابا المرقسى بالفعل ثم أفهم إبراهيم باشا بأن بطريرك الروم الارثوذكس هو الذى يدخل داخل القبر المقدس ليرفع الصلوات التى ينبثق من بعدها النور. فوافقه إبراهيم باشا على

(١) راجع ما جاء عنه فى ج ٣ ص ١٩٢ من هذا الكتاب والهامش على الصفحة عينها.

وجود البطريرك الرومى ولكنه أصر على أن يدخل الأنبا بطرس معه . وأخرج الجماهير التى تتجمع سنوياً فى مثل هذا اليوم المبارك وأغلق باب كنيسة القيامة بالمفتاح . كما اضطر البطريركين إلى خلع جميع ملابسهما ليضمن أن واحداً منهما لم يخبىء شيئاً فيها . وعندما أخذ البابا المرقسى يستغيث برب المجد ضارعاً إليه أن يتداركه ويتدارك معه كل المنتظرين التبرك برؤية نوره . وبالطبع كان بطريرك الروم يصلى بحرارة إلى جانبه . وعندما انبثق النور من القبر المقدس وطاف حول الكنيسة ثم شق العامود القائم على يسار الداخل عند بوابة الكنيسة فرآه الشعب الذى اضطر إلى الخروج من الكنيسة فتجمهر خارجاً . ولا يزال هذا العامود قائماً للآن مشقوقاً من وسطه من فوق إلى أسفل معلناً للجميع أن السيد المسيح لابد أن يجبر خواطر المتطلعين إليه — فهم حينما طردهم الحاكم الأرضى قد سعدوا برؤية نور الملك السماوى يخرج إليهم خارج الكنيسة .

١٩٩ — كذلك حدث ما أثار الدهش فى أوساط المجد العالمى وهو أن سفير الروسيا ذهب لزيارة الأنبا بطرس الجاولى . وكان يصحبه ترجمان يتقدمهما الياسقجى⁽¹⁾ . ولما دخلوا حوش الدار البابوية وجدوا رجلا جالساً على الدكة تحيط به النسخ العديدة من الكتب وهو منهمك فى مطالعتها ومقارنتها . فطلبوا إليه أن يوصلهم إلى البابا المرقسى . وأصابهم الذهول حينما علموا أنه هو الذى يخاطبهم ولم يصدقوا فى بادىء الأمر . فسأله السفير عن تجاهله المظاهر الخارجية . أجابه فى وداعة : « ليس العبد أفضل من سيده وسيدى كان بسيطاً فى ملبسه شظفاً فى عيشه » . فازداد السفير ذهولا ورأى أن يحول مجرى الحديث فسأل : « وما حال الكنيسة ؟ » أجابه لفوره : « هى بخير بحمد الله . ومادامت كنيسته فهو وحده الذى يرعاها ولن يتخلى عنها أبداً » . فعاد السفير يتساءل : « ألم تفكروا قط فى

(١) هو شخص كان يسير أمام الكبراء معلنا قدومهم مفسحاً أمامهم الطريق .

الحماية ؟ ، فاستفسر البابا عما يقصد إليه زائره . فلما أفهمه بأنهم على استعداد لوضع الكنيسة تحت رعاية قيصر الروسيا الذى له الصولة والجولة والذى جعل من نفسه حامى الأرثوذكس حيثما كانوا . وعندما سأله الأنبا بطرس : « ألا يموت القيصر الذى تصفه كل هذا الوصف ؟ » أجابه بالايجاب . فقال البابا الاسكندرى : « إننا فى حمى ملك لا يموت » . فتضاعفت دهشة السفير وأحس بقوة هذا الرجل المتواضع الذى كان مهيباً رغم بساطته وقال : « حقاً لم أقابل من يستحق أن يكون خليفة السيد المسيح على هذه الأرض غير هذا الرجل الذى لم يخدعه زخرف العالم » . وحالما خرج من الدار البابوية ذهب لفوره إلى قصر محمد على وسرد عليه كل ما جرى . فازداد الوالى تقديراً للبابا .

٢٠٠ - ولقد تجلت عناية الله أيضاً فى مساندته للأنبا بطرس - ذلك أنه كان لمحمد على باشا بنت اسمها زهرة باشا زوّجها من أحمد بك الدفتردار . ثم اعتراها روح نجس . وحار الأطباء فى علاجها . فقال بعض رجال القصر للباشا بأنه فى امكان « أئمة » النصارى شفاءها . فأرسل لتوه إلى البابا الاسكندرى الذى استدعى الأنبا صرابامون أسقف المنوفية وطلب إليه الذهاب إلى قصر الباشا للصلاة على ابنته . وبالطبع لبى الأسقف طلب باباه . وحينما وصل إلى القصر وجده غاصاً بالرجال والنساء الذين ذهبوا ليروا ماذا يستطيع الأسقف القبطى عمله . فدخل إلى غرفة زهرة باشا . وما كاد يبدأ الصلاة حتى ألقى الشيطان بالأميرة إلى الأرض . فأخذت تصرخ وترغى وتزبد . فتضاعفت صلوات الأنبا صرابامون وأخذ يذرف الدموع السخينة قائلا بأعلى صوته : « يا خطيتك يا صليب ! » (اسمه العلمانى) . واستكمل بقول : « يا ربنا يسوع المسيح مجد يمينك وانصر كنيستك » . وظل فى صراع روحى ثم أكمله بأن رسم علامة الصليب على كوب ماء رش به وجه الأميرة . فصرخ الشيطان بصوت مزعج وخرج منها . فقامت الأميرة معافاة صحيحة . وعندها

صدحت موسيقى القصر وجرى من يبشر محمد على بالشفاء . لجاء ووجد ابنته فى خير وعافية وأراد أن يعبر عن شكره للأنبا سرابامون فصرّ أربعة آلاف جنيه فى صرّة وقدمها له ولكن الأب الروحانى رفضها قائلا : « لا أستطيع أن أربح المال بالمواهب التى منحنى الله إياها مجاناً وكل ما أرجوه من دولتكم أن تتعطفوا على أبناء القبط الذين تجنى عليهم الحكام ورفتوهم » . فقبل الباشا هذا الرجاء ثم ألح عليه فى أن يأخذ المال . فأخذ منه القليل وزعـــه على الجنود المصطفين على الجانبين لتوديعه وهو خارج .

٢٠١ – ووجد الكاثوليك أن القبط فى تلك الفترة يعيشون فى هدوء ويتمتعون بالحرية الدينية . فلم يكن هناك ماء عكر يتصيدون فيه . ولكنهم وجدوا أن محمد على يسعى سعياً حثيثاً إلى تعليم أبناء مصر وإلى استقدام العلماء وبخاصة الفرنسيين للافادة من علمهم وخبرتهم . فرأوا أن يدخلوا عن طريقه بالذات واقترحوا عليه أن يطلب إلى كاتبه المعلم غالى وأخيـــه المعلم فرنسيس الانضواء تحت رعاية البابا الرومانى . ومقابل عمله هذا يضاعفون مجهوداتهم معه . فاستدعى الباشا كاتبه وأخاه وابنـه باسيليوس وأشار عليهم بمضمون الطلب الكاثوليكى . فقالوا له بأنه من المحال تحويل الكنيسة القبطية فى مجموعها ولن يؤدى هذا الطلب إلا إلى سفـــك الدماء . وعرضوا عليه أن يعتنق ثلاثتهم المذهب الكاثوليكى بشرط الاحتفاظ بعوائدهم الشرقية . ووافق محمد على على اقتراحهم . فتحولوا هم وعدد من أشياعهم إلى الكثلكة – وكان ذلك فى مستهل سنة ١٨٢٢ .

ولم تمض غير شهور حتى أمر محمد على أحد رجاله باغتيال المعلم غالى فنفـذ أمره وقتل المعلم المذكور فى مدينة زفتى فى أوائل يوليو سنة ١٨٢٢ . ويرجح العلامة محمد بك فريد وجدى[1] أن السبب فى هذا الاغتيال هو أن المعلم فرنسيس

(١) فى كتابه « دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى » مجلد ٧ ص ٦٢٢ .

زيف خطاباً باسم محمد على باشا وختمه، زعم فيه أن الباشا يطلب إلى بابا رومية وهو لاون(١) الثانى عشر أن يقيم ابراهيم كاشور (الطالب بكلية البروبا جندا الرومانية) رئيس أساقفة على مدينة ممفيس مقابل إخضاع قبط مصر لسلطانه، كما ادعى أن الباشا منح والد ابراهيم كاشور لقب «مركيز طهطا». وكان المعلم فرنسيس قد اندفع فى كتابة هذا الخطاب المزيف بسبب اختلاف احتدم بينه وبين أسقفهم مكسيموس فى قضية طلاق. وهناك صورة لهذا الخطاب المزيف محفوظة فى إحدى مكتبات الفاتيكان استولى عليها غاريبالدى عندما غزوا روما(٢).

وثمة صورة للنفاق السياسى تتبدى لنا حين أرسل محمد على باشا إلى باسيليوس ابن المعلم غالى ليعزيه عن أبيه. فانحنى باسيليوس على يد الباشا يقبلها وهو يقول: «أطال الله بقاءكم. فما دمتم باقين فإنى لم أفقد أبى». فكانت هذه الكلمات سبباً فى أن يعين محمد على هذا الرجل فى وظيفة أبيه.

وبدخول المعلم غالى وابنه وأخيه وعائلاتهم وأشياعهم إلى الكثلكة أصبح للكنيسة الكاثوليكية كيان فى هذا الوادى الرحيب الذى لم يعرف منذ نشأة المسيحية غير الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المصرية الصميمة التى ظلت على مدى القرون رمزاً للصمود فى وجه الاستعمار وبطش الدخلاء. ولولا تلاعب السياسة وفعل المطامع الانسانية لظلت على وحدتها وقوة تماسكها.

٢٠٢ - ولم يقف الراعى الساهر مكتوف اليدين كما يريد الغربيون أن يوهمونا.

---

(١) يبدو أن اسم «لاون» مقترن بالأذى للكنيسة المصرية: فقد كان لاون الاول صاحب الوثيقة المعروفة باسم «طومس لاون» زعيم المتآمرين على الانبا ديسقورس البابا الاسكندرى الخامس والعشرين فى مجمع خلقيدون المشئوم - راجع الفصل الأول من ج ٢ لهذا الكتاب.

(٢) «الأمة القبطية وكنيستها الأرثوذكسية» لفرنسيس العتر ص ٥٩.

لقد كان الأب والقـــائد يحتم عليه واجبـه أن يحرص على أبنـائه وجنوده قدر المستطاع . فتفقد الشعب ثم انشغل فى كتابة الرسائل الموضحـــة للعقيدة المؤيدة لجهاد الآباء . ففى المكتبة البابوية بالقاهرة كتاب رقم ١٥٣١ بعنوان « مقالات فى المجادلات » وآخر فى الاعتقـادات رداً على المعاندين » بتاريخ ٧ أبيب سنة ١٥٢٥ ش بخط البابا نفسه . وله مواعظ ورسائل باللغة العربيه (فى مئة واثنين وعشرين ورقه خط يد) . أما المقالات فهى : « ١ - فى الرد على من يقول أن الله أعدم من طائفة القبط المقدم أمام متولى الوقف بقضائه لهم . ٢ - فى الرد على من يقول إنا مهملون فى السعى عن سياسة أولاد بيعتنـا ولسنا منتبهين مثل غيرنا . ٣ - فى الرد على من يقول إن فى المسيح مشيئتين وطبيعتين منفصلين ويعطون لطبيعة المجد وللأخرى الهوان . ٤ - فى الرد على من يقول ان غيرهم من الطوائف ملازمون الاعتراف وتناول القربان وطائفة القبط نادر لهم هذا الفعل . ٥ - فى الرد على من يقول إن القبط عدموا المساعدة من باريهم وصارت خطاياهم مشهورة . ٦ - فى من يميل لغير اعتقاداته لأجل المجد البـاطل رغبة منه للفخفخة الجسدانية وميلا لمحبة الفضة . ٧ - نوح البابا على تعدى الغير بالأقوال الكاذبة [1] . ويقول المطلعون إن المقـــالين الأخيرين كتبهما خصيصا لمن انسلخ عن الأرثوذكسية ودخل الكثلكة وتسمى باسم « القبطى التابع » أو « قبطى افرنجى [2] » .

---

(١) مخطوطة رقم ٣٦١ (٤٧٠) .

(٢) وفى هذه التسمية تعبير عن أن القبطى الذى خرج على كنيسته الأصيلة قد فقد بهذا الخروج جزءً من صميم قوميته الوطنية . ولست أشك فى أن من يقبـل على نفسه أن يـكون « تابعا » أو « افرنجيا » قد تنـكر لنفسه ولقومه مهما كانت الأسباب التى دفعته إلى هجران كنيسـة آبائه التى ذادوا عنها بدمائهم وبجهودهم . ومثل هذه التسمية تذكرنا بأن القبط أطلقوا كلمة « ملـكيين » على مشايعى مجمع خلقيدون الذين انحازوا آنذاك للملك مرقيـانوس حين رأس الجلسة الافتتاحية لذلك المجمع المشئوم .

وهناك كتاب رقم ١٠٦ يتضمن المواعظ والتعاليم ، تأليف أنبا بطرس أحد الرهبان الأنطونيين عربى خط يد نقله من الخط الجرشونى إلى العربى أنبا بطرس البطريرك الـ ١٠٩ ، والناسخ حنـــا سليمان . وكان الفراغ منه فى ٢ النسى سنة ١٥٨٠ ش .

ومن المخطوطات التى جمعها هذا البابا الدؤوب على البحث وأودعها مكتبة الدار البابوية جزء من مخطوطة هى معجم الألفاظ الطبية . ومع الأسف أن الباقى منها يبدأ بكلمة « علاج » وينتهى إلى كلمة « مرض » ! وإلى جانبها مخطوطة من أوراق متناثرة تشمل الصلوات السبع جددها القس اليـــاس أثناسيوس كاهن الكتدرائية بأبوتيج فى ١٨ طوبة سنة ١٥٢٠ ش . ثم مخطوطة ترجع أصلا إلى القرن الخامس عشر رتبها وأضاف إليها ست ورقات : ثلاثاً فى أولها وثلاثاً فى آخرها — الشماس أثناسيوس خادم كرسى أبو تيج وتتضمن القراءات المختارة من العهدين القديم والجديد من ١٢-٣٠ بوؤنة ثم لشهور أبيب ومسرى والنسى[١] .

ولقد أبدى الأنبا بطرس الجاولى عناية كبرى بالكتب وبالتفتيش فيها إلى حد أنه هو الذى أنشأ المكتبتين الخاصة والعامة بالدار البابوية — فى القاهرة .

ولا غرابة فى اهتمام البابا المرقسى كل هذا الاهتمام بالكتابة فى العقيـــدة الأرثوذكسية إذ قد استغل الفرنسيون نفوذهم لدى محمد على باشا واستندوا إلى أنه أصبح لهم كيان رسمى فى هذا الوادى الرحيب فأخذوا يفتحون المدارس بحجة أن أولاد الكاثوليك يجب أن يتلقوا العلم على أيدى رجال (أو سيدات) الدين الكاثوليكى . ففتحوا مدرستين فى الاسكندرية إحداهما تحت رعاية الرهبان

---

(١) مخطوطة ١٠٣ (رقم ١٢٨) ، مخطوطة ١٤٨ (رقم ٣٠٥) ، مخطوطة ١٧٤ (رقم ١١٨٠) .

العازاريين [1] والثانية تحت رعاية راهبات الاحسان [2] سنة ١٨٤٤ م . وقد شجعهم محمد على باعطائهم الأماكن اللازمة لاقامة المدارس عليها . وسار على منهجه محمد سعيد باشا . لذلك نجد راهبات الراعى الصالح [3] يفتتحن مدرسة للبنات فى ٦ يناير سنة ١٨٤٦ م . وقد شاء الولاة المدنيون التقرب إلى الغرب لتوطيد نفوذهم بواسطتهم وبخاصة عندما أيقنوا أن الهدف من هذه المدارس هو استمالة القبط دون المسلمين إلى مذهبهم الكاثوليكى . ومن الأمثلة على تشجيع ولاة مصر لهؤلاء « الغزاة » أن راهبات الاحسان حصلن على أرض مساحتها ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع لاقامة مدرستهن عليها [4] . وهكذا نجد أن كل القوى تكتلت ضد الكنيسة القبطية : قوة الحكومة الفرنسية بمالها ورجالها ونسائها مع قوة الوالى الحاكم لمصر بسلطانه واغداقاته . ولكن ما أصدق القول : « دولة الظلم ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة [5] » . فقد نجحت هذه القوى لفترة معينة إلى أن نمت البذار التى بذرها البابا بطرس الجاولى ومن توالوا بعده على السدة المرقسية وآنت ثمارها فجعلت ثمار هذه المدارس مرة فى حلق القبط فلفظوها ، بل ومرة فى حلوقهم هم حتى أرادوا أن يبيعوها .

أما الانجليز فساروا على خطة دعاتهم المعهودة زاعمين فى خيلائهم أنهم يستطيعون السيطرة على الكنيسة القبطيه ككل فافتتحوا مدرسة فى الدرب الواسع سنة ١٨٤٠ م أمام الكنيسة المرقسية التى تضم المقر البابوى لتعليم الشبان الذين سينتظمون فى سلك الكهنوت لكى يعلموهم التعاليم المغايرة للعقيدة الأرثوذكسية

(1) Les Lazaristes .

(2) Les Filles de Charité de St. Vincent de Paul .

(3) Le Bon Pasteur .

(٤) « تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر » لجرجس سلامه ص ١٨ و ٤٢ — ٤٣ .

(٥) أى إلى يوم القيامة .

وعن طريقهم يبلبلون أفكار الشعب القبطى فتتسنى لهم فرصة السيطرة عليه بطريقة سلمية خفية . على أن سهمهم طاش أمام يقظة الراعى الساهر فاضطروا إلى اغلاق مدرستهم فى العام الدراسى سنة ١٨٤٧ - ١٨٤٨ . ومما تجدر الاشارة إليه أن البيت الذى شاءوا أن يجعلوه مركزاً للسيادة على الكنيسة القبطية أصبح بعد فشلهم بيت الوقف التابع لدير الأنبا أنطونى أبى الرهبان [1] .

وإلى جانب كتابات الأنبا بطرس العامة فما زالت رسالته التى بعث بها إلى الشعب منفلوط باقية ، وهى تحوى التقليد الأسقفى قال فيها : « . . . تبذلون الطاعة الكلية والمودة الحقانية وتعاملونه كالأب بالمحبة الروحانية . ولا تخرجوا على ما يشير به من القوانين الشرعية . وتحافظون على الأصوام المفروضة والصلوات المنصوصة والقداسات المرفوعة والسهرانات بالتراتيل المسموعة . والصدقات على محاويجكم بقدر طاقتكم . ورفع القرابين من بكوركم وثمار غلاتكم . وتحافظوا على طهارة النفس والجسد والقلب . وتعتمدوا على الصوم والصلاة فى أوقاتها المفروضة ... وتحفظوا بما استودعكم من الأمانة بالثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس الإله الواحد . وأمانة الآباء المجتمعين بنيقية الثلاثمائة والثمانية عشر . . . وقول المئة والخمسين المجتمعين بالقسطنطينية . . . فلما اجتمع الآباء المايتان بأفسس على قطع نسطور القائل بالطبيعتين فى المسيح من بعد الاتحاد العجيب لم يقدروا أن يزيدوا فى الأمانة شيئا أو ينقصوا شيئاً بل إنهم حرموا ذلك الجاحد أعنى نسطور ومن يقول بقوله وانصرفوا إلى كراسيهم . . . يطلب إليكم أن تحبوا بعضكم بعضاً محبة أخوية بغير محاباة فإن لمحبة وثاق الكمال . . . والله تعالى يعصمكم من العصيان . وينعم على السامعين الطايعين بالغفران . ويأمنكم فى أوطانكم . ويثبت على الصخرة التقوى ايمانكم . ويبارك أرزاقكم ويديم عمارتكم . . . والتوبة هى

(١) « الكنيسة القبطية فى مواجهة الاستعمار والصهيونية » لوليم سليمان ص ٢٣-٢٤ .

الرجوع والندم بحسب ذلك محالين ومغفورة لكم خطاياكم من فم الثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس الإله الواحد فى الذاتية . . . محالين ومغفورة لكم خطاياكم بطلبات الست السيدة مرتمريم الزهرة العطرة التى أضحى عطر طيبها فى كل الأقطار يفوح والدة الإله الكلمة الازلى المتجسد لخلاصنا الذى مات بالجسد وهو حى بالروح . ومار مرقس الانجيلى الذى ببشارته المحيية ينجينا من طوفان الخطية كنجاة نوح وكافة ذوى الأعمال المرضية من بالشهادة سفك دمه ومن تقشف بالنسك ولبس المسوح . وتكونوا محالين مباركين من فم الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية الكنيسة . ومحالين مباركين من فم الآباء أصحاب المجامع المقدسة الثلاثمائة والثمانية عشر بنقية والماية والخمسين بالقسطنطينية والمايتين بأفسس ومن فاى أنا بطرس خادم بنعمة الله وأحكامه الغير مدروكة ولا معقولة المرتبة المرقسية . وسلام الرب القدوس يحوط بكم من كل ناحية . وبركة الرب الإله القدوس تحل عليكم النعمة والبركة تشملكم . والشكر لله دائماً أبداً آمين فى ثالث عشر أمشير سنة ١٥٣٣ للشهداء الأطهار السعداء الأبرار . رزقنا الله ببركاته . آمين » .

والحق أن هذه الرسالة جديرة بنقلها بأكملها لأنها أشبه برسائل الآباء الاولين خصوصاً رسائلهم الفصحية التى كانوا يبعثون بها إلى كافة الأقطار المسيحية فى عيد القيامة المجيدة .

كذلك ورد فى آخر سيرة الانبا باخوم أبى الشركة ـ وهى السيرة التى ترجمها آميلينو إلى الفرنسية ـ ما يلى : « كان المهتم بهذه السيرة الجليلة الاب الجليل الكريم فى جيله أبينا المحبوب الرؤوف الرحيم الحليم رئيس الاساقفة بالديار المصرية أنبا بطرس التاسع بعد المئة فى عداد البطاركة » .

وهنا مخطوطة تتكون من مئة وثمانى وخمسين ورقة لا تحمل اسماً ولكنها

مؤرخة بتاريخ ٤ توت سنة ١٥٦٦ ش لساويرس ابن المقفع ومن المعقول أن يكون الانبا بطرس قد كتبها ضمن الكثير من كتاباته لان عنوانها هو « كتاب الدر الثمين فى ايضاح الاعتقاد فى الدين » ، وهى تتضمن وصفاً لحياة السيد المسيح مصحوباً بشهادات العهدين القديم والجديد وكذلك الكتّاب الكنسيين . وتتألف من خمسه عشر فصلا [1] .

وبالاضافة فهناك مخطوطة تتضمن حياة الشهيدة القديسة بربارة على صفحتها الاولى (وجه) ملحوظة مؤداها أن نعوم بن ميخائيل أنطونيوس بن فرج الله من مدينة حلب قد اشتراها وأوقفها على كنيسة السيدة العذراء بمصر العتيقة (من غير تحديد كنيسة بالذات) . وتحمل تاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٢٩ دون التاريخ القبطى .

ومما يؤثر عن الانبا بطرس الجاولى أنه لم يكتف بالعناية بالإشخاص بل وجّه عنايته أيضاً إلى ممتلكات الكنيسة . ومن الادلة على ذلك صورة حجة خاصة بدمياط تاريخها ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) مختومة بختم القاضى محمد حسن قاضى ثغر دمياط وهى : « حضر للمجلس القس حنا ولد يوسف إبراهيم الناظر على وقف فقراء كنيسة القبط بالثغر من قبل بطريرك الاقباط المدعو بطرس بحارة القضاوة على الجزئين شرق وغربى أوقفها المعلم الجوهرى » . وهذه الحجة بدورها توضح لنا يقظة الآباء القبط خلافاً للدعايات الغربية المغرضة [2] .

ويجب أن نذكر أن الدراسة العلمية للحضارة الفرعونية بدأت بشكل جدى فى هذه الفترة . فقد أرسلت الحكومة الفرنسية مسيو ماريت إلى مصر بقصد شراء المخطوطات القبطية سنة ١٨٥٠ . ولكنه وجد الدراسة واسعة شيقة فاستقال وعاش

(١) مخطوطة ٣٢٤ - رقم ٢٩٥ محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

(٢) توفيق اسكاروس ج ٢ ص ٢٧٨ .

فى مصر بقية حياته . وكان أول من نبه الأذهان إلى أن دراسة الحضارة القبطية لها أهمية خاصة لكل باحث فى حضارة الفراعنة إذ أنها امتداد لها . فدراسة اللغة القبطية مثلا مفتاح لدراسة الهيروغليفية . وقد قدرت مصر جهود هذا العالم المحب لحضارتها فنحته لقب « باشا »[1].

٢٠٣ - ورغم استقباب الأمر وسياسة الحرية الدينية التى سار عليها محمد على باشا ، فقد حدث فى دمياط حادث أليم وهو أن أحد الرجال زعم أن سيدهم بشاى الكاتب بديوان الحكومة بذلك الثغر قد سب الدين الإسلامى . وثارت الانفعالات لهذا الكلام إلى حد أدى إلى أن حكم القاضى عليه بالجلد . ثم أركبوه جاموسة

---

(١) تاريخ مصر الحديث لمحمد عبد الرحيم ص ٢١٤ ، كما أنه يجدر بنا أن نذكر أن النشاط فى فتح المدارس لم يكن قاصراً على الأجانب بل إن ولاة مصر الذين شجعوا هؤلاء الأجانب فتحوا المدارس بدورهم - فتشجيعهم إنما كان لنشر العلم بطريقة أعم وأوسع . ويكفى أن نعرف أن محمد على كان قد فتح حتى نهاية سنة ١٨٣٦ خمسين مدرسة ابتدائية موزعة ما بين القاهرة والأقاليم ، ومدرستين تجهيزيتين (ثانويتين) إحداهما فى القاهرة والثانية فى الاسكندرية ، ثم المدارس العليا التى كانت توصف إذ ذاك بالمدارس الخصوصية وهى الطب والصيدلة والولادة والطب البيطرى والمهندسخانة والزراعة والعمليات والالسن والمحاسبة والفرسان والمدفعية وأركان الحرب . ومما يجدر ذكره أن محمد على أراد ادخال البنات إلى مدرسة الولادة فرفض آباؤهن رفضاً باتاً . وعلى ذلك اشترى سبع جوارى سودانيات وأدخلهن فيها فكن بذلك الخيرة لتلك المدرسة إذ دخل بعدهن المصريات (تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى عهد محمد على باشا لأحمد عزت عبد الكريم ص ٢٨٩) . ولقد كان التعليم بالمجان بالإضافة إلى الغذاء والكساء والمرتبات الشهرية للتلاميذ . فتكون بذلك جيل جديد من الشباب المصرى انشغل فى بادىء الامر بترجمة المؤلفات فى الطب والهندسة والفلك والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية . وأدت هذه الحركة العلمية إلى بث الروح القومية إذ تولى المصريون لاول مرة فى تاريخ مصر الحديث شئون بلادهم . وليس من شك فى أن صحوة القومية استثارت الغربيين فضاعفوا جهودهم للحد من قوتها بأن استبدلوا تاريخ مصر وجغرافيتها وعلومها وغير ذلك بتاريخ بلادهم وجغرافيته وعلومه . (تاريخ مصر الحديث من محمد على إلى نهاية عصر اسماعيل للمؤلف نفسه هامش ص ٣١٣ - ٣١٤) حتى لقد أفلحوا فى تخريج مجموعات من المصريين والمصريات يجهلون أمجاد مصر ويتشدقون بأمجاد غيرها !

وظهره ناحية رأسها وطافوا به شوارع المدينة وهم يهتفون هتافات عالية مثيرة . وخـلال طوافهم كانوا ينخسونه بالسياخ ويلقون عليه الزفت المغلى . وبعد أن شفوا من غلهم رموا بسيدهم بشاى أمام باب بيته وتركوه ومضوا . فمات بعد خمسة أيام . وساء القبط أن يحدث هذا الحادث آنذاك فرفعوا شكواهم إلى محمد على الذى أمر بإعادة التحقيق بدقة . فاتضحت براءة الشهيد سيدهم بشاى ومن ثم أصدر الوالى حكمه بإدانة القاضى والمحافظ كليهما ونفاهما عقاباً لهما . وعلى أثر ذلك احتفل القبط بجنازة الشهيد احتفالا رائعاً نادر المثيل. ومذاك صدر الأمر بالسماح المسيحيين برفع الصليب جهاراً فى جنازاتهم .

٢٠٤ - ومن العجب بمكان أنه فى هذه الفترة التى سـادها شىء من الحرية الدينية ومن التسامح فإن خصوم عمر مكرم حينما أرادوا أن يسقطوه من زعامته الشعبية ادعوا عليه بأنه اقترف أنواعاً من الموبقات منها أنه أدخل جماعة من القبط الذين أسلموا فى دفتر الأشـراف ، وأنه قطع رواتب بعض الشرفاء المستحقين وأعطاها القبط المتداخلين معه [1] .

٢٠٥ - ثم وصلت إلى الأنبا بطرس شكوى للأحباش من مطرانهم زعموا فيها أنه يعاملهم بقسوة ، ووردت بعدها رسالة من المطران يوضح فيها حقيقة الخلاف وهى أن شيئاً من التعاليم الغريبة انتشر بين الأحباش نتيجة لنشاط بعض الأجانب . فبعث البابا المرقسى برسالتين أولاهما إلى ملك الحبشة أوضح له فيها العقيدة وسرد بعدها القانون النيقاوى ثم قال: « ... هذه هى أمانتنا بالاسكندرية من أبينا مرقس الانجيلى إلى يومنا هذا وليس لنا تعليم ولا أمانة غيرها. وأرسلنا لكم عـدة أدراج بها ولم نعلم إن كانت تصلكم أم لا أو تصل والمترجمون

---

(١) « الآثار . . » ج ٤ ص ١٠٠ و ١٩٤ .

يغيرونها . وكذلك الجوابات التي تحضر من عندكم لنا لم نعرف لها قاعدة ولا نصاً معتدلا ونحن غير عارفين إن كانت لخبطة جواباتكم من المترجمين أم من عـــدم معرفة اللغة ... ولأجل كمال برهنة كلامنا المتقدم شرحه واصل لـكم درج بمجموع بالاختصار من كلام آبائنا الرسل والآباء الذين بعدهم . عند وصوله عنـــدكم تترجمونه من اللغة العربية إلى اللغة الحبشية وتطلعون عليه عامة الجيوش وجماعة العلماء بطرفكم . . ويكون ذلك بحضور أخينا الحبيب المكرم المطران أنبا كيرلس بمدصلحكم معه صلحاً شافياً وتأخذون منه الحل والبركة وتقبلونه كقبولنا عندكم لأنه رجل صالح قديس وذو فهم وعلم بالـكتب المقدسة وتطيلون روحكم ويكون عندكم التأني في ترجمة الدرج وجواباتنا الواصلة لـكم حتى تفهموا ذلك جيداً إذا كان يصير عندكم وعند العموم الاقتناع بهذا الدرج فإن الله تعالى يهديكم إلى ما يرضيه ويجنبكم ما يغضبـه ويكون لـكم عوناً معيناً وحافظاً وأميناً . وإن كان لم يصر عندكم الاقتناع بذلك فميزوا اثنين أو ثلاثة من طرفكم ذوى فهم وعلم بالـكتب المقدسة وارسلوهم ليحضروا طرفنا فنتكلم معهم شفاهياً بالفم حتى يقتنعوا بحضور صورة الأمانة وما يصير بيننـا وبينهم من القول وما ينتهى به الـكلام يصل لـكم به كتاب تفهمون به كل شيء منه تفصيلا . والله تعالى يثبتكم ويساعدكم ويدبر أموركم وسلام الرب يحل عليـكم والبركة تشملـكم ».

تحريراً في ٢٤ شهر طوبة سنة ١٤٥١ ش .

أما الرسالة الثانية فموجهة للمطران وتتضمن توجيهاته الأبوية وبالاضافة إلى هاتين الرسالتين بعث البـابا المرقسى بخطاب إلى وزير حبشى اسمـه سابا جاديس ردا عليه إذ قد استهله بهذه الـكلمات : « . . . إنه فى أبرك وقت وأشرف ساعة حضر لنـا جواباكم : واحد صحبة محمد الجبرت والثانى صحبة ولدنا يعقوب القبطى وقرأناهما وفهمنا ما فيهما وصار عندنا فرح زيادة وقدمنا التمجيد والشكر لله تعالى

الذى أعطاكم ولد سلامى نسأله تعالى أن يكون لكم عوناً ومعيناً . . . »[1] .

ولما لم تؤد كل هذه الرسائل إلى نتيجة اختار الانبا بطرس القمص داود الأنطونى وزميلا له فى الرهبنة اسمه برسوم وأرسلهما إلى الحبشة. فوجدا أن بعض الانجليز عرضوا على الامبراطور تدريب جنوده وصنع المدافع لهم وتعليمهم استعمالها . ولكنهم فى الواقع تستروا خلف هذه العروض لينشروا تعاليمهم الدينية اللاأرثوذكسية . واكتشف المطران القبطى خديعتهم فبعث برسالة إلى أبيه الروحى . ورأى الانجليز أن يفتحوا ثغرة على جبهة أخرى ليشتتوا نشاط المسئولين فى الكنيسة وبالتالى يضعفوا مقاومتهم فيصلوا إلى هدفهم من السيطرة على بعض أبناء هذه الكنيسة العريقة . ولهذا الغرض استثاروا الأحباش ليطالبوا بملكية دير السلطان وزادوا على ذلك بأن أوعز إليهم القنصل الانجليزى فى القدس برفع شكواهم إلى سلطان تركيا مباشرة . وأطاع الأحباش الايعاز الانجليزى وسافر وفد منهم إلى القسطنطينية . على أن القاضى الشرعى الذى كان السلطان التركى يرجع إليه فى مثل هذه الامور ناصر القبط .

وخلال كل هذه المؤامرات كتب البابا المرتقى رسالة إلى القمص داود يبلغه فيها أحداث القدس قال فيها : « . . . من بعد توجهكم بعدة كم يوم وردت جوابات من القدس الشريف أحدهما من جناب أخينا المطران داود مطران طائفة الأرمن بالقدس ووكيل دير مار يعقوب بذاك الطرف، والثانى من أولادنا الكهنة المقيمين هناك المندوبين من طرفنا يخبروننا فيه بخصوص قضية مفتاح

(١) « كيرلس الرابع أبو الاصلاح القبطى » لجرجس فيلوثاوس عوض ص ٤٧ – ٥٦ ، وتجدر الاشارة هنا إلى مدى عناية الأنبا بطرس الجاولى بتوضيح الإيمان لأبنائه الأحباش فيقترح عليهم انتداب من يمكنهم التفاهم معه التحدث إليه شخصياً إن كانت الخطابات لا تفى بالغرض . وهذا أيضاً دليل على سهر الراعى بخلاف ما صورته عنه الدعايات الأجنبية . لذلك قد آن الأوان لتسليط الأنوار على الوقائع .

كنيسة الملاك (بدير السلطان) الذى أخذه الحبش . .. وصار أعمال الدعوى المذكورة على يد سعادة متصرف القدس وحضرة القاضى بالمدينة وأعيان مدينة القدس من كل طائفة . .. بحضور ترجمان قنصل دولة الانجليز بالقدس وواحد حبشى يسمى ميخائيل وكيل عن الحبش وبعض الحبش حضروا معه . .. وأخيراً أخذ مفتاح الكنيسة المتقدم ذكره من الحبش واستلمه أولادنا الكهنة كما كان مثل الاول بأمر سعادة المتصرف وحضرة القاضى واستخرجنا عنها علامات شرعية وصار عرض تلك القضية إلى الآستانة العلية لأجل إخراج فرمان سلطانى عن ذلك ... خصوصاً يا ولدنا أن أولادنا الحبش الذين يحضرون من بلادهم إلى القدس وخلافه من قديم الزمان ونحن حاملون ثقلهم فى المصاريف التى تصرف عليهم سنوياً ... فضلا عن مأكولاتهم ولوازم موتاهم وكسوتهم وسفرياتهم فى الذهاب والاياب . فيقتضى يا ولدنا أنكم تفهمون أولادنا جزدمات أوبيه والرأس عالى وباقى أولادنا الذين أرسل لهم الجوابات ومن تفهمونهم بمعرفتكم كذلك ... وتبطل تلك الفتنة بالقول إننا لم نعامل أولادنا الحبش مثل أولادنا القبط بل يعلم الجميع أنه صائر منا الالتفات والمعاملة للحبش فى كل لوازماتهم . وثانياً إياك أن يرسلوا لنا شيئاً . .. ومن الآن فصاعداً تنبهون على أن كل من يحضر لهذا الطرف من أولادنا الحبش لزيارة القدس الشريف وخلافه لا يحضر من ذاك (الطرف) إلا بورقة من حاكمه . ويكون عليها ختم حضرة أخينا المطران أنبا سلامة . لذا يكون معروفاً »[1].

---

(١) «كيرلس الرابع أبو الاصلاح القبطى» لجرجس فيلوثاوس عوض ص٥٧ — ٧٠ ، ولقد أورد المؤلف رسائل مختلفة غير المذكورة أعلاه كما أورد حجة شرعية بالتركية من ملكية القبط لدير السلطان انتهت بالقول : « وأخذ قنصل الانجليز والمطران الانجليزى يساعدان الأحباش وكتبت الجرائد الشهيرة عنه فى حينه تردد صدى هذه المسألة . وأخيراً انجلت الواقعة عن ثبوت ملكية الدير للقبط » . وبالاضافة نرى من رسالة الأنبا بطرس الجاولى استنكاره =

ولقد نتج عن كل هذه المكانيات البابوية وكل هذه المخادعات الانجليزية أن قابل القمص داود النجاشى شخصياً - مما اضطره إلى البقاء فى الحبشة سنة وبضعة أشهر إلى أن نجح فى اظهار الحق . وعلى ذلك لم يعد إلى القاهرة إلا بعد نياحة الأنبا بطرس الجاولى .

٢٠٦ - ولقد أمد الله فى عمر الأنبا بطرس فبلغت بابويته أثنين وأربعين سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوماً . ووصفه معاصروه بأنه كان طويل القامة ممتلىء الجسم ذا صحة معتدلة ، قلما يشكو ألماً طوال حياته . ويرجعون السبب فى ذلك إلى شدة زهده وتقشفه وإلى اعتداله . وتنيح ليلة الاثنين أول أسبوع البصخة الموافق ٢٨ برمهات سنة ١٥٦٨ ش[١] .

أما أشهر الأساقفة المعاصرين له فهم : يوساب أسقف أخميم وجرجا ، أثناسيوس الغمراوى أسقف أبوتيج ، توماس المليجى أسقف المنيا ، ميخائيل أسقف أسيوط ، غبريال أسقف أسنا .

• • • •

ولقد برز من بين معاصريه الأنبا صرابامون المعروف بأبو طرحة أسقف المنوفية الذى حباه الله مقدرات روحية عجيبة حتى وهو بعد شاب فى العالم . وكان اسمه صليب الزيات لاشتغاله بتجارة الزيت . وحدث له ذات يوم وهو راكب حماره ومار بالسوق أن كانت بعض النسوة الساقطات يتشاجرن ، وفى شجارهن قتلن رجلا ولم يجدن مخرجاً لهن من هذه الجريمة وما أن وقعت عيونهن على

= للزعم بعدم العناية بالأحباش ، وهذا الزعم مازال مسيطراً على أفكار بعض القبط الذين لا يفتأون يرددون كلمات « وما الذى أديناه للأثيوبيين من خدمات » ؟ متجاهلين بهذا السؤال أن المسيحية نفسها وصلت إلى أثيوبيا عن طريق القبط .

(١) توابغ الاقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر لتوفيق أسكاروس ج ١ ص ١٠٨ - ١٢١ .

صليب الزيات حتى أمسكن به وألصقن به تهمة القتل فسيق إلى المحاكمة . وفى أثنائها أخذ يصلى بدموع ويستنجد بالسيدة العذراء وبمختلف القديسين . وحين وقف أمام القاضى التفت إلى القتيل وأهاب به أن يقول صراحة من الذى قتله . وعندها وقف أمام الجميع واعترف بالجرمات الحقيقيات فلم يسع القاضى المذهول إلا أن يطلق سراحه .

فلما خرج صليب من ساحة المحكمة قرر لساعته أن يترك العالم الملىء بالغدر ليقضى حياته فى العشرة مع الله . فقام يومذاك وقصد إلى دير الأنبا أنطونى حيث ترهب . وبعد سنوات من المداومة على الصلاة والصوم ومن التعبد والتأمل اختاره الأنبا بطرس الجاولى ليكون أسقفاً على المنوفية باسم سرابامون . وخلال أسقفيته كان يأتى أحياناً إلى القاهرة للتشاور مع باباه أو لتفقد أولاده المقيمين فى العاصمة . وهو الذى شفى ابنة محمد على باشا بصلواته .

ومن الأشخاص الذين اعتاد السؤال عنهم أسبوعياً أرخن هو خال يواقيم بك منصور - كان يزوره صباح كل سبت ليشرب معه القهوة فى حوش داره وحدث أن ابن أخته (يواقيم المذكور) مرض وهو ابن عشر شهور فقط . وبلغت به حدة المرض أن مات مساء الجمعة . فلما جاء الأنبا سرابامون إلى خاله صباح السبت كالمعتاد أحضرت الأم طفلها الميت ووضعته فى حجره وقالت له : « هذا وحيدى . وقد فارق الحياة أمس مساءً » فحمله بيديه ثم نفخ فى وجهه وقال لها : « لا تخافى . ابنك بخير بنعمة الله وسيبارككم الرب ويفتح به البيت » . وفى الحال ردت إليه روحه فبكى . وأعطاه الأسقف إلى أمه التى أرضعته وقلبها يفيض بهجة وشكراً . ولقد عاش يواقيم منصور واشتغل بالسكة الحديد حتى وصل إلى درجة وكيل إدارة مصلحتها ونال رتبة البكوية . وأحيل إلى المعاش سنة ١٩٠٩ . وقد ظل طوال حياته يذكر هذه الحادثة التى روتها له أمه ، ويرفع آيات التسبيح

لله الذى أمدّ فى عمره وكان الانبا صرابامون عطوفا حنين القلب - دفعه حنانه إلى أن يخرج بالليل بعد أن يكون الناس قد ناموا ليحمل القمح أو الدقيق لمن أخنى عليهم الدهر. ومن الحوادث المأثورة التى استثارت حنانه قصة عجيبة تتلخص فى أن رجلا تشاجر مع زوجته مشاجرة عنيفة. فخرجت المرأة من بيتها هائمة على وجهها. وفى عنفوان غضبها زينّ لها الشيطان أن تذهب إلى بيت بغىّ إغاظة لزوجها. وبالفعل ذهبت إلى ذلك البيت . فذهب من أبلغ الزوج بما حدث. ومن رحمة الله أن الزوج بدلا من أن يقتحم البيت ليرى بنفسه إن كانت زوجته هناك أم لا قصد إلى الانبا صرابامون وشكا إليه أمره . فقال له الآب الرحيم : « تمهل يا بنى . الا يمكن أن يكون مبلغك كاذباً ؟ اترك لى الأمر وسأعرف بنفسى الحقيقة » . وصرفه من عنده موصياً إياه أن يعود إليه فى اليوم التـالى . وقام لساعته فارتدى ثوباً علمانيا فوق ثيابه الكهنوتية وذهب إلى البيت المذكور وسأل عن السيدة بالاسم . فأدخلوه إليها . وما أن أغلق الباب حتى خلع الثوب العلمانى . وعندها سقطت المرأة على قدميه تذرف الدموع واعترفت له بما حدث بينها وبين زوجها وأنها مع كونها جاءت إلى بيت الخطيئة فهى لم تقترفها بعد ، ورجت منه أن يسامحها ويجد لها المخرج من المأزق الذى أوقعت نفسها . فأخذها معه وذهب بها إلى بيت كاهن يعرفه وأعلمه بسرها ثم رجا منه أن يبقيها فى بيته وأن يذهب لمقابلته فى الدار البابوية فى الساعة عينها التى كان قد حددها لزوج المرأة ويشتكى من ضيق بيته . وبالفعل ذهب إليه الكاهن وحده وكان الزوج قد وصل . فبدأ الكاهن بشكايته قائلا بأنه كان يتمنى لو كان بيته يتسع لكل قاصد . وقد أتته هذه المرأة طالبة إيواءها فآواها بالفعل ولكنه يأسف لأنه لن يستطيع إبقاءها عنده فترة طويلة . قال الأسقف الحكيم : « اذهب وأحضرها لننصرف معها » . ولما أحضرها وتقابل الزوجان تعانقا واصطلحا . وفيما هما

خارجان أخذ رجل الله الزوج على ناحية وأوصاه بالرفق بشريكة حياته وبعدم الاصغاء إلى إخوان السوء .

وحدث له ذات مرة وهو يرفع القداس الإلهي في مدينة شبين أن كان بعض الاطفال يلعبون خارجاً في حوش الكنيسة بالناحية الشرقية . وفي أثناء لعبهم سقط أحدهم - واسمه ميخائيل تادرس - في البئر . فصرخ الأسقف : « يا أم النور . حوشي يا أم النور » . ثم التفت إلى القريبين منه وقال لهم : « الحقوا ميخائيل وقع في البئر » . فخرجوا على الفور وذهبوا ناحية البئر ونادوا عليه . فرجا منهم أن يدلوا إليه بحبل تسلق عليه وصعد إلى فوق فوجدوه سالماً - بل حتى ثيابه لم تبتل فسألوه عما حدث فقال لهم : « حالما سقطت تلقتني سيدة وجهها مشرق ساطع وهي جالسة على كرسي عائم على سطح الماء . فأجلستني على حجرها وقالت لي : ولا تخف ، وهكذا أحسست بالاطمئنان إلى أن أسعفتموني » .

وهذا السلطان الروحي الذي منحه الله إياه لشفاء المرضى واقامة الموتى قد جعله نافذ القوة على المعتدين . فقد حدث أن كان راكباً حماره يتجول لافتقاد شعبه . فاعترض طريقه لص ورفع يده عليه بالنبوت ليضربه كي يتمكن من سرقته . فقال الانبا سرابامون : « وى ! كلهم مجانين ! أنت رفعتها ؟ طيب خليها مرفوعة وسيبني » . وتركه ومضى ليكمل جولته الافتقادية . وبينما كان عائداً وجد اللص مكانه وذراعه مرفوعة وهو يصرخ من الالم وما أن رآه على هذا الشكل حتى قال : « يا خطيتك يا صليب . روح يا ابني الله يباركك » . فانحل الرباط الذي ربط ذراع اللص . فتاب وشكر لرجل الله عطفه .

وبدأ سلطانه الروحي بصورة أقوى عند مواجهته لعباس باشا الأول (ابن محمد علي) . فقد حدث أن أصدر هذا الباشا أمره باعدام المنجمين والسحرة .

فوشى بعض الأشرار بالأنبا صرابامون زاعمين أنه ساحر كغيره ممن يستعملون الشعوذة . فاستدعاه عباس باشا وأخذ يسخر منه ثم سأله فى شىء من الاستخفاف: « ألم تشف زهرة باشا ؟ فبأى قوة شفيتها » ؟ وفاضت القوة الإلهية على القديس فصرخ فى وجه الباشا : « إنها قوة الله » . فأحدثت كلمته رعباً سرى فى القصر كله حتى لقد أقرّ عباس باشا بأن قوة خفية أرعبته فقـال لساعته : « أمان يا بابا أمان » .

ولقد عاش الأنبا صرابامون إلى أن أدرك أيام الأنبا كيرلس الرابع. وبعد حياته اختار البابا الراهب برسوم الذى زامله أيام رهبنته وفى سفره إلى الحبشة ليكون خلفاً لهذا القديس الذى اشتهر « بأبو طرحه » لأنه اعتاد أن يغطى رأسه بطرحه كانت تنزل على وجهه وتغطى عينيه أيضاً [١] .

٢٠٧ – ولقد برز فى هذا العصر عدد من الأراخنة لا نعرف عن بعضهم غير جملة عابرة بينما نعرف عن غيرهم أكثر من هـذه الجملة العـابرة . على أن كنيستنا القبطية قد عوّدتنا على إدراك حقيقة عجيبة ضمن تاريخها الملىء بالعجب : هـــذه الحقيقـة هى كثرة جنودها المجهولين الذين اكتفوا بدعاء قصير يفيض بالمعـانى وهو « عوّض يارب من له تعب فى ملـكوت السموات » . ومن الأراخنة الذين لا نعرف عنهم غير جملة عابرة المعلم بقطر واصف الذى قيل عنه أنه كان محاسباً للبرديسى بك أحد الخصوم العنيدين لمحمد على باشا . ولم يذكر عنه الجبرتى إلا أنه بعد أن مات « اجتمع العسكر ببيت محمد على وحصل بعض قلقة فوّلهم على القبط بمائتى ألف ريال منهـــا خمسون على غالى كاتب الالفى ، وثلاثون على تركه بقطر المحاسب ، والمئة وعشرون موزعة عليهم فسكن الاضطراب قليلا» [٢] أما توفيق

---

(١) توفيق اسكاروس . . . ج ١ ص ١٣١ – ١٥٦ .

(٢) « عجائب الآثار ... » ج ٣ ص ٢٨٢ – ٢٨٣

أسكاروس فيسهل ، قائمة تتضمن علم الذرام المأخوذة من المعلم يوحنا منصور تسليم كاتبه الحقير اسرائيل يعقوب عما صرف فى مأتم المرحوم بقطر واصف من إبتداء يوم وفاته الذى هو يوم السبت ١٢ جمادى الأولى سنة ٢٣١ هلالية . . . وقد بلغت (١٢٦٣١١) درهماً . . . ، وأورد بعد ذلك تفاصيل المبالغ المدفوعة ، ثم ذكر أيضا أنه كان لدى المعلم بقطر كاتب قاعة إسمه المعلم سيداروس . وقد ختمت السيدة مختارة زوجة بقطر وبنت جرجس الجوهرى مختمها على حسابه [١] .

وإننا لنجد فى هذا الوصف القصير أسماء لثلاثة معلمين لا نعرف عنهم غير أسمائهم ووظائفهم .

ثم يذكر لنا الجبرتى أن محمد على باشا قبض على كبار المباشرين القبط ذات مرة ، « ثم قلدوا المباشرة إلى المعلم منصور صريمون الذى كان معلم ديوان الجمرك ببولاق ... » ثم تحدث عن النسيج وكيف أنه تمين أشخاص مباشرون للاشراف عليه فقال : « ... والمعلم منصور أبو صريمون القبطى ورتبوا لضبط ذلك كتاباً ومباشرين يتفرقون بالنواحى والبلدان والقرى وما يلزم لهم من المصاريف والمعاليم والمشاهرات وما يكفيهم فى نظير تقيدهم وخدمتهم فيمضى المعينون لذلك فيحصون ما يكون موجوداً على الأنوال بالناحيــة من القماش والبز والأكسية الصوف المعروفة بالزعابيط والدفاتى ويكتبون عدده على ذمة الصانع ويكون ملزوماً به حتى إذا تم نسجه دفعوا لصاحبه ثمنه بالفرض الذى يفرضونه وإن أراد صاحبها أخذها من الموكلين بالثمن الذى يقدرونه بعد الختم عليها من طرفيها بعلامة الميرى فإن ظهر عند شخص شىء من غير علامة الميرى أخذت منه بل وعوقب [٢] ...

أما الأرخن الذى يأتى اسمه بعد المعلم منصور مباشرة فهو المعلم بشارة ،

---

(١) فى كتابه « نوابغ . . . » ج ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) « عجائب الآثار . . . » ج ٤ ص ١٢٢ و ٢٨٢ - ٢٨٣ .

ولا نقرأ عنه غير قصة تعطينا صورة عن أثر الشائعات فى الناس . لقد حدث أن سافر محمد على باشا للحج وتأخر فى العودة . وكان الجميع ينتظرونه من يوم إلى يوم ، فوصلت سفينة إلى القصير كان من بين ركابها سبعة عشر جندياً قالوا إنهم طلائع الباشا وإنه آت فى أثرهم فلما سمع وكيل المدينة هذا الخبر أرسل لساعته خطاباً إلى « كاتب من الاقباط بقنا يعرفه بقدوم الباشا فكتب ذلك القبطى خطاباً إلى وكيل شخص من أعيان كتبة الأقباط بأسيوط يسمى المعلم بشارة ، فعندما وصله الجواب أرسل جواباً إلى موكله بشارة المذكور بمصر بذلك الخبر وفى الحال طلع إلى القلعة وأعطاه لابراهيم باشا فانتقل إبراهيم باشا إلى مجلس كتخدابيك فخلع كتخدابيك على بشارة خلعة وأمر بضرب المدافع ونزلت المبشرون وانتشروا بالبشائر إلى بيوت الأعيان وأخذ البقاشيش ولما حصل التراخى والتباطىء والتأخر فى الحضور بعد الاشاعة أخذ الناس فى اختلاف الروايات والأقاويل كعادتهم ... » [1]

وهناك أرخنان لا نعرف غير اسميها وكونها من الكتبة المشتغلين فى دواوين الحكومة وهما المعلم جريس والمعلم يعقوب [2] ، وإلى جانبها أرخن آخر كان كاتباً عند وكيل نقابة الأشراف هو المعلم عبد القدوس [3] .

أما المعلمون جرجس الطويل وأخوه حنا ومنقريوس البتانونى الذين تعاونوا مع الأنبا بطرس الجاولى يوم أن شاء إقامة شعائر الميرون فنعرف أنهم كانوا ضمن كتبة محمد على باشا . ويذكر لنا الجبرتى أن إبراهيم باشا « سافر على طريق القليوبية وصحبته طائفة من مباشرى الأقباط وفيهم جرجس الطويل وهو كبيرهم . . »

---

(١) « عجائب الآثار . . . » ج ٤ ص ١٢٢ و ٢١٧ .

(٢) شرحه ج ٤ ص ١٢٢ .

(٣) شرحه ج ٤ ص ١٦٤ — ١٦٦ .

ثم حدث أن غضب محمد علي باشا على المعلم غالي لتأخر بعض المال عليه فاعتقله « ... فأحضر المرافقين عليه وهم جرجس الطويل ومنقريوس البتانوني وحنا الطويل وألبسهم خلعاً على رياسة الكتاب ... »[1] ومن آثار العناية بالخدمة الكنسية بدرشيل عليه النص التالي : « ما اهتم بهذا المعلم يوحنا أبو ميخائيل الطويل برسم بيعة ماري مرقس الانجيلي الكاروز بالأزبكية . عوّض يارب من له تعب . سنة ١٥٢٢ الشهداء »[2] .

المعلم رزق الله الصباغ - أحد أحفاد السيدة مختارة بنت المعلم جرجس الجوهري وزوجة المعلم بقطر واصف . ولا نعرف عنه إلا أنه كان زميلاً للمعلم منصور صربمون في كونه معلماً لديوان الجمرك ببولاق[3] . وله ابن عم اسمه جرجس مينا الصباغ كان من موظفي تفتيش الدائرة السنية[4] .

دكتور إبراهيم السبكي - بدأ حياته العملية كموظف في الحكومة المصرية . ثم اختير لبعثة دراسية في فرنسا سنة ١٨٤٥ ، فسافر ودرس الطب البيطري . وبعد ثلاث سنوات حصل على الشهادة المرغوب فيها وعاد إلى وطنه ، ثم عيّن مدرساً بمدرسة الطب البيطري في القاهرة في ٢٣ يوليو سنة ١٨٤٨ م[5] .

المعلم ابراهيم نخلة وعائلته - نشأ هذا الأرخن في قرية أم خنان (من قرى الجيزة) ثم أصبح من كبار الكتبة العاملين في ديوان محمد علي باشا . وأكبر أولاد المعلم ابراهيم هو المعلم نخلة الذي ألحقه أبوه بالكتّاب في طفولته تبعا

(١) « مرشد المتحف القبطي » لوديع شنوده ص ١٤٥ .
(٢) شرحه ج ٤ ص ٧٤ و ٢٤٢ .
(٣) شرحه ج ٤ ص ١٢٢ .
(٤) توفيق اسكاروس ج ٢ ص ٣٠٦ .
(٥) من « كتاب البعثات العلمية » للأمير عمر طوسون ص ٣٥٤ .

لعادة القبط آنذاك . فتفوق فى اللغتين القبطية والعربية وأتقن الحساب والخط ، وأهم من هذا كله تعلم المزامير والتسبحات والمردات الكنسية . فلما بلغ سن الشباب اتخذه أبوه مساعداً له فى أعمال الديوان ليدربه عليها . وقد تجاوب الشاب مع عناية أبيه ورغباته فأصبح ماهراً فى مختلف الأعمال الحسابية والكتابية والادارية . فزكته مهارته لدى شريف باشا الكبير الذى اتخذه كاتم أسراره (سكرتيره) . ولما كان هذا الباشا يقيم فى الاسكندرية فقد انتقل المعلم نخلة اليها هو وعائلته ـ إذ كان قد أصبح رب بيت .

ثم حدث أن طالب محمد على باشا كبير كتبته ـ المعلم وهبة ابراهيم آنذاك ـ أن يقدم له حساباً شاملا عن أمور الدولة . وعجز الكاتب عن تلبية أمر الوالى الذى غضب عليه ونحاه جانباً . ولثقة شريف باشا فى كاتم أسراره حوّل عليه طلب الوالى . فاضطرب المعلم نخلة وخشى أن يصيبه ما أصاب المعلم وهبة . وفى حيرته استشفع بمار مرقس الإنجيلى الكاروز الحبيب ثم نذر أن يوقف كل ما يملك من أراض على الكنيسة ـ وهذه تقع الآن ما بين شوارع شريف وسيزوستريس والكنيسة القبطية وطوسون بالاسكندرية . وبعد أن اطمأن إلى شفاعة ناظر الإلهيات . قصد إلى قصر رأس التين لمقابلة محمد على باشا . وقد مكث بذلك القصر يومين نجح خلالها فى انجاز العمل المطلوب وقدمه إلى الباشا الذى أبدى له كل الرضى . وحالما غادر القصر ذهب لساعته إلى الكنيسة المرقسية وقدم الشكر لله والتمجيد لقديسه ثم قابل المسئولين بها واتخذ معهم الخطوات اللازمة لتنفيذ نذره . وبعد ذلك عاد إلى بيته .

ولقد أنجب المعلم نخلة ثلاثة بنين هم ابراهيم وصالح وعثمان وربَّاهم تربية مسيحية حقة (١) . ومن أحفاده الشماس كامل ابن صالح المؤرخ المعروف الذى كتب

(١) كامل صالح نخلة « سلسلة : . » الحلقة الخامسة ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

الكثير من الكتب والمقالات عن باباوات الاسكندرية وبطاركة الكرسي الأورشليمي وغيرهم.

وكل هذه الوقائع توضح لنا أن الشعلة المقدسة لم تنتقل من يد إلى يد عن طريق الآباء فحسب بل انتقلت أيضاً عن طريق جميع الذين التصقوا بالفادي وأحبوا كنيسته فكانوا أعضاء حية عاملة في جسده الذي هو بيعته المقدسة.

المعلم حنا المنقبادي: وهبه الله ذكاء فطرياً عجيباً. فبعد أن استوعب كل المعلومات التي تلقنها في الكتّاب أتقن اللغة التركية وبها استطاع التفاهم مع الحكام والتقرب إليهم. وفي عهد محمد علي باشا عينوه سكرتيراً عاماً لمديرية حوم قبلى - وكانت تمتد من الروضة إلى وادي حلفا. ولأمانته وتفانيه في العمل وثق به سليم باشا السلحدار مدير تلك المنطقة وترك له تدبير أمورها. ومن ثم أصبح صاحب الحق في التصرف في المسائل الإدارية وحوادث السطو، وتعيين العمد والمشايخ وفصلهم إذ لم توجد آنذاك محاكم ولا قوانين. ومع كل هذا النفوذ ظل على استقامته. ولم ينسه نفوذه الاهتمام بشئون القبط، فكان يحضر دائماً المجالس الشرعية الخاصة بالفصل في قضاياهم الشخصية. كذلك كان مواظباً على الصلوات الكنسية بل أنه كان أحياناً يلقي العظة. ومن حوادثه الطريفة أن مأموراً في مركز أسيوط اسمه حسن أغا فرج كان يمر يومياً في ذهابه وإيابه على كاتب قبطي لأحد العمارات الأميرية. فكان الكاتب يحييه عند ذهابه بقوله «صباح الخير يا بيه» وعند إيابه «مساء الخير يا بيه». فنتم المأمور هذه التحيات ولما كان له حق الحكم بالاعدام أمر بشنق الكاتب! فأسرع أحد الأقارب إلى المعلم حنا وأبلغه الأمر. فسارع هذا بدوره إلى انقاذ الرجل من بطش المأمور. وليس من شك في أنه تمكن من انقاذ غيره لأن عنايته شملت القبط والمسلمين على السواء[1].

(١) «مشاهير الأقباط في القرن العشرين» ج ٣ ص ٨٠ - ٨١.

٢٠٨ - ولئن كان « الجنود المجهولون » قد أدوا خدمات جلية ذات الأثر الباق فإننا نلمح إلى جانبهم من تحدث التاريخ عنهم ومنهم «عبود النصرانى كاتب الخزينة وكان مشكور السيرة فى صناعته وهذه مشاركة دعوى عريضة ودعوى علم ويتكلم بالمناسبات والآيات القرآنية ويضمن الشاآته ومراسلاته آيات وأمثالا وسجعات وأخــذ دار القيسرلى بدرب الجنينة وما حولها وأنشأها داراً عظيمة وزخرفها وجعل بها بستاناً ومجالس مفروشة بالرخام الملون وفساقى وشاذروانات وزجاج بلور وكل ذلك على طرف الميرى وله مرتب واسع وكان الباشا يحبه ويثق به ويقول لولا الملامة لقلدته الدفتردارية »[1].

٢٠٩ - المعلم غالى : بدأ حياته العملية بأن التحق بخدمة محمد الألفى ثم صار كاتبه . وحينما أراد محمد على باشا مراجعة حسابات المعلم جرجس الجوهرى زعماً منه أن هذا الأرخن الكبير قد جمع من الناس مبلغاً أكبر مما حمله إليه استدعى المعلم غالى لهذه المهمة . فلما نفذها أعلن الباشا أن الحسابات مضبوطة وأن المعلم جرجس لم يأخذ من الشعب غير ما أورده للخزينة رفقاً منه بالشعب المسكين . ورغم اثبات براءة المعلم جرجس فإن محمد على أحل المعلم غالى محله فأصبح بهذا التعيين كبير مباشرى مصر . ويعطينا الجبرتى لمحات عن حياته فيخبرنا بأنه كان ساكناً فى الجيزة . وفى بداية الأمر أعفاه الباشا حتى من المساهمة فى مبلغ الأربعة آلاف وثمانمائة كيس التى كان قد فرضها على المعلم جرجس الجوهرى وباقى القبط . ثم عينه بالديوان الذى يرأسه الدفتردار . وحين شح الفيضان وعاد إلى زيادته نتيجة لصلاة تجمع الكبراء معاً وأشار البعض منهم بدعوة القبط أيضاً . حضر المعلم غالى وأصحابه الكتبة وذهبوا مع مواطنيهم إلى المسجد وجلسوا فى ناحية منه يدخنون وظلوا جالسين إلى أن انفض عقد المجتمعين .

(١) « عجائب الآثار » ج ٤ ص ٢٠٢ .

وحدث عندما أراد محمد على تحرير دفاتر بالضريبة المفروضة على الأطيان وتسجيل زيادتها أنه قرر أن ينظمها بتقسيم المسئولية بين مختلف المباشرين ، فجعل القبط (وفى مقدمتهم المعلم غالى) مسئولين عن مصر العتيقة . ثم فرض على غالى نفسه مقدار ألف كيس فوزعها على زملائه من الكتبة والمباشرين وجمعها فى أقرب وقت وسلمها الباشا .

ثم عاد محمد على فطالب القبط بثلاثين كيس ولكى يضطرهم إلى الدفع بلا مماطلة . أمر بالاحتياط على بيوت عظماء الأقباط كالمعلم غالى والمعلم جرجس الطويل وأخيه وفلتيوس[1] وعدتهم سبعة فأحضروهم فى صورة منكرة وسمّروا دورهم وأخذوا دفاترهم فلما حضروا بين يديه قال لهم أريد حسابكم بموجب دفاتركم هذه وأمر بحبسهم فطلبوا منه الأمان وأن يأذن لهم فى خطابه فأذن لهم . فخاطبه المعلم غالى وخرجوا من عنده إلى الحبس . . . غير أنه تنازل لهم عن مطلبه مكتفياً بأن يدفعوا له سبعة آلاف كيس فقط .

وفى أحد أيام سنة ١٨١٣ قرر محمد على الاستيلاء على دار اسماعيل أفندى أحد الكبراء . فاقترح عليه أصدقاؤه أن يكتب عرضحالا ويذهب به مع بعض أخصاء الباشا لعل شفاعتهم تجد قبولا . وبومذاك كتب اسماعيل أفندى العرضحال وصحبه المعلم غالى لتقديمه . ودخلا معاً . إلا أن الباشا حالما رآهما أدرك أن المعلم غالى يرغب فى الاستشفاع لأجل اسماعيل أفندى فرفض حق الاطلاع على العرضحال ورد الرجلين لساعته .

ومن حوادث سنة ١٨١٦ أن أتباع أحـــد المسلمين الملتزمين بجمع الجوالى تطاولوا على قبطى . ثم قبضوا عليه وأخذوا يتشددون فى مطالبته بما كان عاجزاً

---

(١) وجدنا أن اسم فلتيوس كان يأتى بعد اسم المعلم جرجس الجوهرى مباشرة ، وهو هنا ما زال فى الصف الأول من القبط ومع ذلك فلا نعرف عنه شيئاً .

عن أدائه واتضح لهم بعد هذا كله أنه كاهن ورغم هذا استمروا فى عشادتهم . وبينما هم فى هذا المجال بلغ الخبر مسامع المعلم غالى . فأخذ على عاتقه دفع المبلغ المطلوب منعاً للأذى .

ومما يجدر ذكره أن ابراهيم باشا حين عزم على اعادة قياس أراضى مصر تقدم إليه قياسون قبط كما تقـدم بعض مهندسى الأفرنج . فعارض المعلم غالى فى حق الافرنج العمل فى مثل هذا المشروع . وفحص ابراهيم باشا ما تقدم به القبط وما تقدم به الأفرنج أيضاً رغم معارضة المعلم غالى فوجد بعد الفحص أن عمل مساحى القبط أصح ولكنهم أبطأ فى التنفيذ . فاختار عدداً منهم العمل ثم أوصاهم بالاسراع .

ومع كل هذه الخدمات التى أدّاها المعلم غالى فقد أصدر محمد على - بينما كان فى الاسكندرية - الأمر بالقبض عليه وحبسه هو وأخيه فرنسيس وخازنداره المعلم سمعان ، لأنه كان قد بعث إليه يطالبه بستة آلاف كيس فتأخر فى إرسالها واعتذر عن عدم القدرة على أدائها ، ثم طلب مهلة ليتمكن من جمعها . ولكن طلبه لم يرفض فقط بل أن الكتخدا نادى على بعض الاقباط وأفهمهم أن على المعلم غالى ثلاثين ألفاً من الأكياس فإن لم يدفعها أصبحوا هم ملزمين بها . وبعد ذلك أرسل إلى المعلمين جرجس الطويل ومنقريوس البتنونى وحنا الطويل وخلع عليهم الخلع وولاهم على رياسة الكتبة لعله بذلك يتمكن من أخذ المبلغ المفروض بواسطتهم . واستمر المعلم غالى فى الحبس هو وأخوه وخازنداره . ثم استحضروهم من الحبس وصدر الأمر بضرب فرنسيس امام أخيه ، فسأل : « وأنا أضرب أيضاً ؟ » قالوا : « نعم » . وضربوه على رجليـه بالكرابيج . ثم تركوه فترة وعادوا يضربونه ثانية . أما سمعان فقد ضربوه ألف كرباج . وبعد أيام صدر الأمر بالافراج عن فرنسيس وعن سمعان لئلا يموتا فى السجن . وبالفعل انتقل

سمعان إلى رحمة مولاه حالما وصل إلى بيته . أما غالى فظل فى السجن . ولما رجع الباشا من الاسكندرية تشفع جونى الحكيم[1] فى المعلم غالى وأخذه من الحبس إلى داره . وهكذا مرت هذه الشدة عليه . إلا أنه حين اكتشف محمد على ما اقترفه فرنسيس من تزوير خطاب باسمه وختمه إلى البابا الرومانى قتل المعلم غالى بوصفه الأخ الأكبر وبالتالى المسئول عن زلة أخيه[2] .

٢١٠ ـ وتبرز أمامنا عبرة لها قيمة كبرى هى أن الانسان المزعزع الإيمان ليس فى حاجة إلى اضطهاد يرعبه ولا إلى اغراءات عالميـــة تجتذبه لكى يتنكر لعقيدته . فنحن نرى من مختلف المؤرخين أن محمد على باشا رغم شهوته فى الحكم ورغم سعيه المتواصل إلى الاستئثار بالسلطة قد أطلق الحرية الدينية . وحينما كان يتشدد فى المطالبة بالمال أو فى الاستيلاء على البيوت والأطيان كان يبطش بالمسلمين أيضاً . ومع هذا كله يحدثنا الجبرتى عن رجل يصفه بأنه « الأستـــاذ الفريد والوذعى المجيد » هو الشيخ محمد المهدى الحفنى ، ثم لا يخبرنا إلا أن « والده من الأقباط وأسلم وهو صغيراً دون البلوغ على يد الشيخ الحفنى . . .[3] » . ترى ـ ما الذى دفع بغلام فى سن صغير إلى أن يترك بيت أبيه ويلتصق بشيخ ليس من أهله وإن كان من جيرانه ؟ أهى قسوة أبيه أم اهمال أمه أم الأمران معاً ؟ أهى زمالة الطفولة والتعاطف بين مجموعة فى سن واحد ؟ . . . لاداعى للاسترسال فى مثل هذا التساؤل لأننا لن نستطيع الوصول إلى الجواب الصحيح . غير أنه مما

---

(١) ومرة أخرى لا نعرف عن هذا المعلم شيئاً ولكن لا بد أنه كان يستمتع بمكانة خاصة وإلا ما كان ليستطيع أن يتشفع فى مثل هذا الموقف وما كانت شفاعته لتقبل .

(٢) للاطلاع على مختلف المعلومات عن المعلم غالى راجع « عجائب الآثار . . » للجبرتى ج ٣ ص ٢٨٠ و ٢٨٢ و ٣٤١ و ٣٤٣ ؛ وج ٤ ص ٧٨ و ٨٠ و ٩١ و ٩٣ و ١٠٧ و ١٥٢ و ١١٧ و ٢١٨ و ٢٤٢ و ٣١٨ .

(٣) « عجائب الآثار . » ج ٤ ص ٢٣٣ .

لاشك فيه أن هناك عوامل نفسية أو عائلية أو إجتماعية دفعت بهذا الولد إلى هجر عائلته والإلتجاء إلى من لا ينتمون إليه بصلة الدم . فالشخص الناضج فى مقدوره المقــارنة والاختيار . أما الذى لم ينضج بعد فلا يستطيع أن يقوم بمثل هذه الموازنات . فدوافعه ترجع دوماً إلى الانفعالات الداخلية أو إلى البيئة . لذلك كانت المسئولية الملقاة على الوالدين والمربين والكهنة مسئوليـة عظمى لأنهم هم الموجِّهون الصغار .

٢١١ ـ لقد كانت مصر منذ أن تغلب عليهـا الفرس مطمع الغزاة من مختلف البلاد وعلى مدى الأزمان . وبعد انسحاب الفرنسيين كانت هناك قوات ثلاث تستهدف السيطرة عليها ، هذه القوى هى : الأتراك والانجليز والمماليك . على أن هذه القوى لم تدرك أن قوة رابعـة تنافسها وأن هذه القوة الرابعـة ستنتهى بعد جهاد طويل مرير يتخلله الفشل والنصر إلى أن تتغلب فى النهاية . والقوة الرابعة التى كانت فى الخلفية على الدوم والتى لم يقف الباطشون لحظة التفكير فيها ، بل إن هم وقفوا فإنما للازدراء بها ، هى الشعب المصرى نفسه . هذا الشعب الذى طالما استبدوا به وزعموا فى خيلائهم أنه خانع اعتاد الاستسلام فأعماهم هذا الزعم عن مقدرته الكامنة . هذا الشعب اعتاد أن يسلك مسلك نيله الخالد قبل السد العالى : أى أنه يفيض وينحسر ، هكذا الشعب يخلد إلى السكينة ويثور . والفترة التى تسلم فيها محمد على مقاليد الحكم كانت إحدى فترات الفوران . ولما كان محمد على تسيطر عليه شهوة الحكم ووجد أنه وصل إلى مصر ليكون والياً عليها يؤدى الحساب إلى تركيا ، فقد أدرك بثاقب بصره أنه لو استند إلى الشعب واستماله إليه لأمكنه أن يصبح الحـــاكم الذى ليس للباب العالى عليه إلا أن يأخذ منه المال المفروض فبعد أن نجح فى أن ينال تأييد الشعب بدأ يعمل على بعث قواه الكامنة : فنظم إدارته وأنمى موارده وعلَّم أبناءه ، وكوَّن له قوة عسكرية منظمة كافية

لارهاب خصومه وفوق هذا كله فقد عزم على أن يتخذ من مصر وطناً . ومع كونه حاكماً مستبداً فقد أنشأ مجالس خاصة كانت أشبه « بالمدارس » فى إعدادها العمال والموظفين والمواطنين المستنيرين . ومهما يكن من تجبره وفتكه بالمماليك ثم من ابعاده الزعماء الشعبيين فقد سار بمصر فى الطريق الذى أوصلها إلى الوعى الصحيح لشخصيتها ولمقدراتها »(١) .

أما ابراهيم باشا ابن محمد على باشا فمما يؤثر عنه أنه كان محبوباً من مختلف المصريين . ويبدو هذا التقدير فى أنه حين كان عائداً من الحجاز أذيع خبر وصوله إلى القصير (على البحر الأحمر) وطولب القاهريون بتزيين المدينة «... أما جهات النصارى وحاراتهم وخاناتهم فإنهم أبدعوا فى عمل تصاوير مجسمات وتماثيل وأشكال غريبة . . . »(٢) .

ولقد انتصر ابراهيم باشا فى كل الميادين التى اقتحمها وكان لا يعتمد إلا على الجنود المصريين ولا يتكلم إلا اللغة العربية . فقد قال عنه الفرنسيون إنه يجاهر علناً بعزمه على إحيـــاء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وجعلهم شعباً مستقلا ، وكان لايفتأ يتحدث عن مفاخر العرب أمام جنوده ويطعن فى الترك بلا تردد . فسأله أحد جنوده بتلك الحرية التى عودهم عليها كيف يطعن فى الأتراك وهو واحد منهم . أجابه لفوره : « أنا لست تركياً . لقد جئت مصر صبياً فمصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دماً عربياً »(٣) . ولو لم تتدخل السياسة بأساليبها الملتوية وأغراضها الخفية لامتد حكم مصر بهمة جيشها وقائده

---

(١) تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر اسماعيل (سنة ١٧٩٨ ـ سنة ١٨٧٩ م) لأحمد عزت عبد الكريم ص ٣٠٨ ـ ٣٢٥ .

(٢) « عجائب الآثار ... » ج ٤ ص ٣٠٦ .

(٣) « مصر محمد على » لعبد الرحمن الرافعى ص ٢٤٧ .

البطل إبراهيم باشا فشيهل تركيا ذاتها ولأصبح السلطان التركي تابعاً لمحمد على!

٢١٣ - وليس من الممكن الحديث عن هذه الفترة من تاريخنا دون الاشارة إلى المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى الذى عكس لنا فى كتاباته كل ما احتوته الحياة آنذاك من ارتفاعات وانخفاضات، وكل ما شاهدته من أحداث وتقلبات. وتصويره للحياة دقيق للغاية حتى أن أحد المعاصرين قال عنه: «كان الجبرتى يملك موهبة سيكولوجية بعيدة الشفافية مكنته من استيعاب حقيقة الدخلاء.. فالمماليك أرقاء دخلاء استجلبوا إلى مصر من القوقاز، والعثمانيون دخلاء ولا يستثنى منهم الانكشارية الذين استوطنوا مصر دواماً، أما الفرنسيون فهم دخلاء من بلاد الفرنجة لكنهم بدوا فى نظره متطفلين كأنهم قد وفدوا من كوكب آخر .... ولقد زار الجبرتى معرضاً لمنجزات العلوم الأوربية وصف معروضاته بأنها ملعب أطفال تعرض للتأثير فينا ولكننا لن تنخدع ببساطة». ولكنه حينما حضر محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر بدت أمامه أسلوباً صافى النية للتصوير الفرنسى الأصيل لاقرار العدل (١)».

أما المؤرخ المصرى المعاصر دكتور أحمد عزت عبد الكريم فقد قال عنه ما يلى: «.... كانت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر قد بلغت نهاية شوط من مسيرتها الطويلة عبر آلاف القرون، كما كانت على عتبة عصر جديد... كانت مصر بتاريخها الطويل وحضارتها الزاهرة صانعة للتاريخ... وكلما ازداد نبض الحياة فى مصر سرعة وتعقدت الأمور وتشابكت المصالح اشتد الإغراء على التدوين والتسجيل... وعلى هذا النحو كان التراث التاريخى المصرى من أروع ما خلفه العقل المصرى... وشهدت مصر منذ انتهاء حكم على بك الكبير حتى مجىء الحملة

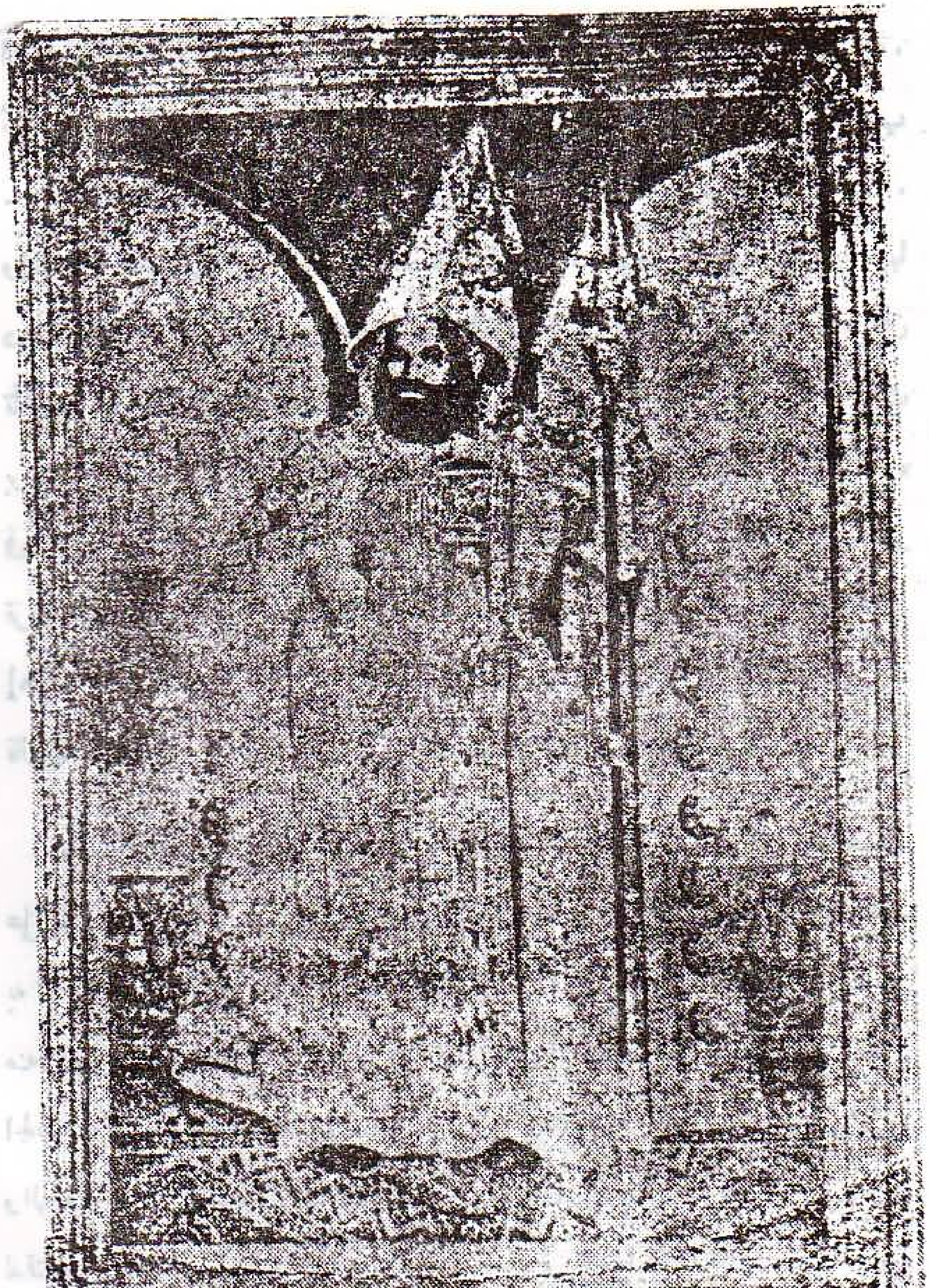
(١) من رسالة كتبها المؤرخ الانجليزى الفيلسوف أرنولد توينبى ونشرت جريدة الاهرام ملخصاً لها فى عددها الصادر يوم الجمعة ٢٦ أبريل سنة ١٩٧٤.

الفرنسية فترة من أشد الفترات التى مرت بمصر اضطراباً وفساداً واستغلالا . . .
ثم قرعت أسماع المصريين أنباء انفجارين كبيرين جاءت إليهم من الشرق والغرب . . . الانفجار الوهابى فى الجزيرة العربية والانفجار الفرنسى فى أوربا . . . والمثقفين المصريين كانوا أميل إلى العطف على الحركه الوهابية التى وجدوا فيها دعوة إلى الاصلاح الدينى وإلى الصوفية الحقيقية . . . أما الثورة الفرنسية فكان تأثيرها على المصريين شديداً رهيباً لأن المبادىء التى نادى بها الثوار كانت ذات بريق خاص : فهم لم يعلنوا حقوق المواطن الفرنسى بل أعلنوا « حقوق الانسان » فى الحرية والآخاء والمساواة . فلما جاء العلماء الفرنسيون مع نابليون إلى مصر تردد عليهم الجبرتى وبعض أصدقائه كالشيخ اسماعيل الخشاب والشيخ حسن العطار إهتماماً منهم بالتاريخ والأدب والعلوم التى كان يشتغل بها هؤلاء العلماء حتى لقد قال الشيخ العطار : « إن بلادنا لا بد أن تتجدد فيها العلوم والمعارف » .

وامتلأ الجبرتى مرارة حين شهد تزايد قوة محمد على وتعاظمه إلى حد التسلط على قادة الشعب . « وكأنى بالجبرتى فى هذه السنوات الاخيرة من حياته وقد اشتد به الألم . . . قد أخذ مكانه على مفرق الطرق . . . ولم يدرك أن ما كان يقاسى منه المصريون فى تلك السنوات ما هو إلا بعض ألم المخاض الذى يسبق الميلاد الجديد .كان الميلاد الجديد هو نهضة مصر فيما تلا ذلك من القرن التاسع عشر[1] » .
والواقع أن كل المشتغلين بتسجيل التاريخ يمتلئون إعجاباً بما كتبه الجبرتى لدقته فى التسجيل وفى التعليق فهو يعطينا صورة تفصيلية عما شاهده وما جازه من اختبارات .

---

(١) انعقد بالقاهرة مؤتمر لتكريم ذكرى الجبرتى من ٢٢ — ٢٦ أبريل ١٩٧٤ بمناسبة مرور مئة وخمسين سنة على وفاته وفى آخر أيام المؤتمر نشرت الاهرام للدكتور أحمد عزت عبد الكريم مقالا بعنوان « الجبرتى على مفرق الطرق » اقتطفنا منه الفقرات المذكورة.



أبو الاصلاح

الانبا كيرلس الرابع

إحدى القمم الشامخة

٢١٣ - سلسلة من القمم
٢١٤ - نشأة داود الأنطونى
٢١٥ - رياسته للدير
٢١٦ - ايفاده للحبشة
٢١٧ - اختلافات فاقلاق
٢١٨ - خطاب التزكية
٢١٩ - افتتاحه المدرسة الكبرى.
٢٢٠ - انشاؤه مدرسة البنات
٢٢١ - موقف الآباء من تعليم البنت
٢٢٢ - عنايته باللغة القبطية
٢٢٣ - وبالألحان الكنسية
٢٢٤ - شراؤه مطبعة وفرحته بها
٢٢٥ - تنظيمه المكتبة البابوية
٢٢٦ - اهتمامه بالكهنة
٢٢٧ - انشاؤه ديوان الأوقاف
٢٢٨ - سفره للحبشة مندوبا عن محمد سعيد باشا
٢٢٩ - مناورات الانجليز
٢٣٠ - روعة التواضع البابوى
٢٣١ - تجديده الكنيسة المرقسية
٢٣٢ - حادثة مع مندوب البابا الرومانى
٢٣٣ - رعاية خاصة بالمرأة
٢٣٤ - رسالة القائد
٢٣٥ - تشويه الحقائق
٢٣٦ - الحكمة الروحية
٢٣٧ - تلاعب فرنسى - انجليزى
٢٣٨ - خيانة الصديق
٢٣٩ - هزة الغبطة والأسى
٢٤٠ - قصة المطبعة
٢٤١ - بعض كبار خريجى مدارس أبى الأصلاح

٢١٣ - ونقف الآن أمام راع سيطر على الفكر القبطى منذ أن أخذ مكانته فى سلسلة البابوات الاسكندريين حتى أننا مازلنا نتحدث عنه باللقب الذى اخترناه له بدلا من اسمه وهو « أبو الأصلاح » . على أن الذى يجب أن يدركه القبط هو أن « أبا الأصلاح » ليس فريداً فى هذه الكنيسة العريقة . صحيح أنه خطا خطوات جديدة دفعت بشعبه إلى الاعتراف بفضله ولكن الاعتراف بفضل شخص لا يعنى انكار فضل غيره . وهذا ما يجب توكيده إذ قد جرى بعض الكتّاب - امعاناً منهم فى ابراز فضائل شخص ما - على أن يبالغوا فى التقليل من شأن غيره . ولكن هذه الخطة لا تتفق والتعليم المسيحى اطلاقاً . فالاعتراف بالفضل لذويه واجب . ولهذا السبب نؤكد أن الآباء جاهدوا على مدى الأجيال : كل حسب تقديره

وإمكانياته فنجد الأنبا بطرس الجاولى مثلا منشغلا بالتفقد وبالكتابة. ولكن بما أن التفقد جهد وقتى وبما أن الكتابة تستلزم القراءة لتفهم مضمونها فإن جهد البابا بطرس ضاع بين تيارات الدعايات الأجنبية المتنوعة والانقلابات السياسية المتباينة فنسى القبط هذا الجهد الذى بذله البابا التاسع بعد المئة أو جهلوه. ولكن الدعايات المغرضة عجزت عن أن تغلــق المدارس التى فتحها أنبا كيرلس الرابع وعن أن تمحو المطبعة التى استحضرها. فبقيت هذه المنشآت شاهدة على الجهد الذى بذله البابا العــاشر بعد المئة. على أن الدعايات لم تقف مكتوفة الأيدى بأزاء عجزها فروّجت شائعات مؤداها أن هذا البابا تلقى العلم فى إحدى المدارس الانجليزية وفيها تعلم مسئوليته وقام بواجبه! والعجيب أن المدرسة المذكورة افتتحت سنة ١٨٤٠ وهو قد دخــل الدير سنة ١٨٣٨ ثم أصبح رئيساً له سنة ١٨٤٠. فكيف تسنى له أن يأتى إلى القاهرة من دير الأنبا أنطونى ليحضر الدراسة ويعود إلى ديره فى نفس اليوم؟ وكيف استطاع ذلك يومياً وديره قرب البحر الأحمر ولم تكن لديه سيارة؟ هذا مع العلم بأنه سار على منهج أبى الرهبان فى تشدده بأن الراهب يجب أن يقضى حياته داخل الدير. فما أصدق من قال: «إن حبل الكذب قصير وصاحبه لابد مشنوق به» والحق إن هؤلاء المروّجين يجهلون تاريخ الكنيسة القبطية وقد بنوا ادعاءاتهم على الزعم بأن القبط هم أيضاً يجهلون تاريخهم. فالآباء على مــدى العصور قاموا بما يمكنهم. ولا داعى للاستشهاد بالعصور الأولى وإنما يكفى أن نسألهم أين كان هؤلاء الأجانب أيام الأنبا متاوس الكبير (البابا الاسكندرى الـ ٨٧) أو أيام الأنبا يؤنس الثامن عشر (البابا الاسكندرى الـ ١٠٢) وغيرهما؟ ولئن كان القبط فى وقت ما يجهلون حقائق تاريخهم فقد أصبحوا الآن على وعى به. والواقع الذى يجب أن يتبصروه فى وعيهم هو أن قصة كنيستهم ما هى إلا سلسلة متواصلة من القمم الشاهقة،

وأنهم متى بلغوا قمة منها عليهم أن لا يفرحوا بوصولهم إليها فيستكينوا . بل عليهم التنقل ما بين قمة وأخرى مع ما في هذا التنقل من جهد . وحينذاك تتبدى أمامهم الحقيقة الساطعة التي هي أن الاصلاح كان أبداً دأب الرعاة الساهرين الذين أنعم الله بهم على كنيستهم القبطية ، وأنهم جاهدوا الجهاد الحسن حتى وإن لم ينتصر البعض منهم في هذا الجهاد . إنهم جاهدوا موقنين أنهم إنما يسعون إلى ارضاء الله الذي يرى في الخفاء ، وأنه هو وحده في النهاية له السلطان على اظهار الحق وعلى تحويل الفشل إلى نصر . أفلم يكن يوم الصلب في نظر الرسل منتهى الفشل واليأس ؟ ولكن ماذا نتج عنه ؟ على هذا اليقين سار خلفاء مار مرقس في ذودهم عن العقيدة وعن الشعب الذي ائتمنوا عليه عالمين أن فجر القيامة لم يسطع إلا بعد حلكة الظلام الذي غطى العالم ساعة الصلبوت . إذن فلنذكر أن كيرلس الرابع في حقيقة جهاده ليس « أبا الاصلاح » بل هو واحد ضمن آباء الاصلاح الكثيرين . وليس هذا تقليلا لجهاده وإنما هو اعتراف بفضل الآخرين إلى جانب الاعتراف بفضله الخاص الذي ستوضحه سيرته ...

٢١٤ - كان القمص داود الانطوني لايزال غائباً عن أرض الوطن يوم أن نعى الناعي البابا بطرس الجاولي . ومع ذلك فقد كان من بين الأساقفة والأراخنة اقتنع بوجوب اختياره لما عرفوه عنه من الجهاد في سبيل النهوض بالرهبان وبالأديرة . وكان قد ولد في بلدة الصوامعة شرق (محافظة جرجا) من أبوين متلئين نعمة . وكان أبوه - توماس بن بشوت بن داود - مزارعاً بسيطاً أمياً . ولكنه رأى أن يعلم ابنه داود فأرسله إلى الكتّاب حيث درج أولاد القبط على التعلم . لأن الكتاتيب كانت ملحقة بالكنائس والأديرة يتعلم فيها الأولاد المزامير والتسبحة والقراءات الكنسية المختلفة بالاضافة إلى الحساب واللغة العربية ومبادىء اللغة القبطية . ولما أكمل داود تعليمه في الكتّاب ذهب ليعمل

فى الغيط مع أبيه . وخلال عمله كفلاح تصادق مع العربان القاطنين إلى جوار بلدته . فتعلم منهم ركوب الخيل والهجن (السريع من الإبل) . ولتعلقه بالفروسية وبالحياة فى الهواء الطلق كان يرافق العربان فى أسفارهم ويسابقهم بحصانه أو بهجينه . فاعتاد منذ صباه العيشة الخشنة وتحمل المشاق . ويبدو أن هذه الحياة الشظفة جعلته يميل إلى العزلة والتبتل وبالتالى يتباعد عن النساء . فلما بلغ الثانية والعشرين من عمره ترك أهله وبيت أبيه وتوغّل فى الصحراء قاصداً إلى دير كوكب البرية أبى جميع الرهبان .

وسار من غير مرشد لأن نجمه الهادى كان يسطع فى داخله . وكان الدير آنذاك تحت رياسة القس أثناسيوس القلوصنى[1]. ومن المؤلم أن أباه حاول قدر الإمكان أن يرجعه عن عزمه . ولكن المراحم الإلهية آزرته وأبقته لخير الأمة القبطية بأسرها . وقد احتفظ فى الرهبنة باسمه الأصلى « داود » .

وفرح الراهب داود بثقة القس أثناسيوس القلوصنى فكرس وقته ونشاطه للدرس والتفتيش فيما وجده من كتب بالدير . وفى الوقت عينه فاض قلبه بحب إخوته الرهبان . فكان يجمعهم كلما سنحت الفرصة ويقرأ لهم ويشرح لهم ماصعب عليهم ويستحثهم على الدرس . وانعكست محبته لهم بمحبتهم له . ووثق فيه رئيس الدير فكان يأتمنه على الرهبان كلما اضطرته أمور رياسته إلى ترك الدير لتفقد العزبة والرهبان المسئولين عنها .

٢١٥ - وبعد سنتين من رهبنته انتقل القس أثناسيوس القلوصنى إلى مساكن النور ، فأجمع الرهبان على انتخابه رئيساً لهم . وحينما سمع الانبا بطرس الجاولى بفضائله وبالرغبة الاجماعية على اختياره استدعاه ورسمه قساً باسمه . وبعد أن منحه

(١) القلوصنا بلدة فى محافظة المنيا .

البركة وزوّده بالنصائح الأبوية صرفه إلى الدير ليباشر مهـــام رياسته .

واندفع القس داود بغيرته الروحية إلى اعداد كل مايحتاج إليه الرهبان كى لا يجد أحـدهم عـذراً فى مغادرة الدير . وقرر أن لا يبقى بعزبة الدير فى بوش (شمالى بنى سويف) غير الرهبان القائمين بأعمال الزراعة .

ثم وجـه عنايته بعد ذلك إلى التعليم فافتتح كتّابا لتعليم الأولاد فى بوش : سواء ًمنهم الرهبان أو العائشين فى العالم .

واستكمالا لعمل الـكتّاب أنشأ مكتبة فى عزبة الدير ببوش وجمع فيها كل ما وجده من كتب كما أحضر لها كتباً جديدة وفتح بابها لـكل من يريد القراءة والبحث . وكان فى أوقات فراغه يجمع الرهبان ويناقشهم فيما قرأوا . ثم يستمر النقاش بينه وبينهم حول الموضوعات الدينية والأدبية والتاريخية . ولكى يشجع الرهبان وغيرهم من الشباب على طلب العـلم تتلمذ هو على الشيخ الذى كان مدرّساً للغة العربية فأتقنها . فكان نموذجاً صالحاً لرهبانه وللشبان الذين التحقوا بمدرسته .

٢١٦ - ثم حدث ماحدث من تلاعب الانجليز فى الحبشة فرأى الأنبا بطرس الجاولى ضرورة ايفاد شخص متقد غيرة عتلىء اخلاصاً ليحسم الأمر بحـكمته بعد أن فشلت كل رسائله فى اقرار الأمور . ورأى أن الشخص الذى يمـكن ائتمانه على هذه المشكلة هو القمص داود الانطونى وقد استأذن القمص داود باباه فى استصحاب زميل له ليتعاون الاثنان معاً ويصلا إلى ما لا يستطيع الشخص الواحد بلوغه . وبالأخص لأن الرب له المجد حين أرسـل رسله للـكرازة أرسلهم اثنين اثنين . فأذن له البابا بطرس . وعلى ذلك استصحب القمص داود أخاً له فى الرهبنة وفى الـكهنوت اسمه برسوم [١] . وذهب الاثنان حاملين معهما خطابين من البابا :

(١) رسمه الأنبا كيرلس فيما بعد أسقفاً على المنوفية خلفاً لأبى طرحة باسم الأنبا يؤنس .

أحدهما للمطران وثانيهما للكهنة والشعب[1]. وقضيا بتلك البلاد سنة وأربعة أشهر منحهما الله خلالها أن ينجحا في المهمة التي سافرا من أجلها . على أنهما عادا بعد نياحة الأنبا بطرس كما سبق القول .

٢١٧ - وانقضت على نياحة الأنبا بطرس الجاولي ثلاثة شهور واثنا عشر يوماً حينما وصل القمص داود إلى القاهرة . وقد تبدو هذه الفترة قصيرة ولكنها كانت طويلة بما امتلأت به من تضارب في الآراء وفي الأقاويل . فالبعض من كانوا يرون في القمص داود ضالتهم المنشودة ، والبعض الآخر يعارضهم . ومما زاد البلبلة أن بعضاً من خصوم القمص داود أبلغوا عباس باشا الأول (الوالي آنذاك) بأن البازيرجات[2] تشير إلى أن انتخــابه سيكون شؤماً على الرياسة المدنية . ومع أن هذا الوالي جاز فترة قرر فيها الفتك بكل من يشتغل بالبازيرجة والتكهن إلا أن هذه الشائعات أثرت فيه وجعلته يتطير خوفاً من انتخاب القمص داود . وعلى الرغم من هذه الأراجيف فقد تجمع عــــدد من المطارنة في صف الراهب الأنطوني يساندهم الأراخنة الآتية أسماؤهم : تادرس شلبي ، تادرس عريان . برسوم واصف ، حنــا عبيد ، يوسف نصر الله ، حنين حنس وأخوه اسطفانوس ، روفائيل الطوخي ، حنا القسيس ، بطرس نخلة ، ابراهيم لطف الله ، يوسف مفتاح ، تادرس سيدهم ، وأكثرهم حماسة حنا جريس وابراهيم خليل . هؤلاء جميعاً ظلوا يقاومون التيــارات المضادة والشائعــات المزعومة التي مؤداها أن القمص داود قتلوه في الحبشة . ثم بدد الله الغيوم المتكاثفة بوصوله سالمــاً إلى القاهرة هو وزميله في ١٧ يوليو سنة ١٨٥٤ م .

وحالما وصل خرجت الجموع لاستقباله وامتلأت قلوب مريديه فرحاً ولكنهم

---

(١) هذان الخطابان غير تلك التي اقتبسنا منها في سيرة الأنبا بطرس الجاولي .

(٢) هي علم قراءة الغيب عن طريق التنجيم - أي بواسطة النجوم .

لم يستطيعوا أن يبددوا أوهام عباس باشا. فاحتالوا حيلة جازت عليه وهى أنهم طلبوا رسامته مطراناً عاماً على الكرازة المرقسية . فإن ثبتت كفاءته وثبتت بهتان الشائعات نصبوه بطريركاً . وبهذه الوسيلة نجحوا فى اقامته رئيساً عليهم - لأن « المطران العام » ماهو إلا البطريرك وإن اختلفت التسمية . وقد رسمه الأساقفة باسم « كيرلس » فأصبح الرابع الذى يحمل هذا الاسم والبابا العاشر بعد المئة .

٢١٨ - بمرة أخرى نتوقف عن متابعة الركب لنتمعن فى مبدأ رسولى : هو عدم انتقال الأسقف من إيبارشية إلى غيرها وعدم جمعه بين إيبارشيتين ، وعدم ترشيح الأساقفة للبابوية بل اقتصار هذا الترشيح على الرهبان[1] . وأن للمطران العام الحق فى الترشيح للكرسى البابوى أسوة بأبى الأصلاح . ولكن المؤرخين القبط اجمعوا على انه لم يرسم مطراناً عاماً إلا تهدئة لعباس باشا وانه كان قصاً فقط أيام تزكيته فهو أقيم مطراناً عاماً على الكرسى عينه الذى تقلد رياسته . لهذا رأيت إثبات التزكية التى كتبها له المطارنة وهى :

« هذه تزكية أبينا القمص داود المنتخب أن يصير بطريرك على خلافة مار مرقس الرسول بمدينة الاسكندرية والنوبة والحبشة والخمس مدن الغربية .

« بسم الله الواحد الآب والإبن والروح القدس الثالوث المقدس المساوى الغير مفترق بلاهوت واحد . هذا هو الاهنا نحن معشر المسيحيين الارتدكسيين . نتوكل عليه إلى النفس الأخير . ونرسل له إلى فوق التمجيد فى الأعالى كل امتلا بيعة الله الجامعة الرسولية . وكل الارتدكسيين المجتمعين . من الأساقفة الفضلا والقمامصة والقسوس معاً . والشمامسة وكل الشعب المحب للمسيح الذى بكورة مصر . عندما

---

(١) راجع ج ١ من هذا الكتاب ص ١٧١ فقرة ١٥٥ وص ٣٣٢ - ٣٣٣ فقرة ٤٢٤ ، ج ٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ فقرة ٤٨٠ - ٤٨١ وص ٣٩٩ فقرة ٥٠٥ .

لحقنا اليتم ووجع القلب . عندما أكل سيرته أبينا الطوبانى رئيس الأساقفة الفاضل أنبا بطرس . وتنيح هذا المتمسك بالفضايل . الذى نال جميع المواعيد المقدسة . صاحب الذكر الحسن ... ومضى إلى الله الذى أحبه . وسمع من الله ذلك الصوت المملو فرحاً . القايل نعما أيها العبد الصالح الأمين . ادخل إلى فرح سيدك . ولما تيتمنا من أبوّته . وصارت كنايس الله المقدسة أرامل . هذا الذى كان يطعم بتعاليمه . وبهذا صرنا فى جهد واهتمام عظيم كلنا . وسألنا الله أن يظهر لنا من هو مستحق لهذه الرياسة الكهنوتية العظيمة . ليرعانا فى طريق الرب ويرشدنا إلى مينا البيعة المقدسة . وإن كنا عارفين بمحبة الأبوية التى للمدينة المحبة للمسيح الاسكندرية . وكل كورة مصر . وطيب قلبهم . وليس يريدو أن يصيرو أيتاماً . إلى زمان بعيد . فلهذا اجتهدنا أن نكمل عمل الله . وطلبنا إلى الثالوث المقدس بقلب نقى وأمانة مستقيمة لكى يكشف لنا من هو مستوجب لهذه الوساطة . لنقدمه على هذه الدرجة التى لرتبة رياسة الكهنوت . فبمنحة علوية وفعل الروح القدس . واتفاق منا كلنا وطيب قلب . كشف لنا أن ننظر إلى أبينا البكر الطاهر القمص داود المدعو كيرلص الجزيل العبادة لله رئيس دير أبونا الآب البار العظيم أنطونيوس سابق أب جميع الرهبان بجبل العربة . واخترناه لنا أن يصير رييس أساقفة على الكرسى الرسولى . الذى للسليح مرقس الإنجيلى ناظر الإله بالمدينة العظمى الأسكندرية . وكل كورة مصر وتخومها . لأنه رجل عابد لله . مزيناً بالفهم . محب للغربا . معلماً نقياً . ومجتهداً على صدق الإنجيل . وأقمناه راسا للرعاة ورئيس أساقفة . ولقوام واعتدال كنايس الله المقدسة . ومخلصاً لأنفسنا . لكى يرعانا بكل الرأفة والوداعة . لكى نحن أيضاً نرسل إلى فوق التسبيح والشكر . ونرفع إلى الذى أحسن إلينا مخلصنا يسوع المسيح . إلى الأبد آمين .

ونحن الأساقفة المجتمعين . سطرنا هذه التزكية . وشهدنا فيها . وكل الذين

اجتمعوا معنا محبين الله الكهنة الفضلا . ومحبين الزهد الرهبان . وكل الشعب المحب للمسيح الذى للمدينة العظمى الاسكندرية وما يليها مجداً واكراماً للآب والإبن والروح القدس . الآن وكل آوان وإلى دهر الداهرين آمين .

« تحريراً فى يوم الاحد الثامن والعشرون من شهر بشنس سنة ١٥٧٠ موافق ٤ حزيران سنة ١٨٥٤ الموافق إلى الأحد السادس من الخمسين » .

أنا ابرآم
أسقف كرسى أورشليم
وما يتبعها ارتضيت
بهذه التزكية كما كتبت
(ختم)

أنا سرابامون
أسقف كرسى أسيوط
ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت
(ختم)

أنا مكاريوس
أسقف كرسى أسيوط
ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت
(ختم)

أنا أطناسيوس
أسقف كرسى منفلوط
ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت
(ختم)

أنا باكوميوس
أسقف المنيا والأشمونين
ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت
(ختم)

أنا أبرآم
أسقف كرسى قوص وقنا
ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت
(ختم)

أنا أسحق
أسقف البهنسا والفيوم
ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت
(ختم)

أنا أثناسيوس
أسقف أبو تيج
ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت
(ختم)

أنا يوساب
أسقف جرجا واخميم
ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت
(ختم)

أنا ميخائيل   أنا القمص عبد القدوس   أنا القمص يوحنا   أنا القمص جرجس
أسقف كرسى صنا   رئيس دير العذرى   رئيس دير العذرى   رئيس دير الست دميانة
ارتضيت بهذه التزكية   بالسريان ارتضيت بهذه   بالبراموس بشيهات   براوى الزعفران
كما كتبت   التزكية كما كتبت   ارتضيت بهذه التزكية   ارتضيت بهذه التزكية
(ختم)   (ختم)   (ختم) كما كتبت   (ختم)

أنا القمص ميخائيل	أنا القمص جرجس	أنا الخورى بسقوبس ميخائيل
خادم ورئيس دير أبو مقار	من كهنة دير أبو مقار	وكيل كرسى صنبو
بجبل شيهات ارتضيت بهذه	ارتضيت بهذه التزكية	ارتضيت بهذه التزكية
التزكية كما كتبت	كما كتبت	كما كتبت
(ختم)	(ختم)	(ختم) (١)

وهكذا نرى من توقيعات عشرة أساقفة وأربعة رؤساء أديرة وقس وخورى بسقوبس أن كيرلس الرابع وقت تزكيته للكرسى كان القمص داود الراهب بدير الأنبا أنطونى . وجهاده فى ميادين العلم ورفع شأن الكهنوت والنهوض بالمرأة والوساطة بين حكام مصر والحبشة دليل حاسم على أن الراهب البسيط يستطيع أن يرتفع إلى مستوى المسئولية البابابوية مادام مستنداً إلى الروح القدس محتضناً حباً لشعبه . وقد أثبت تاريخ كنيستنا الطويل أنه ليس فريداً فى جهاده ، وأن الكنيسة طالما أضفت عليهم ألقاباً تعبر بها عن عرفانها لجهودهم . فليس الوعى الحقيق للواجب نتيجة لحياته فى العالم ولا لاختباراته كأسقف أو كمطران بل هو مستمد من مصدر النعمة الذى جعل من صيادى السمك رجالا « فتنوا المسكونة »[٢] .

٢١٩ - وما أن وجد نفسه المسئول الأول عن الشعب القبطى حتى وجه اهتمامه إلى نشر التعليم . ولكنه شاء فى الوقت عينه أن يوثق الصلة بينه وبين أبنائه . فوضع نصب عينيه وجوب افتتاح معهد علمى يستضىء بنوره الشباب . ولكى يجعل هذا المعهد حقيقة واقعة لها مكانة فى قلوب الشعب نشر عليهم طرس البركة الوارد نصه فيما يلى :

---

(١) مخطوطة رقم ٥٠ تاريخ محفوظة بمكتبة المتحف القبطى تتضمن سيرة أنبا باخوم أبى العركة ، وقد جاءت هذه التزكية فى آخرها ، ومخطوطة ١٨٤ مكونة من قسمين يتضمن قسمها الثانى صورة التزكية عينها .

(٢) كذلك أثبت تاريخ كنيستنا القبطية أنه فى المرات الشاذة التى احتل فيها مطران أو أسقف الكرسى البابوى لم يرتفع أى منهم إلى المستوى الشاهق الذى بلغه الباباوات الذين جىء بهم من الدير مباشرة مع أنهم كانوا من الآباء الممتازين أيام أن انشغلوا بإيارشياتهم الأصلية . أما كلمة « فتنوا المسكونة » فتعبير عن قوة الكرازة ورد فى سفر الأعمال ١٧ : ٦ .

« البركة الكاملة والنعمة العاملة الشاملة إلى حضرات الأبنا المباركين والأحباء الطائعين الأراخنة والمعلمين والشمامسة المكرمين وأرباب الصنايع المحترمين وجميع الشعب المحب لله الديّنين الأرثوذكسيين بارك الله عليهم بكل البركات السمائية الحالة على رسله وأنبيائه وصانعى وصاياه فى كل جيل وحين . بشفاعة الدائمة البتولية ومار مرقس الكاروز بالديار المصرية . آمين .

« بعد تجديد البركات الروحانية عليهم واهداء مزيد السلام الروحانى لديهم . نعلمهم أنه لما كان الأمر الواجب اكتساب المعارف والفنون وقراءة الكتب المقدسة ومعرفة قواعد الديانة وادراك معرفة الألسن المستعملة ببلاغة الألفاظ وعذوبة البيان كان ذلك من أهم أمر وأوجب مهم إذ أن به أولا يحصل التمدن وانتظام حدود الانسانية . وقد تصرّح عن ذلك فى الكتب المقدسة نورد لكم بعضها على سبيل التذكرة لأنى أنا أعلم أنكم بها خبيرون وهو مما جاء فى الأصحاح السادس من سفر تثنية الاشتراع قوله تعالى : « وليكن هـــذا الكلام الذى أنا أوصيك به اليوم فى قلبك وقصه على بنيك وتكلم به إذا جلست فى بيتك وإذا مشيت فى الطريق وإذا نمت وإذا قمت واعقده علامة على يديك ويكون عصائب بين عينيك واكتبه على أسقفة بيتك وعلى أبوابك » .

« وقوله تعالى ليشوع بن نون هكذا كما كتب فى بدء سفره : « لا يبرح سفر هذه السنة عن فيك لكن ادرسه الليل والنهار لتحفظ وتعمل جميع ما كتب فيه حينئذ تفلح بطريقك وتتفطن بها » .

« وجمع ذلك صاحب الترتيل بقوله فى مزمور ١١٨ « سراج لرجلى هـــو ناموسك ونور لسبيلى » . وقد أعطى التطويب للرجل الذى يتلو ناموس الرب ووصاياه ليلا ونهاراً وشبهه بالشجرة المغروسة على مجارى الأنهار » .

« وتأملوا أيضا وصية الرسول مار بولس لتلميذه تيموتيئوس حين كتب له برسالته الثانية فصل ٣ هكذا يقول له : فاثبت أنت على ما تعلمت وائتمنت به فقد علمت ممن تعلمت وأنك منـــذ صباك تعلمت الأسفار المقدسة التي تقدر أن تحكمك للخلاص بالايمان الذي بيسوع المسيح إن كل الكتاب أوحى به من قبل الله مفيد للتعليم والتوبيخ والتقويم والتأديب بالبر لكي يكون رجل الله كاملا ومستعداً لكل عمل صالح » .

« فإذا فهمتم هذه الأقاويل الإلهية : أظن أنكم تتشوقون إلى ما أنا شارع فيه لمنفعة أولاد الكنيسة بإستنادى على قوله تعالى بإنجيله المقدس : « فتشوا الكتب فإنكم تظنون أن لكم فيها حيـــاة الأبد فهى تشهد من أجلى » . فإن كان كذلك فنواظب عليها بمداومة القراءة والدرس فيها كما وقد علم ذلك بولس الرسول لتلميذه تيموثيئوس كما جاء برسالته الأولى ص ٤ هكذا يقول له : واظب على القراءة إلى حين قدومى وعلى الموعظة وعلى التعليم وادرس هـذه الأشياء وتشاغل بها لكي يكون اقبالك ظاهراً لكل أحد » .

« وعلى الجملة فأقول بما أن هذا الأمر مستحب لديكم جداً فحينئذ صار التسارع إليه واجباً لتماثلوا فى انتظامه جميع طوائف المسيحيين الذين اتبعوا هذه الأقوال السابق ايضاحها لبنوتكم فأنشأوا مدارس ومكاتب حاوية معرفة الألسن ودقائق غوامضها وربوا أطفالهم بحسن التربية وأدبوهم أحسن التأديب حتى بلغوا وبرعوا ليس فى لغاتهم المولودين فيها فقط والخاصة بهم بل واكتسبوا الألسن الغريبة أيضا التى لم تكن لهم عادة بمعرفتها ولا كان يظن فيهم النطق بحرف منها عن كونهم بلغوا الغاية فى المنطق والقراءة والكتابة كما هو ظاهر للعيان .

« وعدا عن تعليم الأطفال فإن المنظور أن أرباب الألسن واللغات الأعجمية

قد برعوا فى معرفة اللسان القبطى الذى لا حاجة لهم فيه وكذا اللسان العربى نطقاً ، وكتابة وقراءة حتى أن اللسان القبطى قد آل بنسيان معرفته بحيث انمحى رسمه والدرس بالكلية من أهله وصار بمجرد تسمية بلا فاعلية حتى أن القراءة الضرورية المستعملة بالكنائس لا يعرف معناها أحـــد ولا مفهوميتها والذى يقرأ لا يفهم ما يقول . ولولا أن اللسان العربى قد وضع فى الكنائس ترجاناً له لأجل مساعدة المعرفة للشعب لكان يتم علينا قول الرسول : « إن الذى لا يؤمن إذا دخل أليس يقول إنكم قد جننتم وكيف يقال على بركتك آمين » .

« ويا ليت هذا اللسان العربى الدارج بين عامة شعبنا كانوا ينطقون به جيداً ويفهمون قواعده العربية ، فأظن ولا حتى معانى ألفاظه وذلك ناشىء من كون أن الأطفال عندما يبلغون السن اللازم لاكتساب فوائد التعليم يسلمهم والدوهم إلى عرفاء عواجز النظر يعلمونهم القراءة غيباً بالكلام المستهين والألفاظ المحرفة ويدعوا الأطفال يحفظون بعضاً من المزامير بغير معرفـــة القواعد ولا المعنى فيخرجونهم جهلة فى أقصى الجهل حتى لحدود الرئيس والمرؤوس وبالحقيقة يتم قول النبى عاموس القائل . « ها تأتى أيام يقول الرب وأرسل الجوع إلى الأرض لا جوع للخبز ولا عطش للماء بل لاستماع كلام الرب » . وآخر قال : « جهلوا العلم والمعرفة ولا الرئيس يرشد ولا المرؤوس يسترشد » . وإن أهل المعرفة جهلوها فقد بردت حرارة الايمان وبعد التمدّن عن أهله ولعله يتم قوله تعالى : « من كثرة الاثم تبرد المحبة من كثيرين » .

« وحيث أنه بنعمة الله صرت إلى ما أنا عليه مؤتمناً وعبداً ليسوع المسيح مدعـّواً مطراناً خادماً للكرازة المرقسية مترجياً من مراحمه الفائقة الكمال أن يوفق لى ما يرضاه ويؤهلنى للقيام بفرائض هذه الخدمة التى هى أنتم معشر الذين

يؤمنون به حتى أجد لى دالة قدام منبره المرهوب المخوف قائلا « ها أنا والبنون الذين أعطانيهم الرب » .

« وإذا كان فرض واجب علىّ مباشرة التعليم والقيام بالسعى فيما يوجب انتظام العامــــة والحث على معرفة أصول الديانة وقواعدها وكان أقصى الأمل الشروع فى ايجاد محل للقراءة والتعليم وقد عزمت بنعمة الله أن أشمر عن ساعد الجد كما هو من الواجبات علىّ بحسب ما انتدبت اليه بمراحمه أن أكل قصدى باعتمادى على العناية الربانية المؤهلة إلى كل عمل صالح وهى إرادته تعالى ومساعدة أولادنا شعب الله المختار حيث رأيت منهم التلهّف لايجاده والمسارعة لانجازه ولاح لى من حسن ذمتهم ونقاوة طويتهم استحثاثهم على ذلك وميلهم إليه بكل رغبة ونشاط واختصاصهم بصالح العمل وأحسن التقويم . وقد رأيتهم دائمــــاً يلهجون بهذا الامر وكان هذا المقصد جل رغبتنا فقد توفق ايجاد بعض خرابات دائرة من تعلقات الوقف تجاه دار البطريركية واستصوب أن يصير انشاؤها محل مركّب من كم أودة يقيم فيها المعلمون والصبيان يتنقلون منها من مرتبة إلى أخرى وهى من أول مرتبة المبتديان إلى ما يوفق به الرحمن من التعليم بحسب القدرة والامكان.

ولغاية الحرص قد بلغت مقايسة تكاليف عمارة الجهة المذكورة بما يناهز المائة وخمسين ألف قرش (خمسون كيساً) . ولما كان جهدى قصير فى ايجاد هذا القدر نظراً لضيق الوقت وضعف الحال صار لى أمل فى همة الابناء المباركين أن يمدّوا بالاسعاف على قدر الامكان والطاقة للمساعدة فى إنشاء هذا المحل . وها أنا مساعد بقدر جهدى وطاقتى ومباشر العمل بنفسى وبعد اتمام البناء بنفسى يقدّرنى الله على ايجاد الكتب والادوات وما يلزم للادارة بدون تكليف أحد ويصير ترتيب معلمين للتعليم كما الجارى عند باقى طوائف المسيحيين وبمعونة الله تعالى

يصير الانتظام التـــام حتى يضرب بذلك المثل ويشاد ذكره بين المــلا .

وحيث أن مرجع الأمر إلى مساعدة أولادى الأرثوذكسيين المباركين حفظهم الله بيمينه الحصين وجعلهم من الفائزين المقربين فكل ما سمحت نفسه بشىء وجادت همته به على قدر امكانه يقدمه لعمارة تلك الجهة ابتغاءً لمرضاة الله تعالى لمنفعة عامة الشعب المسيحى ولاصلاح خير العامة والخاصة معتقداً ان الله يعوضه عنها عوض الفانيات بالباقيات والأرضيات بالسمائيات . ويكون ذلك لهم ذخيرة فى المظال الابدية . الرب الإله ينميهم ويكثرهم ويدر أرزاقهم وينشىء أطفالهم نشوأ حسناً ويكثر نسلهم ويقر أعينهم بهم ويعمر أوطانهم . والذى ليست له ذرية الرب الإله يعطيه النسل الطاهر ويجود عليه بالروح المبارك كما جاد باسحق لابراهيم ويوحنا المعمدان لزكريا . ويملأ بيوتهم وعشائرهم ومعاصرهم من البركات الروحانية ويعطيهم عمراً طويلا وحياة هنية وآخرة طاهرة مرضية ويجعلهم من الخراف اليمينية الذين يتكئون فى الأحضان الابراهيمية فى أورشليم السمائية ويسمعهم الصوت الفرح المملوء فرحاً وحبوراً : « تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملك المعد لكم قبل انشاء العالم » بشفاعة العذراء الطاهرة البتول أم النور وناظر الإله مار مرقس الإنجيلى الرسول وكافة الرســل والشهداء والقديسين . كونوا مباركين محالين من فم الثالوث المقدس والآباء أصحاب المجامع المقدسة ومن فى أنا الحقير كيرلس . ولله الشكر دائماً سرمديا . آمين [1] » .

وقد افتتح قائمة الاكتتاب بمبلغ خمسة آلاف قرش ووقع تحته بامضائه

(١) مخطوطة رقم ٢٧١٣ محفوظة بالمتحف القبطى ، وهى مكتوبة على ورق كتان وتتالف من ورقتين : الورقة الأولى لم يعد واضحاً عليها غير ستة سطور والثانية ثلاثة عشر سطراً وذلك لتسرب المياه إليها ! ومن نعمة الله أن بعض المؤرخين قد نجح فى تدوينها قبل ذلك - راجع كتاب كامل صالح نخلة « سلسلة ... » الحلقة الخامسة ص ٢٠٢ - ٢٠٧ .

الكريم، وتبرع كلٌ من أنبا أبرآم مطران القدس، وأنبا مرابامون مطـــران المنوفية بمبلغ ألفين وخمسمائة قرش. وتجاوبت القلوب لهذا النداء الأبوى فتقدم أربعون من الاراخنـة: كل بما يستطيع تقديمه. فبلغ ما قدموه أربعة وأربعين ألفاً ومائة وستة قروش. وعلى ذلك اشترى أبو الاصلاح عدداً من البيوت الواقعة عن شمال الكنيسة المرقسية التى كان إبراهيم الجوهرى قد حصل على الإذن ببنائها. ثم هدم هذه البيوت وبنى مكانها المدرسة الكبرى التى مازالت بنعمة الله قائمة إلى الآن ملاصقة لكنيسة الشهيد أسطفانوس المجاورة للمرقسية. ولما أتم بناءها فتحها للجميع بلا استثناء. للقبط والمسلمين واليهود. وجعل التعليم بها مجاناً بالاضافة إلى صرف الكتب والأدوات المدرسية - فسبق الحكومات فى مختلف البلاد فى هذا المضمار. ولشدة عنايته بالمدرسة كان يتفقد سير العمل فيها يومياً. وأحياناً كان يبقى فى الفصل الواحد مصغياً إلى المعلم وهو يشرح الدرس. فإذا ما انتهت الحصة قال للتلاميذ: «لقد استفدت معكم اليوم فائدة لم أكن أعرفها من قبل». ولأنه كان يسعى نحو الكمال فكان إذا ما أتاه زائر من طبقة المتعلمين أخذه لزيارة المدرسة وسأله بعد ذلك عن ملاحظاته عنها. ولقد شهد للمدرسة صاحب كتاب «مصباح السارى ونزهة القارى» فقال: «وفى حارة الأقباط مدرسة عظيمة يعلمون فيها اللسان القبطى القديم والتركى والإيطاليانى والفرنساوى والانكليزى والعـــربى. وهم يقبلون فيها من جميع الطوائف وينفقون على التلاميذ من مال المدرسة. وهذه بناها البطرك كيرلس القبطى وأنفق عليها نحو ستمائة ألف قرش. وكل هذا بخلاف ما نعهده فى بلادنا من الإكايروس وأوجه الشعب»[1].

ولما كان هدف البابا كيرلس هو تربية الشخصية، ولما كان لا يخشى فى الحق

(١) هذا الكتاب لابراهيم أفندى الطبيب طابعه فى بيروت سنة ١٢٨٢ هـ، والجمل المقتبسة وردت فيه عند الحديث عن مصر ومدارسها - توفيق أسكاروس .. جـ٢ الهامش على ص١٣١.

لومة لائم ، فقد حدث أن جاء إليه بعض الرجال يشكون من أن معلماً ضرب ولداً من أولادهم غير مراعٍ وجاهة أبيه ومكانته الاجتماعية . فنادى البابا البصير على تلميذه الخاص وأمره أن يحبس أولاد كل الموجودين فى حضرته إلى أن يدفع كل منهم ستين كيساً لأنه كان يصرف على كل تلميذ كيساً شهرياً (أى خمسة جنيهات) . وأصاب الرجال ذهول فقال لهم : « إن أولادكم رجال المستقبل ومشيدو الوطن فيجب أن يكونوا الخميرة الصالحة التى تخمر العجين كله » . وعندها قالوا بلسان واحد : « لسنا نعرف لأنفسنا أولاداً . فهم أولادك ولك الحق أن تتصرف فيهم تبعاً لحكمتك » .

وكانت هذه الهمة التى بذلها البابا الاسكندرى فى سبيل التعليم سبباً فى اقناع من كانوا خصومه إبان تزكيته للبابوية ، فانضموا إلى مريديه وتجمع رأيهم على أنه بالفعل أولى من يستحق هذه الكرامة الكهنوتية العليا . فأقيمت حفلة التنصيب بعد سنة وشهرين من رسامته مطراناً عاماً .

ومن نعمة الله أن سعيد باشا أصبح والياً على مصر بعد رسامة الانبا كيرلس بشهر واحد - ذلك لأنه أطلق حرية العبادة من جديد بعد أن كان عباس باشا قد تشدد مع القبط ومنعهم من بناء كنائس جديدة بل منعهم حتى من تجديد الكنائس القديمة . على أن سعيد باشا ساهم فى اضعاف الروح القومية لأنه ألغى ديوان المدارس كما ألغى المدارس الخصوصية ولم يبق منها غير مدرسة الطب والمدرسة الحربية . وفى الوقت عينه شجع الأجانب وشمل مدارسهم برعايته وأغدق عليهم المال والأراضى[1] .

٢٢٠ - ثم رأى البابا المرقسى أن تعليم الولد دون البنت سيقيم هوة فكرية سحيقة بين الاثنين مما يؤدى إلى شىء من عدم التكافؤ بين الزوجين . وأدرك فى

(١) تاريخ مصر . . . لأحمد عبد الكريم عزت ص ٣٠٠ .

الوقت عينه أن البنت الجاهلة القابعة فى الظلام لن تكون أماً تحسن تربية أولادها. وبما أنها المرشد الأول والموجّه الأول للطفل وجب تعليمها . وبهذا التطلع نحو مستقبل العائلات افتتح مدرسة للبنات فى حارة السقايين : مدرسة من النوع الحديث الذى يمكن وصفه « بالمدرسة » . وكالمعتاد شيّد كنيسة تحتضن المدرسة لينشأ البنات فى كنف الرعاية الروحية فلا تتثقف عقولهن فقط بل تنمو أرواحهن كذلك . وكما فتح مدرسة الأولاد للجميع بلا استثناء هكذا فتح مدرسة البنات للقبط والمسلمين واليهود سواءً بسواء . فهو الراعى والأب ومن واجبات الرعاية الاهتمام بكل الشعب : يسعى فى طلب الجميع ويحملهم على منكبيه فرحاً . ومن حنان الأبوّة العطف على الأبناء والبنات بل إن البنت أشد حاجة إلى هذا العطف لما ستتحمله فيما بعد من أعباء .

٢٢١ - ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الأنبا كيرلس فى عنايته بالبنت استند إلى ما قاله آباء الكنيسة القبطية وعلماؤها فى مختلف الأجيال . فأكليمنضس الاسكندرى[١] قال : « إن الجنس أمر عرضى يزول بزوال هذا الجسد. والجزاء الأبدى ليس لذكر أو لأنثى بل للانسان فحسب إذ تزول الرغبة الجنسية التى تفرّق بين الناس . ومن البديهى أن الذين يتشاركون الحياة لهم نعمة مشتركة وخلاص مشترك » .

أما ابن كاتب قيصر[٢] فقد قال فى تفسيره لرسالة كورنتوس الأولى : « قوله

(١) من أعلام المدرسة الاسكندرية عاش فى أواخر القرن الميلادى الثانى - راجع ج ١ من هذا الكتاب الفصل المعنون « مدرسة الاسكندرية » .

(٢) نال أبوه لقب « الأمير علم الدين » لما كان يتمتع به من نفوذ سياسى . أما هو فانشغل بالكتابة عن اللغة القبطية كما وجه انتباهه أيضاً نحو العلوم الدينية فوضع تفسيراً لانجيل متى ، أعمال الرسل ، رسائل بولس والرسل الآخرين ، ثم سفر الرؤيا - راجع ج ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٢ من هذا الكتاب .

لكن ليس الرجل دون المرأة ولا المرأة دون الرجل فى الرب. أى أنهما متساويان أمام الله وليس أحدهما أشرف من الآخر ... وقوله المرأة مجد بعلها [١] لما عظم الرجل بكونه صورة الله خشى أن يظن أن بين الرجل والمرأة فرقاً فى الجوهر فتلافى ذلك بأن جعلها مجد بعلها أى جماله وشرفه إذ هى معينة له فى الحياة وقشفها ».

وهكذا نجد أن آباء الكنيسة وأعلامها قد أدركوا المعانى العميقة الكامنة ضمن آيات الأسفار الإلهية فأعلنوها لأولادهم لتثبيتها فى القلوب ومن دواعى اعتزازنا أنهم بيّنوا لنا قيمة المرأة فى نظر خالقها من الآيات المقدسة ذاتها . وعلى هذا المنهاج سار أبو الاصلاح مستهدفاً النهوض بالمرأة لتكون جديرة ببنوّتها لله . والمدرسة التى افتتحها للبنات تعتبر أول مدرسة من نوعها فى العصر الحديث. وقد عين حنا القسيس ليشرف عليها ويقدم لها كل ما تحتاج إليه من المعدات والأدوات. ومما يجدر ذكره أن آباء البنات ثاروا على البابا فى خطوته الجريئة إلى حد أنهم تظلموا للوالى (سعيد باشا) . ولكن الوالى سانده [٢] .

٢٢٢ - وبما أنه وجه اهتماما خاصاً إلى دراسة اللغات فقد عنى عناية كبرى باللغة القبطية وعين لتدريسها عريان جرجس مفتاح الذى كان يجيد معرفتها . ولقد كان البابا فى هذا المضمار قدوة فعــالة إذ قد تعلم اللغة القبطية هو أيضاً . صحيح أنه كان يعرفها ويقرأها من قبل ، ولكن معرفته بها كانت قاصرة على

---

(١) أمثال ٢٢ : ٤ .

(٢) جاء فى الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ما يلى : « ولما وجد البطريرك الكبير الشهير كيرلوس منشىء المدرســة القبطية بالأزبكية والكنيسة الكبرى بها ما عليه أبناء الأمة ساكنو حارة السقايين من الصعوبة لعدم وجود كنيسة بتلك الجهة سعى بجده واجتهاده وحرص وجاه الأمة على شكاية الحال للمقام الخديوى وطلب الرخصة ببناء كنيسة بها فصدر أمر سام من محمد سعيد باشا فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٥٤ لمحافظة مصر باجابة التماس الأمة ببناء كنيسة بحارة السقايين بأحد أماكن وقف الاقبــاط . . . » . ومن نعم الله أن الكنيسة والمدرسة بتلك الجهة ما زالتا قائمتين تتمم فى كل منهما العمل الذى شيدت من أجله .

الصلوات الكنسية شأنه فى ذلك شأن كل أولاد القبط الذين تعلموا فى الكتاتيب . أما فى المدارس التى افتتحها فقد طالب التلاميذ بأن يتعلموها كما يتعلموا غيرها من اللغات ـ أى بدراسة قواعدها اللغوية والنحوية . وبدراستها على هذا المنهج ساعد على استكمال الأبحاث التاريخية لأن اللغة القبطية هى فى الواقع لغة قدماء المصريين التى كانوا يكتبونها بالصور الهيروغليفية فأصبح أبناؤهم يكتبونها بالحروف اليونانية مع اضافة الحروف السبعة الأخيرة التى كانت معروفة فى اللغة المصرية ولا وجود لها ضمن اليونانية .

٢٢٣ ـ وتعزيزاً لدراسة القبطية اختار القمص تكلا (أحد كهنة الكنيسة المرقسية بالأزبكية) ليعلم الألحان والمردّات الكنسية للتلاميذ ذوى الأصوات الرخيمة كى تصعد الصلوات إلى العرش الإلهى فى نغمات متناسقة جذابة . كذلك رأى أن يرسم هؤلاء المرتلين شمامسة ويجعل لهم زياً خاصاً . فكانت جهوده فى هذا المضمار سبباً فى تشجيع الأهالى على ارسال أولادهم للمدارس التى افتتحها كما جعلتهم يواظبون على حضور الصلوات الكنسية ليستمعوا إلى أولادهم وهم يترنمون بألحانها .

٢٢٤ ـ على أن أسطع جهد بذله فى سبيل النهوض بشعبه هو شراؤه مطبعة كانت الثانية التى تصل بلادنا ، لم تسبقها غير المطبعة الأميرية التى كان قد اشتراها محمد على باشا . فكلف الأنبا كيرلس الرابع الخواجا [1] رفلة عبيد الرومى الارثوذكسى بشرائها . وفى الفترة مابين تكليفه ووصول المطبعة فعلا نجح فى

---

(١) كان اللقب الشائع استعماله للضبط هو لقب « المعلم » ، ولكننا ابتداء من هذه الفترة نجد كلمة « خواجا » قد حلت محلها . فأصبحت تطلق على أى قبطى لم يحصل على رتبة حكومية رسمية ، والرتب كانت آنذاك : أفندى ، بيك ، باشا . ومما لا شك فيه أن استبدال « معلم » « بخواجا » كان من تأثير الفرنجة .

استصدار الأمر من محمد سعيد باشا بقبول أربعة من الشبان القبط الأذكياء فى المطبعة الأميرية ليتدربوا على العمل ويكونوا على استعداد لتشغيل المطبعة الجديدة. كذلك كان هناك تعهد مابين البطريركية وقلم المطبوعات الأميرية لتجهيز الحروف وطبع الكتب. وما زالت بالمكتبة البابوية بالقاهرة أربعة خطابات تؤيد هذا التعهد وهى :

ناظر قلم الروضة والمطبوعات رفعتلو بك

المائة واثنين وأربعون رطل حروف المبينين أعلاه البالغ مقدارهم بالأقة إحدى وخمسين وربع لازمين لأشغال الكتب الجارى طبعها بمطبعة الحروف بالمدارس وحيث أن الأمر كما ذكر نؤمل تدارك تلك الأصناف من محل وجودهم افندم .

رئيس مطبعة الحروف

موسى شرف (ختم)

عموم مكاتب أهلية وكيلى عزتلو افندم حضرتلرى .

الأصناف الموضحة يمينه لزومها ضرورى للمطبعة ومقتضى الآن تداركها فنؤمل صدور الأمر بما يقتضى افندم .

ناظر مطبوعات وروضة

على فهمى (ختم)

٢٧ الحجة سنة ١٢٩٢ هـ .

جناب ناظر بطريكخانة الأقباط الأرثوذكس .

كمتعهد جنابكم يلزم أن توردوا بمطبعة المدارس الخمسون أقة رصاص السابق التحرير لجنابكم بتوريدها مع الواحد وخمسون أقة وكسور الواردين فى افادة حضرة ناظرها هذه الرقيمة ٢٧ الحجة سنة ١٢٩٢ هـ وبموجب سند الاستلام تصير المحاسبة وفقاً للأصول الجارية . ناظر معارف وأوقاف م .

٢٩ الحجة سنة ١٢٩٢ ﻫ .

ولدنا الخواجا رزق جرجس

اطلاع حضرتكم على شرح سعادة ناظر المعارف والاوقاف باطنه رقم ٢٦ الحجة سنة ١٢٩٢ نمرة ٤٣ سايرة كاف وبمعرفة جنابكم يجرى المقتضى لما هو لازم ودمتم ؟

بطريرك الاقباط [١]

وهذه الخطابات تدل على أن البابا الاسكندرى وضع الخطة اللازمة لسير المطبعة حالما تصل ، وهى تدل أيضاً على تلهفه لنشر العلم . لان الكتب المخطوطة تستلزم الوقت الطويل وثمنها غالٍ بالاضافة إلى ما قد تحويه من أغلاط نتيجة لجهل الناسخ أو لاهماله .

ويوم أن وصلت الباخرة الحاملة للطبعة إلى ميناء الاسكندرية كان أبو الاصلاح فى دير الانبا أنطونى فأرسل إلى وكيل البطريركية يطلب إليه استقبال المطبعة استقبالا حافلا فيلبس الكهنة والشمامسة ثيابهم الكهنوتية التى يرتدونها وقت تأدية الشعائر المقدسة ويسيرون أمامها وهم يترنمون بالالحان [٢] . ومرة أخرى ثار عليه بعض أبنائه زاعمين أن قبل هذا العمل بدعة . ولما عاد من الدير

---

(١) توفيق أسكاروس . . . ج ٢ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) وقد علقت مجلة الهلال على هذا الموضوع بقولها : « والاحتفال بالمطابع الجديدة دليل على احترام العلم والرغبة فى احرازه . وأول احتفال جرى من هذا النوع فى الديار المصرية احتفال الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الاقباط الارثوذكس المتوفى سنة ١٨٦١ وهو من أكبر رجال الاصلاح من الطريق القويم . فانه أول من أنشأ مدرسة قبطية ومطبعة وطنية ولم يكن فى مصر غير المطبعة الاميرية فبعث إلى أوروبا استحضر مطبعة فلما علم بوصولها إلى ميناء الاسكندرية وكان هو فى الدير بالجبل بعث إلى وكيل البطريكخانة بمصر يأمره باستقبال تلك الادوات عند وصولها إلى القاهرة باحتفال رسمى يقوم فيه الشمامسة بالملابس الرسمية المختصة بالخدمة الكنائسية يرتلون التراتيل الروحية . وكان لاستقبال تلك المطبعة احتفال تحدث الناس به زمناً لغرابته » . توفيق أسكاروس . . ج ٢ هامش ص ٨٩ — ٩٠ .

أعربوا له عن رأيهم هذا . أجابهم لفوره : « لو كنت فى الاسكندرية ساعة وصول المطبعة لرقصت أمامها كما رقص داود قديماً أمام تابوت العهد »[1] . وإذ رأى الدهشة مرتسمة على وجوههم قال لهم : « لست أكرم آلة من الحديد ولكنى أكرم المعرفة التى ستنتشر بواسطتها » . فاقتنعوا واعتذروا له عما بدر منهم .

٢٢٥ - ولما كان يستهدف بالمطبعة نشر الكتب بسرعة وكثرة ، فقد وجه اهتمامه بعد ذلك إلى تنظيم المكتبة البابوية التى كان سلفـــه العظيم قد أنشأها . فأصدر أمره بجرد كل الكتب التى كانت موجودة بها آنذاك واصلاح التالف منها ووضع كل صنف منها مع ما يضاهيه والصاق ورقة على كعب كل كتاب عليها اسمه واسم كاتبه . ثم اختار خزنة داخل القاعـــة الكبيرة بالقلاية البابوية ووضع بها دواليب من الخشب مرتكنة إلى جهتيها القبلية والبحرية ، فرتب واحداً وعشرين دولاباً على هذا النحو[2] .

وعلى الرغم من نشاط البابا المرقسى وهمته فى نشر العلم بمختلف الوسائل فقد افتتح الكاثوليك مدرسة خاضعة لرعاية الرهبان الفرنسيسكان[3] . فما عنرم آنذاك فى فتح هذه المدرسة إن لم يكن غير السعى وراء اقتنـاص أولاد القبط ومنـافسة راعيهم الساهر عليهم ؟ ومن الواجب على كل قبطى أن يتمعن فيما قاله أندرو واطسن : « كان سعيـــد أميراً طيباً مستنيراً . . ولم يأت وقت منذ ألف ومائتى عام أكثر ملاءمة للعمل التبشيرى . . فهـــذا الأمير هو القديس الحامى للارسالية الامريكية . . . »[4] .

---

(١) « وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب » ٢ صموئيل ٦ : ١٤ .

(٢) توفيق أسكاروس . . . ج ٢ ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٣) جرجس سلامه . . . ص ٤٣ .

(٤) وليم سليمان : « الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية » حيث يورد نص قول واطسن « Andrew Watson " The American Mission in Egypt,

٢٢٦ - ولقد أدرك أبو الاصلاح فى الوقت عينه أن الكاهن الواعى لمسئوليته الخادم الشعب هو دعامة الحياة الروحية . فكان يعقد اجتماعات أسبوعية يلتق فيها بكهنة القاهرة ، يستمع إلى اقتراحاتهم واختباراتهم وشكاواهم ، ويناقشهم فى العقيدة وفى الرعاية . فقد كان موقناً ، بأن الاصلاح الشامل ينبغى أن يبـــدأ برجل الدين وينتهى إلى الطفل ، كما يبدأ بالطفل وينتهى إلى رجل الدين . فالاصلاح الحقيق إذن يجب أن يسير فى الاتجاهين معاً لا فى اتجاه واحد ... لقد انتصر أبو الاصلاح القبطى للعلم ، العلم للولد والبنت ثم العلم لرجل الدين . فكان جميلا

= 1854 – 1896 " p. 333 where he says that "Saiid Pasha was the Patron Saint of the American Mission".

ومما يجدر ذكره أن سعيد باشا هو الذى منح دلسبس امتياز حفر قناة السويس : منحه له خلال رحلة صحراوية من غير تمحيص ولا تفكير . وقد علق دلسبس نفسه بشىء من السخرية على هذا الواقع فقال : « جمع سعيد باشا قواد جنده وشاورهم فى الامر ، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخنادق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف انحازوا إلى جانبى ، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع بادروا إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه ، وكانت النتيجة أن منحنى الباشا ذلك الامتياز العظيم » من كتاب دلسبس « أصول قناة السويس » ص ١٠ أوردها عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « عصر اسماعيل » ج ١ ص ٦٠ . ولقد أسرف سعيد باشا فى التساهل مع صديقه الفرنسى حتى لقد خول للشركة التى ألفها مزايا تجعلها تشارك الحكومة المصرية فى حقوق ملكيتها العامة وسيادتها . ولقد شهد الاجانب أنفسهم بفداحة الثمن الذى دفعته مصر فى حفر القناة فيقول مسيو كوشيرى (Cocheris) الفرنسى مثلا — « إن بدء الارتباكات المالية والتدخل الاوروبى المشئوم فى شئون مصر يرجع فى الحقيقة إلى سنة ١٨٥٤ وهى السنة التى منح فيها امتياز قناة السويس الى المسيو دلسبس » — من كتابه « المركز الدولى لمصر والسودان » ص ٦٧ ، أنظر أيضاً : عبد الرحمن الرافعى (شرحه) ج ١ ص ٥١ — ٦٩ . ولقد أحس سعيد باشا بعد ذلك بالارهاق والعسر فأخذ يتململ ويقول للائميه ومؤاخذيه : « إنما أعطيت الامتياز بلا ترو لصديق وهو فرنساوى فخاطبوه أو خاطبوا حكومته . أما أنا فلا أستطيع سحب امتياز أعطيته » . من كتاب « تذكارات أربعين عاماً » لفرديناند دلسبس أورده الياس الايوبى فى كتابه « تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا » ج ١ ص ٢٤٢ — فما أشبه موقفه بموقف هيرودس حين أمر بقطع رأس يوحنا المعمدان ارضاء للبنت التى رقصت أمامه ! (مرقس ٦ : ١٧ — ٢٩) .

ببطريرك روحانى أن يرفع من قدر العلم ويعلى منارته ... وقال الرب يخاطب الكهنة على فم هوشع النبى قد هلك شعبى لعدم المعرفة . فبما أنك رفضت المعرفة أرفضك أنا أيضاً فلا تكون لى كاهناً ... »[١] . وكان يركن فى توجيه المناقشات الأسبوعية للكهنة إلى القمص جرجس ضبيع[٢] خادم كنيسة دير الملاك البحرى (بحدائق القبــــة) الذى كان متضلعاً فى العلوم العقيدية وكتب كتاباً بعنوان « المختصر فى تعليم دين المسيح المنتصر »[٣] .

ومما يجدر ذكره أن الأنبا كيرلس كان صديقاً لكثير من علماء الأزهر وللأستاذ الأكبر ، وكان يعقد حلقات مذاكرة ومناظرة علمية مع كبار العلماء فى جو من الألفة والمحبة والسماحة والكرامة ، وكان السادة العلماء يبادلونه حباً بحب[٤] .

٢٢٧ ـ وبعد ذلك وجّه انتباهه إلى الأوقاف وإدارة البطريركية فأنشأ لها ديواناً . وعهد إلى المسئولين عن الأوقاف بمراجعة دخلها وخرجها وتقديم التقارير عنها . وعين لرياسة هذا العمل إبراهيم أفندى خليل . وإلى جانب هــــذا العمل الإدارى أنشأ قسماً يختص بالأعمال الدينية والشرعية تحت رعاية أحد الكهنة ورياسة مطران مصر . كذلك أمر بإنشاء سجلات لحصر جميع الأوقاف بهما من واقع الحجج الموجودة وأشرف بنفسه على هذا العمل .

---

(١) من خطاب دكتور وهيب عطالله (الآن نيافة الانبا أغريغوريوس) فى حفل الذكرى المئوية الاولى لابى الاصلاح ص ٢٠ ، هوشع ٤ : ٦ .

(٢) هذا القمص والد لارخن معروف هو حنا بك جرجس ضبيع من رؤساء حسابات المالية ـ توفيق أسكاروس ... جـ ٢ ص ١٣٨ .

(٣) نرى من عنوان هذا الكتاب أنه كان من بين كهنة القبط (لا رؤساء كهنتهم فقط) من اشتغل بتوضيح العقيدة لشعبه فهم جاهدوا على مختلف المستويات . وهنا يجب أن نذكر أن ذاك الذى لا ينسى كأس ماء بارد لن ينسى تعب أولئك المجاهدين ـ بل إننا لنرى تذكره اياهم فى هذه النهضة التى نعيشها الآن .

(٤) من خطاب عبد الحليم الياس نصير فى حفل الذكرى المئوية الأولى ... ص ٦٩ .

٢٢٨ - ثم حدث أن قام نزاع بين حكومة مصر وحكومة الحبشة على الحدود الفاصلة بين الدولتين إذ كان سلطان مصر آنذاك يشمل القطر السوداني بأكمله. فرأى محمد سعيد باشا أن يوفد الأنبا كيرلس ليتفاهم مع النجاشي لما له من دالة بوصفه الأب الروحي للأحباش وبالطبع لبى البابا المرقسي طلب الوالي رغم ادراكه لوعورة السفر التي اختبرها حين سافر قبل بابويته. وكان سفره مفاجئة لأولاده إذ لم يعلموا به إلا عند قيامه. وقد جهز له سعيد باشا سفينة وأوفد معه اثنين من الأغوات الترك. فكانت فرصة انتهزها أبو الاصلاح المتطلع دوماً إلى المعرفة ليتعلم منهما اللغة التركية خلال السفر.

وكان لجوء الوالي سعيد إلى البابا كيرلس الرابع من أجل احلال الصداقة بين الحكومتين المصرية والحبشية محل العداء، وتجنباً لنشوب حرب بينهما، أمراً طبيعياً يتمشى تماماً مع السياسة التقليدية التي جرت عليها الحكومات المصرية من قبل كما يتوافق مع الدور الذي لعبتـــه الكنيسة القبطية وما زالت تؤديه بين أبنائها المختلفين [١].

٢٢٩ - ولقد كان الانجليز حاقدين عليه لانتصاره عليهم في سفره الأول للحبشة فرأوا أن ينتهزوا الفرصة ليوقعوا برجل الله. فأوعزوا إلى سعيد باشا أن يذهب على رأس جيشه إلى الخرطوم لأن البابا قد ينضم إلى النجاشي في مطالبه لكونه من أبنائه. وفي الوقت عينـــه قالوا لثيودورس امبراطور الحبشة بأن البابا إنما جاء ليخدر أعصابه ويهيء الفرصة لسعيد باشا لأن يحتل ما يريد احتلاله من الحدود الحبشية. وكان ثيودورس هذا رجلا عنيفاً مندفعاً لا يعرف الاعتدال

---

(١) شرحه لزاهر رياض ص ٣٨، قارن بين هذه الوساطة وبين ايفاد الخليفة المستعلي الأنبا ميخائيل الرابع إلى النجاشي لمفاوضته في أمر مياه النيل في الربع الأخير من القرن الحادي عشر - أنظر ما جاء من هذا الموضوع في ج ٣ من هذا الكتاب ص ١٢٦ - ١٢٧.

فى أى شىء . فهو حين سمع باقتراب الانبا كيرلس من حدوده خرج لاستقباله فى موكب حافل على مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة . ثم دخل به إلى مملكته فى هذا الموكب الوجيه ولم يكد الأب البطريرك يفاتح الامبراطور فى المهمة التى جاء من أجلها وهى ايقاف اعتداء الأحباش على الأملاك المصرية وتعيين الحدود بصفة نهائية حتى أبدى استعداده للاستجابة وحرر مشروع اتفاق بالصلح لتوقيعه . وزاد على ذلك بأن طلب خبراء مصريين لصنع الأسلحة لجيشه [1] . ولكن ما أن سمع كلام الوشاة ووجد أن الجيش المصرى قد وصل فعلا إلى الخرطوم حتى تطاير غضبه وقبض على البابا وألقاه فى سجن منفرد وأبعد عنه كل مرافقيه . بل لقد بلغ به الغضب أنه كان يريد أن يقتله . إلا أن الله تعالى أقام لصفيّه من الملكة مدافعاً ، فهى قد طلبت إلى زوجها أن يتمهل قائلة : « انتظر لنتأكد من صحة هذا الكلام . فالرجل مسجون وهو تحت أمرك ويمكنك قتله فى أى وقت . أما إن قتلته ثم ثبت كذب هذه الأقوال فلن تستطيع اعادته إلى الحياة » . ووافقها شيوخ المملكة فانصاع ثيئودورس لمشورتهم . ثم تمكنت الملكة أيضاً أن تحصل على الإذن لرجل الله بالكتابة فأرسل من سجنه رسالة إلى محمد سعيد يرجو منه مغادرة الخرطوم لأنه نجح فى وساطته [2] . فسمع الوالى لطلب البابا وعاد بجيشه إلى القاهرة . وعند ذاك أدرك ثيئودورس خطأه . وباندفاعه المعتاد ذهب إلى البابا حاسر الرأس حافى القدمين ، ثم سقط عند قدميه يقبّلهما ويطلب الصفح عما بدر منه . وفى الحال قبّل البابا رأس الملك النادم . ثم جىء إليهما بورقة سجل فيها الامبراطور عهده بالحدود التى حددها أبو الاصلاح ووقع عليها وسلمها له وما أن أخذ البابا وثيقة التعهد الملكى حتى استأذن فى العودة . فحمله ثيئودورس الهدايا

---

(١) من خطاب زاهر رياض فى حفل الذكرى ... ص ٤١ .

(٢) لقد شابه كيرلس الرابع سميه الأول الذى كتب من سجنه رسالة إلى ثيئودوسيوس الصغير ، أنظر ج ١ من هذا الكتاب الفصل المعنون « عامود الدين » .

التهنئة له ولسعيد باشا وطلب منه البركة . ثم أرسل معه كاهنه الخاص ووزيراً من وزرائه ليحملا فى عودتها نص الوثيقة بعد أن يوقع عليها سعيد باشا ووصل أبو الاصلاح إلى القاهرة بعد غيابه عنها سنة ونصف . وامتلأت القلوب فرحاً بعودته فسار موكب من الكهنة والشمامسة بملابسهم الكهنوتية رافعين الصليب جهاراً يتبعهم العلمانيون . وأقيمت الولائم ووفدت الوفود من مختلف الجهات لتهنئته بسلامة العودة . وهكذا فشل الانجليز للمرة الثانية أمام صمود رجل الله واخلاصه . ولكنهم ظلوا على حقدهم وظلوا على مناصبتهم العداء له فاستشاروا الباشا بما وصفوه له من مظاهر الترحيب والتبجيل التى أبداها له الشعب . فاستدعاه وسأله عن الموجب لرفع الصليب فى الشوارع . أجابه بأن الاذن فى رفعه كان قد صدر من محمد على باشا نفسه منذ حادثة الشهيد سيدهم بشاى على أن البابا استشف ببصيرته أن سعيد باشا قد تغير من نحوه .

ولقد زعم بعض القبط ـ بعد أن أبرمت المعاهدة بين حكومتى مصر والحبشة ـ أن الاحباش قد يكونون قوة تساندهم ، وبالفعل أعربوا عن زعمهم هذا للبابا كيرلس . ولكنه قال لهم : « يجب أن تدركوا أن الاعتماد على الله وحده . فالأحباش مع كل انتفاعهم منا يطمعون فى المزيد » . ثم وصف لهم كل ما ألحقوا به من اهانات وكل محاولاتهم للاستيلاء على دير السلطان .

٢٣٠ ـ على أن امتعاض الباشا لم يقف حائلا دون سير البابا فى متابعة مجهوداته الاصلاحية فقد قطع على نفسه العهد بخدمة أبنائه إلى النفس الاخير . ومع أنه قال « أن الاصلاح يحتاج إلى عمر متوشالح وصبر أيوب » ، فإنه اندفع فيه بقوة وباستعجال لعله ينجز أكبر مقدار منه كأنما أحست روحه بسرعة الأجل . فسأل أولا ـ بعد عودته ـ عن المدارس واطمأن إلى حسن سيرها . وكان قد استأمن المعلم برسوم واصف عليها فى غيابه . وأنه لجدير بنا معشر القبط

الاعتزاز بأن باباواتنا لم يكتفوا بعدم الادعاء بالعصمة بل لقد بلغ بهم التواضع إلى حد أن الواحد منهم كان يعترف بخطأه جهاراً دون تردد ودون زعم باطل بأن مثل هذا الاعتراف ينقص من قيمته . ومما يؤثر عن أبى الاصلاح أن وشى الواشون بالمعلم برسوم واصف لديه وأحس هذا الأرخن بأن باباه غاضب عليه. فرأى أن يصلى فى كنيسة الأرمن بازاء هذا الغضب . ولاحظ الأب الواعى غياب ابنه . فكتب إليه لساعته . ومما جاء فى خطابه هذه الكلمات : « . . . تحريت عن الموضوع فوجدت نفسى مخطئاً ومغشوشاً فارجو مسامحتى لأننى لم أكن معصوماً عن الخطأ إذ لم أخرج عن كونى بشرياً . الحقير كيرلس » . ثم عاد فكتب له ثانية وقال له : « . . . وإن كان الأوفق حضوركم عندنا بوقت معلوم لنتكلم شفاهياً عن ارادتكم وطلبكم ولا يكن عندكم فكرة من قبلنا وما تغيير قلبنا والكلام المذكور ماقلناه أبداً وإن كنا قلنا شيئاً فهو ليس مغايراً للطبيعة بل نحن وانتم بشر وأنا الواحد خاطىء وربنا يرحمنا جميعا . الحقير كيرلس [1] » . وبهذا التواضع العجيب صالح ابنه . ومما لاشك فيه أن مثل هذا التواضع لا يصدر إلا عن قلب يفيض محبة ، وهو يزيد من كرامة البابا فى النفوس .

ولم يقتصر تواضعه على اعترافه بخطأه فقط بل كان يرفض سجود الناس له حين يتقدمون للسلام عليه قائلا لهم : « هل أنا صنم جئتم لتسجدوا له » ؟ ! وإذا ما كان وقت التبخير أثناء الشعائر الدينية وتقدم إليه الكاهن به كان يقوم إكراماً لهذه الخدمة قائلا بأن الغرض من تقدم الكاهن بالبخور إليه هو رجاء صامت بأن يطلب (البابا) إلى الله أن يقبل البخور من الكاهن الخديم . وأن البخور

---

(١) جرجس فيلوثاوس عوض : أبو الاصلاح ص ١٨١ - ١٨٢ ، وراجع أيضاً سيرة البابا ثيوفيلس الكبير فى ج ١ من هذا الكتاب بعنوان : « يشيم من منصب يحتلى السدة المرقسية » .

الذى هو صلوات القديسين حينما يمر الكاهن به أمام الايقونات إنما هو لنفس الفرض . وفى الوقت عينه يمرّ به وسط الشعب مبخراً إياه لهدفين : الاول رجاه إلى الله بأن تشمل صلوات القديسين الشعب المجتمع بالكنيسة ، والثانى أن يرفع هؤلاء المصلون ابتهالاتهم لتمتزج بصلوات القديسين فتتألف من ضراعات الكنيسة المنتصرة والكنيسة المجاهدة وحدة مترابطة من التقرّب إلى عرش الله . لحقاً إن هذا الأب كان قائداً وقدوة معاً .

٢٣١ - ثم رأى ضرورة تجديد الكنيسة المرقسية بالازبكية ليجعلها لائقة بصدارتها . وبالفعل كان يوم الخميس ٢٩ برمودة سنة ١٥٧٥ ش الموعد الذى حدده لوضع الحجر الاساسى للبناء الجديد بعد هدم القديم . وقد دعا للاحتفال به رؤساء الكنائس وكبار رجال الحكومة فلبوا دعوته . وكان احتفـــالا له روعتـــه .

٢٣٢ - ومن طريف ماحدث له أنه كان جالساً ذات صباح فى حوش الكنيسة المرقسية يرقب البنّائين ويستحثهم على سرعة العمل وإذا بمندوب البابا الرومانى يدخل عليه ومعه يوحنا صرة (المترجم الاول بالقنصلية الانجليزية) ومن دون سابق موعد . وكان الهدف من هذه الزيارة المفاجئة هو أن يعرض المندوب الرومانى على البابا المرقسى انضواءه تحت لواء البابوية الرومانيـة . فبعد أن أمر أبو الاصلاح باحضار المرطبات والقهوة لضيفيه انشغل عنها بالمطالعة فى انجيل كان معه إذ كان قد استشف الهدف الرومانى من الزيارة قبل أن يفوه الزائر بكلمة فسأله يوحنا صرة عما يفعـــله . أجابه : « أنت ترى أنى منشغل باقامة كنيسة جديدة بدلا من القديمة . وقد نفد المال الذى معى . فأشار علىّ بعض أحبائى أن أحذو حذو بابا رومية فأبيع صكوك الغفران وبذلك أحصل على مبالغ

طائلة أستكمل بها كنيستى بسرعة . ولكننى آثرت أن أبحث عن آية فى الإنجيل تبرر هذا العمل قبل أن أقدم عليه . فما دمتما قد جئتما الآن يمكننى الاستعانة بكما بدلا من اضاعة الوقت فى البحث عن الآية المطلوبة » . وترجم يوحنا مسرة الكلام البابوى إلى أن وصل إلى الجملة الأخيرة لحار فى أمره وسكت . وبالتالى لم يجرؤ على مكاشفته بسبب الزيارة وانصرف الاثنان لساعتها [١] .

٢٣٣ - ولقد كان البابا كيرلس الرابع يتمتع بمكانة ممتازة عند بطريرك الروم الارثوذكس - واسمه كالينيكوس - إلى درجة أن هذا البطريرك ائتمنه على رعاية شعبه عندما سافر لقضاء بعض الوقت فى أثينا .

كذلك حدث أن استدعاه سعيد باشا ذات يوم ليعرض عليه مشكلة خاصة بالسيدة حرم أسكاروس أفندى قسيس صهر باسيليوس بك (ابن المعلم غالى) وقال له : « إن هذه السيدة وعائلتها يرغبون فى أن تكون الحكم بينهم ويرتضون بقضائك مع كونهم تابعين للكنيسة الكاثوليكية . والسؤال الذى يرجون اجابته منك هو : هل تعطى المرأة ميراثاً متساوياً كالرجل أو تعطيها نصفه » ؟ فالتفت أبو الاصلاح إلى أصحاب الدعوى وسألهم : « حينما تفعل المرأة الصلاح فهل يعطيها الله تعالى المثوبة من عنده أم لا » ؟ أجابوه : « نعم يعطيها » . فعاد يسألهم : « وهل يكون جزاؤه إياها ناقصاً لانها امرأة » ؟ أجابوه : « طبعاً لا - إنه يعطيها الجزاء الذى تستحقه كاملا » . فقال لهم : « مادام الله يمنح المرأة الثواب

(١) نرى من هذه الحادثة أن كنيسة رومية التى كانت تتذرع أحياناً بجهل الكهنة القبط وأحياناً أخرى بأن القبط ينوءون تحت الاضطهاد لكى تتصيد منهم من تستطيع تصيده قد أقدمت على افتنانها عينه فى هذه الفترة مع وجود رئيس كهنة واع ومع انعدام الاضطهاد !. أما صكوك الغفران فكانت رسائل يمنحها الحبر الرومانى نظير مبالغ طائلة من المال وتتضمن هذه الرسائل تمليك أصحابها لبيت أو لقصر فى الجنة تبعا للمبلغ المدفوع منه - أى أنه يمكن تشبيهها فى عصرنا « بخلو الرجل » - ولكن فى الجنة لا على هذه الأرض .

كاملا أفلا يجدر بمن يؤمنون به أن يعملوا مثله ويطيعوا أوامره ؟ فقبل المحتكمون إليه مشورته وأعطوا أخواتهم حقوقهن كاملة .

ومن دواعي فخرنا أن اهتمام البابا المرقسي بشخصية البنت القبطية لم يقتصر على تعليمها وعلى اعطائها حقها في الميراث فقط بل قرر عدم تزويجها قبل الرابع عشرة من عمرها ، فهو بذلك قد سبق قانون تحديد سن الزواج في مصر بمائة عام . كذلك قرر أن يعترف العروسان اعترافاً صريحاً للأب الكاهن بالرضا التام عن الزواج قبل اتمامه حتى لا يكون إكراه أحد الطرفين سبباً في النزاع والشقاء بعده . ورأى أن يستبدل عقد الإملاك بمجرد التراضي و « الجبنيوت » (أي تلاوة الصلاة الربية) ، لأن الأول عقد يصعب حله إلا تحت ضغوط شديدة ، وقد يؤدي إلى زواج غير مرغوب فيه . أما التراضي فسهل حله . والواقع أنه أقدم على هذا القرار إنصافاً منه للمرأة لأنها هي التي كانت تقع تحت الاكراه في أغلب الأحيان .

٢٣٤ — ولقد هيأ الله لهذا البابا المقدام فرصة تظهر فيها بسالته بأكثر وضوح إذ كان قد صدر فرمان من السلطان التركي في ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ يعرف « بفرمان الاصلاحات الخيرية » يقضي بوجوب المساواة بين رعاياه . فقد نصت الفقرة الثالثة عشرة منه على ما يأتي : « ويكون انتخاب وتعيين خدمة ومأموري سلطنتنا السنية منوطاً باستنساب إرادتنا الملوكية فيصير قبول تبعة دولتنا العلية من أي ملة كانت في خدماتها أو مأمورياتها بحيث يكون استخدامهم في المأموريات بالتطبيق للنظامات المرعية الاجراء في حق العموم بحسب استعدادهم وأهليتهم » . بينما تنص الفقرة الرابعة عشرة على الآتي : « وإذا قاموا بايفاد الشروط المقررة بالنظامات الملوكية المختصة بالمكاتب التابعة لسلطنتنا السنية بالنسبة للسن والامتحانات

يصير قبولهم فى مدارسنا الملكية والعسكرية فلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين » . أما الفقرة الرابعة والعشرين فتقول : « وكما أن مساواة الخراج تستوجب مساواة سائر التكاليف والمساواة فى الحقوق تستدعى المساواة فى الوظائف فالمسيحيون وسائر التبعة الغير مسلمة يسحبون ثمرة قرعة مثل المسلمين ويجبرون على الانقياد للقرار الصادر أخيراً » . كذلك ورد فى الفقرة السابعة والعشرين ما يلى : « وتنتخب أعضاء المجالس الموجودة بالولايات والمديريات من التبعة المسلمة والمسيحية وغيرها بصورة صحيحة ولاجل التأمين على ظهور الآراء الحقيقية سيصير التشبث فى اصلاح الترتيبات التى تجرى فى حق تشكيل هذه المجالس ... » فلما اطلع الانبا كيرلس على هذا الفرمان ذهب إلى سعيد باشا وطلب إليه تطبيقه بالفعل على الاقباط تبعاً لكفاءتهم فهم مصريون تربطهم مع المسلمين رابطة الوطنية والجنسية. كذلك طالبه بقبول الشباب القبط فى المدارس العليا كالطب والهندسة . ولقد زعم البعض أنه إنما ذهب إلى الوالى ليطلب اعفاء القبط من الخدمة العسكرية وسأله عن ذلك . أجاب البابا المصرى الصميم : « حاشا لله أن أكون جباناً بهذا المقدار لا أعرف للوطنية قيمة أو أن أفترى على أعز أبناء الوطن بتجردهم من محبة وطنهم وعدم الميل لخدمته حق الخدمة والمدافعة عنه . فليس هذا ما أطلبه . إنما أطلب المساواة فى الحقوق وبالتالى المساواة فى الواجبات » .

٢٣٥ — ومن مزاعم بعض اللا أرثوذكسيين أنه حين هدم المرقسية القديمة ليقيم مكانها كنيسة تليق بالكرسى الاسكندرى جمع الأيقونات التى كانت تزينها وكوّمها فى كومة واحدة وأشعل فيها النار أمام جمع من الشعب . ثم خطب فيهم وانتهى إلى القول : « ... أنظروا هذه الصور الخشبية التى تعودتم احترامها لدرجة العبادة — ها هى صارت رماداً لا تنفعكم . فالله وحده هو الذى يستحق العبادة والسجود » . وليس من شك فى أن هذه المزاعم باطلة لان أبــا الاصلاح كان

متبحراً فى تعاليم كنيسته القبطية الارثوذكسية ، عارفاً تمام المعرفة أن الايقونات ليست سوى وسيلة فنية تعاون المؤمن على ادراك المعانى الروحية الخفية . فالمؤمن عند تأمله ايقونة مار مرقس مثلا يؤدى تأمله إياها إلى التمعن فى سيرة هذا الرسول وجهاده التبشيرى ثم استشهاده فى النهاية . فالايقونة كما علم آباؤنا نافذة تمكن المتأمل فيها من أن يطل على السماء . ولو كان البابا كيرلس الرابع يعيب على شعبه « عبادة » الصور كما يقولون فلماذا تركها فى كل كنائس كرازته ؟ ولماذا زين بها كنيسة الملاك غبريال التى بناها بحارة السقايين وبنى مدرستى البنات والأولاد فى نطاقها ؟ فلقد جاء فى ختام سيرته أنه كان « شديد الاعتصام بقوانين الكنيسة واعتقادها » . إن أبا الاصلاح حافظ على العقيدة وعلى التقاليد الكنسية الاصيلة - ومنها تزيين الكنائس بالايقونات - فهو لم يتعرض باصلاحاته إلا لما هو سقيم، فداوى الجهل بالعلم وسعى إلى سحق الجبن بالشجاعة .

٢٣٦ - ومن مآثر شجاعته أن أتاه القمص يوسف موسى كاهن كنيسة ميت غمر يشكو من أن أولى الأمر استصدروا فتوى شرعية مؤداها أن باب كنيسته أعلى من المقرر فهدموه . فرجا منه البابا أن يلحق به عند ذى الفقار باشا . وما أن استقر البابا عند مضيفه حتى وافاه الكاهن ، فسأله : « ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ » أجابه : « الحق أنى جئت أشكو لان حكومتى تريدنى أن أجعل باب الكنيسة منخفضاً إلى حد أن الرجل الذى يريد الدخول لابد له من أن ينحنى » . قال له البابا : « عليك الطاعة مادمت محكوماً وليس لك ملك يدافع عنك » .

وما كاد ذو الفقار باشا يسمع هذا القول حتى قام لفوره وقابل سعيد باشا وروى له ما سمع ثم قال : « لا يليق أن نسمع بمثل هذه الامور فى أيام عدلك » . فلم يأمر الوالى بترك الحرية للقمص يوسف موسى ليتصرف فى كنيسته كما يتراءى له فقط ، بل أمر باعادة بناء الباب على نفقة الحكومة . وحينما رأى أهالى دقادوس

ما حدث تشجعوا بدورهم ونقلوا باب كنيستهم من الجهة القبلية إلى الجهة الغربية وجعلوه مرتفعاً إلى درجة لم تكن ممكنة قبل ذلك. كما أن أهالى طنطا والمحمودية قاموا ببناء الكنائس فى مدينتيها وكانوا محرومين منها مدى السنين الطويلة.

٢٢٧ - على أن سعيد باشا رغم وعوده للبابا كيرلس بالنظر فى تنفيذ نصوص الفرمان ماطل فى التنفيذ الفعلى واستشف البابا المرقسى تباعد الوالى وتباطوءه بازائه. فقرر الذهاب إلى دير الانبا أنطونى حيث تشاغل بتعمير بعض مبانيه. وأخذ معه كالينيكوس بطريرك الروم وكذلك بطريرك الارمن الارثوذكس. ذلك لأنه وضع نصب عينيه ايجاد وحدة بين الكنائس الارثوذكسية. وسافر هو ورفيقاه ورجالهم إلى بوش حيث قضوا بعض الايام انتظاراً للقافلة التى توصلهم إلى الدير. وكان مسيو ساباتييه قنصل فرنسا بمصر قد ذهب لمقابلتـــه قبل مغادرته القاهرة وعرض عليه التوسط بينه وبين سعيد باشا إن هو أعطاه تصريحاً بدخول الرهبان اليسوعيين إلى الحبشة. فاعتذر له عن ذلك وغادر القاهرة إلى بوش. فأضمـــر ساباتييه له الشر وأوقع بينه وبين سعيد باشا. هذا من جهة ومن الجهة الاخرى سمع جنرال مورى قنصل انجلترا بسفر الاحبار الثلاثة فرأى أن يستغل الفرصة هو أيضاً للايقاع بأبى الاصلاح الذى انتصر على الدسائس الانجليزية مرتين. فذهب إلى سعيد باشا وأبلغه أن كيرلس ينوى التحالف مع الروم والارمن. فإن نجح فى ذلك دخل الروس ضمن هذا التحالف لانهم مع الروم. وعند ذلك سيصبح كيرلس أقوى سطوة منه نتيجة لمؤازرة روسيا له. وبالطبع صدق الوالى هذه الاراجيف، وبخاصة لان ساباتييه كان قد لمح إلى شىء منها قبل ذلك. فأرسل رسولا إلى مدير بنى سويف يقول له أن يطلب إلى كيرلس العودة حالا لانه فى حاجة إليه. وذهب المدير إلى بوش وأبلغه الرسالة. فقال له رجل الله: «إنى ذاهب مع رفاقى إلى الجبل الشرقى وحينما نعود أذهب إلى الباشا». وخاف المدير

أن يرد على الباشا بهذا الرد فقال البابا : « اكتب بخطك هذا الكلام الذى تقوله » . فكتب له الرد ووقع عليه وأرسل المدير هذا الرد المكتوب إلى سعيد باشا مع رسوله . فتزايد حنق الباشا على الأنبا كيرلس وأضمر له السوء من تلك الساعة . وهكذا نجد أن فرنسا وانجلترا - كليهما - ساهما بنفوذهما على ايقاع الأذى برجل الله لا لسبب إلا لأن كلا منهما وجـــد فى كيرلس الرابع رجلا قوى العزيمة يستهدف النهوض بالشعب المصرى عامة وبالشعب القبطى خاصة ، كما يحرص الحرص كله على استقلال كنيسته والشعب الناهض لا يسهل استعباده . وهما يبغيان استعباد شعب مصر والسيطرة حتى على حاكمه . إذن فليسقط كيرلس الذى يروم العلا لهذا الشعب . ومن حسن حظهما أن سعيد باشا كان رجلا من السهل استثارته والتأثير عليه وبخاصة لأنه كان ميالا جداً إلى الاوربيين . فلعب كل منهما دوره فى هذه المأساة دون تردد ولا تراجع . وما دام الهدف هو امتداد نفوذ فرنسا أو نفوذ انجلترا فلماذا التردد ؟ هل لأن الرجل الواقف فى طريقهما هو بابا الاسكندرية ؟ ولكن كلما عظمت مكانته كلما كان انتصارهما مضاعفاً . وبهذه الأفكار فى ذهن كل منهما على حدة التقيا عند هدف واحد هو إثارة الحقد والضغينة فى قلب سعيد باشا على الرجل الذى كان يوقره ويثق به إلى حد ائتمانه على التصالح مع الحبشة والذى كانت مساعيه سبباً فى حقن دماء المصريين والأحباش بتفادى الحرب التى كانت واقعة حتماً لولا وساطته .

٢٣٨ - وقضى أبو الاصلاح ورفقاؤه ستة أشهر بالدير . وما كاد يصل إلى القاهرة حتى جاءه رسول من الوالى يستدعيه إلى القصر . ولما لم يلبِ الرسالة جاءه رسول ثان فثالث . فلم يجد بدأ من الذهاب وبعد ساعة عاد إلى الدار البابوية مهموماً إذ كان قد فهم من حديث الأغاوات بالتركية أنهم دسوا له السم فى فنجال

القهوة فرفض أن يشربه [١]. ولكن غمه النفسي بلغ به حداً جعل الحمى تصيب جسمه. ولما سمع الوالي بذلك أدعى الأسف لمرض رجل الله فأرسل إليه طبيبه الخاص وكان فرنسياً. إلا أن البابا رفض دواء هذا الطبيب الموفد إليه عن يضمرون له السوء. وحين علم سعيد بهذا الرفض استعان باثنين من أخص أصدقاء البابا ليكونا بمثابة يهوذا الاسخريوطي وأوفدهما إليه ومعهما الطبيب الفرنسي ذاته. وهذان «الصديقان» هما وكيل بطريركية الارمن والخواجة يوحنا مسرة [٢] اللذين قصدا إليه للسؤال عنه وبصحبتهما الطبيب الذي امتدحاه وطلبا إلى رجل الله النزول على نصيحته لأنه موثوق به. فصدق مشورتهما ارتكاناً إلى صداقتهما وتناول الدواء من الطبيب «الموثوق به». وما أن استقر الدواء في معدته حتى أدرك أن صديقيه قد غدرا به - مضيفين غدرهما إلى غدر القنصلين والوالي. وأحس بالمنية تدب إلى جسمه. وما كاد الزمن يصل إلى ليلة الأربعاء ٣٠ يناير سنة ١٨٦١ حتى استودع روحه يدي الآب السماوي فلم تدم باباويته غير سبع سنين وثمانية أشهر [٣]. وعلى ذلك فالبابا كيرلس الرابع قد نال إكليل الشهادة

---

(١) يقول البعض أن الفنجال المسموم وقع من نصيب وكيل البطريركية الذي ما أن عاد إلى بيته حتى بدت عليه أعراض التسمم ومات في نفس الليلة. فأدرك أنه هو الذي كان مقصوداً وأن السهم طاش.

(٢) حلبي الأصل استقر بمصر عقب الاضطهادات التي اشتدت على الروم الكاثوليك في مطلع القرن التاسع عشر واشتغل ترجماناً في السفارة الإنجليزية. ومن الغريب أنه كما زعمت مسز بوتشر أن أبا الإصلاح تعلم في مدرسة انجليزية وفيها تلقن الرغبة في النهوض بشعبه زمن هذا الحلبي أنه هو الذي أشار على هذا البابا المرقسي بإنشاء كلية لتهذيب النشء القبطي فأصغى لمشورته! ترى هل لهذا السبب خانه في النهاية؟! - توفيق أسكاروس ج ٢ ص ١٩٠-١٩١.

(٣) هناك تشابه كبير بين أبي الإصلاح وسميه الثالث: فكلاهما الراهب داود وكلاهما البابا كيرلس. وكان كيرلس الثالث متضلعاً من العقيدة كتب الرسائل المستفيضة لأولاده في الحبشة وفي دمشق، وأنشأ مطرانية القدس ورسم لها أول مطران باسم باسيليوس (أيضاً). وازدهر عصره بالعلماء من الأساقفة والأراخنة. ودامت باباويته سبع سنين وتسعة أشهر (راجع ج ٣ من هذا الكتاب الفصل المعنون «مياه معكرة» ص ٢٠١ - ٢٢١). بينما وجدنا أبا الإصلاح ولوعاً بالعلم مشجعاً له، ودامت باباويته سبع سنين وثمانية أشهر. فحقاً إن الحياة لا تقاس بالأيام والليالي.

وانضم إلى ذلك الجمهور الوفير من أولئك الذين جادوا بدمائهم فى سبيل عقيدتهم فزادوها ازدهاراً فى القلوب .

٢٣٩ - ولقد كانت لموته رنة أسى دوت فى أرجاء الوادى من شاطىء البحر الابيض إلى النوبة فالسودان والحبشة ، إذ وجد فيه الجميع أباً عطوفاً ساهراً وبخاصة المنقطعين وذوى البيوت المستورة . وكان تجنيزه باحتفال مهيب اشترك فيه كبار رجال الدولة ورؤساء الكنائس المختلفة . ومن العجب بمكان أن وكيل البطريركية الأرمنية الذى ساهم بنصيبه فى التعجيل على أبى الاصلاح قد رثاه وسط الجمع الحاشد باللغة التركية !

وبعد الانتهاء من الشعائر الكنسية ذات الرهبة الخاصة دفنوه فى مقبرة جديدة كان قد أعدها لنفسه تقع ما بين الكنيسة الكبرى التى لمار مرقس والكنيسة الصغرى المجاورة لها والتى لاسطفانوس أول الشهداء[1] .

وهكذا مرت باباوية الانبا كيرلس الرابع مروراً سريعاً ولكن آثارها مازالت باقية - ومازالت ذكراه تبعث فى النفوس هزة هى مزيج من الأسى والغبطة ، كما تنفخ العزيمة داخل كل نفس متطلعة نحو ازدهار الكنيسة والتسامى بالروح .

٢٤٠ - لم تصل هذه المطبعة التى كان البابا كيرلس الرابع يريد أن يرقص طرباً إلا فى أواخر باباويته إذ لم تمهله الايام لينعم بإنتاجها . وبعد استشهاده ظلت معطلة إلى أواخر رياسة خلفه البابا ديمتريوس الثانى . وعند ذلك تقدم إلى قداسته أخوان هما رزق بك لوريا[2] وأخوه أبراهيم جرجس لوريا وطلبا إليه

(١) أبو الاصلاح لجرجس فيلوثاوس عوض ؛ نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر لتوفيق أسكاروس ج ٢ ص ٦٠ - ١٩٧ .

(٢) « لوريا » اسم تاجر أخشاب ايطالى كان رزق بك شريكاً معه فى تجارته . وحدث أن ترك لوريا القطر المصرى وعاد إلى بلاده . فاستقل رزق بك بالشركة وشاع عنه اسم رزق لوريا . وبمثل هذا المزج قد حدث لعدد من الأقباط مثل المعلم يوسف الالفى والمعلم منقريوس المورلى ...

استعارة المطبعة لاستخدامها فيما يعود بالنفع على القبط فقبل طلبهما . فنقلاها من الدار البابوية إلى دار وقف الأنبا أنطونى . ثم وجدا أن الحروف غير كافية لعمل فكانا حفاراً ماهراً اسمه موسى محمد يعمل قاعدة للحروف، فأنجز لهما قاعدتين : الكبيرة لطبع الكتب الكنسية والصغيرة لطبع الكتب الأخرى .

ثم حدث أن شب حريق فى متجرهما فتركا الاتجار بالخشب وانصرفا إلى تشغيل المطبعة . وأول ما طبعوه « القطارس » (أى فصول العهد الجديد التى تتلى فى الكنائس « مرتبة على أيام السنة » ، تبعته خطب أولاد العسال ومواعظهم .

ثم طرأت على خاطر رزق بك فكرة كانت من غير شك من وحى الروح القدس - وهى اصدار جريدة أسبوعية . فذهب هو وأخوه إلى ميخائيل عبد السيد [1] وتفاهما معه على تأسيس الجريدة المرغوب فيهما وتسميتها بجريدة الوطن [2] وبالفعل تم الاتفاق بين ثلاثتهم وانتخبوا لجنة لإدارة الجريدة تحت رياسة ميخائيل الذى أصبح رئيساً للتحرير يعاونه جرجس افندى ميلاد ناظر المدرسة الانجليزية سابقاً ويصى بك عبد الشهيد الذى كان قاضياً فى المحاكم الأهلية ومعها تادرس بك ابراهيم الذى كان قاضياً هو أيضاً . واختص ابراهيم لوريا بالادارة وأخوه رزق بمباشرة طبع الكتب الدينية . وفى سنة ١٨٧٥ نقلت المطبعة من مكانها إلى بيت الوقف فى شارع كلوت بك ثم أصبحت تعرف باسم « مطبعة الوطن القديمة » سنة ١٨٨٣ .

ونجحت الجريدة كما أخذت الكتب فى الانتشار فرأى رزق بك وأخوه ابراهيم وجوب انشاء مكتبة تكون مركزاً لبيع الكتب وترويجها بسهولة .

---

(١) هو أحد القبط الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة الذين تعلموا فى الأزهر .

(٢) من المهم أن نعرف أن جريدة الوطن سبقت جريدة الأهرام - أى أنه حتى فى ميدان الصحافة كان للقبط قصب السبق .

فأسسوها على هيئة شركة تتكون منها ومعها ميلاد جرجس وميخائيل عبد السيد وحنا خير وبسى عبد الشهيد . وقد استمرت هذه المكتبة مفتوحة إلى أن تتيح ابراهيم لوريا ، وكانت معروفة آنذاك بكتبخانة الوطن . ومن الكتب التى طبعت : كتاب روضة الفريد وسلوة الوحيد لابن كابل ، الخولاجى وما يستتبعه من كتب خدمة الشماس ، والاكليل والمعمودية ، وكتاب الصحيح فى آلام المسيح للعلامة بطرس السدمنتى ، والقول الصريح فى تثليث الاقانيم وتجسّد المسيح وتفسير رسالة رومية لابن كاتب قيصر ، والأجبية ، ومزيل الغم لايليان مطران نصيبين ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وكتاب الأحكام السلطانية ، وحسن المحاضرة ، والذريعة فى أصول الشريعة ، وقوانين الدواوين ، ومطالع البدور ، [1] وغيرها من الكتب العلميــة والطبية . وبالاضافة إلى كل هذه الكتب العربية فقد أبدى رزق بك وأخـوه ابراهيم عناية خاصة بالحروف القبطية واستحضار واعداد قوالب وعدد لصبها . فنجحا أيضاً فى نشر عدد من الكتب بالقبطية .

وكان لابراهيم لوريا ولدان هما حبيب وتادرس . هذان استلمــا العمل بالمطبعة بعد وفاة عمها وأبيهما وظلاً فى هذا الجهاد المثمر إلى ٢١ اكتوبر سنة ١٩٠٣ حين أمر أرمانيوس بك حنا مراقب البطريركية القبطية باستعادتها . ولما تسلمها باعها على أنها حديد خردة بجنيهات قليلة [2] ، لحق قول الرب عليه « مادخلتم و الداخلون منعتموهم » . لانه حتى لم يحتفظ بها كأثر من آثار أبى الاصلاح ليكون

---

(١) يتبين لنا من هذا السجل غنى الفكر القبطى وتنوع إنتاجه ، كما يتبين لنا أن القبط والوا الكتابة على مختلف العصور .

(٢) جرجس فيلوثاوس عوض : « أبو الأصلاح » ص ١١٨ – ١٢٤ ، توفيق أسكاروس ، ج ٢ ص ١٥٢ – ١٥٥ .

مرآها حافزاً لكل ساع نحو المعرفة . وخدمت المطبعة فى جيلها ، أيضاً ، ومن يدرى فقد كان من الممكن أن تستمر فى الخدمة مدة أطول . والعجيب أنها شابهت من اشتراها : فهو قد تآمر عليه البعض فكانوا السبب فى تقصير سنى جهاده ، وهى قد « اغتالها » ارمانيوس بك حنا فلم يتركها فى أيدى مستثمريها بل أخذها منهم لا لشىء إلا ليبيعها خردة ! ولكن الله الذى لا ينسى تعب المحبة قد جعل الرجل الذى اشتراها ملء السمع والبصر حتى الآن كما جعل ذكراه تعطر الأرجاء أما هى - المطبعة - فما لاشك فيه أن الكتب التى صدرت عنها والجريدة التى انتشرت بواسطتها : هذه وتلك كانت سبباً فى نشر الثقافة القبطية واستنهاض الهمم وتحريك الانظار نحو فجر جديد . حقاً إن الله عجيب فى قديسيه .

٢٤١ - أما المدارس التى افتتحها أبو الاصلاح فهى : - المدرسة الكبرى للبنين - فى ساحة الكنيسة المرقسية بالأزبكية ، ٢ - مدرسة للبنات بجوارها (أغلقت بعد حياته) ، ٣ - مدرسة البنين بحارة السقايين ، ٤ - مدرسة البنات بالحى عينه ، ٥ - مدرسة المنصورة للبنين (بمدينة المنصورة - أغلقت بعد حياته)، بالاضافة إلى المدرسة التى كان قد أنشأها بعزبة دير الانبا أنطونى ببوش ، والمكاتب العامة فى كل دير لتعليم الأهالى إلى جانب الرهبان .

ونورد هنا بعض كبار الشخصيات الذين تخرجوا من مدارس أبى الاصلاح لضيق المقام عن ذكرهم كلهم : أولا - خريجى المدارس الكبرى : ١ - محمد توفيق الساوى باشا من كبار موظفى الدولة ، ٢ - عبد الحميد مصطفى باشا وكيل المالية ، ٣ - محمود عبد الرازق باشا وكيل الداخلية ، ٤ - الدكتور سيد كامل سكرتير عام بنك مصر ، ٥ - عبد الكريم رؤوف بك المحامى ، ٦ - المستشار أحمد شرف الدين بك ، ٧ - اسماعيل زهدى المحامى ، ٨ - حسن كامل الشيشينى

باشـــا مدير عام بنك التسليف الزراعى . وهم ممن ثاروا على تشدد المستشار الانجليزى دنلوب فأمر باخراجهم من المدارس الأميرية فرحبت بهم مدارس القبط وبالتالى تعلموا فيها .

٩ - المستشار مينا بك ابراهيم ، ١٠ - اسماعيل باشا حسنين وكيل وزارة المعارف (التربية والتعليم الآن) ، ١١ - المستشار سليمان بك يسرى ، ١٢ - وهبى بك تادرس الشاعر ومدير المدارس القبطية (تعلم فى الأزهر أيضاً) ، ١٣ - ميخائيل عبد السيد الأديب ورئيس تحرير جريدة الوطن ، ١٤ - باسيلى بك روفائيل الطوخى من أعلام اللغة القبطية ، ١٥ - يعقوب بك نخلة روفيلة المؤرخ ، ١٦ - ابن عمه برسوم بك جريس روفيلة كان قاضياً بالمحاكم الأهلية ، ١٧ - حبشى بك مفتاح من كبار موظفى السكة الحديد ، ١٨ - المستشار حنا باشا نصر الله الذى اشتغل فى المالية أولا ثم مستشاراً فى الاستئناف الأهلى ، ١٩ - تادرس افندى حنا الجيزاوى الذى كان باشكاتباً لعنابر السكة الحديد ثم عين ضمن التلغرافجية لخدمة ملكة فرنسا أيام افتتاح قناة السويس ، ٢٠ - برسوم بك يعقوب رئيس قلم تفتيش الصيارف ، ٢١ - فرج بك جودة كان من كبار موظفى مصلحة الفنارات بالاسكندرية وله خدمات جليلة لمدرسة الأقباط بهذا الثغر ، ٢٢ - ميخائيل افندى فهمى كان مترجماً فى نظارة الحقانية (وزارة العدل الآن) ومن المقربين إلى شريف باشا الفرنساوى ، ٢٣ - حبيب فرج مليكة والد الصحفى النابه توفيق حبيب (الذى كان معروفاً بالصحافى العجوز) ، ٢٤ - القمص حنا مرقس والد مرقس باشا حنا الوزير وعضو الوفد المصرى ، ٢٥ - ميخائيل بك تادرس من كبار موظفى الدائرة السنية ، ٢٦ - خليل باشا ابراهيم المحامى - بانى كنيسة السيدة العذراء التى تجلت فيها والدة الإله من ٢ أبريل سنة ١٩٦٨ وظلت تتجلى أكثر من سنتين ورآها الآلاف من الناس: قبط ومسلمين وأجانب،

٢٧ - سعيد زقلمه عمدة النخيلة ، ٢٨ - تادرس بطرس شلبي من كبار موظفى السكة الحديد ، ٢٩ - حبيب شلبي من الأعيان وباسمه شارع فى الفجالة ، ٣٠ - رزق الله بك فرج - وقد تبرعت أمه وزوجته بعد وفاته بثلاثة وأربعون فداناً للجمعية الخيرية القبطية الكبرى وكانت كل ما تملكان ، ٣١ - عوض بك أبادير ناظر محطة الاسكندرية ، ٣٢ - بطرس بك أبادير من كبار موظفى السكة الحديد ، ٣٣ - اسماعيل حمزة المحامى بالاسكندرية ، ٣٤ - جرجس بك يوسف ملطى الدمشورى باشكاتب محكمة الإستئناف الأهلية وهو ابن المعلم ملطى قاضى الديوان الكبير فى عهدى المماليك والحملة الفرنسية ، ٣٥ - جرجس عصفور من كبار موظفى السكة الحديد ووالد جفرى عصفور رئيس جمعية ثمرة التوفيق ، ٣٦ - رزق الله بك غبريال وكيل إدارة السكة الحديد ، ٣٧ - المستشار يس باشا أحمد ، ٣٨ - دكتور ابراهيم بك حلمى كان مدرساً بالمدرسة الكبرى ومتزوجا ومع ذلك دخل مدرسة الطب وبعد تخرجه عينوه مديراً لصحة السويس ، ٣٩ - المعلم عريان جرجس مفتاح الذى قيل عنه : « أن أول رجل تولى تدريس اللغة القبطية بالمدرسة الكبرى هو عريان جرجس . وقد ألف أجرومية لهذه اللغة على النسق العربى ضمنها قواعد الإعراب مع سلسلة من الجمل والمحاورات » . ولقد نبغ على يديه عدد من التلاميذ الغيورين ذوى العقول المتفتحة منهم : برسوم ابراهيم الراهب الذى ترجم الكثير من الجمل والمحاورات من العربية إلى القبطية وحنا يوسف حنا الذى اهتم بجمع مصادر الافعال وكتب قاموساً قبطياً [1] .

ثانياً - خريجى مدرسة حارة السقايين : ١ - بطرس باشا غالى الذى وصل إلى رياسة الوزارة ، ٢ - يوسف باشا وهبة وهو أيضاً وصل إلى رياسة الوزراء ،

(١) من خطاب عبد الحليم الياس نصير فى حفل الذكرى المئوية الأولى لأبى الأصلاح ص ٧١ — ٧٧ .

٣ - عبد الخالق ثروت باشا من أقطاب السياسة المصرية الذين اشتركوا فى المفاوضات مع الانجليز ليجلوا عن مصر ورئيساً للوزارة ، ٤ - دكتور (طبيب) طلعت منصور ، ٥ - ابراهيم بك منصور رئيس الجمعية الخيرية القبطية الكبرى ، ٦ - القمص بولس الكبير وكيل بطريركية القبط ومدرس الرياضة بمدرسة حارة السقايين ، ٧ - قلينى فهمى باشا من أعيان المنيا ، ٨ - كامل عوض سعد الله رئيس جمعية التوفيق ، ٩ - المستشار ابراهيم يحى باشا رئيس مجلس الشيوخ ، ١٠ - ابن الدكتور على يحى بك ، ١١ - حسين رشدى باشا رئيس مجلس الوزراء ثم رئيس مجلس الشيوخ فرئيس وفد مصر إلى المؤتمر البرلمانى الدولى المنعقد فى باريس فى أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ١٢ - سعد بك عبده من كبار الأراخنة الذين آزروا أبا الاصلاح بكل اخلاص[1].

ومما يجب ذكره أن الأحداث المتغايرة التى استبدت ببلادنا كانت قد أدت إلى إبطال استعمال التقويم القبطى إلا فى الزراعة . فأعاد الأنبا كيرلس استعماله إبتداءً من أول أبيب سنة ١٥٧١ ش[2].

† † †

(١) جرجس فيلوثاوس عوض « أبو الاصلاح » ص ٢٦٥ - ٢٧٧ ، ويؤسفنى أننى لم أعثر على أسماء الخريجات ، وأغلب الظن أن غالبيتهن كن زوجات وأمهات ، ومن يدرى لربما كانت من بينهن من اختارت حياة الرهبنة . وأغلب الظن أيضاً أنهن كن مثاليات فى تأدية رسالتهن نتيجة للتربية التى تلقينها فى المدرسة التى واجه النوم لافتتاحها .

(٢) كامل صالح نخلة « سلسلة ... » الحلقة الخامسة ص ٢١٥ .

تعليق على سيرة البابا كيرلس الرابع « البطريرك ١١٠ »

ماذا كانت وظيفة المطران العام ؟ (١)

لم يكن أسقفاً كباقى الأساقفة إذ كانت له صفة العمومية . وكان مسئولا عن الكرازة كلها ، كما يتضح ذلك من منشوراته الرعوية ومشروعاته العامة وكما يتضح أيضاً من تصريح الخديوى الذى وافق فيه على أن يكون أنبا كيرلس « مطراناً على طائفة الاقباط » أى على الشعب القبطى كله وقد وضحها أيضاً بقوله : يدير أشغال البطركخانة « وكيل بطريرك » حيث لا يوجد بطريرك . أى أن أنبا كيرلس باختصار كان يقوم بعمل بطريرك ولكن بلقب مطران عام . فهل أنقصه اللقب شيئاً ؟ وماذا كان وضعه فى القوانين الكنسية ؟

كثيرة هى قوانين الكنيسة التى تقطع الأسقف الذى يتداخل فى أعمال أسقف آخر وكمثال لذلك أرجع إلى القوانين ١٢ و ٢٣ و ٢٦ من الكتاب الثانى لقوانين الرسل أو إلى القانون الثانى لمجمع القسطنطينية المقدس الذى يمنع الأساقفة من « تعدى حدود ايبارشياتهم متطاولين على الكنائس الخارجة عن حدودهم » .

لم يكن أنبا كيرلس إذاً أسقفاً محدوداً بايبارشية خاصة لا يتعدى حدودها كباقى الأساقفة وإنما كان له اشراف عام على الكرازة كلها ، فبأى سلطان فعل هذا ؟

الأمر بسيط : إن المطران « المطروبوليت » عبارة عن رئيس أساقفة وقديماً كان يوجد فى كل ايبارشية عدد من الأساقفة تحت رئاسة مطروبوليت أى مطران .

(١) من كتاب « سلسلة تاريخ الباباوات . . . بطاركة الكرسى الاسكندرى » الجزء الخامس ص ١٩٧ – ٢٠٠ – المطبوع بمطبعة دير السريان سنة ١٩٠٤ .

وقد نظرت المجامع المسكونية المقدسة إلى المطران كرئيس أساقفة وأعطته سلطاناً على أساقفة ايبارشيته (أرجع إلى القوانين ٤ و ٦ لمجمع نيقية المقدس والقانون الثانى لمجمع القسطنطينية المقدس ، والقانون الاول لمجمع افسس المقدس) . وباقى القوانين الكنسية نظرت أيضاً إلى المطران كرئيس أساقفة (أنظر أنطاكية ٩ وباسيليوس ٤٦) .

لم يكن ممكناً أن يرسم أسقف من غير رأى المطران . وهكذا يقول القانون السادس لمجمع نيقية المسكونى المقدس « أيما أسقف سيم من غير رأى المطروبوليت ، قد أمر المجمع العظيم بأن مثل هذا لا ينبغى أن يكون أسقفاً ، بل لم يكن الاسقف يستطيع مباشرة أى أمر من الامور الكبيرة فى ايبارشيته بدون رأى مطرانه وهكذا يقول القانون التاسع لمجمع انطاكية المقدس « الاسقف لا يباشر فعل أمر البتة من دون أسقف المطرانيـــة ، والقـــديس باسيليوس الكبير يسمى المطروبوليت « كبير الاساقفة » (القانون ٤٦) .

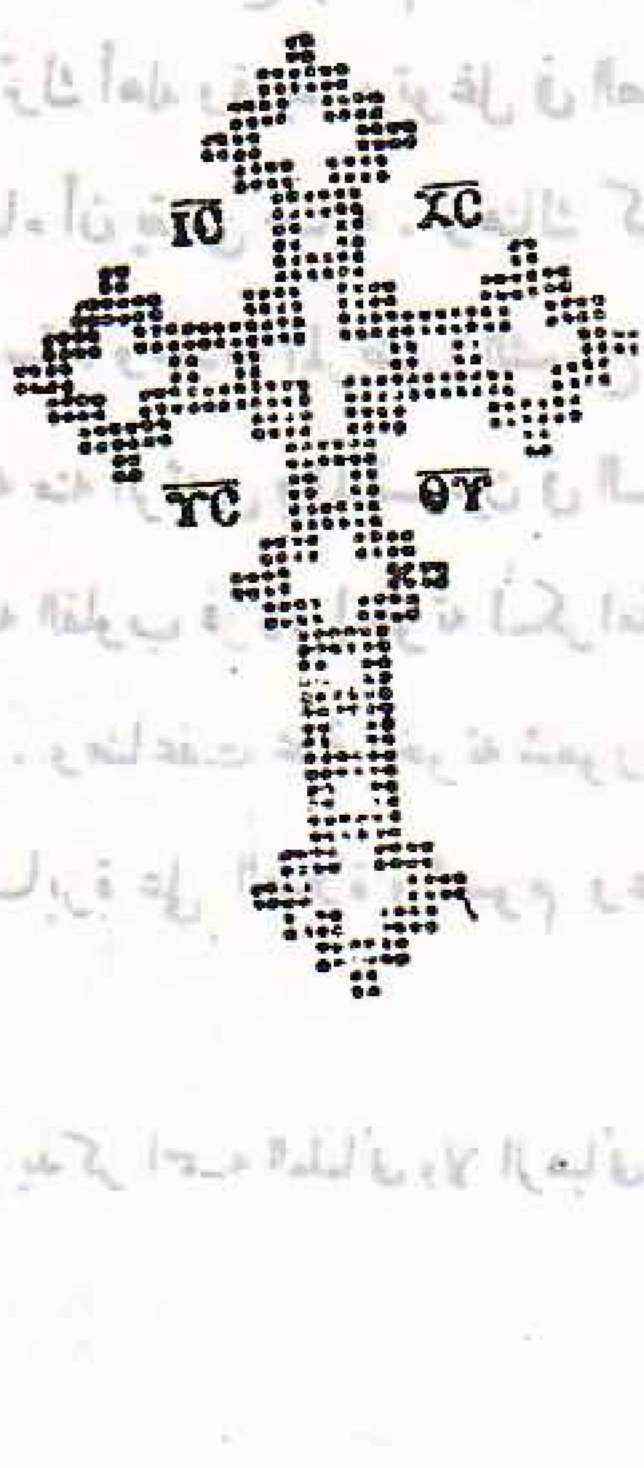
إذن فقد كان أنبا كيرلس رئيس أساقفة بحكم القانون الكنسى وبصفته العامة من حيث مسئوليته عن الكنيسة القبطية كلها ، كان رئيس أساقفة الكرازة المرقسية كلها . وكان الاساقفة راضـــين عن رئاسته فقـــد زكوه بانفسهم للبطريركية وكتب كل منهم « أنا (فلان) ارتضيت ... » . وكان الشعب أيضاً راضياً عن هذه الرئاسة .

ومن هو بطريرك الكرازة المرقسية ، أليس هو رئيس أساقفتها كما هو واضح من لقبه الرسمى ؟ ومن كان أنبا كيرلس ، ألم يكن رئيس أساقفة الكنيسة القبطية ؟ إذن فقد كان بطريركاً من غير هـــذا اللقب . والبطريركية وظيفة وسلطان وليست لقباً .

كان الخديوى يتخوف من هذا اللقب . ولذلك أعطوا الأنبا كيرلس لقباً آخر لا يتخوف منه الخديوى ، الذى لو كان على علم بقوانين الكنيسة ونظمها لعلم أن « بطريرك الكنيسة » ، « رئيس أساقفتها » ، « مطرانها العام » إن هى إلا مترادفات لمعنى واحد ووظيفة واحدة . بل إن بطريرك الاسكندرية كان يلقب أحياناً أسقف الاسكندرية وكذلك كان كل بطاركة العالم (أنظر القانون ٦ لمجمع نيقية المقدس ، والقانون الثانى لمجمع القسطنطينية المقدس) .

إذن كل ما عمله الأساقفة ليلة ٢٨ بشنس سنة ١٥٧٠ الموافق ٤ يونية سنة ١٨٥٤ م (وهو تاريخ تنصيبه بطريركاً) هو أنهم أعطوا أنبا كيرلس لقباً وليس سلطاناً كهنوتياً أزيد من سلطانه .

فإن هذا التاريخ لم يغير شيئاً من وظيفته أو سلطانه أو درجته أو حقه . . .



حامل شعلة جرىء

٢٤٢ — وثمة شبه آخر بين كيرلس الثالث والرابع هو أن كلا منهما اختار اسم « باسيليوس » ليطلقه على الراهب الذى اختاره كى يحمل منه مطراناً على مدينة ملك الملوك . والرجل الذى اصطفاه أبو الأصلاح وُلد فى قرية الدابة التابعة لمركز فرشوط بمديرية قنا سنة ١٥٣٤ ش[1] . ولما كان أبواه من المتمسكين بالدين الساعين نحو الكمال فقد غذياه بالتعاليم الروحية مع اللبن . ثم سلمه أبوه إلى معلم ورع ممتلىء صلاحاً ليعلمه ويهذبه . فكان هذا المعلم مدرساً ونموذجاً فى آن واحد فتعلم منه تلميذه أن يتمعن فى الكتاب المقدس وفى سير الآباء وتعاليمهم . وكلما نمت معه الرغبة فى التشبه بالقديسين الذين يطالع سيرهم ويعيش بروحه معهم . فلما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ترك أهله وقريته وتوغل فى الصحراء الشرقية إلى أن بلغ دير أبى الرهبان حيث شاء أن يقضى حياته . وهناك كرس وقتـه وطاقته للدرس والتأمل فى السير المقدسة ، ولخدمة المرضى والشيوخ من إخوته الرهبان ، والطاعة عن رضى لما يطلبه منه الرئيس والمتقدمين فى السن . وهذا التكريس الارادى المستمر اجتذب إليه القلوب فزكاه إخوته لكرامة الكهنوت بعد ست سنوات من انضمامه إلى الدير . وضاعفت محبة اخوته شعوره بالواجب وتقديره للكرامة التى نالها فزادته مثابرة على الصلاة والصوم وعلى خـدمة إخوته وارشادهم وتعاليمهم .

---

(١) من الغريب أن أحداً لم يذكر اسمه العلمانى ولا الرهبانى أو الكهنوتى ، فربما كان باسيليوس من البداية .

ولقد تحقق فيه قول رب المجد « من له يعطى ويزاد » فهو قد ازداد تفانياً فى خدمة إخوته ، وهم قد ازدادوا تقديراً له فاختاروه رئيساً عليهم بعد رسامته قمصاً – وكان ذلك بعد ثلاث سنوات من رسامته قساً . وتضاعفت وداعته وفاضت عليه النعمة الإلهية فازداد تفانياً فى الخدمة والحماية واطاعة الرهبان عن محبـة ورضى . وكذلك وجه عنايته بالوقف إلى حد أنه استطاع شراء أطيان جديدة وضمها إلى أملاك الدير (١) .

٢٤٣ – ثم حدث سنة ١٥٧١ ش أن شغر الكرسى الاورشليمى فرأى الانبا كيرلس الرابع أن خير من يشغله هو رئيس دير الانبا أنطونى ، فاستدعاه ورسمه باسم باسيليوس . وكان يتبع هذا الكرسى آنذاك مطرانية الدقهلية وجزء من الغربية ثم القليوبية والشرقية . والعجب العجاب أن جهاده كان يتزايد مع تزايد كرامته : فقد خدم وهو قس ، وزادت خدمته وهو قمص ، واشتدت وهو رئيس للدير ، ثم تضاعفت أضعافاً وهو مطران . فكان يتفقد الجائع والعريان والمريض والمسجون والغريب من غير تفريق بين مسيحى أو مسلم أو يهودى ، كما كان أباً لليتيم وقاضياً للأرملة : مع هؤلاء جميعاً كان المشفق الوديع .

٢٤٤ – على أنه جمع بين وداعة الحمام وحكمة الحيات عملا بوصية سيده كما تبينه لنا الواقعة التالية وهى أنه ليس للروس شبر داخل كنيسة القيامة المقدسة . وتأمل قنصل الروس يمنة ويساراً فوجد أن المكان الاول لليونان وهم الكنيسة الام بالنسبة له . أما المكان التالى مباشرة فهو للقبط . وزعم فى خيلائه أن القبط مغلوب على أمرهم فى المكن التقدم إليهم بعرض يحمل فى طياته الإغراء الكافى . وبهذه الخيالات المتراقصة داخل ذهنه قصد إلى مقابلة الانبا باسيليوس . وبعد

---

(١) هذا مثل على أن الروحانيين يستطيعون الانشغال أيضاً بالأمور المادية دون أن يؤثر هذا الانشغال على روحانيتهم .

أحاديث عامة قال له : « إنى مستعد لأن أرصّ لك هيكلك الملاصق للقبر المقدس بالجنيهات الذهبيـة من أرضه إلى سقفه إن بعتنى إياه » . فسأله المطران الوقور : « وكم من الجنيهات يمكن أن يكون هذا الترصيص ؟ » أجابه فى شىء من الزهو : « مليونان من الأصفر الرنّان » فابتسم رجل الله فى هدوء وقال « أتريدنا أن نتشبه بيهوذا الاسخريوطى ونبيع سيدنا بدراهم » ؟ ! وأصيب القنصل الرومى بذهول أفقده المقدرة على النطق فانصرف لتوه .

٢٤٥ - وكان السفر إلى الأراضى المقدسة آنذاك من المشقة بمكان سواءً أكان عن طريق البحر الأحمر أو البحر الأبيض المتوسط . وكان الأنبـا باسيليوس يختار الطريق الثانى فيركب المركب من دمياط إلى يافا ، ومن يافا يركب عربة إلى القدس . وحدث ذات مرة أن ذهب إلى يافا كالمعتاد ووصلها قرب الغروب مما اضطره إلى المبيت فيها . وعرض الأرمن عليه المبيت عندهم لأن القبط لم تكن لهم أملاك بذلك الميناء آنذاك . ولكنه رفض وأعلن أنه سيبيت فى العراء مع أولاده إذ قد وجدهم متجمعين تحت الأشجار . وتحرج أهل المدينة وأعلنوا له استعدادهم لعمل ما يراه ملائماً . قال لهم : « إن كنتم تريدون حقاً أن ترضونى فابحثوا لى عن منزل أشتريه فآوى إليه أنا وأولادى . إذ كيف ينام إنسان على سرير وداخل حجرة بينما أحشاؤه فى الشارع ؟ » وتنفيذاً لهذه الرغبة جاءوه بعد ساعة أو ما يزيد بقليل يخبرونه بأن هناك منزلا تحيط به بيارة [١] رضى صاحبه أن يبيعه له . وهذا البيت قائم على ربوة مرتفعة يمكن الجالس فى شرفتها أن يرى المدينة ممتدة أمامه إلى الشاطىء . وكان صـاحب البيت معهم فتفاوض الراعى اليقظ معه واتفق على أن يدفع له ثلث المبلغ ثم يأتى له بالباقى على سنتين متواليتين . وتمت الصفقة . وألف القبط لأبيهم الروحى موكبـاً وساروا جميعا يترنمون

(١) البيارة هى الأرض المزروعة برتقالا .

بالترانيم الكنسية إلى أن وصلوا البيت الذى أصبح ملكا لهم فأقام الأنبا باسيليوس صلاة الشكر ثم صلى على ماء ورش به البيت والبيّارة وبات الجميع تلك الليلة معاً . وفى الصباح ذهبوا إلى « مدينة الملك العظيم » وارتفعت صلواتهم فى ذلك الموسم بأكثر حرارة وعرفان . وجمعوا كل ما استطاعوا جمعه من المال وقدّموه لمطرانهم تقديراً لعطفه ومحبته . فلما انتهى موسم القيامة المجيدة وعاد الأنبا باسيليوس إلى مصر ذهب إلى باباه وقال له : « أرجوك أن تعيدونى إلى الدير فلست بقادر أن أقوم بأعباء المطرانية التى شئت أن ترفعنى اليها » ! وبالطبع استفسر أبو الاصلاح عن السبب لهذا الطلب الغريب ، ولما عرف أعطاه مبلغاً من المال . ثم قصد إلى بيت واحد من كبار أغنياء المنصورة فلما قدموا له القهوة رفض أن يشربها إن لم يرصّوا له الصينية بالجنيهات الذهب . ومن غير سؤال ولا تردد رصوا له الجنيهات لجمعها . وبعد أن شرب القهوة أوضح لهم السبب فى طلبه . وبمثل هذه الوسائل استطاع أن يجمع المبلغ المطلوب قبل موعد التقديس التالى . فلما وصل إلى يافا وجاء أهلها للسلام عليه ومن بينهم الرجل الذى باع له البيت وقدم له المبلغ المتفق عليه . وبأزاء هذه السرعة فى دفع الدين تنازل له الرجل عن عشره وخلال اقامته فى الأراضى المقدسة فى هذا الموسم الثانى شرع فى بناء كنيسة فى ركن من البيّارة وأتمها فى حياته . ثم لما بلغ نهاية الشوط على هذه الأرض دفنوه تحت المذبح هناك . أما البيّارة لحفر فيها بئراً ارتوازيا وأقام إلى جانبه آلة بخارية لريها بسهولة وهكذا أصبح للقبط مكان ممتاز فى يافا مازال ملكاً لهم ولو أن الاسرائليين خلعوا أشجار البرتقال كلها من بيارته كى لا تكون مخبأ يلجأ إليه الفدائيون العرب .

٢٤٦ ـ ولم يكتف بالشراء والبناء والتجديد ، ولكنه واجه بدوره تعنت الأحباش فيما يتعلق بدير السلطان . فسار على خطة أسلافه بأن كافح كفاح

الأبطال لاستبقاء الدير فى ملكية القبط . وعلى الرغم من تعضيد بعض الدول الغربية للأحباش فقد استمر فى جهـــاده وقابل المسئولين من رجال حكومات روسيا وانجلترا ومصر ، ونجح فى النهاية فى الحصول من السلطان عبد الحميد على حكم تثبيت ملكية القبط للدير .

وهناك حجة فى يد القبط فى ١٧ ذى الحجة ١٠٩٥ هـ نشرها القمص جرجس النقادى الانطونى فى آخر الدليل الذى كتبه عن مزارات القدس التابعة للأقباط قال فيه : « . . . وكان لطائفة الحبش قنديل فضة أخـذه الأرمن لكونهم كانوا واضعين اليد على مواضع الحبش . . . ومن أغرب مايروى أن بدير السلطان شجرة اتخذها الاحباش اثباتاً لدعواهم فيقولون إنها الشجرة التى وجد فيها ابراهيم الخليل كبشاً مربوطاً فدى به ابنه اسحق ولهذا يكون الموضع موضع قربان الخليل . وبطلان الدعوى ظاهر لا يحتاج إلى دليل .فقد مضى على ابراهيم الخليل إلى اليوم نحو أربعة آلاف سنة . فمن أين لشجرته أن تبقى إلى اليوم ؟ زد على هذا أنه جاء فى التوراة أنه قـــدم ابنه على جبل الموريا حيث بنى هيكل سليمان لا على جبل صهيون حيث بنى دير السلطان . . . » .

وبعد حديثه عن دير السلطان والمنازعات التى لم تنته بعد حوله أورد توفيق اسكاروس سجلا بأملاك القبط فى الأراضى المقدسة مبتدئا بذكرى كنيسة بناها مقارة النبراوى بأمر الانبا يا كوبوس (البابا الاسكندرى الخمسين) تعرف بكنيسة المجدلانية ، ثم عمرها منصور اليعقوبى التلبانى فى عهد البابا كيرلس الثانى (البابا الاسكندرى السابع والستين) . ثم انتقل بعد ذلك إلى أن القبط ميزة عظيمة هى امتلاكهم هيكلا ملاصقاً للقبر المقدس يقع غربيه . ويعلق على ذلك بقوله: «فالمتأمل يرى ان ابدأ أوربية كبيرة ليس لها أملاك أو حصص ولو جزئية فى هذه الكنيسة

(القيامة) ، ومن ثم أخذوا يتحككون ويتصدون لهؤلاء الذين هم فى ظنهم حيطة واطيه، معتقدين أن ليس لهم من يقوم بالدفاع عن صوالحهم والذود عن حقوقهم. ولكن الله قيض لهم الانبا باسيليوس ... وكذلك أورد سجلا خاصاً به صور « حجج ومضابط وأوامر بأملاك الوقف بالقدس الشريف وايراد البطريكخانة بتصديق أنبا باسيليوس مطران القيامة رقم غرة برمودة سنة ١٥٩٨ ش يتضمن اثنين وخمسين حجة . وجميع هذه الحجج مصدق عليها إما من متصرف فى القدس أو القضاة الشرعيين أو السلاطين العثمانيين . وتصديقهم لم يأت عفوا بل كان نتيجة للسعى المتواصل الذى بذله الباباوات أو مطارنة القدس . فحق لنا هنا أن نهتف مع النبى : « كيف يطرد واحد ألفاً ويهزم اثنان ربوة لولا أن صخرهم باعهم والرب سلمهم . لأنه ليس كصخرنا صخرهم ولو كان أعداؤنا القضاة [1] » . فما أعجب عمل الله الذى تجلت قوته فى ضعف القبط .

٢٤٧ ـ وفوق هذا فقد جدد الانبا باسيليوس كنيسة القيامة وشيد بجوارها ديراً كبيراً على اسم الانبا أنطونى وبعد ذلك أحاط الهيكل الذى يملكه الاقباط والملاصق للقبر المقدس بسياج من الحديد المزخرف المفرّغ . ولكن همته فى البناء لم تقتصر على القدس ويافا بل امتدت إلى الايبارشيات الخاضعة له فى مصر. فشيد الكنائس التالية : ١ ـ كنيسة المنصورة سنة ١٥٨٤ ش ، ٢ ـ كنيسة طوخ طنبشا سنة ١٥٨٥ ش ، ٣ ـ كنيسة الست دميانة سنة ١٥٨٧ ش ، ٤ ـ كنيسة بلقاس سنة ١٥٨٧ ش ، ٥ ـ كنيسة كفر نقباس سنة ١٥٩٥ ش ، ٦ ـ كنيسة نبروه سنة ١٥٩٥ ش ، ٧ ـ كنيسة بور سعيد سنة ١٦٠١ ش ، ٨ ـ كنيسة القلزم سنة ١٦٠١ ش ، ٩ ـ كنيسة القشيش سنة ١٦٠١ ش ، ١٠ ـ كنيسة أبهنو سنة ١٦٠٣ ش ، ١١ ـ كنيسة كفر سعرى سنة ١٦٠٣ ش،

(١) تثنية ٣٢ : ٣٠ ـ ٣١ .

١٢ - كنيسة كفر يوسف شحاتة سنة ١٦٠٧ ش ، ١٣ - كنيسة كفر الحجير سنة ١٦٠٨ ش ، ١٤ - كنيسة بنها سنة ١٦١٠ ش ، ١٥ - كنيسة السويس سنة ١٦١٤ ش ، وقد وجد بعض الكنائس ببوش ودمياط وسمنود فى حاجة إلى الترميم فأصلحها وجدد عمارتها .

٢٤٨ - وبما أنه اعتاد تفقد شعبه فى مختلف الايبارشيات التابعة له ، فقد كان يعرفهم ويعرف احتياجاتهم . ولذلك فقد خصص مرتبات شهرية لخمسين عائلة يصرفها لهم عينا أو يبعث بها إليهم فى شكل حوالات بريدية . وهذه المرتبات ظلت طى الكتمان إلى أن انتقل إلى الدار الباقية وعندما انكشف سرها .

وكان من بين أولاده رجل موسر سخى فى تقدماته . وحدث أن انقطع هذا الرجل لجأة عن زيارة أبيه الروحى . فلما سأل عنه علم أن السبب فى غيابه هو الضيق المالى الذى أصابه . فأرسل يطلبه . ولما مثل بين يديه أعطاه خمسة جنيهات لتغطية مصروفات السفر وخصص له راتباً شهرياً . وبدا التملل على وجه الرجل فقال له رجل الله : « لا فضل لى إطلاقاً . فهذا مالك . والكتاب يقول لنا من يعطى الفقير يقرض الرب . وأنت قد أعطيت الكثير للفقراء . فهذا مالك الذى يرده إليك الرب لأنه لا ينسى كأس ماء بارد » .

ولقد أمد الله فى عمره فظل فى جهاده بلا هوادة مدى ثلاث وأربعين سنة . ولكى يدرك القارىء إلى أى حد تفانى هذا الراعى فى خدمة كنيسته نقدم مثلا واحداً يتلخص فى أنه أصيب بنزيف أثناء انهماكه فى مباشرة العمال وهم يبنون له الأبنية الملحقة بكنيسة القيامة . وحدث أن ذهب لزيارته القمص عبد المسيح رزق خادم كنيسة المنصورة فأشفق على أبيه الروحى واقترح على البنائين بالكف عن العمل ريثما يستعيد صحته . فلما علم بالامر طلب أن يحملوه على كرسى

ويزلوا به حتى يباشر العمل رغم مرضه قائلا إن واجبه له المكان الأول من نفسه ولن يمنعه عنه غير الموت . وهذا الصرف من طاقته بلا حساب انتهى به إلى المرض بالفالج مما أقعده عن العمل . فاختار أحد رهبانه هو القمص عبد المسيح السنابى وكتب له تزكية أرسلها إلى البابا كيرلس الخامس الذى رسمه أسقفاً باسم تيموثيئوس فى ٢٣ اغسطس سنة ١٨٩٦ م . ومع ذلك فقد ظل الأنبا باسيليوس المرشد والموجه والمناضل عن حقوق شعبه إلى أن استودع روحه بين يدى الآب السماوى يوم الأحد ٢٦ مارس سنة ١٨٩٩ عن اثنين وثمانين سنة .

٢٤٩ ـ وهكذا نجد حياته صورة مشرقة تملأنا اعتزازاً بهذه الكنيسة التى لم يتحمل آباؤها الضيق والاضطهاد فقط بل تحملوا الافتراء أيضاً وصمدوا صمود الأهرامات الثابتة فى واديهم ، فأوضحوا بثباتهم الصامت انتصار الحق على الباطل [١] .

ومما يجدر التأمل فيه أن مطران المنيا آنذاك ـ الأنبا ياكوبوس ـ رأى وجوب المحافظة على حق الفلاحين وكانت القاعدة المتبعة فى ذلك الوقت أن الأطيان التى لا تزرع تضم إلى الدائرة السنية (أى التى يمتلكها الوالى) . فكان إذا انحسر النيل عن الأراضى التى غطاها بفيضانه يسارع الأنبا ياكوبوس باحضار البذور ويزرع الأرض بيديه إلى أن نجح فى ربطها على المزارعين سنة ١٨٥٦ [٢] . وهذا دليل ضمن الأدلة العديدة على شعبية الكنيسة القبطية وعلى تشارك الآباء والأبناء فى مختلف أحداث الحياة . ولما كان الشىء بالشىء يذكر أقول إنى رأيت بعينى الأنبا ياكوبوس (مطران الكرسى الأورشليمى من سنة ١٩٤٧ ـ سنة ١٩٥٧) حينما

---

(١) « تاريخ الكرسى الأورشليمى » مقال اسكاول صالح نخلة نشره فى مجلة النهضة المرقسية عدد مارس سنة ١٩٠٤ ص ٩٠ وأبريل سنة ١٩٤٥ ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، توفيق اسكاروس . . . ج ٢ ص ١٩٧ ـ ٢٧٩ .

(٢) « الكنيسة القبطية فى مواجهة الاستعمار والصهيونية » لوليم سليمان ص ٣٥ .

كان يستيقظ مع الفجر وينزل بجلبابه وطاقيته ليكنس ويمسح أرض كنيسة الأنبا أنطونى وساحتها الواسعة التى تحيط بها غرف المقدسين . هذا فى حين أنه كان يجلس على الكرسى الأسقفى بقاعة الاستقبال الفسيحة فى وقار وعزة عند استقبال قناصل الدول وموظفى الحكومة .

وإلى جانب البابارات والأساقفة وقف الكهنة والشعب . ولو أن معرفتنا بالفئتين الأخيرتين ضئيلة للغاية . على أنه ما من شك فى أن قمة الهرم ما كانت لتعلو نحو السماء لو لم يكن تحتها تلك الكتلة المتراصة من البنيان القوى . ومن المعلومات الضئيلة التى بين أيدينا نعرف أن رئيس دير السيدة العذراء الشهير بالسريان الذى عاصر أبا الأصلاح كان القمص عبد القدوس . وخلال رياسته جدد كنيسة السيدة العذراء بالمغارة كما أصلح سقالة الحصن . كذلك استحضر للدير كل مستلزمات الطاحونة . ولقد قامت بينه وبين القمص داود الأنطونى صداقة وثيقة حتى أنه كان ضمن الموقعين تزكيته التى فاز بها وأصبح كيرلس الرابع . وحدث أثناء رياسة القمص داود لدير الأنبا أنطونى أن حلت بالدير ضائقة مالية . فاستنجد بصديقه القمص عبد القدوس الذى أخذه إلى الخزانة وفتحها له وقال : «خذ يا أخى كل ما تحتاج إليه» . وبالفعل مد يده وأخذ كفايته . فلما فاز بالباباوية أراد أن يبرّ لصديقه عن عرفانه بجميله فعرض عليه أن يرسمه أسقفاً . ولكن القمص عبد القدوس رفض رفضاً قاطعاً . وبازاء هذا الاصرار عرض عليه البابا توسيع دير السريان الذى كان آنذاك أصغر أديرة وادى النطرون حجماً . وأرسل البابا مستلزمات البناء ولكن المنية لم تمهله لينفذ وعده . ومازالت العربة التى كان قد أرسلها لنقل الحجارة موجودة فى الدير حتى الآن[1] .

✝ ✝ ✝

---

(١) « الأديرة المصرية العامرة » لصموئيل تاوضروس السريانى ص ١٧٣ و١٧٨ .

استمرار السعى

١ـ الأنبا ديمتريوس الثانى

٢٥٠ - كتب محمد عبد اللطيف يقول : « تاريخ الأمة هو قيمتها فى الحياة ، وميزان تقديرها بين الأمم ، ومادة وجودها وصمودها فى معركة البقاء والنماء ، فلا يمكن لأمة أن تبقى على طريق الحياة وهى متحللة من تاريخها ، ولا أن تسير إلى غايتها ثابتة وهى منفصلة بحاضرها عن ماضيها، ولا أن تقف فى غمرة الأحداث شامخة وهى تجهل آباءها وأجدادها .

على أن هذا التاريخ ليس بذى قيمة فى ذاته مهما بلغ من أمجاد واحتوى من رجال إلا إذا كان بكل ما بلغه واحتواه معنى يمـلأ نفوس أبناء الأمة ويحرك عقولهم وقلوبهم للعمل فى منفعة هذا الأمة . والتمكين لهـا بكل ما تأتى به سنن التطور من قوة ، وهذا المعنى هو الرباط الذى يربط الأمة دائما بوحـدتها الوجودية. فهى لاتنفك بهذا المعنى تأخذ من ماضيها لحاضرها، وتتحرك من قاعدة هذا الحاضر إلى ما تنشده وتطلبه من مستقبل .

فإذا علمت من هذا أن التاريخ هو المعنى الذى يقوم عليه وجود الأمة ، وأنه

---

(١) أمثال ٢١ : ١ .

روح الماضى الذى تتطور به الامة إلى المستقبل ، أدركت السر الخطير فيما صنعه الاستعمار يوم دهم بلادنا فأخذ يعمل جاهداً على فصل الامة المصرية عن تاريخها، ويكافح كفاحاً وقحاً فى شريعة العلم لتزييف أمجاد هذا التاريخ وتزوير الحقائق فى عمل رجاله وأبطاله ... »[1] .

ولقد كشف لنا التمعن فى باباوية أبى الاصلاح أن الغربيين لم يكالحوا لتزييف التاريخ فحسب بل وصلوا إلى تزييف جهاد أبناء مصر حتى وهم بعد على قيد الحياة ، ولم يكافحوا فى سبيل هذا التزييف أيام استعمارهم إيانا وإنمـا بدأوا كفاحهم الوقح قبل أن يستعمرونا بالفصل متسترين حتى خلف الدين للوصول إلى هدفهم . على أن الله الذى لا يدع نفسه بلا شاهد قد أقام من جنس المزيفين أشخاصاً يعلنون الحق جهاراً ![2] ومن هنا آن الاوان لان نتفطن فى تاريخنا وندرك واقعيته لنتخذ من تفطننا وادراكنا قاعدة الانطلاق نحو المستقبل .

٢٥١ - ومن هنا أيضاً يليق بنا أن نتابع انسياب التاريخ لنجد أنه حين خلا الكرسى المرقسى باستشهاد أبى الاصلاح اصيب القبط بنوع من الذهول أدّى إلى أن يظل هذا الكرسى العظيم شاغراً مدة سنة وأربعة أشهر ونصف . وحدث فى أواخر هذه الفترة أن اجتمع مطارنة أورشليم ومصر ومنفلوط واتجهت أنظارهم إلى ضرورة اختيار الراعى الاول . فاستدعوا الاراخنة الذين كانوا على صلة بهم وتناقشوا معهم فى هذا الموضوع الحيوى . واستقر الرأى على وجوب دعوة الانبا يونس أسقف المنوفية (وهو القس برسوم الانطونى الذى كان قد رافق الانبا كيرلس الرابع فى رحلته الاولى إلى الحبشة) فكتبوا إليه يدعونه ولكنه لم يرد عليهم .

(١) من مقال له نشره فى جريدة الأخبار يوم الأربعاء ١٢ يونيو سنة ١٩٧٤ بعنوان « تاريخنا الذى ضاع » .

(٢) مثل كتاب : Throop : Criticism of the Crusades

٢٥٢ ـ فلما استبطأوه بعثوا إليه بالرسالة التالية : « مطلع شموس المعارف وقمرها ، وكوكب طقوس الاكليروس وبدرها ، وغرة الأئمة المفضلين الروحيين ونصرة الآباء المكملين المنتخبين ، مصباح البيعة الارثوذكسية وأمين الاسرار السامية القدسية ، ينبوع الفضايل الزاهرة وذو الخلال النسكية البارعة .

قدس الاخ الحبيب المطران الانبا يوئس صاحب كرسي المنوفية :

لا زال محفوظاً بالعناية الربية ملحوظاً بالمكارم السيدية . ولا برح مبتهجاً بنجاح رعيته مسروراً بطمأنينة وهدو كرازته . بشفـاعة الست مرتمريم ذات القدس والطهارة ومعدن العفة والبرارة . وطلبات الرسول الطاهر مار مرقس الانجيلي كاروز الديار المصرية . والاب الطوباني أبينـا أنطونيوس كوكب البرية . آمين .

« أما بعد القبلة الروحية الطاهرة واهداء وجوب التكريمات اللائقة لحضرة الفاخرة . ثم نقدم السلام القلبي لاخوتكم . والشوق الحقيقي الوافر نحو محبتكم . فالداعي للمراسلة (أولا) لافتقاد الخاطر الشريف الباهي للود النقي والحب الإلهي (ثانياً) نخبر قدسكم أنه قبل تاريخه في ١٩ توت سنة ١٥٧٨ ش كتبنا لقدسكم خطاباً مفيده أنه بحسب الاقتضى ستلزم الحال لحضور حضرتكم إلى المحروسة بالقلاية البطريركية لاجل باجتماعنا بجمعية البطركخانة تصير المداولة والمراوية مع بعضنا بإرادة المسيح إلهنا يصير انتخاب من يريده الله تعالى بطريركا للطائفة بحضور حضرتكم . وأكدنا عنه سرعة حضوركم قبل بوقت لاتمام اللازم . ومن التاريخ المذكور لغـاية هذا اليوم ونحن منتظرين تشريف القلاية بقدومكم . وحاصل منا غاية المراقبة لقدوم قدسكم لإجراء ماذكر .

« وحيث صار تأخير حضوركم قدر كذا فاقتضى تحرير هذا لاخوتكم على

قبول الاستمجال عنه بتشريف قدومكم لهذا الطرف بسرعة لاتمام ما سلف ذكره بحضورنا جميعاً بتدبير إلهنا الصالح . ونعمة ربنا يسوع المسيح تصحبنا جميعاً . والشكر لعظمته دائماً أبدياً آمين » .

تحريراً فى ٢ بابة سنة ١٥٨٧ ش .

أثناسيوس	باسيليوس	داعى صالح دعاكم
أسقف[1] منفلوط	مطران القدس الشريف	بطرس مطران مصر

وفى أثناء هذا تصادف ورود خطاب قدسكم رد ما أرسل لحضرتكم وبه تعتذرون عن عدم امكانكم الحضور بداعى كثرة المياه وتقطيع الجسور . ولدى تلاوته بحضور حضرات أولادكم عمد الطائفة أعنى جمعية البطركخانة فلم يقبلوا ذلك وحرروا لقدسكم عن الحضور بما فيه الكفاية . ولأجل ذلك لزم التحشية . وحضر مسطره ولدكم القمص حنا يقبل أياديكم مع التماس صالح دعاكم وأطال الله بقاكم » .

(صورة طبق الأصل محفوظة	طالب دعاكم
بمكتبة الدار البابارية)	ولدكم القمص حنا خادم أنطونيوس[2]

٢٥٣ - واستجاب الأنبا بولس لهذه الدعوة الملحّة . وما أن انتهى الجميع من التداول حتى انتهت كلمتهم جميعاً إلى اختيار القمص ميخائيل عبد السيد رئيس دير الأنبا مكارى الكبير للكرامة الكهنوتية العظمى . وأقيمت شعائر الرسامة الجليلة فى ٩ بؤونة سنة ١٥٧٨ ش فأصبح هذا القمص المكارى البابا المرقسى الحادى عشر

(١) تجدر الاشارة إلى أن الأسقف وقع بامضائه قبل المطرانين مع أن أحدهما مطران القدس ، وفى هذا دليلان : الأول أن الرتبة الكهنوتية واحدة ، والثانى تقدم الأسقف لأن مراعاة المدة التى قضاها الانسان فى الكهنوت كان معمولا بها منذ العصر الرسولى .

(٢) كامل صالح نخلة : « سلسلة . . » الحلقة الخامسة ص ٢٢٨ - ٢٣٠ ، ومما تجدر الاشارة إليه مدى تغير التعبيرات اللغوية خلال قرن من الزمان .

بعد المئة باسم ديمتريوس الثانى وقد وصفه معاصروه بأنه كان « شهماً عاقلا محباً العلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبالغ فى وضعها على النحو الذى نحاه كيرلس... »[1].

٢٥٤ - وأول زيارة قام بها البابا ديمتريوس كانت لسعيد باشا الوالى الذى هناه على الكرامة التى نالها ثم قال له : « لا تفعل مثل سلفك ، بل كل ما يلزمك قل لى عليه مباشرة وأنا مستعد لأن أؤديه لك » وليس من شك فى أن المتأمل فى هذه الملحوظة يستشف شيئاً من الأسى ضمنها . ومن يدرى ماذا كان حدث لو أن الأنبا كيرلس لبى دعوة الوالى وذهب إليه قبل التوجه إلى الدير ؟ ولكن لندع هذه الخواطر جانباً لأننا لن نستطيع الوصول منها إلى رد حاسم لكى نسير مع البابا ديمتريوس ونتابع خطواته . فنجد أنه وجه نظراته الأولى إلى الكنيسة المرقسية التى كان أبو الاصلاح قد شرع فى تجديدها فأتم بناءها ثم زخرفها[2].

٢٥٥ - ولما رأى الغربيون هذه البداية الحسنة التى استهل بها الأنبا ديمتريوس الثانى عهده رأوا أن يقللوا من قيمة هذا النشاط . فذهب القنصل الأمريكى لمقابلة سعيد باشا ورجا منه أن يمنح الارسالية الأمريكية منزلا أو قطعة من الأرض . فقبل الوالى رجاءه وأهدى للارسالية مبنى كبيراً فى أول شارع الموسكى (الذى كان الشارع الرئيسى آنذاك) ، وكان ذلك فى سنة ١٨٦٢م أى فى نفس السنة التى تمت فيها رسامة البابا المرقصى . ومن العجب بمكان أن الارسالية الأمريكية انتفعت بالمبنى الذى حصلت عليه مجاناً خلال عهد سعيد ، فلما آل العرش إلى اسماعيل باشا باعته له بمبلغ سبعة آلاف جنيه[3].

---

(١) « الكافى » لميخائيل شاروبيم ج ٤ ص ١٧٧ .

(٢) ظلت هذه الكنيسة الأبوية على ما أرساها عليه البابا ديمتريوس حتى عهد الأنبا كيرلس السادس (البابا الـ ١١٦) الذى رممها وجددها .

(٣) « الكنيسة القبطية فى مواجهة الاستعمار والصهيونية » لوليم سليمان ص ٢٥ نقلا من كتاب : Earl E. Elder : " Vindicating a Vision ... " p. 28

ثم تولى اسماعيل باشا حكم مصر فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ . وكان رجلا واسع الأفق يستهدف النهوض بالبلاد . فكان يستخدم الاكفاء من الرجال سواء أكانوا مسلمين أم قبطاً . إلا أن ميله للاوربيين والامريكيين طغى عليه طغياناً أفقده عرشه فى النهاية . فانتهزوا فرصتهم وأخذوا ينشرون مدارسهم : لا فى المدن فقط بل فى القرى أيضاً . وكانت خطتهم موضوعة بحيث تضفى على نشاطهم نوعاً من المهابة وتتلخص فى أنهم كانوا يبدأون دائماً بافتتاح مدرسة فى البقعة المختارة . والمدرسة طبعاً مكان تتطلع إليه الأبصار وبخاصة فى عهد اسماعيل الذى سعى بكل جهده إلى نشر التعليم على مختلف مستوياته . فيجد المصريون مدرسة فيها المعلمون (أو المعلمات) الذين تركوا الأهل والوطن وجاءوا خصيصاً لخدمتهم . وهذا الموقف فى حد ذاته ينتزع التقدير للتضحية المبذولة . ويدخل أولاد المصريين (وبناتهم) هذه المدارس فيجدوا فيها كتباً ووسائل ايضاح تبهرهم فيزداد تقديرهم لاولئك المرسلين وفوق ذلك فالفقراء يمكنهم أن ينالوا العطف بتخفيف المصروفات عليهم أو حتى بالمجانية . وبكل هذه الوسائل « المثلى » تصبح المدرسة الأجنبية فى أعين المصريين أشبه بالواحة المثمرة وسط الصحراء القاحلة . وأخذت هذه المدارس الفرنسية والإيطالية (كاثوليكية) والانجليزية والامريكية (بروتستانتية) تنتشر فى أنحاء مصر وبخاصة فى الصعيد .

٢٥٦ — ومن المؤلم أنه كانت قد قامت فتنة دينية فى سوريا أدت إلى تمكين السيادة الغربية هناك [1] . وعلى أثر هذه الفتنة جاء المرسلون الامريكيون إلى مصر ومعهم مجموعة من السوريين الذين استمالوهم إليهم . فكان هؤلاء السوريون التكئة التى استند إليها الامريكيون فى عملهم بين المصريين . فإنهم اختطوا خطة

---

(١) مصطفى الخالدى وعمر فروخ : « التبشير والاستعمار فى البلاد العربية » ص ١٣٥ — ١٤٣ .

مماثلة فى بلادنا لتلك التى حدثت فى سوريا جعلوا فارس حكيم (أحد الوافدين السوريين) يثير فتنة كبيرة فى أسيوط اتخذتها سلطات واشنطن ذريعة لتطالب إلى إسماعيل باشا تعزيز مركز المبشرين وأعوانهم . ومن هنا سرى شعور فى مختلف الجهات بأن المرسلين إنما جاءوا لنشر النفوذ الأجنبى فى مصر [١].

٢٥٧ - ومقابل هذا السطو الأجنبى المتزايد من خلال الدين والعلم نال القبط بعضاً من عناية إسماعيل باشا إذ قد منحهم جملة من الأراضى الزراعية ثم أصدر أمره إلى « نظارة المعارف العمومية » [٢] بإجراء امتحان تلاميذ المدارس القبطية بعد امتحان تلاميذ المدارس الأميرية . والطريف أنه بمناسبة الامتحـــان (فى المدارس القبطية) كان يقام احتفال عظيم يدعى إليه العلماء والأمراء وكبار القوم يتقدمهم مفتى الديار المصرية نفسه .

٢٥٨ - ثم تفطنت الحكومة المصرية لحركة المدارس الأجنبية فأدركت أنها إنما تستهدف اضعاف الروح الوطنية والتفرقة بين عنصرى الأمة فأصغت إلى رجاء الانبا ديمتريوس بأن يقوم برحلة راعوية يهيب فيها بشعبه أن يتمسك بعقيدته الأرثوذكسية التى تسلمها عن الآباء [٣] وتحقيقاً لرغبة هذا البابا الساهر أصدر إسماعيل باشا أمره بتهيئة باخرة حكومية ليسافر عليها البابا المرقسى ورجاله . وبالفعل استقلها واستصحب معه اللاهوتى الكبير الايغومانس فيلوثيئوس عوض خادم الكنيسة المرقسية بالازبكية وعدداً من الآباء والشمامسة . وأخذوا يتنقلون بين مدن الصعيد وقراه إلى آخر حدود مصر الجنوبية . واستغرقت رحلتهم ثلاثة

(1) D. Watson : "The American Mission in Egypt" pp. 126 - 136, 332 and 442 .

(٢) أو وزارة التربية والتعليم .

(٣) ما أبعد هذه الصورة عن تلك التى رسمتها لنا الدعايات الأجنبية فأدخلت فى روعنا أن رعاتنا كانوا جهلة خاملين !

شهور اجتمعوا خلالها بالشعب القبطى فى كل الجهات التى زاروها . وآزرتهم النعمة الإلهية فنجحوا فى استرداد أبناء الكنيسة المصرية إلى أمهم الرؤوم ومن دواعى اعتزازنا أن صفحات كتب المرسلين تمتلىء بوصف الجهود التى بذلتها الكنيسة القبطية لتجميد نشاطهم فى وادى النيل كله وتكتل شعب الكنيسة بأجمعه لمواجهة الوافدين [1] .

ثم قام المرسلون بحملة مضادة بلغت من العنف درجة بعيدة عن التصديق : ذلك أنهم نجحوا فى استفزاز ثلاثة من رجال القبط الذين انضموا إليهم ، ثلاثة ليسوا من الجهلة ولا من العامة ولكنهم من بيوت معروفة - أحدهم من بيت ويصا وثانيهم من بيت الزقيم وثالثهم من بيت حبل . وقد دفع الاستفزاز بهؤلاء الثلاثة إلى أنهم ذهبوا بعد منتصف الليل إلى كنيسة المطرانية ليحاولوا احراقها لانها كنيسة تزخر بالخرافات وبالتعاليم الوثنية المتشابكة داخـــل المسيحية ! (وكان ذلك سنة ١٨٦٥) . ويبدو أن التراث الذى ملأ شعور هؤلاء الرجال ملأ رهبة مما يفعلون لانهم افرغوا علبة كبريت كاملة دون أن يستطيعوا اشعال النار ! وكان أسقف أسيوط (واسمه مكاريوس) آنذاك معتاداً أن يصلى صلاة باكر فى الكنيسة لا قلايته . وحين قام فجر ذلك اليوم وقف ملاك الرب أمامه وقال له : « عد إلى مخدعك فالوقت لا زال مبكراً » . وأطاع الأسقف الأمر وعاد . وكان هذا الانذار الإلهى صوناً للرجل من أن يؤذيه المعتدون على الكنيسة . ولما وجد الرجال الثلاثة أنهم عاجزون عن احراق الكنيسة قطعوا الستائر ورموا بالايقونات على الأرض . فلما أصبح الصباح وانتشر خبر هذا الاعتداء على الكنيسة من رجال حرص آباؤهم وأجدادهم على هذه الكنيسة سرت موجة من الغضب أدت إلى أن يصدر إسماعيل أمره بنفى المعتدين الذين لم يخجلوا من الاعتراف

(١) وليم سليمان : « الكنيسة ... » ص ٣١ نقلا عن أندرو واطسن .

بفعلتهم . ولكن قناصل الدول البروتستانتية (الأمريكية والانجليزية) سعدا لدى الخديوى الذى قبل وساطتهم وأصدر أمره بالعفو . وكان عفوه هذا سبباً فى جعل المتخوفين أن ينضموا إلى الكنيسة البروتستانتية التى أسسها هوج الاسكتلندى[1] .

٢٥٩ - ثم حدث أن جاء السلطان عبد العزيز لزيارة مصر تلبيةً لدعوة إسماعيل باشا وخلالها أنعم عليه بلقب « خديوى » واحتفاءً بمقدم السلطان دعا الخديوى مختلف الناس إلى قصره لتحية ضيفه الكبير . وكان التقليد السلطانى يقضى بأن من يمثل بين يدى السلطان عليه أن يقبّل هدب ثوبه . فلما وصل البابا المرقسى إلى حيث جلس عبد العزيز قبّل صدره ناحية القلب . فأصيب الحاضرون بدهشة لهذا المسلك وسأل السلطان عن معناه . وكان القمص سلامه وكيل البابوية مع باباه آنذاك وهو يجيد التكلم بالتركية[2] . فترجم كلام باباه مجيباً على السؤال السلطانى بقوله : « فى كتابنا المقدس آية تقول أن قلب الملك فى يد الله . فأنا بتقبيلى صدركم إنما قبّلت يد ملك الملوك وسلطان السلاطين » . فانشرح عبد العزيز وابتسم سروراً . وبأزاء رضى السلطان قرر الخديوى إسماعيل أن يمنح البابوية القبطية ألفاً وخمسمائة فدان من أملاك الحكومة لصرف منها على المدارس وغيرها من المرافق القبطية ، بخلاف النفحات التى كانت يده الكريمة تمتد بها إليهم من وقت لآخر[3] . فكانت هذه الهبة السخية مدعاة إلى ازدهار المدارس واتساع عملها .

---

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٧٢٢ - ومما يذكر فى هذا الصدد أن لجنة السيدات التابعة لمعهد العالى للدراسات القبطية كانت تصغى صباح الأربعاء الثانى من مايو سنة ١٩٦٦ إلى محاضرة للانبا صموئيل أسقف العلاقات العامة ذكر فيها هذا الحادث . فقاطعته احدى الحاضرات بقولها : « مش معقول ! » أجابتها شابة من بيت وبصا لساعتها قائلة : « ابوه جدى كان واحد من الثلاثة ! » . ولا يحتاج مثل هذا الحدث إلى التعليق .

(٢) هذا أيضا مثل عن أن الكهنة القبط كانوا متعلمين بخلاف الصورة العالقة فى أذهاننا نتيجة الدعايات المغرضة .

(٣) « عصر اسماعيل » لالياس الايوبى ج ١ ص ٢١٠ - ٢١٢ .

٢٦٠ - وكانت للبابوية القبطية إذ ذاك اثنى عشرة مدرسة بالقاهرة وواحدة بمصر العتيقة وواحدة بالجيزة ومدرستان بالاسكندرية (بين بنين وبنات) يتعلمون فيها اللغتين القبطية والعربية والحساب ومبــادىء الهندسة والتاريخ والجغرافيا ومبادىء المنطق والألحان الكنسية ثم الفرنسية أو الانجليزية أو الايطالية. ويجدر بنا أن نلاحظ أن المسئولين عنها جعلوا القبطية لغة أساسية، وذلك بخلاف ماحدث بعد الاحتلال وانتشار المدارس الأجنبية .

٢٦١ - ولما كانت شهادة الذين هم من خارج ، ذات وقع خاص فإننا نورد هنا ما سجله الياس الأيوبى فى حديثه عن المدارس التى نشرها الأمريكيون فقال : « وكانت مدرستهم الكبرى للصبيان بمصر فى بادىء الأمر فى يد أقباط اعتنقوا البروتستانتية ، ولم يكونوا يحسنون الادارة ولا التعليم . فكان كلاهما مختلا ، بخلاف مدرستى البنات فى حارة السقايين والازبكية (للأقباط) فانها كانتا من خيرة معاهد ذلك العصر » [١] .

كذلك وجد البابا ديمتريوس الثانى الفرصة مواتية لبناء السكن البابوى إلى جوار الكنيسة المرقسية من ناحيتها الغربية [٢] . ولما انتهى من بنائه أكمل العمارة التى كان قد بدأها فى عزبة دير الانبا مكارى الكبير أيام رياسته لهذ الدير.

٢٦٢ - ومما يجدر ذكره أن مصر فى السنوات الأولى من حكم اسماعيل أصبحت لها مكانة خاصة بين الدول ومن مظاهر هذه المكانة أن الخديوى تفاوض رأساً مع الدول الأوربية فى موضوع استبدال المحاكم القنصلية بالنظام القضائى

---

(١) شرحه جـ ١ ص ٢٢١ .

(٢) ظل هذا السكن مقراً للباباوات المرقسيين إلى نياحة الانبا كيرلس السادس (البابا الـ ١١٦) اذ قد نقله الانبا شنودة الثالث الى جوار الكتدرائية المرقسية العظمى بأرض الانبا رويس .

المختلط . كذلك جعل مصر تشترك فى معرض باريس حيث أقيم به قسم خاص لها جمع بين صنوف البهجة والعظمة ولفت الأنظار إلى الانتاج المصرى وامكانياته [١] .

ومن مآثر اسماعيل أيضا أنه استهدف استغلال الكفاءات : صحيح أن الوظائف العليا كمديرى المديريات مثلا ظلت فى أيدى الترك ، ولكن الوظائف الأخرى كانت مفتوحة للجميع - للمسلمين والقبط [٢] . ولهذا السبب نجد أن عدداً من الأراخنة قد برز فى هذا العصر .

٢٦٣ - على أن العمر لم يمتد بالانبا ديمتريوس الثانى كما امتد بسميه الأول [٣] . فلم تستمر باباويته غير سبع سنوات وسبعة شهور وثلاثة أيام وكان انتقاله إلى عالم النور ليلة عيد الغطاس ١١ طوبة سنة ١٥٨٦ ش . ولقد اشتركت الحكومة المصرية ورؤساء الطوائف المسيحية مع الاقباط فى احتفالهم بجنازته .

وعملا بالتقليد الكنسى اختير الانبا مرقس مطران البحيرة ليكون قائمقاماً بطريركياً إلى أن يتسلم البابا الجديد مهام كرامته . على أن الكرسى المرقسى ظل شاغراً أربع سنوات وتسعة أشهر وأربعة عشر يوما [٤] .

☩ ☩ ☩

(١) « مصر اسماعيل » لعبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) الياس الايوبى ج ١ ص ٦٢

(٣) انظر « ديمتريوس الكرام فى ج ١ من هذا الكتاب .

(٤) كامل صالح نخلة : « سلسلة .. » الحلقة الخامسة ص ٢٢٨ - ٢٣٤ ، ويؤسفنى أنى لم أعثر على ترجمة أى من المطارنة الذين ساندوا هذا البابا فى سعيه البناء .

ب - ثلاثة من الكهنة المشيطين

٢٦٤ - الايغومانس فيلوثاؤس **٢٦٥ - الايغومانس تادرس مينا**

٢٦٦ - القمص عبد الملاك الهوارى

٢٦٤ - رأت عيناه النور فى مدينة طنطا سنة ١٨٣٧ م ، وأبوه المعلم بغدادى صالح من أراخنة تلك المدينة ، وأمه الست مريم من عائلة النجارين بسبرباى . تلقى العلم فى الكتّاب تبعاً للتقليد القبطى آنذاك . فلما انتهى من هذه الدراسة الحقه أبوه بالعمل فى محل كبير للتجارة حيث تمرن خلال عمله على الأعمال الحسابية والتجارية . وبعد سنة واحدة من العمل رقاه صاحب المحل إلى باشكاتب للغة العربية - إذ كانت اللغات الاوربية المختلفة قد بدأت تظهر مذاك فى مختلف المحال والمصالح الحكومية . وفى تلك الفترة واظب على تعلم الايطالية إلى أن أجادها . ثم حدث أن زار سعيد باشا الوالى مدينة طنطا سنة ١٨٥٥ م فقابله الاراخنة ورجوا منه أن يأذن لهم ببناء كنيسة لان كنائسهم القديمة تهدمت ولم يتمكنوا من اقامة غيرها . فأعطاهم سعيد باشا فرماناً يخوّلهم الحق فى بناء كنيسة . ولكن رجال الحكومة المحليين أقاموا العراقيل الجمة فى سبيل تنفيذ الفرمان . فانتخب القبط المعلم فيلوثاؤس ومعه المعلم عوض صليب البيراوى لينوبا عنهم فى مقابلة سعيد باشا وبسط شكواهم أمامه . فسافر أربع مرات إلى الاسكندرية لهذا الغرض . وقد عاونهما فى مهمتهما المعلم فيلوثيئوس بشاى كاتب الوالى . وبهذا السعى المتواصل نجحوا فى وضع الحجر الاساسى فى ١٦ أبيب سنة ١٥٧١ ش بحضور رجال الحكومة . وتم بناء الكنيسة بهمة وسرعة حتى أن أول قداس أقيم فيها فى يوم الاحد ١١ بابه سنة ١٥٧٢ ش (أى أنهم لم يستغرقوا غير سنة وثلاثة شهور لإتمامها).

ثم صدر الامر بضم مديريتى الغربية والمنوفية معاً واطلاق اسم « روضة

البحرين ، على المديرية الجديدة على أن تظل طنطا العاصمة . وفى تلك الآونة تعين فيلوثاوس فى قلم المرتجالات ـ وكان ذلك سنة ١٨٥٥ . وذهب فى تلك السنة لزيارة صديقه المعلم عريان مفتاح فى القاهرة ، وذهب الصديقان معاً لنوال بركة كيرلس الرابع . وقد أعجب البابا الكبير بفصاحة فيلوثاوس وجرأته على التحدث فاقترح عليه الدخول إلى المدرسة الكبرى لتعلم الدين واللغة القبطية وغيرهما من العلوم . وأطاع الشاب اقتراح باباه وظل دائبا على التعلم واكتساب المعرفة إلى أن عيّنه البابا ناظراً للمدرسة التى أنشأها فى المنصورة . ولكنه اضطر إلى تركها بعد سنتين على أثر إستشهاد أبى الاصلاح ، فعُين المدرس الأول للغة القبطية فى حارة السقايين والثانى فى المدرسة الكبرى .

ثم احس أهالى طنطا بأنهم فى حاجة إلى كاهن مدرك لقيمة الرعاية فوقع اختيارهم على فيلوثاوس وأفصحوا عن رغبتهم إلى أنبا بولس مطران المنوفية . فأرسل إلى القاهرة يطلبه بحجة أن عنده كتابا يريده أن يصححه وبالطبع لبى الطلب وذهب . وفيما هو منشغل بالكتاب وضع المطران عليه اليد ليربطه عن العودة . وفى يوم الاربعاء ١١ يوليوسنة ١٨٦٢م أقيمت الشعائر المقدسة لتكريسه بحضور أنبا أثناسيوس أسقف أبو تيج وعدد من الكهنة والشمامسة والاراخنة من شعب طنطا الحاملين تزكيته . وكان ذلك فى كنيسة مار جرجس بحارة زويلة (بالقاهرة) ومن العجيب أن البابا ديمتريوس الثانى رسم بعد ذلك بأربعة أيام فرأى الاحتفاظ بالقس الجديد . ونتيجة لهذا الرأى ظل القس فيلوثاوس شهراً فى القاهرة ذهب بعده وفد من طنطا يلتمس من البابا إعادة كاهنهم اليهم . فقبل رجاءهم وأعاده معهم . ومن نعمة الله أن القمص تادرس ابن المعلم عوض صليب البيراوى كان كاهنا آنذاك فى طنطا فتعاون الاثنان معاً داخل الكهنوت كما كان أبو القمص تادرس قد تعاون مع المعلم فيلوثاوس أيام أن جاهدا معاً لبناء الكنيسة فى طنطا .

ومن أبرز صفات القس فيلوثاوس مقدرته الخطابية فكان يستأثر بقلوب سامعيه كلما وقف يعظهم . ثم وفقته العناية الإلهيـة إلى زيارة القدس فى موسم القيامة المجيدةمن سنة ١٥٧٩ ش ، فكان الخطيب المفوّه فى مختلف مناسبات أسبوع الآلام مما أكسبه مكانة خاصة فى قلوب محبى العقيدة الأرثوذكسية التى كان يوضحها بجلاء تام . فبعد عودته من القدس بمـــا يقرب من سنة ونصف رسمه مطرانه « أيغومانسا » (أى قصاً) .

وحدث أنه ذهب لزيارة الأراضى المقدسة للمرة الثانية سنة ١٨٦٦م ؛ وبعد الابتهاج بتعييد القيامة المجيدة قصد إلى بيروت ومنها إلى دمشق . وقد لاقى فى كلتى المدينتين كل إكرام وتعزيز لجرأته فى توضيح العقيدة الأرثوذكسية . وقد منحه البطريرك الأنطاكى الفرصة لتأدية شعائر القداس الإلهى تبعاً للطقس القبطى فى كنيسة السريان الأرثوذكس بدمشق وحضر القداس جمع من مختلف الكنائس أبدوا بعدها تقديرهم له حتى لقد ظل بعضهم يكاتبه فترة طويلة بعدها .

وعندما قام البابا ديمتريوس الثانى برحلته الرعوية إلى الصعيد لافتقاد شعبه حرصاً عليه من تلاعب المتلاعبين اصطحب معه الايغومانس فيلوثاوس . وخلال هذه الرحلة كان يقف فى كل مكان ليبين للقبط قيمـة تراثهم الروحى . بل إنه فى مرة من المرات ظل يتحدث ثلاث ساعات متوالية مبرهناً على صحـــة العقيدة الارثوذكسية . وأصغى إليه الجميع باهتمام بالغ إلى أن انتهى وعنـدها قال لهم الأب البابا ديمتريوس : « إن كل ما قاله الخطيب هـــو معتقد الكنيسة القبطية الصميم فاثبتوا على هذا التعليم القويم » .

كـذلك كان الأنبا ديمتريوس الثانى يستدعيه فى كل فترة من فترات امتحانات المدارس القبطية ـ إذ كانت الحكومة تهتم بها اهتماماً خاصاً . وفى الليلة التى انتقل

فيها البابا إلى الفردوس أرسل الأراخنة تلغرافاً يستدعونه . لجاء ووقف يرثى بابا، فى أثناء شعائر التجنيز . وبعدها طلب إليه هؤلاء الأراخنة أن يشرف على المدارس القبطية بالاضافة إلى عمله الراعوى فى طنطا فنزل على رغبتهم ووجه عناية كبرى إلى تلك المدارس .

وفى الحفلة التى أقيمت بمناسبة الامتحان - فى ٦ فبراير سنة ١٨٧١ م - وقف خطيبا كالمعتاد . ثم كتب مقالا فى مجلة الجنان ، يصف فيها هذا الامتحان نقتطف منها ما يلى :« .. حينئذ تخطروا ماضين إلى مجلس الاختبار . وأصوات الموسيقى تحاذيهم بتواقيع الفخر والاعتبار . إلى أن انتظم عقد ذلك المجلس الأنيس . وتمطر المقام بفوحات عبير أنسهم النفيس . وكان ذلك النادى حافـــلا ببدور الحكومة السنية الاسماعيلية . وغرر الدولة العزيزة العلية . حضرة المولى الأستاذ شيخ الجامع الازهر مفتى أفندى الديار المصرية . وحضرة الأستاذ العلامة مفتى مجلس الاحكام القطرية . وحضرات الذوات الكرام سعادتلو شريف باشا ناظر الداخلية . وسعادتلو منصور باشا صهر الحضرة الخديوية العليـــة . وسعادتلو إسماعيل باشا صديق ناظر المالية . وسعادتلو عبد الله باشا فكرى رئيس مجلس الاحكام المصرية . وسعادتلو راتب باشا رئيس مجلس شورى النواب . وسعادتلو حافظ باشا ناظر الدائرة السنية الرفيع الجناب . وسعادتلو بهجت باشا ناظر المدارس والاشغال الميرية . وسعادتلو أحمد باشا صادق محافظ مصر . وسعادتلو ثابت باشا وكيل الداخلية . وعزتلو محمد بك سيد أحمد ناظر قلم عربى الداخلية وسر كاتب المجالس الخصوصى الاكرم . وعزتلو مصطفى بك وهبـــه سر كاتب مجلس شورى النواب الافخم . وعزتلو إسماعيل بك الفلكى ناظر المهندسخانة والرصدخانة . وعزتلو السيد بك صالح مأمور إدارة المدارس الميرية المصانة . وعزتلو شافعى بك رئيس مدرسة الطب الشهير . وعزتلو عباس بك ناظر قلم تركى الداخلية ،

وحضرات الأمراء والأعيان والتجار . حضرة يوسف عبد الفتاح شاهبندر تجار مصر وباقى حضرات الأعيان أولى المحامد والفخار . ووجوه الملة المعتبرين الفخام. وسيادة السيد المطران وكيل البطريكخانة الكلى الاحترام . وقد شرّف كل فى مكانه . وأخذ افتتاح الامتحان فى إبانه . وكان المترأس عليه من أجزل المولى نعمه لديه . سعادة رفاعة بك رافع الشائع سنىّ صيته الذائع . تقدّم التلميذ الابتدائى تالياً خطبة استفتاحية . من قلم مصطفى افندى رضوان خوجا أول فرنساوى ذى الفصاحة الالمعية . وكان التلميذ يوسف وهبة أفندى النجيب. الذى أجاب بإيضاح اللفظ والمعنى المصيب . وتلاه التلميذ يسى أفندى عبد الشهيد الغصن البارع المجيد ... »[1] .

ثم عندما استقر رأى بعض الأراخنة على وجوب انشاء مجلس ملى للنهوض بمرافق الكنيسة كان الايغومانس فيلوثاوس من أوائل الساعين إلى انشائه لاقتناعه بأن الشورى خير سبيل للوصول إلى الاصلاح [2] . ولما تألف المجلس بالفعل

(١) قصدت تسجيل هذا الجزء من المقال لهدفين : أولهما اظهار مدى اهتمام رجال الدولة آنذاك بامتحانات المدارس القبطية كما يبدو ذلك واضحاً من سجل الأسماء الواردة ، وثانيهما المفارقات بين ما كانت عليه الامتحانات وما هى عليه الآن . والتلميذان المذكوران صارا قاضيين فيما بعد الأول بالمحكمة المختلطة بالاسكندرية والثانى بالمحاكم الأهلية .

(٢) كانت الشورى هى خطة الكنيسة القبطية منذ نشأتها بدليل أن قوانينها الأصيلة جعلت السلطة العليا فى المجمع لا فى البابا (مهما عظم قدر البابوات) ، وأنها سنت وجوب انتخاب الشعب لرعاته بمختلف درجاتهم : الكاهن والأسقف والبابا . بل لقد أعلن الأنبا ثيئوفيلس الكبير (البابا الاسكندرى الثالث والعشرون) أن انتخاب الرعاة محصور فى الشعب وما على الاساقفة غير وضع اليد ورسامة المختار منه . ولئن حصل فى بعض الفترات تقصير فى تنفيذ هذا الاشتراع الكنسى الأصيل فلا يبرر هذا التقصير المآسى التى حدثت نتيجة التنازع بين من هم المفروض فيهم أنهم أراخنة وبين رجال الكهنوت . ثم علينا أن ندرك أن التقصير لم يحدث من جانب واحد : فكان أحيانا من جانب رجال الدين وأخرى من الأراخنة خاصة والشعب عامة . راجع ما كتبه الأنبا شنودة (أسقف التربية الكنسية) فى الكرازة بعدد أكتوبر سنة ١٩٦٥ ص ٣ بعنوان « من حق الشعب أن يختار راعيه » ليدرك مسئوليته بإزاء الكنيسة .

حدث أن تعدى بعض الرعاع فى الصعيد على الكهنة فرأى المجلس أن خير من يستعرض موضوع هذا التعدى على المسامع السنية هو الايغومانس فيلوثاوس[1]. فذهب إلى قصر الخديوى إسماعيل وقابله شخصيا وبق معه نصف ساعة استعرض خلالها تفصيلات الحادث بفصاحته المعهودة فكانت النتيجة أن أمر إسماعيل باشا بانصاف المظلومين ومعاقبة المعتدين . وعلى أثر ذلك قرر المجلس الملى فى جلسته المنعقدة يوم الثلاثاء ١١ بابة ١٥٩١ ش (١٨٧٤/١٠/٢٠) بانتخابه واعظاً للكنيسة المرقسية وناظراً على مدرسة دينية مزمع انشاءها . إلا أنه بعد شكره إياهم على ثقتهم استمهلهم ريثما تتم الانتخابات البابوية .

• • • •

وفى يوم الأحد ٢٣ بابة سنة ١٥٩١ ش أقيمت الشعائر المقدسة التى رفعت الراهب يوحنا الناسخ إلى الكرامة البابوية فأصبح الأنبا كيرلس الخامس البابا المرقسى الثانى عشر بعد المئة . وبعد اعتلائه الكرسى المرقسى بحوالى أربعة شهور (أى فى أمشير من السنة عينها) افتتحت المدرسة الدينية المرموقة فى حفل حافل دارت فيه الخطب والتهانى وعين الايغومانس فيلوثاوس ناظراً عليها وخادماً للكنيسة المرقسية . إلا أن المدرسة لم تستمر طويلا بسبب المنازعات التى قامت بين المجلس الملى والبابا كيرلس الخامس . فاقتصر عمل الايغومانس فيلوثاوس على الرعاية الكهنوتية .

وفى ٢٤ بؤونة سنة ١٥٩٧ ش (٢٩ / ٦ / ١٨٨١) أنعم الخديوى توفيق باشا بالنيشان المجيدى من الطبقة الاولى على الأنبا كيرلس الخامس ، وبالنيشان عينه من الطبقة الخامسة على الايغومانس فيلوثاوس . وفى هذا المنح تقدير من

(١) أى أنهم رغم كونهم نواب الشعب لم يجدوا محامياً يدافع عن الشعب مثل الكاهن .

الخديوى لخدمات الكاهن الذى نشط فى العمل على استرجاع القبط الذين زاغوا إلى أمم الحنون الكنيسة القبطية المصرية الصميمة .

ولقد داوم على هذا النشاط إلى حد أن أهالى أسيوط المخلصين لكنيستهم بعثوا إليه فى شهر بابة سنة ١٦٠٠ ش أن يذهب إليهم ليوجّه ويعلم مستهدفاً استعادة القبط الشاردين . فعرض موضوعهم على البابا كيرلس الخامس الذى شجعه على تلبية طلبهم . فقضى خمسة وأربعين يوماً مواظباً على التعليم وتوضيح العقيدة فى اجتماعات نهارية وليلية . وآزرته النعمة الإلهية فنجح فى مهمته نجاحاً بالغاً . وفى عودته زار عدداً من البلاد التى مرّ بها وقام فيها بنفس الرسالة . لحق عليه قول بولس الرسول : « أما الشيوخ المدبرون حسنا فليحسبوا أهلا لكرامة مضاعفة ولا سيما الذين يتعبون فى الكلمة والتعليم[1] » .

وبعد أن استراح من هذه الرحلة وفرح بزواج ابنته من المؤرخ جرجس فيلوثاوس عوض عاوده الحنين إلى الجهاد فى سبيل الكنيسة وتدعيم عقيدتها . فسافر إلى الصعيد مرة أخرى وصل فيها إلى أســوان فالشلالات . وقد كسب خلال هذه الرحلة الأنفس الكثيرة مجتذباً اياها إلى العقيدة القويمة . وقد قضى شهرين فى هذه الرحلة تنقل خلالها فى مختلف البلاد . وحين عاد إلى أسيوط كان زحام الناس على سماعه شديداً إلى حد أن البعض كان يجلس على الشبابيك . ولقد فرح القبط بثمار جهاده أيما فرح .

على أن جهاده المتواصل فى مختلف البلاد المصرية لم يعقه عن التأليف ، فوضع

(١) هنا أيضا مثل واضح عن تيقظ آباء الكنيسة القبطية وذودهم عن عقيدتها . فان تساءل البعض لماذا إذن نجحت الارساليات الأجنبية فى اقتناص عدد من القبط نجيبهم بيت الشعر المأثور :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت ما تبنيه غيرك يهدمه

عدة كتب ما زالت بين الأيدى بحمد الله . وهذه الكتب هى : ١ - كتاب نفح العبير فى الرد على البشير - وهو كتاب يذود فيه عن عقيدة الكنيسة القبطية فيما يختص بتجسد الكلمة الذى جمع بين اللاهوت والناسوت . يثبت بالبراهين المنطقية والكتابية أن هذه العقيدة هى التى سلمها الرسل للمؤمنين . وقد وضع هذا الكتاب على أثر مناقشة دارت بين مجموعتين من الناس يعرف مجموعة منها باسم « أولاد البشير » . ٢ - كتاب الحجة الأرثوذكسية ضد اللهجة الرومانية - ينفى فيها مزاعم رومية عن الأولوية ويدحض البدع التى ابتدعتها تلك الكنيسة. ٣ - خطبة عن ميلاد المسيح - أوضح فيها صحة العقيدة باللاهوت المتأنس وشرح النبوءات التى وردت عنه . ٤ - خطبة عن القيامة - هى استكمال لحديثه عن الميلاد العجيب . ٥ - مختصر التعليم المسيحى - لتعليم المبتدئين ، وهذا الكتاب طبع عدة مرات لنفاذه المرة بعد المرة . وآخر طبعة كانت على نفقـــة البابا كيرلس الخامس . ٦ - نبذة بعنوان « الله الواحد » . ٧ - نبذة بعنوان « حكمة الشريعة فى ترجمة صلوات البيعة » . ٨ - « الخلاصة القانونية فى الأحوال الشخصية » - وضعه تلبيـة لطلب نظارة الحقانية (وزارة العـــدل) إلى البطريركية بالاجابة على مسائل فى الأحوال الشخصية . ٩ - نبذة تاريخية عن « تتمة الكلام على الكنائس والأديرة المصرية » كان قد طلبها منه على باشا مبـــارك ناظر المعارف (وزير التربية والتعليم) وأدرجها ضمن كتابه الضخم « الخطط التوفيقيـــة » فى جزئه السادس . ١٠ - كتاب فى الوعظ . ١١ - مقالات عديدة نشرها فى مجلات ذلك العهد مثل « الحديقة » و « الجنان » و « النحلة » و « الحق » و « والتوفيق » كان يجيب فيها على الأسئلة الشرعية والدينية .

وحدث فى ٢٤ طوبة سنة ١٦١٦ ش[1] (١/٢/١٩٠٠) أن رأى الخديوى

(١) يلاحظ هنا استعمال التاريخ القبطى باستمرار تبعاً لتوجيه أبى الاصلاح .

عباس حلمى الثانى أن يكافئه على خدماته الوفيرة فأنعم عليه بالنيشان العثمانى من الدرجة الرابعة وألبسه إياه بيده شخصياً . وكان ذلك بمناسبة ذهابه إلى القصر الخديوى للتهنئة بعيد الفطر . وهكذا نجد - ابتداءً من حكم محمد على - امتنانات كريمة عديدة من حكام مصر نحو بنيها القبط .

وبعد هذا الجهاد غير المنقطع خلال ثلاث وأربعين سنة لبي نداء ربه وانتقل من هذه الدار الفانية ليعيش فى الباقية . وكان ذلك فى يوم الخميس ١ برمهات سنة ١٦٢٠ ش (١٠ /٣/ ١٩٠٤) . وقد مرت موجة من الحزن لفقده فتجمّع رجال البطريركية حول جثمانه وأدوّا له خدمة المحبة وجنّزوه ودفنوه على حساب الكنيسة التى خدمها السنين الطويلة . كما أن الخديوى - عباس حلمى - أوفد مندوباً عنه ليقدم تعازيه وهو عزتلو على بك جاهين الذى سار فى موكب الجنازة لغاية باب الكنيسة المرقسية [١] . وخير ملخص لحياة هذا الخادم الأمين قول الكتاب « ذكرى الصديق للبركة » .

٢٦٥ - كان الايغومانس تادرس مينا كاهناً لكنيسة مار مينا العجايبى بفم الخليج فاهتم بترميمها وتجديدها وترتيب المنازل المحيطة بها ترتيباً متناسقاً كما أنه كان نشطاً مجتهداً ذا قدرة على العمل بلا كلل . تولى إدارة البطريكخانة عدة سنوات كان فيها صاحب الكلمة المسموعة النافذة . وحينما قام النزاع بين رجال المجلس الملى [٢] وبين البابا كيرلس الخامس أعطى ولاءه الخالص لباباه إلى حد جعل خصومه يقولون عنه « كان يمكن أن يكون من أعاظم الرجال لو أنه استعمل مقدرته الفائقة فى الاصلاح » . (أى مع رجال المجلس الملى ومشايعيهم) ! ثم

(١) راجع تفاصيل سيرته فى كتاب « تاريخ الايغومانس فيلوثاوس » لجرجس فيلوثاوس عوض .

(٢) ذكرت هؤلاء أولا (مع جزيل احترامى للبابا) لأنهم هم الذين تعدوا على تقاليد الكنيسة وعلى الحق الواجب مراعاته . والملحوظة التى ذكرناها عنهم توضح هذا .

اعتزل الخدمة فى البطريركية وتفرغ لشئون كنيسته . فأضاف إلى عمـــارتها اضافات جديدة . وكان على جانب كبير من الجرأة حتى أنه كان يجد حلا لكل مشكلة من المشاكل الشرعية التى تعرض عليه دون أن يخشى سطوة القانون ودون أن يعبأ بما قد يصيبه هو شخصياً نتيجة للحل الذى ارتضاه ونفذه [1] .

٢٦٦ - كان رهبان دير السيدة العذراء المعروف بالمحرق لا يزيدون على أفراد قلائل فى أواخر القرن الثامن عشر . والغريب أنه لم يوجد بينهم واحد حصل على رتبة القسيسية . فكان يأتيهم كاهن من القوصية أو من السراقنة ليؤدى لهم شعائر القداس الإلهى أيام الآحاد والأعياد . ثم حدث أنه نال أحدهم كرامة الكهنوت - وهو القمص عبد المـــلاك الهوارى - فاختير رئيساً . وكان يتميز بالحزم والشجاعة وعمق التفكير فحرر الرهبان من الحاجة إلى كهنة البلاد المجاورة. ومـــا يرويه عنه معاصروه والذين عاشوا تحت رياسته أن الضيم اشتد بالرهبان وضاقت بهم السبل فاستصحب القمص عبد الملاك الهوارى خمسة عشر راهبـا وذهبوا جميعاً إلى اسطنبول حيث التمس مقابلة السلطان . فلما حظى بالدخول إلى حضرته استعرض معه كل ما يلاقيه الرهبان من شدة وظلم .وأصغى إليه السلطان حتى أتم حديثه ثم أعطاه فرماناً يحدد أملاك الدير ويصون استقلاله كما يصون رهبانه من بطش الحكام . ومع كل هذه الخدمات فقد حدث أن اشتكاه بعض الرهبان إلى الأنبا ديمتريوس الثانى فلما استمع إلى شكواهم وجدها تافهة إلى حد أنه لطم زعيمهم على خده وحكم عليه بالذهاب إلى دير البرموس (بوادى النطرون) بدلا من العودة إلى ديره . أما بقية الرهبان فقد أعادهم إلى ديرهم بعد أن زوّدهم بنصيحته وبركته الأبوية [2].

---

(١) « تاريخ الايغومانوس . . . » لجرجس فيلوثاوس عوض ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) الأديرة . . . لصموئيل تاوضروس السريانى ص ٢١٣ - ٢١٤ .

جـ - أراخنة هذا العصر

٢٦٧ - يعقوب بك نخلة روفيلة   ٢٦٨ - بعض معاصريه

٢٦٧ - تخرج يعقوب من المدرسة الكبرى التى كان قد أنشأها أبو الاصلاح . ثم اشتغل مدرساً للغتين الانجليزية والايطالية فى المدرسة التى تخرَّج منها ، ثم أصبح ناظرها . وبعد ذلك عيَّنته الحكومة فى المطبعة الأميرية فاكتسب من الخبرة ما أهله لان يكون رئيساً لمطبعة جمعية التوفيق عندما تقرر إنشاء هذه المطبعة ، وفى الوقت عينه كان مرشداً فى انشاء مطبعة الوطن القديمة وجريدتها . ثم نقله المسئولون إلى وظيفة كبرى فى مصلحة الأملاك الأميرية وأنعم عليه الخديوى برتبة البكوية . ورأى بعد ذلك أن يعتزل العمل الحكومى وذهب إلى الاسكندرية حيث قضى سنتين استدعته بعدها الحكومة وعينته سكرتيراً لادارة سكة حديد الفيوم . وأثناء إقامته بتلك المدينة خدم كنائس الايبارشية هناك كما أسس فيها مدرستين وفرعاً لجمعية التوفيق . ومما يجدر ذكره أنه حين كان يعمل بالمطبعة الاميرية لم يعقه عمله الحكومى عن خدمة كنيسته فأسس مدرسة قبطية بالفجالة أصبحت فيما بعد الأساس الذى قامت عليه مدارس جمعية التوفيق إلا أن أعظم خدمة أسداها لوطنه ولكنيسته هى كتابه « تاريخ الامة القبطية » الذى ما زال حجة يستند إليه الكتاب فى عصرنا هذا . ومن الواضح أنه كان كالنحلة الدؤوب إذ قد وضع كتابين آخرين غير كتاب تاريخه العظيم : أولها « التحفة المرضية فى تعليم الانكليز اللغة العربية » ، وثانيهما « الابريز فى تعلم لغة الانكليز » . ووضع لكل فريق طريقة نطق ألفاظ اللغة المراد تعلمها بلغة الطالب الساعى إلى تعلم اللغة الاخرى . وبالاضافة فقد وضع « قاموس الاصطلاحات » الذى ظل مخطوطاً لم يطبع . وإلى جانب أعماله العديدة التى ذكرناها فإنه فاز بعضوية المجلس

الملي الذي جرت انتخاباته في ٢٢ مارس سنة ١٨٨٣م ثم أعيد انتخابه في ٢٩ يونيو سنة ١٨٩٢م . وبين سني الانتخابات اشتغل عضواً في قومسيون المدارس . ونشط أيضاً في تأسيس « النادي القبطي » . ولم يكتف بذلك بل أسس نادياً علمياً أطلق عليه اسم « النادي المصري - الانجليزي للمحاورات [1] » استهدف منه تمكين المصريين من التضلع في اللغة الانجليزيه ، فكان يرأس الاجتماع أستاذ انجليزى خبير بآداب لغته القومية . ثم يتناقش أمامه الشبان المصريون ويتحاورون باللغة الانجليزية في موضوع معين . وفي النهاية يعلن الرئيس اسم (أو أسماء) من أجاد منهم .

ولقد شاء الله أن يمد في عمره فنشأ في عهد كيرلس أبي الاصلاح وخدم تحت رياسة البابا ديمتريوس الثاني وخلال الفترة الأولى من باباوية الانبا كيرلس الخامس إذ قد انتقل إلى دار الخلود سنة ١٩٠٥م [2] .

٢٦٨ - أما بعض معاصريه فهم : وهبه بك الجيزاوى - كان رئيساً لكتبة وزارة المالية كما أنه اشتغل بالحركة الكنسية الاصلاحية ، تادرس عريان من أعيان أم خنان (بالجيزة) - كان رئيساً لديوان المالية واشتغل بعض الوقت في الخرطوم ، وفوق هذا فقد كان سخياً في معاملة إخوته الفقراء ، لم يعطهم من ماله في حياته فقط بل أوقف عليهم جزءاً من أملاكه أيضاً . وقد برز أولاده الأربعة في الحياة العامة وهم : ١ - عريان بك تادرس - كان باراً تقياً محباً للفقراء ، وقد وصل إلى رياسة كتبة وزارة المالية ، ٢ - باسيلي باشا تادرس - كان مستشاراً في محكمة الاستئناف الأهلية ، فلما أحيل إلى المعاش اختير لأن يكون الرئيس الفخرى للمحاكم المختلطة ، ٣ - سيدهم أفندى تادرس - اشتغل بالأعمال الحرة وكان

(1) Anglo – Egyptian Discussion Club .

(٢) « تاريخ . . . » لجرجس فيلوثاوس عوض ص ١١٧ — ١٢٨ .

من كبار موظفى البنوك الأجنبية ، ٤ - كركور أفندى تادرس اشتغل بإدارة أطيان العائلة ، سعد بك ميخائيل عبده - من خريجى مدرسة حارة السقايين . كان من كبار موظفى الحكومة وقد ساهم بنصيب وافر فى بناء كنيسة الملاك غبريال (بذلك الحى) ، وأبدى اهتماماً بالغاً بتلاميذ مدرسة حارة السقايين إلى حد أنه كان يعطيهم الكسوة ، مرقص بك يوسف من أراخنة مدينة طنطا - اشتغل فى مركز مديريتها إلى إن أصبح كبير كتبتها . أسس الجمعية الخيرية القبطية وبنى مدرسة الأقباط الكبرى هناك كما ساهم مساهمة فعالة فى تجديد كنيسة السيدة العذراء وأوقف الأطيان لصرف عليها وعلى المدرسة ، ابراهيم بك روفائيل الطوخى من طوخ النصارى بالمنوفية ، تنقل فى دوائر الحكومة ووظائفها إلى أن عين مستشاراً فى محكمة الاستئناف الأهلية . وقد كان لاهوتياً ضليعاً كتب ستة مؤلفات دينية فى مختلف الموضوعات كما أنه راجع كتاب تفسير سفر الرؤيا لابن كاتب قيصر واستدرك ما فيه من خطأ ثم أعاد طبعه . فاز بعضوية المجلس الملى الأول سنة ١٨٧٣م ، ووضع مع زملائه فى تلك السنة لائحة بنظام واختصاصات هذا المجلس . ونجح أيضاً فى انتخابات سنة ١٨٩٢ بعد أعادة تنظيم المجلس وتشكيله[١] ، نخلة بك يعقوب ابن المؤرخ يعقوب نخلة روفيلة - تخصص فى دراسة أعمال السكك الحديدية فى فرنسا ، فلما عاد عينته الحكومة بتلك المصلحة ، برسوم بك جريس - كان قاضياً بالمحكمة الأهلية بأسيوط ، عزوز أفندى متريوس البياضى - كان من العاملين على الاصلاح ، وله ابن من الادباء المعروفين اسمه توفيق أفندى عزوز . جندى بك يوسف القصبجى - كان من موظفى الحكومة ومن الأعضاء العاملين فى الجمعيات القبطية[٢] ، عزتلو تادرس بك ابراهيم - كان قاضياً من الدرجة الأولى فى المحاكم

(١) كامل صالح نخله : «سلسلة ...» الحلقة الخامسة ص٢٣٥ - ٢٣٩ و٢٤٣ - ٢٤٤
(٢) « تاريخ . . » لجرجس فيلوثاوس عوض ص ١٢٨ - ١٣٠ .

الأهلية ، تادرس شلبي الذى تربى فى المدرسة الكبرى ، وكان من العاملين المجاهدين فى الكنيسة باذلا الجهد والمال فى تعمير الكنائس والاديرة وبخاصة الكنيسة المرقسية بالازبكية . ثم أقيم وكيلا عاماً على إدارة البطريركية . ومع كونه ذا كلمة نافذة فقد كان متواضعاً هادىء الطبع ، محسناً محباً ومحبوباً من الجميع ، دميان بك جاد شيحة - كان له مكانة خاصة لدى الخديوى اسماعيل ورجال حكومته لتواضعه ومحبته الجميع ، ولسخائه فى العطاء من غير تفرقة بين قبطى ومسلم . ويمكننا تقدير مكانته متى عرفنا أن دواوين الحكومة تعطلت يوم وفاته ، وأن الأمراء والوزراء ساروا فى جنازته(١) .

الشقيقان ابراهيم بك وصالح نخلة - إن المعلم نخلة ابراهيم كاتم سر شريف باشا الكبير والذى خدم فى عهد البابا بطرس الجاولى ، قد ربّى أولاده أحسن تربية ممكنة آنذاك . فأسسهم من البداية على المبادىء المسيحية ومعرفة العقيدة الأرثوذكسية ، ثم علمهم الكتابة والحساب ومسك الدفاتر والانشاء بالاضافة إلى اللغة القبطية ، ولما انتهوا من الدراسة وبلغوا سن الشباب برز منهم اثنان هما ابراهيم (الابن الأكبر) وصالح (الذى يليه) . واشتغل الأول فى إدارة شئون دائرة الثرى الشهير الكونت زغيب الذى كان يقطن الاسكندرية . بينما اشتغل الثانى فترة قصيرة فى بنك قطاوى بالاسكندرية ثم ترك هذه الوظيفة ليشتغل وظيفة رئيس الحسابات بدائرة الأمير فاضل باشا بالاسكندرية أيضاً . ولكنه لم يلبث أن ترك هذا العمل أيضاً ليعمل رئيساً لحسابات الدائرة البلدية .

وقد خدم هذان الشقيقان الكنيسة فى صدق وولاء ، ورأسا العمل على

---

(١) شرحه ص ١١٢ - وهذا الكشف رغم قصوره يبين لنا مدى يقظة القبط ونشاطهم فى مختلف الميادين .

تشييد كتدرائية عظمى بالاسكندرية تليق بمكانة البشير الشهيد . وتعاون معهما قبط المدينة فأعادوا بناء هذه الكنيسة بشكل أبهج قلوب المؤمنين .

ثم رأى ابراهيم بك وأخوه صالح أن المدرسة أجدى وسيلة للنهوض بالشعب، فقاما ببنائها . ثم افتتحاها على النظام البيداجوجى الحديث . فكانت لهذه المدرسة المكانة الأولى إذ لم تكن هناك مدارس مصرية غير مدرسة رأس التين والمدرستين اللتين أقيما فى عهد البابا ديمتريوس الثانى . وقد افتتحها الشقيقان لجميع المواطنين بغير تفرقة بين قبطى ومسلم كما كانت العادة فى بقية المدارس القبطية . لذلك ذاع صيتها فجاءها الطلبة من مختلف الجهات حتى لقد تتلمذ فيها أبناء الطوائف الأجنبية.

كذلك نظم ابراهيم بك وأخوه صالح الدار البابوية فعدلا بناءها وشيّدا طابقاً أعلا ليكون سكناً للبابا عند ذهابه إلى الاسكندرية . ولما كمل بناؤه فرشاه بأجمل الأثاث . ولقد شملهما كل من البابا ديمتريوس الثانى والبابا كيرلس الخامس بعطفه وزوّدهما ببركاته . وحينما رأى الأنبا كيرلس مدى نجاح ابراهيم بك وأخيـــه فى عملهما اليومى عين ابراهيم ناظراً على الأوقاف المرقسية وعلى مدرستها، بينما عين صالحاً ناظراً على الكنيسة المرقسية، تقديراً من قداسته للجهود التى بذلاها فى خدمة أمتهما ونشر العلم بين أبنائها .

وانتقل صالح الشقيق الأصغر إلى الفردوس سنة ١٨٨٧ م وهو فى المنصورة للاستجمام وكان البابا كيرلس الخامس يحبه حباً جماً ، فرأى - تكريما لذكراه - أن يضع عمله فى يدى أخيه . ولقد استجاب ابراهيم بك لهذا العطف البابوى إذ أنه لما قام النزاع بين البابا والمجلس الملى جاهد بكل خفقات قلبه لازالة الخلاف . فكان ضمن من حققوا للشعب رغبته فى عودة باباه من المنفى .

وحدث أن زارت ملكة البرتغال مصر ، وعمل ابراهيم بك كل ما فى وسعه

لراحتها . فلما عزمت على العودة أنعمت عليه حكومتها بنيشان رفيع ، كما أن الخديوى منحه النيشان المجيدى من الطبقة الخامسة مع رتبة البكوية . وفى الوقت نفسه عينوه سكرتيراً شرقياً للقنصلية البرتغالية بالاسكندرية .

ولم يدفعه هذا التقدير إلى التشامخ بل ظل على وداعته وعلى التعاون مع بنى قومه . وحينما كان أرمانيوس بك حنا مدير الادارة البطريركية منهمكا فى تجميل الكتدرائية المرقسية بالاسكندرية تعاون ابراهيم بك معه على فرش أرضية الكنيسة وأرصفتها بالرخام الايطالى . ولقد كان فى نيته أيضاً أن يشيد مدرسة كبرى فى ساحة الكتدرائية المرقسية . فأعد الرسومات الحديثة واستحضر مواد البناء استعداداً لارساء الحجر الأساسى بعد الاحتفاء بعيد القيامة سنة ١٩٠٦ . ولكنه - بعد أن اشترك فى صلوات الجمعة الكبيرة وعاد إلى بيته موفور الصحة هادىء النفس انتقل فجأة إلى الفردوس فجر سبت النور . فعم الحزن القلوب على فقده واحتفلوا بتشييع جنازته احتفالا شعبياً رائعاً . ومما قاله صديقه فرنسيس بك غبريال عميد القبط بالاسكندرية فى تأبينه هذه الجملة : « لو عملت لك الأمة تمثالا لما كافأتك على جليل أعمالك »[1] .

ميخائيل بك شاروبيم - بدأ دراسته فى مدرسة حارة السقايين . وكان مولعاً بالكتابة منذ صباه فكتب عدة قصص على نمط كتاب « العيون اليواقظ » قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره . ولما بلغها عُين فى قلم التحريرات الافرنجية بنظارة المالية واشتغل سنتين عُين بعدهما مترجماً بها فسكرتيراً لاسماعيل باشا صديق . وفى سنة ١٨٧٦ عُين سكرتيراً لمدير الجمارك ووكيلا له . ثم انتدب لادارة جمارك دمياط فجعلها مستقرة قائمة على قاعدة ثابتة . وتقديراً له رقوه أميناً بجمركها . فى سنة ١٨٨٠ أصبح أميناً لجمرك بورسعيد . ثم استقال لأسباب صحية وعاد إلى القاهرة . ولم يلبث

(١) كامل صالح نخلة : « سلسلة ... » الحلقة الخامسة ص ٢٣٩ - ٢٤٣ .

طويلا إذ قد استدعوه وعينوه مفتشاً للمراقبة الثنائية (مراقبة انجلترا وفرنسا) سنة ١٨٨٢ . ثم أقيم قاضياً بمحكمة المنصورة الأهلية سنة ١٨٨٤ فرئيساً لنيابة تلك المحكمة . وفى يوليو من السنة عينها منحه الخديوى رتبة البكوية ، وفى نوفمبر منها نال من حكومة اليونان وسام «كومندور» من الدرجة الرابعة . وبعد أربعة شهور فقط منحته إيران وسام الشمس والأسد ، بينما منحـــه ملك أسبانيا سنة ١٨٨٨ وسام القديس يوحنا من طبقة شفاليه .

وحدث أن قام صدام بينه وبين رياض باشا فى أغسطس سنة ١٨٨٨ لم تنفع فيه وساطة الخديوى نفسه . فاعتزل العمل الحكومى وذهب إلى بنى سويف (مسقط رأسه) حيث اشتغل بزراعة أطيانه وعكف على تأليف كتابه الكبير «الكافى» فى تاريخ مصر . ثم أرسل إليه مظلوم باشا وزير المالية يستدعيه فنزل كارهاً ، ورجا منه الوزير أن يقبل منصب مدير مصلحة مساحة أطيان عموم القطر . فاعتذر ثم قبل فى النهاية لالحاح الوزير ووكيل الوزارة . فسلماه على الفور المنشورات والأوامر المالية والقرارات الوزارية وكلفاه بعمل قانون يكون إليه المرجع فى ملفت زمام المديريات . فأتم العمل على أحسن ما يرام وعلى ذلك منحه الخديوى النيشان العثمانى من الدرجة الرابعة سنة ١٨٩٧ . وظل فى عمله هذا إلى سنة ١٨٩٩ حين أصبح ناظر إدارة أملاك الميرى الحرة بوزارة المالية . وفى آخر تلك السنة عين مديراً لأملاك الميرى بمدينة الاسكندرية وبينما هو فيها منحه نجاشى الحبشة نيشان نجمة الافتخار فى أغسطس سنة ١٩٠٠ . وظل بالثغر إلى سنة ١٩٠٢ حين استدعته وزارة المالية وعينته ناظراً لأملا كها . ولكنه رأى أن يستقيل للتفرغ لأعماله الخاصة فقبل طلبه . فعاد إلى تفليح أرضه واستكمال كتـــابه وتعضيد المشروعات الخيرية والادبية [1]

(١) مشاهير القبط لرمزى تادرس ج ٣ ص ٢٨ ـ ٣٢ .

وهبي بك تادرس ـ من مواليد حارة زويلة فى غضون سنة ١٨٦٠ . بدأ دراسته بمدرسة الأرمن بدرب الجنينة حيث قضى سنتين نال بعدهما جائزة سنية. ثم التحق بالأقباط الكبرى التى آنذاك أشبه بكلية علمية . وقد ظل دائباً على تحصيل العلم إلى أن ظهر فى العقد الثالث من عمره أستاذاً فاضلا وكاتباً مجيداً وشاعراً مطبوعا . ثم انتظم فى سلك الترجمة بنظارة المعارف. وخلال عمله نجح فى الالتحاق بالأزهر كما اشتغل بالتحرير فى مجلة « روضة المدارس المصرية » وقد نشر فيها كتاب « الدر الثمين فى تاريخ المارشال طورين » و « بهجة النفوس فى سيرة أرتينيثوس » و« رسالة الاختراعات الحديثة » . ثم اختارته البطريركية لتدريس اللغتين العربية والفرنسية بمدرسة حارة السقايين . وخلال عمله تعلم القبطية ودرسها وصنف فيها ، ودرس أيضا بمدرسة الروم الكاثوليك . وقد ظل يدير مدرسة حارة السقايين ثمانى عشرة سنة نقلته البطريركية بعدها ليدير المدرسة الكبرى ، ثم نظم المدارس التابعة للبطريركية . وفى سنة ١٨٨٩ نال البكوية ، وبمناسبتها نشرت نظارة المعارف فى الجريدة الرسمية عنه « انه نال هذا الانعام مكافأة له على كسب المعارف ونشرها بين العموم . أما كتبه فهى : ١ ـ « العقد الأنفس فى ملخص التاريخ المقدس » ـ وهذا ترجمه عن الفرنسية وطبعه بمطبعة الوطن القديمة ، ٢ ـ التحفة الوهبية فى تقريب اللغة الفرنسية ، ٣ ـ رسالة بعنوان : « ارتشاف الراوى من صرف النحو الفرنسوى » ، ٤ ـ « الخلاصة الذهبية فى علم العربية » ، ٥ ـ مرآة الظرف فى فن الصرف ، ٦ ـ « عنوان التوفيق فى قصة يوسف الصديق» ـ وهذه قد مثلت بحضور الخديوى توفيق باشا ، ٧ ـ الأثر النفيس فى تاريخ بطرس الأكبر ومحاكمة الكسيس ـ مثلت أيضا فى دار الأوبرا ، ٨ ـ رواية تلماك (مترجمة عن الفرنسية) ، ٩ ـ كتاب باللغة القبطية لتدريس المبتدئين ـ وهذا طبع عدة مرات . وله غير هذه كتب لم تطبع ، هى : « تاريخ مصر مع فلسفة

التاريخ وكتاب مطول فى فنون الأدب وديوان شعر ونثر [١] .

جندى بك إبراهيم - ولد سنة ١٨٦٤ بناحية شندويل (بجرجا) وبدأ التعلم فى الكتاب . ثم توفى أبوه فأرسله عمه - حين بلغ الحادية عشرة من عمره - إلى القاهرة ليعيش مع أخيه الكبير خليل بك إبراهيم الذى كان فى ذلك الوقت يشتغل فى دائرة على باشا شريف فأدخله أخوه المدرسة السكرى . ولما وصل إلى الصف الأول فيها رغب فى أن يؤلف من زملائه جمعية أدبية للمناظرة والخطابة . ولكن ناظر المدرسة فرج داود خشى أن يؤدى تجمع الطلبة إلى التمرد الطارىء فحال دون تحقيق هذه الرغبة . فاضطر إلى ترك المدرسة والالتحاق بمدرسة الفرير المجانية حيث قضى سنة واحدة فقط . وكان له صديق اسمه الشيخ القناوى - وهو أحد مدرسى المدرسة السكرى - تمكن بواسطته من الدخول إلى الأزهر للدراسة فيه باسم « الشيخ إبراهيم الجندى » . فقضى سنة بالأزهر أيضاً . ثم عين بوزارة المالية « تحت التمرين » سنة ١٨٨٣ ، وبعدها بسنة فى قلم قضايا الحقانية . ولما تشكلت المحاكم الأهلية عين محضراً بمحكمة مصر ، فكان أول مستخدم فيها بدأ بكتابة المحاضر . وكان القبطى الأرثوذكسى الوحيد فى جمعية الاعتدال [٢] التى كانت آنذاك تحت رياسة الصحفى فارس نمر كما كانت ميداناً للخطابة والمناظرة . وكان نظراؤه ومجادلوه فى أغلب الأحيان أحمد بك زكى سكرتير مجلس النظار والشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد . ولقد انضم إلى جمعية التوفيق وحرر فى جريدتها كما حرر فى جريدة مصر بعد ذلك . وانتهى به الأمر إلى ترك الوظيفة الحكومية للتركيز على العمل فى جريدة « الوطن » التى أصبح رئيس تحريرها [٣] .

(١) شرحه ج ٣ ص ٣٤ - ٣٩ - ومرة أخرى نلحظ نشاط الفكر القبطى فى مختلف الميادين دون أن يكونوا قد تعلموا فى المدارس الغربية .

(٢) هى جمعية أسسها المرسلون الأمريكيون تستهدف منع المسكرات .

(٣) مشاهير الأقباط فى القرن التاسع عشر لرمزى تادرس ج ٣ ص ٥١ - ٥٣ .

يوسف بك وهبي - ولد بالقاهرة سنة ١٨٥٢، ودخل مدرسة الأقباط الكبرى. وكان ذا قريحة وقادة استطاع بها أن يتقن الفرنسية والانجليزية والعلوم الرياضية. فلما تخرج عُين تحت التمرين بقلم الكتَّاب بوزارة المالية، وأثبت باجتهاده لياقته لتعيين رسمياً. فظل على اجتهاده مما أوصله إلى أن يكون كاتباً بقلم الترجمة بنظارة الحقانية سنة ١٨٧٥. وحينما تألفت لجنة التحقيق عما نسب إلى العرابيين من عصيان عُين كاتب سر (السكرتير) لهذه اللجنة، فعمل بنزاهة واستقامة. ولما انتهى من عمله هذا نال البكوية (من الدرجة الثالثة) وبعد ذلك تألفت لجنة لتضع القوانين اللازمة للمحاكم الأهلية وعُين كاتب سرها أيضاً. وفي الوقت عينه كُلف بترجمة القوانين من الفرنسية إلى العربية فأدى هذه الترجمة بكل دقة نال بعدها الرتبة الثانية والنيشان المجيدى من الطبقة الرابعة. وفي يوليو سنة ١٨٨٤ وصل إلى درجة رئاسة قلم الترجمة بنظارة الحقانية، وبعد سنة رُقى إلى ناظر إدارة الأقلام العربية. ويبدو أن عمله أرضى الخديوى توفيق فأنعم عليه برتبة المتمايز الرفيعة. ثم انتدبه المسئولون بنظارة الحقانية سنة ١٨٩٠ لتفقد أعمال المحاكم في الوجـــه القبلى. فلما عاد أبدى ملاحظاته عما يجب ادخاله عليها من الاصلاحات. ثم في أواخر سنة ١٨٩٤ عُين مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية. وكان مولعاً بالبحث والتفتيش في الكتب والوقوف على الحقائق العلمية والأدبية. ونتيجة لأبحاثه الكثيرة وضع كتاباً في شرح القانون المدنى بالاشتراك مع زميل له اسمه شفيق بك منصور، وآخر في شرح قانون التجارة مع زميل ثان هو عزيز بك كحيل، حتى لقد قيل عنه في ختام سيرته أنه «دأب على خدمة بلاده وأميره بصدق الولاء ومتين الوفاء»[1].

الرياضى المتفنن حضرة جرجس لشاطى الباشمهندس لأملاك السكة الحديد: من مواليد الثغر الاسكندرى سنة ١٨٥٣. وما أن بلغ السابعة من عمره

(١) كتاب مرآة العصر لالياس زخورة ج ١ ص ٣٢٩ — ٣٣١.

حتى أرسله أبواه لتلقى العلم فى فرنسا حيث قضى خمس سنوات عاد بعدها إلى مدينته ودخل مدرسة أجنبية لمدة ثلاث سنوات . ثم التحق بمدرسة أميرية . وكانت تجرى آنذاك مسابقات علمية فى مختلف المواد الدراسية فكان يتفوق فى كل مسابقة . ثم رأى اسماعيل باشا اجراء امتحان عام تحت رئاسة الجنرال ستون الأمريكى الذى كان رئيس أركان حرب فى الحكومة المصرية ، وفكان جرجس غرة النجاح » . والتحق بعد ذلك بالمدارس المصرية العليا أعطته بعدها الحكومة الشهادات التى تدل على عظيم براعته فى العلوم الرياضية والفنون الهندسية . ومن ثم عين مهندساً فى تفتيش عموم الوجه البحرى فى أواخر سنة ١٨٧٢ . ولقد استلفت عمله المتقن نظر الخديوى اسماعيل فأصدر أمره بتعيين جرجس مهندساً للسراى الخديوية التى أقيمت فى الجزيرة مع الأمر بأن يكون القائم بأهم الأعمال اللازمة للترعة الاسماعيلية كالقناطر والهويسات . ولقد أجمع كل من اشتغلوا معه ـ ورؤساءه على وجه التخصيص ـ على براعته وحسن اتمام عمله .

وحدث أن قامت مشكلة بين كبير كهنة القبط وبين العمد والمشايخ فى سنديس (بالقليوبية) . وظلت المشكلة سنتين متواليتين انعقدت لها المجالس وتدخل فيها كبار المنطقة ولكن المشكلة استمرت من غير حل . وعندما صدر أمر عال إلى جرجس بالتوجه إلى سنديس للنظر فى هذه القضية التى أشكلت على كل من تدخلوا فيها . فذهب لفوره وأخذ يحقق فيها . ولما انتهى من تحقيقه فصّل كل دقائقها للمتخاصمين وأظهر لكل من الفريقين فيما أصاب وفيما أخطأ ، وما يجب عليه تأديته من الحق وما له من حقه الشخصى وما زال بهما حتى أقنع كليهما ووصل بهما إلى التصالح . فوقعا على محضر الصلح على مرأى من الجمهور . وامتلأ أولياء الأمور دهشة لتوصله إلى الحل وقدموا له شكرهم .

ومن سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٨٨٥ شغل منصب مهندس أشغال رمل الاسكندرية، عين بعدها مفتشاً لتنظيم مدينة الاسكندرية . وصدر الأمر العالى بأن يشتغل أيضاً فى ملاحظة أعمال البناء فى سراى رأس التين وسراى رقم ٣ الخاصة بالخديوى توفيق فأبدى من الكفاءة والتفوق فى تأدية كل هذه الأعمال ما جعل رؤساءه يحبونه وبخاصة لأنه جمع إلى جانب مقدراته العملية الوداعة ومحبة الآخرين . بل لقد بلغ به الأمر أن عظمت كرامته عند العائلة الخديوية فاختصته بأعمالها . وزاده التقدير همة فأنشأ الأمراء المبانى الواسعة الشاهقة بنفقات لا تتجاوز النصف عما انصرف على أمثالها. ثم فى سنة ١٨٨٩ عين مهندساً فى قلم مبانى الحكومة فى مصر ، انتقل بعدها إلى مديرية البحيرة فأجرى فيها تحسينات كبرى . ثم نقل مهندساً فى بور سعيد سنة ١٨٩١ مع ضم الاسماعيلية أيضاً إلى عمله . وفى أواخر السنة عينها أصبح باشمهندساً ومديراً لأشغال حلوان والجيزة . فأولى حلوان عناية خاصة ونسق أبنيتها وشوارعها ومحلات مياهها حتى جعل منها المشتى المفضل للأمراء وأكابر الدولة . ونتيجة لعمله الفريد رقى فى أول فبراير سنة ١٨٩٧ إلى باشمهندس لإدارة أعمال مديريات المنيا وبنى سويف والفيوم . ولكنه لم يبقَ بهذه الوظيفة طويلا إذ قد طلبته مصلحة السكة الحديد فى أول أغسطس من السنة عينها ليكون وكيلا عنها فى إدارة أملاكها لاستقامته وعفته وعلو همته ومهارته الفنية [1] .

+ + +

(١) كتاب « مرآة العصر » لالياس زخورة جـ ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٩ .

لمحة عن مصر فى هذه الفترة :

حينما تسلم محمد على مقاليد الحكم بدأ حركة واسعة النطاق للخروج بمصر من فوضى الحكم التركى إلى الاستقرار ، ومن ظلمة الاستبداد المطلق إلى شىء من التعبير الذاتى . صحيح أنه هو نفسه لجأ فى كثير من الأحيان إلى البطش ولكنه فى الوقت عينه وازن بين التحكم الفردى وبين تبادل الرأى . والكثيرون يأخذون عليه مذبحة المماليك التى كانت بالفعل عملا وحشياً . ولكن يجب أن لا ننسى أنه أراح مصر من مختلف الشرور والآلام التى كالها أولئك المماليك لشعب مصر . إنما الذى نأخذه عليه نحن فهو بطشه بالقادة الشعبيين أمثال عمر مكرم الذين كانوا له فى البداية القوة المدعمة لحكمه . فلما أحس بأنه لم يعد فى حاجة إلى تدعيمهم إياه استغنى عنهم بشتى الوسائل . على أنه رغم هذا يجب الاقرار بأن محمد على هو الذى وضع قدمى مصر على طريق التقدم العصرى .

أما ابنه ابراهيم فقد شاد لمصر أمجاداً حربية عظمى ولكنه لم يحكم غير بضعة شهور خلال السنوات الأخيرة من حكم أبيه . ولن نستطيع بحال ما أن نتكهن بما كان يمكن أن يعمله لمصر لو أن الأجل امتد به . ولكننا نعرف أنه كثيراً ما تفاخر بأنه مصرى كما أنه كان يقرب إليه المصريين .

ثم حكم عباس الأول فكان غشوماً وأهمل الكثير من المدارس والمنشآت التى تباهى بها محمد على . ومن حسن الحظ أن حكمه كان قصيراً . فلما خلفه سعيد باشا بالغ فى تشجيع الأوربيين فأوجد أمامهم الفرصة لاستغلال بلادنا بكل معانى الاستغلال لأنه - حتى الذين فتحوا المدارس ونشروا العلم - قد افتروا على عزتنا القومية وأوهنوا من وطنيتنا ، وما هو أدهى . أدخلوا الكثير من البلبلة والشك فى العقيدة الأرثوذكسية وساهموا فى تفتيت الروابط العائلية خلال الاختلافات المذهبية التى تسربت منهم إلى بعض أفراد هذه العائلات . ثم أن سعيد باشا هو الذى منح دلسبس امتياز قناة السويس بشروط غاية فى الجور . ولكن اسماعيل نجح فى تخفيفها إلى حد بعيد .

ولقد بدأ اسماعيل عهده بدفعة قوية نحو التقدم العلمى والاجتماعى والعسكرى .

فنجح فى تحويل ظلم المحاكم القنصلية إلى محاكم مختلطة فيها شىء من العدالة . وجعل مصر دولة مستقلة تظهر فى معرض باريس الدولى بصفتها الخاصة وتستقبل الملوك والأمراء فى حفلة افتتاح قناة السويس بسيادتها وحدها حتى لقد أصبحت الدول تتعامل معها مباشرة دون الرجوع إلى الباب العالى . وظهر تحول اجتماعى واضح حتى فى الملبس والمأكل . وأقيم دار للأوبرا ، كتب الموسيقار الإيطالى الكبير « فردى » المسرحية الغنائية « عايدة » خصيصاً لتمثيلها فيه وبناءاً على طلب اسماعيل باشا نفسه (وهى مسرحية تحكى انتصار قائد فرعونى اسمه راداميس) . ومن أهم التغييرات فتح مدارس للبنات ومدرسة للصم والبكم والتعليم القومى ، وانشاء دار وقاعة المحاضرات العامة ومعمل الطبيعة والمتحف المصرى ودار الآثار العربية والجمعية الجغرافية وجمعية المعارف . وشاعت الموسيقى وتأثرت الألحان المصرية بالألحان الأوربية فتألفت منها نغمات جديدة . وظهرت الصحف العلمية كيعسوب الطب وروضة المدارس والسياسة إلى جانب الصحف الاخبارية ، كما ظهرت صحف هزلية كأبو نضارة وحمارة مُنيتى . وفوق هذا كله فقد أنشىء مجلس شورى القوانين الذى قام فى نهاية فترته بدور كبير فى معارضة التدخل الأجنبى [١] .

هذا كله دليل ساطع على حيوية الشعب المصرى الذى شاء خالقه أن يمنحه إياها ليستطيع أن يجوز مختلف المتاعب والضيقات والآلام ويخرج منها المرة تلو المرة صاحياً مستعداً للتوثب من جديد . وكأنما كل ما مر به من ارزاء كان أشبه بنوم ثقيل أفاق منه رغم ثقله . والنهضة التى دفع بها اسماعيل مصر إلى الامام صورة ناصعة لهذه الإفاقة . ولولا تدخل الأمم الأوربية ومطامعها وأغراضها الاستعمارية لواتت هذه النهضة ثمارها ولكانت مصر الآن فى الطليعة . ولكن مادام خالقها قد منحها بركته ، وما دام أنه قد أودعها سر الحيوية التى لا تخمد فلا بد من أن تسير إلى الأمام وتقوم كل مرة رغم العراقيل والله معاب .

• • • •

---

(١) تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر اسماعيل (سنة ١٧٩٨ — ١٨٧٩م) لأحمد عزت عبد الكريم ص ٣٧٢ .

متنــاثرات

ان كنيستنا القبطية الارثوذكسية معروفة بمحافظتها على التعاليم والتقاليد الرسولية منذ أن تسلمتها من مار مرقس الرسول البشير كاروز مصر المحبوبة . ومما حرصت عليه ذلك التقليد القاضى بأن السلطة الكنسية العليا لا تتركز فى الفرد مهما علا روحياً وإدارياً لانه ليس بمعصوم ، فالسيد له المجد لم يدلم سلطة خاصة لأى تلميذ على حدة . لانه حتى حين قال لبطرس « كل ما تربطه على الارض ... » (متى ١٦ : ١٩) قالها على مرأى ومسمع من بقية الرسل ، ثم عاد فقالها للرسل كلهم معاً (متى ١٨ : ١٨) . ومن هذه الكلمات نرى أنه أعطى الكل السلطة عينها . ثم عند صعوده إلى السماء والتلاميذ شاخصون إليه لم يشر إلى أى واحد منهم منفرداً ويقول له : « أنت ستكون نائبي على الارض » ، بل أعطاهم ساعتئذ وصية واحدة مشتركة إذ قال : « إذهبوا وتلمذوا جميع الامم ... »

فإن سأل البعض : « إذن فلماذا كرر السيد المسيح سؤاله لبطرس : أتحبنى يا سمعان بن يونا ... ؟ (١) » وحين أجاب بالايجاب قال له : « أرع غنمى » (يوحنا ٢١ : ١٥ - ١٨) . أجبنا بأن الفادى الحنون أراد أن يرد لبطرس اعتباره ويعيد إليه مكانته كرسول ، فسأله ثلاث مرات وأخذ إجابة بطرس ثلاث مرات مقابل الانكار المثلث الذى أكده بطرس باللعن وهو واقف خارجاً يصطلى بينما رؤساء الكهنة يحكمون على سيده . وإن عاود السؤال عما قصد إليه الرب ساعة أن قال : « أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى » (متى ١٦ : ١٨) قلنا إن الصخرة هى الاعتراف الذى جهر به هذا التلميذ حين أجـــاب المخلص بقوله : « أنت المسيح ابن الله الحى » (متى ١٦ : ١٦) . ولو لم يكن الاعتراف بأن

(١) نرى هنا أن الرب ناداه باسمه الأول لا بالأسم الذى أطلقه هو عليه « بطرس » .

المسيح ابن الله الحى هو الصخرة ، فكيف قال له الرب بعد هذا بدقائق. «أذهب عنى يا شيطان ؟ » (مت ١٦ : ٢٣) . هل من المعقول أن الكلمة المتجسد يناقض نفسه ؟ حاشا لله . لأن هذا الانتهار الذى جاء فى أعقاب التعبير الاول يرجع إلى أن بطرس أعترض على ما سيصيب سيده من وقوع فى أيدى الكهنة والكتبة وما سيذيقونه من آلام ـ لأن مثل هذا الاعتراض هو اعتراض على تحقيق عملية الفداء التى هى الهدف من تجسد الكلمة . ففى الحالتين يوجه السيد المسيح تعبيره على الكلمات التى فاه بها بطرس والمعبرة عن حقيقة الخلاص .

هذا من جهـــة ، ومن الأخرى نجد أن الكتاب المقدس بعهديه . القديم والحديث يتحدث عن الصخرة بوصفها رمز لله تعالى . وكل هذه الآيات توضح لنا أن بطرس لم يأخذ رياسة معينة ـ لا هو ولا غيره ـ تميزه عن زملائه . بل أن مخلصنا قال : « من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن لجميع عبداً » . فالرياسة فى تعاليمه الإلهى هى الخدمة فى تواضع . ولقد أدرك الرسل مفهوم هذه الرياسة بعد أن امتلأوا من الروح القدس . لأنهم ـ حينما اختلفوا فيما بينهم على ختان الأمميين قبل صبغهم بالمعمودية ـ اجتمعوا معاً فى أورشليم وتشاوروا فيما بينهم ، وتقدّم كلٌ منهم اختباراته أثناء الكرازة ثم قرروا معاً قبول الوثنيين من غير ختانهم ، وقالوا عند ارسال قرارهم إلى الكنائس الناشئة : « وقـــد رأى الروح القدس ونحن ... » (أعمال ١٥ : ١١ - ٢٩) . بل انهم ، قبـل ذلك ، حين أرادوا أن يختاروا من يحل محـل يهوذا الاسخريوطى ، اجتمعوا مع كل المؤمنين بما فيهم النسوة (أعمال ١ : ١٥ : ٢٦) . وهذا كان الحال أيضا عند انتخاب استفانوس وزملائه الشامسة (أعمال ٦ : ٢) . فالخطة التى سار عليها الرسل هى خطـــة التشاور فيما بينهم أحيانا وبالاشتراك مع الشعب أحيانا أخرى ، ولم ينتحل أحدهم

لنفسه سلطة تميزه عن بقية اخوته . والتعبير المصرى للخطة الرسولية هــــو « الاشتراكية الشعبية » .

وعلى هذه الخطة سار آباء الكنيسة القبطية . فلم يكن البابا الاسكندرى يعقد المجمع المقدس مرتين سنوياً فقط بل كان الرهبان أيضاً يجتمعون جميعاً مرتين فى السنة . وكان الاجتماعان السنويان قاعدة التعامل العادى فإن طرأ ما يستلزم عقد المجمع المقدس فى غير هاتين المرتين ، أرسل البـــابا يدعو مطارنته وأساقفته للاجتماع معاً . ومما يجب ذكره أن قرارات الأغلبيـة هى التى تنفـذ حتى إن كان البابا مع الأقلية . والحق الوحيد الذى يتمتع به داخل المجمع هو أنه حينما يكون عدد المجتمعين مزدوجاً (ثلاثين مثلا) وانقسم الرأى قسمين متساويين بالضبط، يعتبر صوت البابا صوتين ويؤخذ بقرار الفريق الذى معــــه . ثم لو حدث أن اجتمع المجمع فى غياب البابا فإنه يوقع بأمضائه على قرار الأغلبية « أوتوماتيكياً » . وقد حدث بالفعل ، فى عهد الأنبا مكاريوس الثالث (البابا الاسكندرى الـ ١١٤) أن اجتمع المجمع لحالة طارئة أثناء إقامة البابا بدير الأنبا بولا . فلما عاد إلى القاهرة وقع بأمضائه على قرار الأغلبية من غير سؤال ولا تردد لمعرفته القانون الكنسى فى هذا الموضوع .

فالرياسة فى الكنيسة إذن رياسة مجمعية لا تتركز فى شخص مهما علت مكانته .



بعض الآيات التي توضح ان الله « صخرة » .

هو الصخر الكامل صنيعه	تثنية ٣٢ : ٤
ليس صخرة مثل إلهنا	١ صموئيل ٢ : ٢
الرب صخرتى	٢ صموئيل ٢٢ : ٢
من هو صخرة غير إلهنا	٢ صموئيل ٢٢ : ٣٢
حى هو الرب ومبارك هو صخرتى	٢ صموئيل ٢٢ : ٤٧
الرب صخرتى وحصنى ...	مزمور ١٨ : ٣١
حى هو الرب ومبارك صخرتى	مزمور ١٨ : ٤٥
يارب صخرتى وولىّ	مزمور ١٩ : ١٤
إليك يارب أصرخ ياصخرتى	مزمور ٢٨ : ١
صخرتى ومعقلى أنت	مزمور ٣١ : ٢ - ٣
أقول لله صخرتى	مزمور ٤٢ : ٩
إنما هو صخرتى وخلاصى	مزمور ٦٢ : ٢
وذكر أن الله صخرهم	مزمور ٧٨ : ٣٥
إلهى وصخرة خلاصى	مزمور ٨٩ : ٢٦
إلهى صخرة ملجائى	مزمور ٩٤ : ٢٢
نهتف لصخرة خلاصنا	مزمور ٩٥ : ١
لانهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح	١ كورنثوس ١٠ : ٤

✝ ✝ ✝

الأيقونات فى الكنائس

نعود إلى موضوع الايقونات مرة أخرى بمناسبة ما قيل عن الانبا كيراس الرابع وهو برىء منه ، فنقول : إن ما يقوله لنا الكتاب بالكلام تنبئنا الايقونة إياه بالالوان وتجعله حاضراً فعلا . ويعلمنا يوحنا الدمشقى عن هذا الموضوع بقوله : « حين تعذبنى أفكارى وتمنعنى من تذوق المطالعة أذهب إلى الكنيسة وأتمعن فى ايقونات القديسين والشهداء فيأسر نظرى ويحمل نفسى على تسبيح الله . وأتأمل بسالة الشهيد ويلهبنى حماسه .. فأخر على الارض وأتعبد لله بشفاعة الشهيد فالشهيد نفسه حاضر ملء بصرى ومسمعى فى وظيفته الشفاعية ... »

والايقونيون لا يجهلون شيئاً من تكنيكيات العلم التصويرى ولكنهم لا يجعلونها أبداً الشرط لفنهم الخاص . فهذا الفن متجاهل تماماً الحقيقة المادية كما تبدو للبصر المادى ، وهو يفرض على الناظر مبادئه الخاصة : انه يعلمه الرؤية الحقة ، انه فن تام فى حد ذاته وثقافة تجعل الإنسان يحس أو بالحرى يخفق باللهب المنبعث من الأشياء . فالايقونة ليست نافذة على الطبيعة ولا على مكان محدد ولكنها العالم الذى يتفتح ويصبح كله بوابة موصلة إلى الحياة الروحية .

ومنذ أن تجسد الكلمة سيطر الوجه على كل شىء : الوجه الذى هو الشكل الانسانى لغير المرئى . والايقونى يبدأ دائماً بالرأس فهو الذى يتحكم فى كل الصورة : فالعيون المتسعة ذات النظرة الثابتة ترى ما وراء المادة - أى أن الروح هى التى تنظر إلينا . والشفتان الرقيقتان مصنوعتان للترنم والتسبيح والقبلة المقدسة ، والاذنان المستطيلتان تصغيان إلى الصمت ، والانف ليس سوى حنية دقيقة ، والجبهة واسعة عريضة - نتوءها الخفيف يبرز سيطرة التأمل الفكرى ، والمسحة

القائمة للوجه تمحو كل واقعية وكل حسية. فالأيقونيون إذن يعرفون الرؤى ويقدمونها لنا فى الأشكال والمثل التى أعطاها الله ذاته للناس، فهم لهذا السبب يمثلون خلال الصور الأمور المقدسة [1].

✝ ✝ ✝

ومن العادات التى كانت شائعة بين العائلات القبطية تلقين الجيل الكبير الجيل الناشىء صلوات غير الصلوات الكنسية وغير صلوات الأجبية. ومن هذه الصلوات طلبتين لقنتنا إياهما أمنا أوردهما بالعربى الدارج كما تعلمتها: « أسبحك وأمجدك مع كل الخليقة. ولا تورّينى هما ولا غماً ولا ضيقة. تبعد عنى الشيطان مالوش عندى طريقة. وحياة الإبن اللى رضعته والبخور اللى رفعته والهيكل اللى فتحته تخلصنى يا سيدى من كل ذنب عملته. كما خلصت يونان من بحر الطوفان فى بطن الحوت ثلاث أيام. كما خلصت القمص مع الشماس فى رفعة القـــداس. آمين كيرياليسون ».

✝ « صبح الصبح من غير مفتاح. واتهيبت من كل الرياح والشرق والغرب فى قبضتك. والأحياء والأموات يستنّو رحمتـــك. يسبحك كل طير طاير. ويمجدك كل نجم ساير. تسبحك كل نفس خلقتها. خلقتنى وأنا ليك راجعة. يا فضيحتى لما يقدموا كتابى فى السما بالظاهر والخفى. سامحنى يا الله ـ لا عندى صوم ولا صلاة. آمين هلليلويا ».

✝ ومن أبدع الصلوات الباقية لدينا تلك الصلاة التى رفعها يونس بن الأبح لينجيه الله من غضب الخليفة (العبـــاسى) المستنصر بالله، وهى: « باسم الله الرؤوف الرحيم وبه نستعين آمين ـ اللهم إنى وجهت وجهى إليـك. اللهم إنى فوّضت أمرى إليك. ليس لى ملجأ إلا إليك. يا عزتى عند شدتى. يا مؤنسى

(١) من كتاب « معرفة الله » لبول افدوكيموف (بالفرنسية) ص ١١٤ ـ ١٢٠.

عند وحدتى . يا حافظى عند غربتى . يا ولى نعمتى .·. يا مرد المردين . يا ملجأ المساكين يا حامى المقبلـــين إليك .·. يا خاذل المردة والشياطين . يا مكوّن التكوين . يا مدوّن الدواوين .·. يا صانع الخيرات والحنين . يا خالق الخلق أجمعين . يا منشئهم من ماء وطين .·. يا جبار الجبارين . يا مبيد الأكاسرة . يا مقوّم الدنيا والآخرة .·. أسألك اللهم يا كريم الفعال . يا عظيم السلطان . يا قديم الاحسان . يا من يفتح بابه إذا أغلقت الابواب . يا حاضر ليس غايب . يا موجود عند الشدائد والنوايب .·. يا مفرج الكروب . يا غايث المستغيثين عند المصايب والنوايب .·. يا خالق أنا فى كنفك ليلى ونهارى ونومى وقعادى واقرارى وأسفارى . وحياتى ومماتى وجميع ساعاتى وأوقاتى .·. وذكرك يحلو لى وتباركك أشعارى . جيرنا من حركتك وشر عبادك وبلائك .·. اللهم بحق عزك وجلالك . وحسنك وجمـــالك . وبحق قدرة عزتك وسلطانك وبحق عرشك العظيم الثابت . وملكك القوى الدايم . ورحمتك الكثيرة .·. اللهم اضرب بينى وبين من يضربنى . وافرج عنى همى وغمى يا مفرج هم يعقوب . اكشف عنى ضرّى يا شافى ضرّ أيوب .·. اشفنى واغلب من يغلبنى يا غالب غير مغلوب .·. اكفنى من لا أطيق شره . وكن لى عوناً معيناً . وحافظاً وأميناً . وناصراً .·. بحق صلوات الست السيدة العذراء مريم والآبا والشهدا والقديسين .·. حى هو الله . آمنت وتوكلت على الله . وأمرى إلى الله .·. نعم ان العادل هو الله . ومن توكل على الله يحفظه . وهو حسبه ان الله بالغ أمره .·. فإن الله على كل شىء قدير . وهو السميع العليم . وله المجد والتعظيم إلى الأبد آمين (١) » .

(١) وجدت هذه الصلاة مكتوبة بخط يد جدى لأمى – مينا منقريوس – مع المزمور الرابع والثلاثين الذى مطلعه « خاصم يا رب من يخاصمنى ... » وكان السبب فى غضب الخليفة وشاية أحد الحاسدين لما يتمتع به يونس بن الأخ من حظوة لديه . فصلى هذه الصلاة ليلة أن كان ذاهباً لمقابلة الخليفة – ولما تقابل الرجلان تصالحا وتصافيا .

(صلاة وجدت في حقيبة أبونا أبي
سليمان ميخائيل بطرس)
بخطه

[illegible]

أطلب منك باستحقاق الرب يسوع قوتك تهديني
وقدرتك تحميني وحكمتك تعلمني وعينك تحرسني
وأذنك تسمعني وكلمتك تلذ لي وتكون أحلى
من الشهد في فمي يمينك تدفع عني وطريقك
ترشدني وخولك يساعدني وظلالك يعضدني
اللهم انعش قلبي وارحمني وأعطني خوذة الخلاص وسلاح
الإيمان لأنتصر على عدوي أيها الرب يسوع كن معي وعن يميني وعن
يساري وأمامي وخلفي وفي كل جهة من جهاتي اللهم اكتنفني بقدرتك
وأعطني عونك وكن في كل قلب من يكلمني أو يكاتبني أو يراني أو يشرفني
لئلا يقبل الشيطان في عينيه لئلا ينظر الى بعض المقت والكراهة
وفي لسانه لئلا يتكلم بالكذب وفي أذنه لئلا تصغى الى كلام الأشرار
اللهم كن معي ومع جميع أحبائي والمؤمنين الآن وكل أوان آمين.

وكن في قلبي لئلا ينحرف عن جادة الحق وفي عقلي لئلا يفتكر
بالمساوئ وفي لساني لئلا يتكلم بالكذب وفي أذني لئلا تصغى الى كلام
الأشرار اللهم كن في قلبي.

(ويؤسفني أنني لم أجد لها مقدمة
كما أني لا أعرف أي مرجع كتبتها)

جدول باباوات الاسكندرية المذكورين فى هذا الكتاب

رقم	البطريرك	تاريخ التقدمة	مدة الاقامة على الكرسى: شهر	مدة الاقامة على الكرسى: سنة	الملوك المعاصرون
٩٥	أنبا غبريال السابع	١٢٥٦	-	٤٣	قانصوه الأشرف ـ السلطان سليم الفاتح
٩٦	أنبا يؤنس الرابع عشر	١٥٧٣	٤	١٥	سليم الثانى
٩٧	أنبا غبريال الثامن	١٥٩٠	-	١١	« « ومحمد الثالث
٩٨	أنبا مرقس الخامس	١٦١٠	-	١١	أحمد الاول ومصطفى الاول وعثمان
٩٩	أنبا يؤنس الخامس عشر	١٦٢١	-	١٠	مصطفى الأول ومراد الرابع
١٠٠	أنبا متاوس الثالث	١٦٣١	-	١٠	مراد الرابع وابراهيم
١٠١	أنبا مرقس السادس	١٦٥٠	-	١٠	محمد الرابع
١٠٢	أنبا متاوس الرابع	١٦٦٠	٨	١٤	« «
١٠٣	أنبا يؤنس السادس عشر	١٦٧٦	٣	٤٢	« « وسليمان الثانى وأحمد الثانى ومصطفى الثانى وأحمد الثالث

١٠٤	أنبا بطرس السادس	١٧١٨	٦	٧	أحمد الثالث
١٠٥	أنبا يؤنس السابع عشر	١٧٢٧	٣	١٨	« « ومحمود
١٠٦	أنبا مرقس السابع	١٧٤٥	-	٢٤	محمود وعثمان الثالث ومصطفى الثالث
١٠٧	أنبا يؤنس السابع عشر	١٧٧٠	٧	٢٦	على بك الكبير
١٠٨	أنبا مرقس الثامن	١٧٩٧	٢	١٣	أبو الذهب والفرنسيون ومحمد على باشا
١٠٩	أنبا بطرس السابع	١٨١٠	٣	٤٢	محمد على باشا وابراهيم باشا وعباس باشا الاول
١١٠	أنبا كيرلس الرابع	١٨٥٤	٨	٧	عباس باشا الأول وسعيد باشا
١١١	أنبا ديمتريوس الثانى	١٨٦٢(٥)	٧	٧	سعيد باشا واسماعيل باشا

(٥) فى هذا الجزء اتبعت التقويم الغربى كى لا تقوم فجوة بين تواريخ الآباء والتواريخ المعاصرة بالنسبة إلى القراء.

مراجع الكتاب

١ - يعقوب نخله روفيلة : تاريخ الأمة القبطية - القاهرة سنة ١٨٩٧ .

٢ - عمر الاسكندرى وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر - القاهرة سنة ١٩١٧ .

٣ - حسن عثمان : تاريخ مصر فى العهد العثمانى (سنة ١٥١٧ - ١٧٩٨) ، فصل من كتاب « المجمل فى التاريخ المصرى » ألفه بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول نشره حسن إبراهيم حسن .
أحمد عزت عبد الكريم .

٤ - تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر إسماعيل (سنة ١٧٩٨ - ١٨٧٩) .

٥ - المجتمع الاسلامى والغرب (ترجمه عن الانجليزية مع محمد عبد الرحيم مصطفى) .

٦ - الجبرتى على مفرق الطرق - مقال نشره فى جريدة الأهرام يوم الجمعة ٢٦/٤/٧٤ بمناسبة المؤتمر الذى انعقد فى القاهرة من ٢٢ - ٢٦ أبريل تكريماً لذكرى الجبرتى لمرور ١٥٠ سنة على وفاته .

٧ - محمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر الحديث - المطبعة الأميرية سنة ١٩٤٩ .

٨ - محمد صبرى : تاريخ مصر الحديث - القاهرة سنة ١٩٢٦ .

٩ - كتاب تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابى - مطبعة السلام بأول شارع كلوت بك - القاهرة سنة ١٩٠٠ .

١٠ - ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث .

١١ - القس منسى القمص : تاريخ الكنيسة القبطية .

١٢ - فوزى جرجس : دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العهد المملوكى - القاهرة سنة ١٩٥٨

١٣ - أنور زقلة . المماليك فى مصر .

١٤ - توفيق اسكاروس : نوابغ الأقباط ومشاهيرهم (جزءان) مطبعة التوفيق بالقاهرة سنة ١٩١٠ - ١٩١٣ .

١٥ - الياس زخورة : كتاب مرآة العصر - القاهرة سنة ١٨٩٧ .

١٦ - عبد الرحمن زكى القاهرة - من المعز إلى الجبرتى .

١٧ - يعقوب جرجس : موجز تاريخ البطاركة - باشراف زاهر رياض .

القمص صموئيل تاوضروس السريانى .

١٨ - الأديرة المصرية العامرة - طبعة أولى - القاهرة سنة ١٩٦٨ .

١٩ - الأنبا يوساب بن الأبح - مقال نشره فى مجلة المحبة - عـــدد نوفمبر ديسمبر سنة ١٩٦٨ .

٢٠ - المعلم لطف الله المصرى - مقال نشره فى مجلة المحبة - عدد يوليو سنة ١٩٦٩ .

٢١ - المعلم ملطى يوسف - مقال نشره فى مجلة المحبة - عدد يوليو سنة ١٩٦٩ .

٢٢ - كامل صالح نخلة وفريد كامل : تاريخ الأمة القبطية .

كامل صالح نخلة .

٢٣ - الجنرال يعقوب واستقلال مصر (الحلقة الثالثة)

٢٤ - سلسلة تاريخ بطاركة الاسكندرية - الحلقة الرابعة - مطبعة دير السريان سنة ١٩٥٤ .

٢٥ - سلسلة تاريخ بطاركة الاسكندرية - الحلقـــة الخامسة - المطبعة البابوية سنة ١٩٧٤ (طبعة ثانية) .

٢٦ - تاريخ الكرسى الأورشليمى : مقالان متتاليان نشرهما مجلة النهضـــة المرقسية بالقدس - مارس وأبريل سنة ١٩٥٤ .

٢٧ - دمترى رزق : قصة الأقباط فى الأراضى المقدسة .

٢٨ - ميخائيل مكسى : القدس عبر التاريخ .

٢٩ - عارف باشا العارف : تاريخ القدس .

٣٠ - فرنسيس العتر : الأمة القبطية وكنيستها الارثوذكسية .

٣١ - عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على (جزآن) .

٣٢ - الياس الأيوبى : عصر إسماعيل (جزآن) .

٣٣ - وليم سليمان : الكنيسة القبطية فى مواجهة الاستعمار والصهيونية صدر عن وزارة الثقافة .

جرجس فيلوثاؤس عوض .

٣٤ - أبو الاصلاح - تاريخ كيرلس الرابع .

٣٥ - الايغومانس فيلوثاؤس .

٣٦ - جرجس سلامه : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر .

٣٧ - الأمير عمر طوسون : كتاب البعثات العلمية فى عهد محمد على .

٣٨ - صبحى وحيدة : أصول المسألة المصرية - مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة مصر - القاهرة سنة ١٩٥٠ .

رمزى تادرس .

٣٩ - مشاهير الأقباط فى القرن التاسع عشر (الجزء الثالث) .

٤٠ - دائرة المعارف القبطية (الجزء الاول) - مطبعة صادق بالمنيا .

٤١ - القمص شنودة الصوامعى البرموسى : تاريخ بطاركة الاسكندرية (مخطوط) الجزء الثانى .

٤٢ - كتاب مجموعـــة الخطب التى ألقيت فى حفلة الذكرى المئوية الاولى لابى الاصلاح فى القاعة المرقسية بالانبا رويس مساء ٢١ يناير سنة ١٩٦١ .

٤٣ - شفيق غربال : مصر عند مفرق الطرق - مقـــال نشره بمجلة كلية آداب القاهرة - المجلد الرابع الجزء الاول مايو سنة ١٩٣٦ (الطبعة الثانية) .

٤٤ - القمص ميصائيل بحر : إقليم المنيا فى العصر القبطى - مقالات بمجلة صوت الشهداء - أعداد يونيو ويوليو ونوفبر سنة ١٩٦٣ ، يناير وفبراير ومارس سنة ١٩٦٤ .

٤٥ - القمص أرمانيوس حبشى شتا البرماوى : القس يوسف الزير البرماوى - مجلة المحبة عدد أبريل سنة ١٩٢٩ .

٤٦ - أحمد عيسى : معجم الأطباء - القاهرة سنة ١٩٤٢ .

٤٧ - ياقوت : معجم البلدان .

٤٨ - محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى - المجلد السابع .

الجبرتى :

٤٩ - مظهر التقديس بخروج الفرنسيس (جزآن) .

٥٠ - عجائب الآثار فى التراجم والأمصار (أربعة أجزاء) .

٥١ - الصبح الأعشى فى صناعة الانشا لأبى العباس أحمد القلقشندى .

٥٢ - التوفيقات الالهامية .

٥٣ - على باشا مبارك : الخطط التوفيقية .

٥٤ - ودبع شنودة : مرشد المتحف القبطى .

٥٥ - مرقس سميكة : دليل المتحف القبطى (الجزء الثانى) .

٥٦ - القمص بطرس جرجس : من أقوال الأنبا بطرس - مقال نشره فى مجلة الإيمان - يونيو سنة ١٩٥٥ .

٥٧ - محاضرة للدكتور عزيز سوريال عطية نشرها فى مجلة مدارس الأحد - يناير سنة ١٩٤٩ .

٥٨ - الأنبا شنودة (أسقف التربية الكنسية والكلية الإكليريكية) : من حق الشعب اختيار راعيه مقال نشر بمجلة الكرازة بعدد أكتوبر سنة ١٩٦٥ .

٥٩ - نشرة جمعية نهضة الكنائس القبطية الأرثوذكسية المركزية بتاريخ ٢٥ بشنس سنة ١٦٥٥ ش (سنة ١٩٣٩) بمناسبة ذكرى ابراهيم وجرجس الجوهرى .

٦٠ - مجلة مار مرقس المتنيح القس مرقس شنودة (بطهطا) أعداد سنة ١٩٥٥ وبها مقالات مسلسلة من كتاب سلاح المؤمنين الأنبا يوساب بن الأبح .

٦١ - أحمد شوقى (أمير الشعراء) : قصيدة مشروع ٢٨ فبراير } الشوقيات جـ ١
قصيدة قف المعلم وفه التبجيلا . . .

قصة الكنيسة القبطية - الكتاب الأول ، الكتاب الثانى ، الكتاب الثالث ، الكتاب المقدس بعهديه : القديم والجديد .

فهرس نشق الأزهار فى عجائب الأقطار لأبى الحسن ابن أياس .

تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين - طبعته جمعية الآثار القبطية - القاهرة سنة ١٩٧٠ - المجلد الثالث - الجزء الثالث - (سنة ١٢٢٥م - سنة ١٨٩٥م) .

62 – J. Aldridge : Cairo (pub. in Boston 1969) .
63 – M. Pell : From Pharoah to Fellah – London 1888 .
64 – V. Chirol : The Occident and the Orient .
65 – E. Combe, J. Bainville, et E. Driault : Précis de l'Histoire d'Egypte, et le Règne de Mohammed Ali (Imp. de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire 1933) .
66 – H. Deherein : Histoire de la Nation Egyptienne, V, l'Egypte Turque .
67 – A. Dunne : An Introduction to the History of Education in modern Egypt .
68 – J. Graf : Studi E. Testi : Catalogue des Mss. Arabes Chrétiens Conservés au Cairo (Citta del Vaticano, 1934).
69 – P. M. Holt : Egypt and the Fertile Crescent (15.6 – 1922) Cornell Univ. Press 1966 .
70 – J – Jurji : The Middle East, its Religion and Culture (N. Y. Public Library, D – 10, 1814) .

71 – G. Macaire : Histoire de l'Eglise d'Alexandrie Depuis St. Marc jusqu'à nos Jours — Le Caire 1894.

72 – A. Watson : The American Mission in Egypt (1854-1896).

73 – The Muslim World, A Historical Survey, Part III : The Last Great Muslim Empire – with contributions by H. J. Kissling, F. R. Bagley, N. Barbour, J. S. Trimingham, H. Braun, S. Spuler, and H. Hartel. Leiden - Brill 1969.

74 – A Dictionary of Christian Biography Literature, Sects, Doctrine, by W. Smith, and H. Wace, (vol. I) - John Murray, London 1877.

75 – The Encyclopœdia Britannica, XIV ed. vols. IV and XXII.

76 – Description de l'Egypte — T I and II.

Coptic Mss. in the British Museum (according to Catalogue by Crum) :

77 – Ms. 724 — a bound volume of 165 fol.

78 – « 857 — « « « « 102 fol :

79 – « 764

80 – « 840 — forty eight leaves, but with many gaps.

81 – « 841 — a bound vol.

82 – « 846 — leather binding, found at magdala.

83 – « 865 — bound, but imperfect, with many gaps.

84 – Vansleb : Histoire de l'Eglise Copte.

85 – Extrait du Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie. Orientale, T XX, Le Caire 1921, traduit de l'Arabe par Mme Devonshire : القول المستظرف فى سفر مولانا الأشرف لأبى البقاء (New York Pub. Library, O A C, p. v. 41, no. 6 — Oriental section).

Paul Evdokimou : La Connaissance de Dieu.

مخطوطات محفوظة بمختلف المكتبات القبطية :

أولا - بالمكتبة البابوية بالقاهرة

٨٦ - مخطوطة ١٠٦ طقس لأثناسيوس اسقف قوص.

٨٧ - كتاب تاريخ الكنيسة لأسقف فوه.

٨٨ - مخطوطة ٤٠٧ (رقم مسلسل ٣٤٠).

٨٩ - مخطوطة ٤٤٩ (رقم مسلسل ٧٦٧) .
٩٠ - « ٤٧ تاريخ .
٩١ - « ٣٢٣ (رقم مسلسل ٣٧٩) .
٩٢ - « ٤٤٥ (« « ٧٦٣) .
٩٣ - « ٢٩٠ (« « ٥٠٧) .
٩٤ - « ٤٣٧ (« « ٧٥٣) .
٩٥ - « ٤٧٦ (« « ٨٠٤) .
٩٦ - « ٧٥٥ (« « ٤٣٨) .
٩٧ - « ١٧١ لاهوت .
٩٨ - « ٤٨٧ (رقم مسلسل ٨١٨) .
٩٩ - « ٤٣٦ (« « ٧٥٢) .
١٠٠ - « ١٩١ (« « ٣١) .
١٠١ - « ١٨١٥ .
١٠٢ - « ٣٦١ (« « ٤٧٠) .
١٠٣ - « ٢٣٠-٢٩٠ تشتمل على ٣١ مقالة للانبا يوساب بن الأبح .
١٠٤ - « ١٥٣ - معجم لألفاظ طبية من كلمة «علاج» إلى كلمة «مرض» .
١٠٥ - « ٢٣٤ (رقم مسلسل ٢٩٥) .
١٠٦ - « ٥٠ تاريخ : كتاب سيرة أنبا باخوميوس وفى آخرها صورة تزكية القمص داود الانطونى .

ثانياً - <u>بمكتبة المتحف القبطى (بمصر العتيقة)</u>

١٠٧ - مخطوطة ١٦٣ (رقم مسلسل ١١٠٤) .
١٠٨ - « ٦٦ (٤٨ أدب) .
١٠٩ - « ١٢٨ (٢٧٥ تاريخ) .
١١٠ - « ٤٦ (٣٠ أدب) .

١١١ - مخطوطة ١١١ (٩٦ لاهوت) .
١١٢ - « ٢١٢ طقس (كتاب البسخة) .
١١٣ - « ١٥٠ (٤٠٨ طقس) .
١١٤ - « ١٠٠ (١٣٧ أدب) .
١١٥ - « ١١٠ (٩٥ لاهوت) .
١١٦ - « ١٢٨ طقس .
١١٧ - « ٩٩ (١٢٨ أدب) .
١١٨ - « ١٧١ (رقم مسلسل ١١٨٠) .
١١٩ - « ١٧٨ (« « ١٦٥٤) .
١٢٠ - « ٧٢ (٥٤ أدب) .
١٢١ - « ١٠٢ (٥٥ «) .
١٢٢ - « ٨٨ (٨٣ «) .
١٢٣ - « ٢٧ (١٠ «) .
١٢٤ - « ١٠٣ (١٥٦ «) .
١٢٥ - « ١٠٨ (١٩٣ لاهوت) .
١٢٦ - « ١٢٣ (٢٠٩ «) .
١٢٧ - « ٢٤٢ (رقم مسلسل ٤١٠) .
١٢٨ - « ١٤٨ (« « ٣٥٥) .
١٢٩ - « ١١٤ (٢٠٠ لاهوت) .
١٣٠ - « ١٨٤ تاريخ .
١٣١ - « ٤٠٨ محفوظة بالخزانة رقم ٣٠ المتحف القبطى .
١٣٢ - « ١١٨٤ « « ٣٩ « « « .
١٣٣ - « ٢٧١٢ (على ورق كتان) تتضمن رسالة أبى الاصلاح الى الشعب للاكتتاب فى المدرسة الكبرى .

ثالثاً - بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة

١٣٤ - مخطوطة ٣ فنية - ٢٤ عمومية لاهوت .

١٣٥ - قطمارس شهر بؤونة رقم ١٥ - ٧٠ .

١٣٦ - « « طوبة « ١٢ - ٥٥ .

رابعاً - بمكتبة دير الأنبا أنطونى بجبل العربة

١٣٧ - كتاب (مخطوط) رقم ٢٩١ طقس .

١٣٨ - مخطوطة طقس ٢٨٩ ، طقس ٢٤٣ .

١٣٩ - سنكسار دير القديس أنبا أنطونى رقم ٢٤٣ .



الفهرس

أودع بدار الكتب
تحت رقم ٢٨٦٧ لسنة ١٩٧٥

الناشـــر

مكتبة كنيسة مارجرجس باسبورتنج

ت ٥٩٧٤٠٩٦

للمراسلات : ص . ب : ١٧ - الابراهيمية - الاسكندرية

✦ ✦ ✦

مطبعة
الكرنك